د. محمود أمهز

# في تاريخ الشرق الأدنى القديم

www.books4all.net
منتدى سور الأزبكية

دار النهضة العربية

منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET

https://www.facebook.com/books4all.net

في

تاريخ الشرق الأدنى القديم

د. محمود أمهز

# في

# تاريخ الشرق الأدنى القديم

2010

# مقدمة

قبل أن نبدأ بدراسة المجتمعات الشرقية القديمة لا بد لنا من القاء نظرة عامة وموجزة على المراحل التي مرت بها البشرية وقادتها تدريجيا ،عبر مئات الآلاف من السنين ،إلى الاستقرار الدائم وبداية التحضر ،في الألف التاسع أو الثامن ق.م .ففي هذه المراحل الأولى، وتقدر بما يزيد عن مليون سنة ،يرتبط تاريخ الانسان بالطبيعة وتطورها من جهة ،وباستخدامه الأدوات في مختلف المجالات ،من جهة ثانية .فلا تقتصر دراسة هذا التاريخ على منطقة دون أخرى ،لأن ظهور الإنسان لم يقتصر على منطقة بعينها بل شمل مختلف أنحاء العالم القديم.

وتعرّف هذه المرحلة الطويلة من تاريخ البشرية بمصطلحات خاصة :العصر الحجري القديم Paléolithique (في علم الآثار) ،وعصر البليستوسينPléistocène ( في علم الجيولوجيا)، كما يعرّف ل. مورغن الفترة نفسها باسم «الوحشية»، في كتابه «المجتمع البدائي». تبدأ هذه المرحلة مع بداية العصر الجيولوجي الرابع، لكنها شهدت ظهور الانسان إلى جانب أنواع شتى من الحيوانات الأولى التي انقرض بعضها بسبب تكيفها مع ظروف بيئة طبيعية تبدّلت بمرور الزمن. وتحاول الدراسات العلمية الحديثة معرفة تطور الانسان الطبيعي، معتمدة على البقايا العظمية المتحجرة التي اكتشفت على فترات متالية، ابتداء من أواسط القرن التاسع عشر، وما زالت أعمال التنقيب تُلْقي مزيداً من الأضواء على هذا الموضوع.

لقد بينت الدراسات العلمية أن الإنسان القديم يختلف عن إنسان اليوم، ولذا سميت المجموعات البشرية الأولى «المخلوقات الشبيهة بالانسان»، أو «المتأنسنة» Hominidés[1]

---

1 ـ من المخلوقات الأولى الشبيهة بالانسان تلك المعروفة باسم «اوسترالوبيثك» Australopithèques، وهي من القردة العليا التي عاشت في أواخر العصر الجيولوجي الثالث وبداية الرابع. وجدت بعض عظامها المتحجرة في جنوبي أفريقيا. يعتقد أن الانسان القديم انحدر منها، أو من قردة مشابهة ومعاصرة لها، وجدت بقاياها العظمية في مراكز عديدة من القوقاز. واكتشفت آثار مماثلة في وادي «اومو» في الحبشة، يقدر عمرها بأكثر من ثلاثة ملايين سنة.

كإنسان جاوه (Pithécantropus) الذي يرجع إلى ما لا يقل عن 600000 سنة، لكنه انقرض في بداية عصر البليستوسين الأوسط. وهو شبيه بالقردة، ذو جمجمة سميكة، صغيرة جداً، لا ينسجم حجمها مع عظام الوجه الغليظة (فك كبير وحواجب كثيفة تنحسر فوقها جبهة قصيرة). يتميز بالسمات نفسها «إنسان الصين» أو «بكين» Sinanthropus المعاصر تقريباً للأول، وقد اكتشفت بقاياه العظمية المتحجرة في كهف كبير بالقرب من تشيوكيوتين (Tién - Kéou - Chéou) على بعد 42 كلم جنوبي بكين. عَرف هذا الانسان النار واستخدمها، إذ عثر في هذه المغارة على آثار مواقد من الرماد في عدة سويات[1]، تبلغ سماكة بعضها أكثر من سبعة أمتار. اكتشفت بعد ذلك آثار مخلوقات مشابهة في أفريقيا (في منطقة أوران، وفي تنزانيا وتشاد) وآسيا، وأوروبا (ألمانيا وهنغاريا...). جميع هذه البقايا العظمية الخاصة بالانسان البدائي القديم ترجع إلى ما بين 600.000 و350.000 سنة.

شهدت هذه المرحلة من تاريخ البشرية ظهور انسان جديد أقل بدائية من الأول، عاش في العصر الحجري القديم الأوسط وبداية الأعلى، ويعرف باسم «إنسان النياندرتال»، نسبة إلى وادي «نياندر» (Neander) حيث اكتشف في سنة 1856 هيكل عظمي، بالقرب من دوسلدورف Düsseldorf في ألمانيا. واكتشف بعد ذلك هيكل عظمي كامل في مغارة شابيل أوسان Chapelle- aux - saints في فرنسا، ينتمي إلى إنسان النياندرتال الذي ظهرت آثاره أيضاً في ايطاليا، واسبانيا، واليونان، وشمالي أفريقيا، وفلسطين، وروسيا...

هذه السلسلة بدأت مع انسان جاوه منذ أكثر من 600,000 سنة، لتنتهي بظهور «الانسان العاقل» Homosapien قبل 35,000 سنة، في شتى أنحاء العالم. واستناداً إلى هذه الملاحظات يرى بعض العلماء أن تحول الانسان البيولوجي قد حصل في أمكنة مختلفة انطلاقاً من عدة أنواع من القردة، فيما يرجح آخرون أن التحول من القردة إلى الإنسان قد حصل في مكان واحد من منطقة متسعة جداً تشمل جنوبي آسيا والشرق الأدنى ومنطقة ما

---

1 ـ السوية، جمع سويات، مجموعة الآثار المتراكمة في طبقة واحدة ترجع إلى فترة زمنية محددة. وقد تكونت هذه السويات الأثرية نتيجة تراكم أنقاض المدن أو القرى القديمة خلال سنوات طويلة،وشكلت بمرور الزمن، ما يسمى اصطلاحاً في علم الآثار باسم تلال أو أكوام (في مصر) الأثرية اكتشف الكثير منها في منطقة غربي آسيا وشمالي أفريقيا.

وراء القوقاز وأفريقيا.

لكن تاريخ البشرية في هذه المراحل الأولى لا يقتصر على دراسة تطور الانسان بيولوجيا، بل يرتبط بشكل مباشر بما خلفه لنا من أدوات حجرية وعظمية تعتمد عليها الدراسات العلمية الحديثة في تحديد معالم المجتمعات البدائية. ويبدأ هذا التاريخ باستنباط الانسان مثل هذه الأدوات المعبِّرة عن تطور حياته ونمط عيشه بالتالي، والمحددة، لنوعية علاقاته الاجتماعية. فالانسان لا يتأثر بالطبيعة ويتكيف معها فحسب، بل يؤثر فيها عن طريق تحويلها. وكي يتجنب أخطارها ويستفيد مما تقدمه له، كان لا بد لهذا الانسان من استخدام وسائل، هي عبارة عن أدوات أو أجهزة، تمكنه لا فقط من التكيف مع كل ظروف البيئة المحيطة به وشروطها، بل أن يكيف هذه البيئة بحيث تصبح الأشياء الخارجية ملائمة لاحتياجاته. وأول الأدوات التي استخدمها الانسان كانت يداه، وذلك عندما انتصب جسمه وتحررت «قائمتاه» الأماميتان اللتان تحولتا إلى يدين، وأصبح بوسعهما أن تتحركا باستقلال عن الجسم، وأن تصنعا أدوات جديدة. واليد، العضو الأول في الجسم، يعرّفها توما الأكويني باسم «عضو الأعضاء»، كما يشرح ذلك بقوله: «إنما الانسان عقل ويد». أن استنباط الأدوات واستخدامها أصبحا العمل النوعي لهذين العضوين، وضاعفا من مهارتهما. فاليد «ليست فقط أداة العمل، إنما هي أيضاً نتاج له». وبقدر ما تخصصت الأيدي في ممارسة العمل بعد أن تاكد السير عموديا وتكرس، تحول الانسان في مظهره وفي نمط حياته. وقد تطلب ذلك منه الملاحظة الدقيقة بل الضرورية لاكتشاف هذه الأدوات، وحفظ أشكالها وطرائق صنعها واستعمالها، وجَمْع ما تمّ لديه من خبرات في هذا المجال. وبفضل هذه الحركة الدائبة تطور عقل الانسان، ونمت حواسه، واتسع إدراكه، وازداد حجم دماغه، واصبح تدريجياً يتمتع بجهاز عصبي مرهف يتحكم بحركات اليد والجسم. فتحرر الأعضاء العليا وانتصاب الجسم وزيادة حجم الدماغ، كانت إذاً من العوامل التي هيأت الشروط الضرورية لتكامل شكل الانسان.

واستنباط الأدوات يعني بالنسبة إلى الانسان اضافة أعضاء جديدة إلى أعضاء جسمه، ولكن منفصلة عنه، أعضاء تميزه عن الحيوانات التي «تحمل معها ـ كما يقول غ. تشايلد ـ أجهزتها حيثما تذهب باعتبارها جزءاً من جسمها...»[1]، ولا تؤهلها للعيش إلا في بيئات معينة

---

1 ـ ماذا حدث في التاريخ، ص 12.

وفي ظروف خاصة، وقد تزول بزوالها، أو تتعرض للخطر إذا ما انتقلت إلى بيئة جديدة. وهذه الأدوات التي بلغت، بدءاً من العصر الحجري القديم الأعلى، درجة عالية من المهارة، لم تكن فقط نتيجة تجارب وتراكم خبرات وملاحظات دقيقة، بل حتمتها ظروف هذا الانسان وتطور «المجتمعات» الأولى مهما كانت من البدائية. وعلى خلاف الحيوان الذي تتحكم به الغريزة، وتحدد مجال نشاطاته، فإن الانسان «لا يرث حين ولادته جهازاً طبيعياً من الاتصالات العصبية المنقوشة في الجرمبلازما العرقي تؤهله سلفاً للقيام بالحركات الجسمية المناسبة بصورة آلية غريزية، غير أنه يولد وارثاً «لتقليد اجتماعي». والأدوات التي نستعملها إنما هي تعبير محسوس عن هذا التقليد الاجتماعي. فالآلة هي نتاج اجتماعي، والانسان هو حيوان اجتماعي»[1].

المصادر الرئيسة المتوافرة لدينا، والمعَوَّل عليها في دراسة إنسان العصر الحجري، تكاد تقتصر على الأدوات الحجرية والعظمية، تلك الأدوات التي يُصنّفها علم الآثار حسب وظائفها ونماذجها بحيث أن تعدد أنماطها وطرائق صنعها يساعدنا في التعرف إلى تقاليد اجتماعية قد تحدد، هي بدورها، وجهات استعمال هذه الأجهزة وكيفية الافادة منها. وهي تعكس أيضاً، إذا ما نظرنا إلى تنوع أشكالها وتباينها، مدى التطور المادي الذي حققه إنسان ذلك العصر، وتشير إلى وجود افكار ومعتقدات خاصة كان لا بد منها لترابط أعضاء هذه الجماعات وتدبير أمورهم المعيشية. إن التباين في أشكال هذه الأدوات، وفي طرائق الدفن وبناء القبور، يشرح كذلك الاختلافات الاقليمية وعوامل تأثيرها والظروف التي عاشها الانسان في مختلف مراحل تطوره.

الأدوات الأولى التي استخدمها الانسان، في العصر الحجري القديم الأسفل (أي إنسان جاوه والصين)، كانت بدائية الشكل، تشبه الحجارة الطبيعية، بل يشك البعض في أن تكون من صنع إنساني. وحتى الأدوات الأولى التي صنعها الانسان جاءت بدائية أيضاً، ويحتمل أنها استخدمت جميعها دون تمييز في مختلف المجالات، كصيد الحيوانات واقتلاع الجذور النباتية. ونظراً لقلةالآثار التي تركها لنا إنسان جاوه والصين وعدم وضوحها، فإننا نجهل مدى اهتماماته الفكرية وما إذا كانت لديه معتقدات خاصة بالحياة الماورائية. إلا أن مثل هذه المعتقدات، وإن بقيت غامضة بالنسبة إلى انسان العصر الحجري القديم الأسفل

---

1 ـ المرجع نفسه ص 4.

(بداية البليستوسين)، فإنها تبدو أكثر وضوحاً في الفترات التالية مع إنسان العصر الحجري القديم الأوسط والأعلى، متجلية في انشغاله بدفن موتاه وفي تجهيز المدافن بأدوات ومواد غذائية.

ومع إنسان النياندرتال تقدمت صناعة الأدوات كرؤوس السهام والمقاشط، والفؤوس وتطورت أشكالها، وتحددت وظائفها واتضحت معها معالم هذه الجماعات البشرية. ويلاحظ بعد ذلك تطور أكيد ومتدرج في صناعة هذه الأدوات الحجرية عندما اكتسبت بمرور الزمن أشكالاً دقيقة وواضحة، جميلة أحياناً، تعبر عن خبرة ومهارة، كما تنم عن حس أو شعور بالجمال. وتجدر الإشارة إلى أن هذه الأدوات قد أخذت، في حالات كثيرة، أشكالاً متشابهة تماماً في العديد من مناطق أوروبا وأسيا وأفريقيا. وهذه الظاهرة إن دلت على شيء فإنما تدل على وجود اتصال أكيد بين هذه الشعوب، أو أنها، نظراً لتحولات المناخ المتواترة، كانت تنتقل من منطقة إلى أخرى ناقلة معها تقاليدها وما تكون لديها من مبتكرات.

عاش إنسان ذلك العصر في ظروف طبيعية صعبة للغاية، تهدد وجوده حيوانات ضارية، وتحولات مناخية غير ملائمة. لكنه استطاع مع ذلك مقاومة الطبيعة والاستمرار في البقاء بفضل عاملين أساسيين: مقدرته على استنباط الأدوات، ثم العيش في مجموعات اختلف حجمها باختلاف العصور. ويؤكد هذا الطابع الجماعي اعتماد الانسان في حياته المعيشية على صيد الحيوانات الكبرى، الماموت والكركدن والخيول البرية المتوحشة...، وهي حيوانات لا يمكن السيطرة عليها إلا بواسطة مجموعة من الأفراد، يتطلب تعاونها بعض التنظيم الجماعي. وحتى اكتشاف الأدوات المشار إليها لا يمكن أن يتم ويبلغ ما بلغه من تطور ما لم تتحد هذه المجموعات وتعمل على حفظ وسائل انتاجها وتحسينها عن طريق تراكم الخبرات وتوارثها. وبقدر ما كانت تتدعم هذه الخصائص الجماعية عند الانسان وتتقدم وسائل انتاجه كانت تنحسر عنده الغرائز الحيوانية وتضعف، لتترك المجال لولادة الفكر وتطوره. فالانتقال من استعمال الحجارة الطبيعية إلى صناعة الأدوات، مهما كانت بدائية الشكل، قد ضاعف من نمط تفكيره ووعيه وحدد ميوله الاجتماعية.

ولم تشهد مرحلة الانتقال إلى العصر الحجري القديم الأعلى تطوراً في تكوين الانسان البيولوجي فحسب، بل شهدت أيضاً تطوراً كبيراً في صناعة الأدوات وفي التنظيم الجماعي، وكذلك في خصائص الانتاج الذي يعبر عنه تزايد عدد السكان. ومع ظهور الانسان العاقل،

تطورت التقنيات وتطور اقتصاد المجموعات البشرية، وإن كانت لا تزال تعتمد على الصيد وجمع المأكل. فإلى الأدوات القديمة، استخدمت أدوات جديدة صنعت من الحجر والخشب والعظم والعاج، كما عرف الانسان أول أداة مركبة هي القوس، وتعرّف إلى أساليب أخرى في صنع هذه الأدوات، أساليب تقوم على الصقل، أي التقنية التي اعتمدت على نطاق واسع في العصور التالية. ويلاحظ تمسك الانسان، في هذه المرحلة، بمفاهيم دينية وماورائية تعكسها اهتماماته المتزايدة بدفن الموتى، وطلاء العظام أحياناً بمادة حمراء، ما تكسبها اللون الممثل للحياة. وهو تقليد اتبع بعد ذلك فترة طويلة في غربي آسيا وشمالي أفريقيا. أما على الصعيد الاقتصادي، فكانت هذه الجماعات تعتمد على الاكتفاء الذاتي، فتنتج، أو تجمع ما يكفيها لسد حاجاتها. إلا أن بعض الدلائل تشير إلى وجود نوع من التبادل بين هذه الجماعات، تبادل اقتصر على سلع محدودة كأدوات الزينة.

لكن هذا الازدهار الذي عرفته بعض المناطق، في العصر الحجري القديم الأعلى، في الفترة المعروفة باسم «المجدالينيان» Magdalénien، توقف نسبياً في المرحلة التالية أو ما يعرف في علم الآثار باسم العصر الحجري الوسيط Mésolithique، وذلك وأدى إلى ذوبان الجموديات، وانتشار الغابات وسيطرتها على التوندرا والسهوب[1]، وهجرة بعض الحيوانات كالماموت والوعول... أو انقراضها. وجماعات هذا العصر صغيرة وفقيرة، لم تسكن الكهوف كما فعل انسان المرحلة السابقة، بل انتشرت في أماكن عديدة في الغابات وعلى سواحل البحار وضفاف الأنهر، حيث كانت تعيش بشكل أساسي على الصيد والقنص. ولكن على الرغم من تطور الصناعات الحجرية (الفؤوس والمطارق والأزاميل ورؤوس السهام...) شهد العالم القديم في أواخر هذه المرحلة تحولاً كبيراً في تاريخ البشرية تجلى في انتقال النشاط الانساني وتمركزه في منطقة الشرق الأدنى (غربي آسيا وشمالي أفريقيا) في بداية العصر الحجري الحديث Néolithique مع انتقال الانسان من حياة الصيد إلى حياة الاستقرار في قرى صغيرة كانت النواة الممهدة لظهور المدن في بداية العصور التاريخية.

---

1 ـ السهول الجرداء التي تتكون فيها أنواع من النباتات والشجيرات.

# الفصل الأول

## عصر ما قبل التاريخ

# مدخل إلى تاريخ الشرق الأدنى القديم

## غرب آسيا

### الاطر الجغرافية

تشير الدراسات الأثرية الحديثة إلى أن أقدم المراكز الحضارية تقع في منطقة غربي آسيا الممتدة من البحر الأبيض المتوسط غرباً إلى البقاع الإيرانية شرقاً، ومن البحر الأسود وهضبة الأناضول وحوض بحر قزوين شمالاً إلى الصحراء العربية والخليج العربي جنوباً. لقد شهدت هذه البقاع (وتضم حالياً إيران والعراق وسوريا ولبنان وفلسطين وآسيا الصغرى)، أولى محاولات التحضر والانتقال من حياة البداوة والتنقل إلى حياة الاستقرار وبناء المستوطنات الصغيرة التي تحولت بمرور الزمن إلى قرى كبيرة ثم إلى مدن، كما في جنوبي الرافدين وبعض المناطق الأخرى. ومنذ بداية العصور التاريخية وفدت إلى هذه الأقاليم، وبخاصة وادي الرافدين، شعوب عديدة اختلفت في أصولها وتقاليدها ولغاتها، بيد أنها أسهمت جميعها في تطور الحضارات الشرقية القديمة. فاستوطن السومريون جنوبي العراق الحالي منذ بداية الألف الثالث ق.م، وأسهموا في تكوين حضارة شمل تأثيرها بلاد ما بين النهرين وبلاد أخرى مجاورة في إيران وسوريا الشمالية، والعيلاميون في المنطقة المجاورة من جنوبي إيران، والحوريون في شمالي بلاد ما بين النهرين وأعالي سوريا، ثم الحثيون في بلاد الأناضول حيث أسسوا في أواسط الألف الثاني ق.م دولة مهمة استطاعت أن تقف في وجه التوسع المصري في آسيا.

إلى هذه الشعوب المنتمية في معظمها إلى الهندو أوروبيين، ظهرت منذ أواخر الألف الرابع، شعوب أخرى، سامية الأصل، انتشرت في مختلف أنحاء غربي آسيا، ومنهم: الأكاديون والبابليون والآشوريون في أواسط بلاد ما بين النهرين وشمالها، والكنعانيون على شاطيء البحر الأبيض المتوسط الشرقي، والآراميون في نهاية الألف الثاني وبداية الألف الأول قبل الميلاد في سوريا.

ازدهرت الحياة في بلاد ما بين النهرين بفضل جهود الانسان المتواصلة في شق الأقنية وتوزيع مياه الري وتجفيف المستنقعات واستثمار الأراضي الخصبة الواقعة على ضفاف دجلة والفرات (قديماً إدجلات ـ فراتم) اللذين ينبعان من جبال أرمينيا ويلتقيان، بعد اجتيازهما حوالي الفي كلم، قرب قرنة على شط العرب حيث يشكلان حالياً نهرا واحداً يصب في الخليج العربي. لكن دلتا دجلة والفرات تختلف في تكوينها عن دلتا النيل لأن النهرين كانا يصبان في الخليج، الأول في الشرق والثاني في الجهة المقابلة في الغرب، وكانت رواسبهما قد شكلت بمرور الزمن حاجزاً تجمعت خلفه رواسب دجلة والفرات، فارتفع مستوى الأرض تدريجياً وتحولت البحيرات القديمة إلى مستنقعات وازدادت مساحة اليابسة ابتداء من هذا الحاجز.

يتلقى دجلة والفرات أثناء جريانهما مياه سواعد عديدة أهمها: الزاب الكبير (قرب نمرود ـ كالح) والزاب الصغير (جنوبي أشور) والديالى (قرب بغداد)، ثم القارون في الجنوب، تصب جميعها في نهر دجلة. أما السواعد التي تصب في نهر الفرات فأهمها: الخابور وينبع قرب راس العين ويصب في النهر جنوبي دير الزور (شمالي ماري)، ثم البَلخ ويصب في الفرات قرب الرقة. يزداد حجم المياه في مجرى النهرين عند ذوبان الثلوج (من نيسان إلى حزيران) فتندفع بين الصخور وعبر السهول، وتسبب أحياناً فياضانات كان لها أثر بارز في حياة الشعوب القديمة وأصبحت من المواضيع التي تناولتها أقدم الأساطير الرافدية.

أما المناخ في بلاد ما بين النهرين فهو حار جداً بخاصة في الجنوب حيث تبلغ درجة الحرارة الخمسين مئوية في النهار وتنخفض إلى 27 درجة في الليل. وهو جاف أيضاً إذ لا تمطر إلا في أيام معدودة خلال السنة. لذلك كان لا بد من حفر الأقنية وري الأراضي البعيدة عن مجرى الأنهر، حيث تزرع الحبوب، كالقمح والشعير والسمسم، والخضار والأشجار والكرمة والنخيل... لكن درجة الحرارة تنخفض كلما اتجهنا نحو الشمال، لتصبح أخف وطأة في الوسط قرب ماري حيث تتساقط المياه بكميات أوفر. أما في الشمال فالحرارة معتدلة، كما تكثر الأمطار والثلوج على الجبال المجاورة في فصل الشتاء. وتتوافر في هذه المنطقة الشمالية المواد الطبيعية التي تستعمل في النحت والبناء، كالاخشاب والحجارة، في حين تفتقر إليها منطقة الدلتا، حيث اضطر سكان البلاد إلى استعمال التربة الصلصالية في صناعة اللبن والطابوق اللذين أخذا محل الحجر في البناء.

يقابل هذا التقسيم الجغرافي أوضاع سياسية متباينة. فعرف الجنوب باسم بلاد سومر

حيث نشأت وازدهرت في الألف الثالث ق.م، أقدم حضارات بلاد ما بين النهرين. أما مدنها الرئيسة فهي: اريدو، اور اوروك، لرسا، لجش، أوما، أدب، شوروباك، ونيبور في أقصى شمال بلاد سومر. وعرفت منطقة الوسط باسم أكد، وهي المنطقة نفسها التي عُرفت بعد ذلك، منذ بداية الألف الثاني ق.م، باسم بلاد بابل التي شمل نفوذها أيضاً اقليم الجنوب، بعد أن فقدت سومر دورها السياسي في أواخر الألف الثالث ق.م. وأشهر مدنها: أكد، بابل، كيش، بورسيبا، سيبار.

أما في الشمال فنشأت الدولة الآشورية التي يرجع تاريخها إلى الألف الثالث، لكنها لم تقم بدور سياسي بارز إلا في أواخر الألف الثاني والنصف الأول من الألف الأول ق.م، وكانت مدنها الرئيسة: أشور، ونينوى، وكالح، ودروشاروكين (خورسباد)....

تتصل بلاد ما بين النهرين بمناطق جبلية، كالهضبة الايرانية في الشرق وبقاع آسيا الصغرى في الشمال، انطلقت منها على فترات متتالية، شعوب كثيرة انتشرت في أنحاء عديدة من سوريا ووادي الرافدين. تتخلل هذه المناطق الجبلية ممرات طبيعية كثغور جبال زغرس، قرب كرمنشاه وهمدان، التي تصل بين العراق الحالي والهضبة الايرانية. وقد عثر في هذه المنطقة الشمالية على آثار العصر الحجري الحديث في عدد من المراكز المهمة مثل تبه جيان قرب نهوند، وتبه سيالك قرب كشان. أما في الجنوب فنجد مدنا كبرى مثل بازاركاد وبرسيبوليس على الطريق المؤدية إلى الخليج العربي. وعرفت المنطقة الجنوبية الغربية من إيران باسم بلاد عيلام (عاصمتها شوش) التي يرجع تاريخها إلى بداية الألف الثالث، وكانت منذ ذلك الوقت على صلة ببلاد سومر المجاورة لها.

أما هضبة الأناضول فتشبه من حيث التركيب الجيولوجي البقاع الايرانية، وهي تتصل، من جهة بالبحر الأبيض المتوسط وتفصلها من جهة أخرى، جبال طوروس عن البلاد السورية. وكانت هذه المنطقة مصدراً لهجرات شعوب متعددة ومركزاً حضارياً مهماً، سواء في العصور الحجرية (هاكيلار وتشاتال هيوك) أو في العصور التاريخية، عندما تمكن الحثيون من تأسيس دولة كبيرة في أواسط الأناضول (عاصمتها حاتوسا قرب أنقرة) شمل نفوذها السياسي (في الألف الثاني ق.م) أعالي سوريا. وكانت البلاد التي تقع جنوبي هذه السلسلة الجبلية تعرف باسم سوبرتو حيث ظهرت بعد ذلك (في الألف الثاني ق.م) مملكة ميتاني التي ينتسب سكانها إلى الحوريين الذين كانوا قد انتشروا في مناطق عديدة من غربي آسيا. أما في

الغرب فكانت سوريا (بلاد أمورو قديما) تشكل امتداداً طبيعياً لوادي دجلة والفرات، وملتقى لمختلف التيارات الحضارية. كما ظهرت فيها مدن كبرى لا تقل أهمية وشأنا عن مدن وادي الرافدين، مثل ماري (تل الحريري)، وابلا (تل مرديخ)، وأوغريت (راس شمرا)، وحلب، ودمشق... وقد عرفت البلاد الكنعانية الواقعة على الشاطىء الشرقي للبحر الأبيض المتوسط أوضاعاً سياسية متشابهة حيث كانت مدنها تشكل صلة الوصل بين مختلف البلاد التي تحيط بها. وقد نشأت في هذه المنطقة عدة مدن مهمة يرجع تاريخ البعض منها إلى العصر الحجري الحديث مثل أريحا (التي تعتبر من اقدم مدن غربي آسيا) في فلسطين، وجبيل وأوغاريت على الشاطىء الكنعاني.

## الموارد الطبيعية

منذ القدم اشتهرت بلاد الرافدين بخصوبة أرضها، وكان أهم ما تنتجه الحبوب، كالشعير والقمح والسمسم الذي يستخرج منه الزيت. إلا أن هذه المنطقة التي اشار إلى أهمية مواردها من الحبوب المؤرخون القدماء (هيرودتس وسترابون...) كانت وما زالت تفتقر إلى الأشجار المثمرة، بل الأشجار بشكل عام، بخاصة تلك الصالحة أخشابها للبناء. ولعل أهم الأشجار في بلاد ما بين النهرين هي النخيل وقد اهتم به سكان البلاد لثماره وخشبه وسعفه. وهناك أيضاً شجر الأثل أو النضار (Tamaris) الذي يستفاد من أخشابه أيضاً.

إلا أن الخشب ليس وحده ما تفتقر إليه البلاد. فالمعادن غير متوافرة، وحتى الحجارة نادرة ـ في الجنوب ـ وأن ما تقدمه الطبيعة يكاد يقتصر على القار والصلصال. وبفضل توافر هذه المادة الأخيرة تمكن انسان الرافدين أن يعوض عما يفتقر إليه باستخدامها ليس في البناء وحسب بل في صنع التماثيل والرقم ( = اللوحات) التي تسجل عليها الأحداث والأفكار، وفي صنع الأواني الخزفية وحتى الأدوات ذات الأطراف الحادة كالساككين والمناجل التي كانت في مختلف البلاد الأخرى تنحت من الحجارة. وكان من الطبيعي أن تتحول أبنية المدن، على الرغم مما نالته من شهرة عظيمة في القديم، إلى أكوام من الانقاض، وأن تجعل مهمة الأثري دقيقة وشاقة إذا ما حاول تحديد معالمها البنائية والفنية ودراسة مراحلها التاريخية. فكان الطابوق، المصنوع من الطين الممزوج بالقش والمجفف تحت أشعة الشمس من عوامل تهدمها وزوالها أحياناً. وافتقار البلاد إلى هذه المواد الأولية دفع السكان منذ بدء التاريخ إلى التجارة واقامة

علاقات وطيدة مع البلاد المجاورة لتأمين ما يحتاجون إليه من هذه المواد الضرورية سواء في البناء أو في الفنون والحرف. فاستوردت الأخشاب من جبال لبنان والأمانوس كما استوردت الحجارة من مناطق مختلفة: شمالي العراق، والجزيرة العربية، والهضبة الايرانية. فاستخدمت الحجارة على نطاق ضيق في البناء (بخاصة في أسس بعض القصور والمعابد)، ومنها صنعت ـ منذ نهاية العصور الحجرية ـ الأواني ذات الأغراض التزينية والطقوسية والمقامع والأسلحة، والأدوات. واستخدمت الحجارة بشكل خاص في نحت التماثيل والصور الناتئة (Basrelief) وفي الحرف المتمثلة بصناعة الأختام الأسطوانية (Sceau – Cylindre) والحلى والتماثيل الصغيرة الحجم.

هذه الحجارة كانت على أنواع مختلفة، منها الصخور الشائعة المتوافرة في مناطق قريبة، ويسهل الحصول عليها، كالحصى (xa – u – na) والحجر الكلسي (Pilu – pisu)، والحجارة الأكثر قساوة، كالرخام (Albatre) والمرمر (parutu)، وهنالك أنواع أخرى أثمن وأجمل نظراً لصلابتها وألوانها، كالبازلت أو النسفة (Na – Lu – a)، الذي استورد من أواسط وأعالي الفرات، والدولريت (Dolorite)، والديوريت (Diorite)، ذو اللون الأخضر الغامق. وقد استوردت هذه الحجارة من بلاد ماجان (الجزيرة العربية)، وربما من هضبة الأناضول، واستعملت في نحت التماثيل، كتماثيل غوديا، أمير مدينة لجش. ومن الحجارة الصلبة نذكر أيضاً الستياتيت (Steatite) (وعاء غوديا وراس حمورابي)، والايماتيت (Hematite).

شمل استيراد هذه المواد الأولية الحجارة الكريمة ونصف الكريمة التي استعملت بشكل خاص في الحلى والترصيع، ومنها اللازورد (Lapis – Lazuli) الذي عثر على كميات منه في القبور الملكية الغنية، واستورد من بلاد ماد الفارسية، والمناطق الواقعة شمالي فارس بالقرب من حوض نهر امودار يا. وترجع إلى مصادر مختلفة الحجارة الثمينة الأخرى: اليشب أو اليصب (Ashpu jaspe) والعقيق اليمان (onyxe) ذو العروق الجميلة واللون الأخضر الشفاف، والعنبر، وحجر الحية الأرقش (Serpentine) والجمشة (Amethyste) وأنواع أخرى من حجر اليمان (Chalcedoine/ Agate). واستخدمت هذه الحجارة ليس فقط في الحلى والمجوهرات وأعمال الترصيع، بل في صنع الأختام المحفورة الجميلة. إلا أننا نجهل كيف توصل الانسان القديم إلى نحت هذه الحجارة، لا سيما وأن البعض منها ـ كالبازلت والديوريت ـ أكثر صلابة من المعادن المعروفة آنذاك. ولكن يحتمل أنها نحتت بواسطة أدوات

صنعت من حجارة أشد صلابة من الأولى كالصوان والكوارتز. ويبدو أن حجر الديوريت كان يصقل بواسط الرمل الرطب.

أما المعادن فهي كالصخور نادرة جداً، بل مفقودة في بلاد ما بين النهرين. ولكن بالرغم من صعوبة الحصول عليها، استوردت بكميات كبيرة أحياناً من البلاد المجاورة. واقدم المعادن التي عرفها الانسان هي النحاس (أورود ـ في السومرية، وسيبارو ـ في الأكدية) الذي يبدو أنه ظهر للمرة الأولى في الهضبة الإيرانية، أو هضبة الأناضول، حيث استعمل أولاً في عهود مبكرة جداً ـ حوالي الألف السادس ق.م ـ في حالته الطبيعية قبل أن يتعرف الانسان بعد ذلك، في عصر الحجر والنحاس (الألف الخامس ق.م)، إلى عملية التذويب والصب وإلى مزج النحاس (ابتداء من الألف الثالث ق.م) بمعادن أخرى، وحصل على ما يمكن تسميته بالسبيكة. وكان على بلاد الرافدين أن تستورد النحاس من مناطق مختلفة، آسيا الصغرى، أرمينيا، وإيران، وعمان، وقبرص.

وبعد تجارب عديدة تمكن الانسان في المرحلة التالية (ابتداء من الألف الثالث ق.م) من اكتشاف معدن جديد، البرونز. وهو عبارة عن مزيج من النحاس والقصدير. والمعدن الجديد أفضل من النحاس الصافي لصلابته وسهولة تصنيعه. أما الحديد فيعتقد أنه عرف منذ الألف الثاني ق.م، لكنه لم يصنع ويعم استعماله في الشرق الأدنى القديم إلا بمجيء شعوب البحر (حوالي 1200 ق.م) التي كانت قد تعرفت على هذا المعدن، والتي سهلت لها الأسلحة المصنوعة منه الانتصار في معاركها الحربية. أما المعادن الثمينة كالذهب والفضة، فتم اكتشافها منذ أواخر الألف الرابع. لكنها بقيت نادرة واقتصر استعمالها على صناعة المجوهرات والحلى وبعض الأدوات والأسلحة الطقوسية والتزينية.

## السكان ولغاتهم

### 1 ـ السومريون

أشرنا سابقاً إلى أن بلاد ما بين النهرين تقسم سياسياً وتاريخياً إلى ثلاثة أقسم رئيسة: سومر في الجنوب وأكد وبابل في الوسط، وأشور في الشمال. وكان السومريون من الشعوب الأولى التي استوطنت الجنوب وينسب إليهم تأسيس أول حضارة عرفتها هذه المنطقة. وقد أثار هذا الموضوع نقاشا طويلاً ولا يزال حتى الآن من المسائل المعقدة، إذ نجهل البلاد الأصلية التي

ينتمي إليها السومريون قبل مجيئهم إلى جنوب بلاد ما بين النهرين، ولا يزال من الصعب تحديد تاريخ قدومهم إلى هذه المنطقة، وتتعدد الآراء والنظريات بشأنهم. فهم يُنسبون إلى أصول مختلفة: أرمينيا، جبال زغروس، الهند، لأن المصادر الأثرية قد تشرح بعض معالم الحضارة التي عرفت باسم «السومرية»، لكنها لا تكفي لاعطاء فكرة واضحة عن أصول هذا الشعب، ولم تتوصل من جهة أخرى أبحاث علم الاناسة إلى تحديد أصل السومريين، كما لم يتوصل اللغويون، رغم الجهود المتواصلة، إلى ربط اللغة السومرية بالدرافيدية (في جنوبي الهند)، مع أن ثمة قواسم مشتركة نجدها في الحضارتين الهندية القديمة والسومرية، كتقسيم المفردات إلى نوعين: أسماء الأشخاص وأسماء الأشياء. وفق طريقة اتبعت في سومر والهند. لذلك يعتقد البعض أن السومريين أتوا من الشرق واستوطنوا مناطق في إيران الجنوبية قبل أن يستقروا نهائياً في دلتا دجلة والفرات. ويتبين من دراسة أسماء الملوك الأوائل والأسماء الجغرافية القديمة أنه كانت هناك جماعة من الساميين وأخرى غير سامية خضع أفرادهما لنفوذ السومريين.

يعتقد البعض أن التحول المفاجىء في بداية عهد أوروك يرتبط بمجيء شعوب جديدة تجيد صناعة المعادن، وتحمل بعض المعالم الحضارية الخاصة. فينسب إليهم اكتشاف عجلة الخزاف ونوع من الخزف ذي لون واحد حلَّ محل أواني العبيد الفخارية الملونة. واستناداً إلى هذه المظاهر الجديدة تبين أن هؤلاء الغزاة الجدد انتشروا في رقعة جغرافية واسعة شملت أعالي دجلة والفرات، وكذلك الهضبة الايرانية حيث انتشر الخزف الجديد رغم استعمال النحاس. وقد تبين أن هذا الخزف ظهر في مناطق أخرى مثل شوش وسيلك وحيسار وأناو وفي عشرات من مواقع في الهضبة الايرانية تعتبر جميعها متأخرة تاريخيا عن أوروك. ويبدو أن شوش القريبة من منطقة الخليج أخذت هذه المعالم الحضارية عن جنوبي بلاد ما بين النهرين وقبل أن تنتقل إلى سيلك ومن ثم إلى مناطق إيرانية أخرى، إلى حيسار وأناو في أقصى الشمال. وهكذا يبدو أن انتشار هذه المعالم الحضارية كان من الغرب إلى الشرق.

يرى بعض الآثاريين أنه لم تكن هناك هجرات جديدة وأن تطور الخزف في بداية عهد أوروك يعود لأسباب مادية، كاستعمال عجلة الخزاف وظهور الأواني البرونزية، التي حاول الخزافون تقليدها. فالتحولات الاجتماعية في العصور القديمة لم ترتبط دوماً بهجرات شعوب أتت من بلاد مجاورة، بل كانت في أحيان كثيرة نتيجة مباشرة لتضخم المشاكل الداخلية وتطور المجتمعات الزراعية. فإن تصاعد عدد السكان محلياً أو عن طريق الهجرات الخارجية، وتعدد

فئات المجتمع، وتطور الصناعات الحرفية والخزفية، نتيجة لاستعمال دولاب الخزاف الذي سمح بانتاج كميات كبيرة من الأواني الفخارية، كل ذلك أعطى الدلائل الكافية لشرح أسباب التحول في بداية عهد أوروك، من دون أن نلجأ إلى تفسير ذلك بعوامل هجرات شعوب جديدة.

لكننا لا ننفي وجود مثل هذه الهجرات على فترات متتالية طيلة التاريخ القديم والدور الذي تقوم به أحياناً في التحولات السياسية والاقتصادية، إلا أنها لم تكن دائماً السبب المباشر لهذا التطور الاجتماعي. فإن الكتابة الأولى ذات الأشكال التصويرية البدائية التي يحتمل أن تكون سومرية قد نشأت في بلاد ما بين النهرين نفسها، ربما بعد مجيء السومريين إليها بسنوات عديدة. وقد نشأت الكتابة عندما وجدت الحاجة إليها.

هنا، لا بد من الاعتراف بأن السومريين (الذين أعطوا اسمهم للمنطقة الواقعة في الجنوب العراقي) وُجدوا فعلاً وأسهموا في تطور حضارة بلاد ما بين النهرين الجنوبية. ويتبين من المصادر الأثرية أنهم امتزجوا بسكان البلاد الأصليين من ساميين وعيلاميين وسوبرتيين، كما تُؤكد نصوص أور الأولى وجود جماعات تتكلم السامية. لذلك لا يمكننا أن ننسب حضارة الجنوب إلى السومريين وحدهم، فحضارة العبيد السابقة بلغت درجة مهمة من التطور وعرفت انتشاراً كبيراً في مختلف مناطق الشرق الأدنى. ويتبين من دراسة اللغة السومرية نفسها أن عدداً من مفرداتها غير سومرية، لا سيما الكلمات التي تعبر عن البيرة والخزف وصناعة الجلد والبناء، كذلك الكلمات التي تعني البرونز و النحاس، والكلمات التي تدل على أسماء الأشجار كالأرز والسرو... هي غير سومرية أو سامية. ولكن تنسب إلى السومريين المفردات الخاصة بالملاحة والنحت والأختام والصياغة والكتابة والنجارة... والتربية والقانون، في حين تنسب إلى الساميين التعابير الخاصة ببعض الطبقات الاجتماعية والمجموعات العسكرية. ويتبين من هذه الدراسة أن جميع فئات المجتمع قد شاركت في تطور الحضارة في جنوبي بلاد ما بين النهرين، وأنه كان للسومريين الدور السياسي الأول في هذه المرحلة التاريخية المبكرة، سيما وأنهم كانوا يشكلون الطبقة الحاكمة، وأسهموا في تطور العمارة والفنون والكتابة والمعتقدات الدينية.

أما تاريخ مجيء السومريين إلى بلاد ما بين النهرين فلا يزال غامضاً. وقد ظن البعض أن الانقطاع المفاجيء ما بين عهدي جمدة نصر و«ميسلم» كان نتيجة لهجرات شعوب جديدة عرفت فيما بعد بالسومريين. لكن المصادر الأثرية تشير إلى وجود بعض المظاهر السومرية قبل

ذلك التاريخ، منها اللوحات الكتابية التصويرية الأولى التي وجدت في السوية الرابعة في أوروك ويحتمل أن تكون سومرية، لذلك يرجح أن السومريين وصلوا إلى بلاد ما بين النهرين قبل ظهور الكتابة، ربما في الفترة التي تمتد من نهاية عهد العبيد حتى نهاية أوروك، أي في أواسط الألف الرابع ق.م. وكان للسومريين نفوذ على الجنوب كله، وشمل تأثيرهم الحضاري مناطق بعيدة باتجاه الشمال الغربي، مثل شوروباك (فارة)، ونيبور، وكيش (في الوسط، شمالي بابل) التي تعادل فيها التأثير السومري والسامي، وجمدة نصر. وانتشرت بعض مظاهر الحضارة السومرية باتجاه آخر فشملت بلاد آشور في أعالي دجلة، وماري على الفرات.

أما اللغة السومرية فلا تزال أصولها غامضة ويصعب ربطها بأي من العائلات اللغوية المعروفة. فهي من أقدم اللغات المدونة إن لم تكن أقدمها، إذ أنها تعود إلى أواخر الألف الرابع ق. م. كانت نهاية السومرية، كلغة محكية، مع سقوط أسرة أور الثالثة، في نهاية الألف الثالث ق.م، لكنها بقيت متداولة كلغة علمية ودينية لفترة طويلة بعد زوال الحكم السومري. وقد فسرت هذه اللغة بفضل الجهود المتواصلة خلال عشرات السنين، وأصبحت واضحة، باستثناء بعض الأناشيد الدينية التي ما زالت تفاصيلها غامضة. كان الأستاذ فلكنشتين قد توصل، باعتماده على دراسات تيرودنجان وبوبيل السابقة، إلى وضع كتاب قواعد شرح فيه جوهر اللغة السومرية. وقد ساعد على تفسير اللغة السومرية وجود لوائح مفردات سومرية مترجمة إلى البابلية، ونصوص كتبت بلغتين احداها السومرية.

اللغة السومرية إلْصاقية (Agglutinante)، تشبه في تركيبها اللغة التركية وكذلك اللغات العيلامية والحورية القديمة، إذ تعتمد في تحويل الكلمات ذات المقطع الواحد على اللواحق (Suffixe)التي لا وجود لها مستقلة عن الكلمة. هكذا فإن الكلمات تشكل في الجملة الواحدة سلسلة مترابطة تتبع نظاماً خاصاً. ومن خصائص هذه اللغة هو أن الكلمة الواحدة قد تفسر بأشكال مختلفة. لذلك تضاف إليها اشارات خاصة تحدد المعنى.

## 2 ـ الساميون

إن وجود الساميين في هذه المنطقة لا يقل قِدَما عن تاريخ مجيء السومريين إليها، وربما كان لهم منذ البداية دور اجتماعي لا يقل أهمية عن الدور الذي قام به السومريون أنفسهم. وقد بينا آنفاً تواجد أسماء أعلام ومفردات سامية الأصل في اللغة السومرية نفسها، وفي اللوحات

السومرية الأولى التي ترجع إلى بداية الألف الثالث ق.م، إلا أن هذه الشعوب السامية تركزت بشكل خاص (بالنسبة إلى بلاد ما بين النهرين)، مع بداية الألف الثالث ق.م، في أواسط وأعالي وادي دجلة والفرات. والساميون ينقسمون إلى فروع عدة ظهرت على المسرح السياسي في فترات تاريخية متتالية وفي مناطق جغرافية مختلفة. وكان لهجرات الشعوب السامية عوامل وأسباب اقتصادية مصيرية دفعتهم إلى ترك بلادهم الأصلية ـ الجزيرة العربية ـ ذات الطابع الصحراوي، التي لا يكفي انتاجها من الغلال إلا لأعداد محدودة من السكان. فكان لا بد للفائض السكاني من الانطلاق خارج حدود الجزيرة بحثاً عن سبل جديدة للعيش. وبانتشارهم خارج حدود بلادهم تفرعت عن لغتهم الأصلية عدة لهجات، سرعان ما أدت إلى نشوء لغات جديدة، لكنها متشابهة في اصولها وقواعدها.

تعرف الشعوب السامية بهذه التسمية نسبة إلى سام بن نوح. إلا أن هذا الاصطلاح الذي انبثق عن الدراسات الخاصة بالتوراة في أواخر القرن الثامن عشر، أخذ مدلولا جديداً في الأبحاث العلمية الحديثة وهو يطلق الآن على مجموعة من اللغات القديمة والمعاصرة، ذات الأصول المشتركة التي تميزها عن مجموعة اللغات الأخرى، كمجموعة اللغات الهندو أوروبية. وتتمثل هذه المجموعة السامية بعدد من اللغات أو اللهجات، منها الابلاتية والأكدية (منذ أواسط الألف الثالث ق.م). وبعد سنة 2000 ق.م، أخذ يتضح، بل يزداد التباين بين الأشورية والبابلية، وظهرت داخل كل منها لهجات جديدة يُعَبَّر عنها بالتصنيف التقليدي: قديم، وسيط، حديث. ففي الألف الثاني ق.م، كانت الأكدية لغة العصر الدبلوماسية، وانتشرت في مختلف بلاد الشرق الأدنى القديم باستثناء مصر. وقد عثر على مجموعات من النصوص الأكدية خارج حدود بابل وآشور، منها نصوص نوزى المتاثرة بالحورية، ونصوص ماري التي يظهر فيها التأثير الأشوري، ونصوص تل العمارنة (في مصر) التي تبين عن اتجاهات كنعانية وحورية.

تقسم الأكدية حسب مراحلها التاريخية إلى عدة أقسام تمثل اللهجات السامية الشمالية ـ الشرقية وهي:

الأكدية القديمة (2500 ـ 2000 ق.م) تقسم بدورها إلى ثلاث لهجات: ما قبل السرجونية، السرجونية، ثم الأكدية المعاصرة لأسرة أور الثالثة.

البابلية القديمة (2000 ـ 1500 ق.م) وهي الشكل الكلاسيكي لهذه اللغة الأكدية، وترتبط

بوجه خاص بعهد حمورابي وأسرة بابل الأولى.
الآشورية القديمة (2000 ـ 1500 ق.م) وهي معاصرة للأولى ولكنها انتشرت في الشمال، (كلتبه) المستعمرة الآشورية في أواسط الأناضول.
البابلية الوسيطة هي الشكل النموذجي الخاص باللغة التي ترجع أصولها إلى العهد البابلي الوسيط، لكنها استعملت للتعبير عن أشكال أدبية مختلفة، وذلك حتى سنة 500 ق.م.
البابلية الحديثة تمثل اللغة المتكلمة في الألف الأول ق.م.
الآشورية الحديثة يقصد بها اللهجة الشمالية المعاصرة للبابلية الحديثة، وبقيت حتى سنة 600 ق.م.

أما اللهجات الشمالية الغربية فتتمثل بمجموعة من النصوص التي ترجع إلى الألف الثاني، وقد وجدت في أماكن مختلفة في المنطقة الممتدة من الفرات إلى المتوسط. معظم هذه اللوحات كتبت بالأكدية المسمارية إلا أنها تتضمن مفردات وأسماء أعلام تعتبر مظهراً من مظاهر اللهجات المتداولة في هذه المنطقة والتي يطلق على مجموعها اسم كنعانية وأمورية. ويلي ذلك نصوص راس شمرا (أوغريت)، ثم مجموعة رسائل تل العمارنة التي تعكس تأثير اللهجات المحلية رغم أنها كتبت باللغة الأكدية. يضاف إليها مجموعة النصوص الأبجدية الأولى، منها كتابات «ما قبل السنائية» (حوالي 1600 ـ 1500 ق.م) التي تشكل مجموعة من الكتابات البدائية وجدت في سرابة الخادم، بيد أنه كان لها أهمية كبرى، سواء بالنسبة إلى دراسة تاريخ الأبجدية القديم، أو بالنسبة إلى معرفة تطور الكتابة.

يمكن تلخيص أهم مراحل تطور اللغات السامية الغربية والشمالية الغربية على الوجه التالي. اللهجة الأمورية (2000 ـ 1750 ق.م) وقد انتشرت في منطقة واسعة تمتد من شمالي الرافدين حتى سوريا وفلسطين. إلا أن ما توافر لدينا من مصادر كتابية معاصرة لها لا يكفي للتعرف إلى اللهجات المتفرعة عنها. ويليها في الفترة ما بين 1750 و 1400 ق.م لهجات تقسم إلى فرعين رئيسين. الكنعانية القديمة، في سوريا وفلسطين، والأمورية في الجهات الشرقية من سوريا. واستناداً إلى الفوارق اللغوية التي تلاحظ مباشرة بعد هذه الحقبة، توصل الباحثون إلى الفصل بين اللغات الكنعانية الشمالية واللهجات الأخرى في المناطق الجنوبية من البلاد الكنعانية. فاللغة الكنعانية الملحمية تنتمي إلى المجموعة الكنعانية الشمالية التي يرى فيها بعض اللغويين من المميزات ما يجعلها اقرب صلة إلى الأمورية مما هي عليه بالنسبة إلى اللهجات

الأخرى في جنوبي كنعان.

في الفترة ما بين 1400 ـ 1000 ق.م، تتضح هذه الفوراق اللغوية في المنطقة الكنعانية، وهي الفوارق التي ميزت، في نهاية هذه المرحلة، الفينيقية عن العبرية. أما الآرامية فيرجح أن أشكالها الخاصة تكونت خلال هذه الفترة، وربما قبل ذلك التاريخ. إلا أن ما يتوفر لدينا من مصادر كتابية من المنطقة التي سكنها بعد ذلك الآراميون لا تسمح بتحديد أصول هذا الفرع من اللغات الشمالية الغربية تحديداً دقيقاً وواضحاً. ولكن بعد سنة 1000 ق.م، تصبح هذه اللغات (العبرية، الفينيقية، الموآبية) أكثر تبايناً، حيث ظهرت في كل منها أشكال جديدة متطورة إلى جانب الأشكال القديمة. هذا وقد تجزأت الفينيقية إلى فرعين تطور كل منهما باتجاه خاص. الفينيقية في البلاد الأم، والبونية في قرطاجة والمستعمرات. وكلاهما اندثر في بداية العهد المسيحي (حوالي القرن الثالث). أما الآرامية التي تأكد وجودها طيلة الألف الأول ق.م، فبقيت بعد العهد المسيحي متمثلة في مجموعتين لغويتين الآرامية الغربية (وتتضمن النبطية، التدمرية، ولهجات أخرى) والآرامية الشرقية (وتتضمن السرياني، الآرامي، البابلي، ولهجة جديدة تعرف باسم الآشورية).

إن جميع هذه اللغات السامية التي أتينا على ذكرها (الأكدية ـ البابلية ـ الآشورية، الأمورية، الكنعانية ـ الفينيقية، الآرامية السريانية، العبرية، بالاضافة إلى العربية والحبشية) تتشابه في طريقة تصريف الأفعال، وفي وجود مصدر ثلاثي للفعل، ووجود زمنين للفعل. الماضي والمضارع. هذا بالاضافة إلى أوجه شبه أخرى متعددة، كتشابه كثير من الكلمات والضمائر الشخصية، والأعداد، وأعضاء الجسم، وأسماء الأشهر.

ومن الروابط الأخرى التي تجمع بين الشعوب السامية. المظاهر الحضارية المشتركة التي تجلت في النظم السياسية والقانونية والإدارية، والتقاليد الدينية، وفي نتاجها الأدبي والفني وفي طرق بناء المعابد وبيوت السكن وتخطيط المدن.

أما الشعوب السامية نفسها، فإنه يصعب تحديد هجراتها الأولى التي يحتمل أنها تعود إلى أوائل الألف الثالث ق.م. فكان البدو الرحل يتنقلون عند أطراف الصحراء وعلى حدود الأراضي الخصبة، يترقبون الفرص التي تسمح لهم بدخول المدن المتحضرة. وقد انتشر الساميون منذ عهود مبكرة، في مناطق عديدة من الشرق الأدنى، واستوطن قسم منهم بلاد ما بين النهرين حيث أسهموا في بناء حضارتها الأولى، وسرعان ما توصلوا إلى الحكم في البلاد،

وأسسوا أول دولة تمكنت من توحيد مدن الرافدين، وكانت هذه الدولة، التي أسسها سرجون الأكدي (شاروكين)، أقدم امبراطورية عرفها التاريخ، إذ شمل نفوذها، اضافة إلى المدن السومرية، مناطق بعيدة خارج حدود دجلة والفرات، مثل عيلام، ووصل ملوك أكد بأعمالهم العسكرية إلى المتوسط وأواسط الأناضول، وربما الهند. أما في الغرب، فإن شعوبا سامية عرفت فيما بعد بالكنعانية، كانت قد تركت الجزيرة العربية واتجهت غرباً، فسكن قسم منها فلسطين واستوطن القسم الآخر الشاطىء السوري. ثم تلت هذه التحركات السامية الأولى هجرات الشعوب الأمورية (في نهاية الألف لاثالث) التي انتشر أفرادها في مختلف أنحاء سورية وشواطئها ووصل البعض منهم إلى دلتا النيل وشارك في القضاء على الدولة القديمة في مصر. وقد تعرضت المدن السورية ـ الكنعانية لهجرات الأموريين الذين هدموا أسوارها ومبانيها. ولكنهم أقاموا فيها وشيدوا بنيانها بعد فترة من الزمن تميزت بالفوضى وعدم الاستقرار. وفي الوقت نفسه، أو بعد فترة من الزمن، كانت فئات أخرى من الأموريين قد دخلت الرافدين واستقرت في مدنها، حيث تمكنت بعد ذلك من تأسيس دولة جديدة عرفت باسم الدولة البابلية القديمة. هكذا كانت الشعوب السامية تستوطن البلاد المتحضرة حيث تمتزج بسكانها وتتسلم الحكم فيها، كما كانت هذه الشعوب السامية نفسها تتعرض بدورها، بعد استقرارها، لخطر شعوب سامية جديدة. وكانت آخر الهجرات السامية في العالم القديم هجرة الآراميين الذين انتشروا بدورهم (نهاية الألف الثاني ق.م) في أنحاء مختلفة من سوريا حيث أسسوا عدداً من الامارات (في دمشق، حماه، حلب...) ودخلوا بلاد ما بين النهرين حيث أسهمت احدى قبائلهم في قيام الدولة البابلية الحديثة (الدولة الكلدانية).

## 3 ـ الشعوب الهندو أوروبية والأسيانية

إن أهم الهجرات غير السامية التي أحدثت تحولات مهمة في التاريخ القديم هي هجرات الشعوب الهندو أوروبية التي تعددت الآراء حولها، الأمر الذي دفع للبحث عن مواطنها الأولى في منطقة واسعة جداً تشمل أوروبا الشرقية (وربما أوروبا الوسطى) وقسماً كبيراً من روسيا، ما بين نهري الدنيبر واليسي (في أواسط الاتحاد السوفياتي سابقاً)، بما في ذلك حوض نهر الفولغا الأسفل وبقاع الكازاخستان. ويحتمل أن هذه الهجرات التي لا حصر لها بدأت مع عصر المعادن في الألفين الرابع والثالث، ودامت متتالية على فترات متقطعة حتى نهاية

القرون الوسطى في الغرب. وكانت هذه الهجرات باتجاهات مختلفة (باتجاه الغرب والجنوب الغربي، وباتجاه الشرق والجنوب الشرقي)، ووصلت منذ أوائل الألف الثاني ق.م إلى مسافات بعيدة عن مواطنها الأصلية، إلى أوروبا الغربية من جهة، وإلى الهند من جهة ثانية.

كان لهذه الشعوب مظاهر حضارية، مشتركة، تجلت بشكل خاص في اهتمامهم الكبير بتربية الخيول (تشكل عظامها نسبة 70 إلى 80٪ من عظام الحيوانات الداجنة المكتشفة في قراهم)، وقد عرفوا العربة القائمة على الدواليب، واستخدموها منذ أوائل الألف الثالث قبل الميلاد. ويتبين من آثار المدن المحصنة وقرى الأكواخ المتواضعة المنسوبة إليهم وجود «أرستقراطية عسكرية» قوية (في المدن المحصنة) تتزعم جماعات من المزارعين ومربي المواشي (في القرى المتواضعة ذات البيوت الفقيرة على شكل أكواخ حفر قسم منها في الأرض). هذا التباين الاجتماعي يلاحظ أيضاً في الطقوس وفي التقاليد الدينية ـ المدفنية، إذ أن غنى بعض المقابر يتناقض تماماً مع قبور العامة، لفقر محتوياتها ولبساطة أشكالها. ونجد أوضاعاً مشابهة في الهند، حيث، نشأت، في وادي السند ( في حارابا وموهنجودارو)، حضارة مهمة، ازدهرت بشكل خاص في الألف الثالث ق.م، إلا أن هذه الحضارة تجمدت وفقدت القدرة على التجدد أو الانتشار، وانتهت إلى زوال، في أواسط الألف الثاني ق.م. يرى البعض أن نهاية هذه الحضارة قد ارتبطت بمجيء شعوب أتت من الشمال الغربي، تمثلت بقبائل آرية ينسب إليها تدمير قلاع وادي السند، وذلك بعد أن اجتازت البنجاب عن طريق مضايق الحدود الأفغانستانية. هؤلاء هم أنصاف رحل، يمثلون حضارة مختلفة تماماً عن حضارة السند، لاهتمامهم الخاص بتربية الخيول وتمرسهم بالأعمال العسكرية. كان لا بد لهذه الشعوب من أن تتأثر بمعالم الحضارة السابقة وان احتفظت بلغتها ومعتقداتها الدينية التي أصبحت بعد مراحل جديدة من تطورها مظهراً من مظاهر حضارة الهند. ولا يزال سكان الهند اليوم يتكلمون، بالاضافة إلى الهندو أوروبية المتمثلة بالسنسكريتية، لغات سابقة لها كالدرافيدية والموندا. وقد تميز المجتمع الهندي بعد دخول الآريين إلى البلاد بوجود طبقات من الشعب ذات أوضاع اجتماعية متباينة: الكهنة (Brahamana) والمحاربون (Kehatria)، والتجار والمزارعون(Vaiega)، والخدم (Coudra). الطبقات الثلاث الأولى كانت وحدها تتمتع بالحقوق الاجتماعية والدينية.

في حالات كثيرة لم تحفظ أسماء هذه الشعوب سواء في كتابات البلاد القديمة المتحضرة التي استوطنوها أو في كتاباتهم الخاصة، علماً أنهم لم يعرفوا الكتابة إلا في مراحل متأخرة، في

أواسط الألف الثاني ق.م، إلا أن معظم الذين أتوا من الشمال وتاكد وجودهم (بخاصة في النصوص المتضمنة أسماء أعلام (Onomastic) بعد سنة 2000 ق.م، يتكلمون لغات تنتمي، وان اختلفت في لهجاتها ومظاهرها، إلى جذور لغوية واحدة. ويكاد يجمع الباحثون على أن هذه اللغات المعروفة باسم «الهند أوروبية» انتشرت وتوزعت في مناطق مختلفة لا لمجرد عامل التأثير من لغة على لغة أخرى بل نتيجة انتقال هذه الشعوب وتواجدها الفعلي في أقاليم متباعدة، حاملة إليها لهجاتها وتقاليدها. أي أن ظهور هذه اللغات جاء نتيجة تطور فعلي ارتبط بتطور حياة هذه الشعوب، حسب ظروفها ومراحلها التاريخية، وانبثقت بالتالي عن لغة واحدة ومشتركة، عرفت سابقاً في فترة من فترات العصور التاريخية (وربما في العصور الحجرية) في مكان ما من العالم القديم. إلا أن اللهجة الأولى التي لم تدون في نصوص تحفظ لنا معالمها فقدت كلياً، وفقدت معها وحدتها، في مفرداتها الأساسية، وفي بنيتها اللغوية. ومثل هذا التقارب اللغوي لا ينشأ بمجرد المصادفة أو بالاستعارات اللغوية، ويتحتم بالتالي وجود مصدر مشترك. ومثال على ذلك الكلمات التالية في الانكليزية والفرنسية واللاتينية والسنسكريتية.

Father, père (anglais – Francais) pater, (grec – Latin), pitar (sanskrit).
Brother, Frère (anglais – Francais), Frater (latin - grec) bhratar (sanskrit).
Sister, soeur (anglais – Francais), svasar (Sanskrit), Sesvo, (Lithuanian).
Sestra (old slavonic).

كان اكتشاف أوجه الشبه هذه بين مجموعة اللغات الهند أوروبية بفضل تعرف العالم الغربي في القرن الثامن عشر، على الهند ولغاتها، وبخاصة السنسكريتية. ثم جاءت الدراسات المتتالية في القرن التاسع عشر لتؤكد المعطيات التي توصلت إليها الأبحاث الأولى، وتعمّق معرفتها بهذه اللغات.وبعد أن تم في القرن العشرين اكتشاف بعض اللغات القديمة، (كانت متكلمة في التركستان الصيني وفي الأناضول) وأضيفت إلى مجموعة اللغات المعروفة، تمكن تصنيف اللهجات الهندو أوروبية إلى فرعين رئيسيين. الأول يتمثل باللغات الهندو إيرانية (أو آرية) التي انتشرت في الهند (الفيداوي السنسكريتي، الهندوستاني...) وفي ايران (الفارسي القديم، المادي، السكيتي، الفارسي الوسيط، الكردي...). أما الثاني فيتمثل باللغات الأوروبية مثل السلافية (الروسي، البلغاري، البولوني...)، واليونانية واللاتينية (وما يتفرع عنهما)، السلتية والجرمانية. ويضاف إلى هاتين المجموعتين الحثية واللغات التي ترتبط بها (في الأناضول). وهي تنسب إلى

المجموعة الأولى في نظر البعض بينما تعتبر احدى لغات المجموعة الثانية في رأي البعض الآخر من علماء اللغة.

إلا أن الشواهد الكتابية التي ترتبط مباشرة بهذه اللغات هي حديثة نسبياً، بل متأخرة عن بدء انتشارها وتكوينها. وحتى القرن التاسع عشر كان الرأي السائد هو أن السنسكريتي الفيداوى هي أقدم اللغات الهندو أوروبية المعروفة، وأن هذه اللغة هي، إلى جانب اليونانية، الأقل تحولاً وبعداً عن المصدر المشترك القديم، ولكن تبين بعد ذلك أن نصوصاً معروفة بلغات أخرى هي أقدم منها بعدة قرون.

ففي بوغازكوي، على بعد حوالي 150 كلم شرقي أنقره، اكتشفت البعثة الالمانية، في السنوات 1906 ـ 1912، مجموعة من الوثائق المهمة كتبت بلغات مختلفة، منها اللغة الحثية التي أكدت الدراسات اللغوية أنها هندو ـ أوروبية (وجدت بين هذه الوثائق مجموعة من اللوحات الأكدية التي تم بفضلها التعرف على اسم المدينة: حاتوشا ـ عاصمة الدولة الحثية). أن النصوص المتبقية منها كتبت في القرنين الرابع عشر والثالث عشر، لكنها تتضمن نسخا من نصوص أقدم عهدا، قد ترجع إلى القرنين السادس عشر والسابع عشر ق.م. وهذه النصوص لم تقدم لنا سوى معلومات تاريخية محدودة لم يرد فيها ذكر لأية تقاليد أو أساطير ترتبط بالهجرات التي أدخلت الهندو أوروبية إلى الأناضول، إلا أنها تلقي بعض الأضواء حول نشأة الدولة الحثية (مؤسسوها هم ملوك كوشار ـ مدينة في أواسط الأناضول لم يتم تحديد موقعها ـ الذين تمكنوا من توحيد المناطق المجاورة واخضاعها لنفوذهم في القرن السابع عشر، لا برناش الثاني وحاتوشيلش الأول الذي تمكن من الاستلاء على مدينة حاتوشا، وجعل منها عاصمة الدولة الجديدة). إلى جانب ذلك تبين من نصوص بوغازكوي وجود لغات ثلاث لم تكن معروفة من قبل، وهي اللوية ((Luwian، والبالية نسبة إلى مقاطعة بالا (Pala)، والخاتية (Khatie). الأولى والثانية هما من اللغات الهندو ـ أوروبية وتشبه الحثية، أما الثالثة فتختلف عنهما وهي من اللغات المحلية غير الهندو ـ أوروبية. يضاف إليها عدد آخر من اللغات الهندو ـ أوروبية في الأناضول، كالليقية والليدية واللغة الحثية الجديدة المتمثلة بالنصوص الهيروغليفية الحثية. أما في شمالي الرافدين وأعالي سوريا فإن اقدم الشواهد على وجود لغات هندو ـ أوروبية تتمثل في اسماء الاعلام التي وردت في النصوص المحلية (الأكدية والحورية) من القرن السادس عشر حتى الرابع عشر ق. م، مثل ارتاتاما (Artatama) «وبيراشينا» (Berashena) التي نجدها

في السنسكريتة في رتاذهما (rta – dhama) و «فيراسينا» (Vira - Sena). وفي عقود التحالف بين الحثيين ودولة ميتاني يرد ذكر الشهود من الآلهة ذات الأسماء الهندو ـ أوروبية مثل (Indra uruwwa – nashshil, Mitrashsil) التي نجدها في الأساطير الفيداوية في الأسماء التالية: «ميترا» (Mitra)، «فارونا» (Varuna)، «اندرا» (Indra). لذا يعتقد أن جماعة من الهندو ـ أوروبيين (أو الآريين) كانت تشكل طبقة «أرستقراطية» تتزعم الحوريين وتحكم بلاد ميتاني.

إلى جانب الهندو أوروبيين، ظهرت في بعض مناطق الأناضول وأعالي سوريا والرافدين شعوب أخرى لم تُحدد أصولها بشكل واضح، وتعرف باسم الشعوب «الاسيانية (Asianique) تمييزاً لها عن الشعوب الآسيوية الأخرى كالساميين والهندو أوروبيين. وأهم هذه الشعوب الاسيانية هم:

أ ـ العيلاميون، سكان بعض المناطق الجنوبية الغربية من الهضبة الايرانية، في اللوريستان والمنطقة المعروفة باسم عيلام (الخوزيستان) التي تشكل امتداداً طبيعياً لبلاد سومر. وفيها تأسست منذ العصور الحجرية، حضارة ارتبطت، في كثير من مظاهرها، بوادي الرافدين. والعيلاميون عرفوا الكتابة، ربما بعد فترة قصيرة من ظهورها في سومر، لكنها بقيت مستقلة عنها، وإن تأثرت ببعض أشكالها، لكن هذه الكتابة المعروفة باسم «ما قبيل العيلامية» بقيت محدودة الانتشار، بل استبدلت بها ، في عهد الدولة الأكدية، كتابة مسمارية (مقطعية) بقيت متداولة حتى العهد الفارسي، عندما استعملت في كتابة النصوص الأخمينية (من القرن السادس حتى القرن الرابع ق.م) إلى جانب الفارسية والآرامية.

ب ـ الكاشيون، هم أيضاً من سكان جبال زغروس، تمكنوا في القرن السابع عشر ق.م من تسلم عرش بابل وحكموا البلاد زمنا طويلا يقدّر بحوالي 500 سنة، ويبدو أن الطبقة الحاكمة بينهم كانت خلال فترة من الزمن من العناصر الهندو ـ أوروبية.

ج ـ الحوريون، عرفوا في النصوص الآشورية باسم السوبارتيين أو الميتانيين ـ سكنوا المنطقة الشمالية في سوريا والرافدين، حيث تأسست دولة ميتاني التي بلغت أعلى مراحل تطورها السياسي في القرن الخامس عشر ق.م، ثم خضعت بعد ذلك للنفوذ الآشوري. حكمت هذه الدولة «طبقة أرستقراطية» هندو ـ أوروبية (من الميتانيين).

د ـ الكالديون، وهم من سكان الأورارتو، الواقعة شمالي الرافدين، في الطرف الشرقي من هضبة الأناضول. لذا عرفوا أيضاً باسم «الفانيين»، نسبة إلى بحيرة فان. وقد تركوا لنا حوالي 200 كتابة وضعت بالأشكال المسمارية، وترجع إلى ما بين القرن التاسع وسنة 640 ق.م، أي السنة التي هزموا فيها على يد الأشوريين.

# عملية الاستقرار ونشوء القرى الأولى

## العصر الحجري الحديث

كان الانسان، في العصر الحجري القديم والأوسط، يعيش على الصيد وجمع الطعام، ويرتبط وجوده بالطبيعة، معتمداً على ما تقدمه له لتأمين غذائه وملبسه ومَسْكِنه. متنقلاً في أرجائها بحثاً عن أماكن يستطيع البقاء فيها فترات محددة من السنة. بيد أنه في المراحل الأخيرة من هذه العصور السحيقة، بدأ العمل في محاولته التكيف مع بعض الأقاليم والسيطرة على العوامل الطبيعية فيها، أو الافادة منها. وكانت أولى الميزات البارزة للمجتمعات التي أخذت تتكون في أوائل العصر الحجري الحديث هي الزراعة وتدجين الحيوانات. ففي كهوف جبل الكرمل، في فلسطين، اكتشفت أولى الأدوات الزراعية وأقدمها: المنجل. هذه الأداة عبارة عن مقبض من الخشب أو العظم، ذي شكل مستقيم، تغرس فيه، باتجاه الطول، أسنان أو شفرات صوانية. تكمن أهمية هذا الاكتشاف الجديد في أنه حصل على أيدي جماعة يعرّفها علم الآثار بـ «النطوفيين» (نسبة إلى وادي النطوف)، تنتمي إلى أواخر العصر الحجري القديم، وتمثل بالتالي مظهراً من مظاهر الانتقال إلى العصر الحجري الحديث. يرجح أن سكان وادي النطوف لم يتعرفوا، في البدء، على زراعة الحبوب، ويحتمل أنهم استخدموا المنجل في حصاد الأعشاب التي تنبت تلقائياً في الطبيعة، وتشكل الأصول البرية للحبوب (كالقمح والشعير) التي عرفها الانسان، ثم بدأ زراعتها في فترة لاحقة[1]، في أماكن عديدة من الشرق الأدنى القديم. هذه

---

1 ـ ما زال من الصعب تحديد الفترة التي بدأ فيها الانسان عملية انتقاء الأصناف الجيدة من الأعشاب أو النباتات البرية ليباشر هو بنفسه زراعتها. ويعتقد أن مثل هذا التحول لم يتم قبل نهاية الألف الثامن ق.م، في عدد من مراكز الشرق الأدنى القديم. أما فيما يختص بري الأراضي وحراثتها فيعتقد أن الانسان اتبع، بدايةً، وسائل بسيطة تقتصر على زرع الحبوب في الطمي الذي تتركه فيضانات الأنهر (كما في وادي النيل)، أو على أثر هطول الأمطار.

الأصول البرية ما زالت توجد في بعض مناطق سوريا وفلسطين وفي مناطق أخرى من غربي آسيا.

وقد نتج عن هذه المكتشفات الجديدة تحول مهم في حياة الانسان، ولاسيما بعد أن توافرت له ظروف الاستقرار وبناء بيوت أمتن وأصلب مما كانت عليه سابقاً، الأمر الذي ساعده على البقاء زمناً طويلاً في أماكن معينة، والافادة من تجاربه المتتالية. وكان تحوّل الانتاج هذا قد أدى بدوره إلى تصاعد عدد السكان في بعض المراكز، حيث تشكلت أولى المجموعات البشرية البدائية في مستوطنات صغيرة تحولت إلى قرى ظهرت للمرة الأولى في بداية العصر الحجري الحديث.

كانت عملية الاستقرار والانتقال من حالة جمع الغذاء إلى انتاجه وصنعه من أبرز سمات هذه المرحلة الجديدة في تاريخ البشرية. فمنذ أواخر الألف التاسع ق. م، قام الانسان بمحاولات عديدة قادته تدريجيا إلى الحضارة وإلى أشكال حياتية أكثر تطوراً واكتمالاً. ويعتقد أن هذا التحول، الذي ارتبط ارتباطاً فعلياً ومباشراً بتدجين الحيوان وزراعة الحبوب، ثم انتاج المواد الغذائية وحفظها، لم يكن نتيجة لاكتشافات مفاجئة أو لقدوم شعوب جديدة تحمل معها بذور مثل هذا التحول، بل إنه تم بفضل تراكم خبرات وتجارب هي من القدم بحيث يحتمل أنها بدأت مع ظهور الانسان العاقل (Homosapien) في بداية العصر الحجري القديم الأعلى.

مثل هذا التحول أتاح للإنسان الاستقرار في المكان نفسه لفترات زمنية طويلة، في مستوطنات فصلية (بعضها دائم)، كانت عبارة عن أكواخ دائرية أو بيضوية الشكل، أقيمت أحياناً فوق أسس حجرية، ما زالت آثارها باقية في عدد من مراكز الشرق الأدنى القديم، مثل المريبط على الفرات الأوسط، وزاوي جمي شانيدار، على الزاب الكبير في شمالي العراق، وعينان (عين ملاحة) قرب الحولة، وأريحا، وبيضا قرب البتراء في الأردن. والاستقرار في مكان واحد لم يكن فقط نتيجة توصل الانسان إلى إنتاج ما يكفيه ويسد حاجته من المواد الغذائية، بل جاء أيضاً كشرط ضروري لمراقبة انتاج المزروعات لفترات طويلة من السنة. وكان من الطبيعي أن تتطور، بفضل ذلك، وسائل الانتاج (الأدوات والصناعات اليدوية على اختلافها)، وتنشأ حياة الجماعة التي ستصبح المبدأ الأساسي للحضارة وتطورها عبر التاريخ.

وسواء نشأت الزراعة في منطقة واحدة أو في عدة مناطق مختلفة، فإن انتشارها لم يكن

إلا على فترات متتالية في عدد كبير من بلاد العالم القديم. ونظراً لأهميته سمّى هذا التحول الاقتصادي الكبير في حياة الانسان باسم «الثورة النيوليتية» (= ثورة العصر الحجري الحديث) التي تطلب تحقيقها زمناً طويلاً قبل أن تبدأ فعلياً حوالي الألف الثامن ق.م، وتصل بعد ذلك إلى شواطىء البلطيك باتجاه الغرب، وإلى الصين في الشرق. وعلى الرغم من بعض المظاهر المشتركة، كان من الطبيعي أن تنشأ أشكال حضارية متباينة حتمتها البيئات المختلفة والظروف الحياتية لكل من هذه الجماعات. بيد أنه لا يمكننا حصر العصر الحجري الحديث ضمن حدود زمنية ضيقة، إذ يشكل، في معناه العام، مرحلة انتقالية تمتد من نهاية حياة الصيد وحتى بداية مرحلة جديدة يعتمد اقتصادها على استعمال المعادن. هذه المرحلة الانتقالية تمثل إذاً استقرار الانسان في قرى صغيرة ظهرت للمرة الأولى في التاريخ، كما تمثل بداية الحياة الزراعية[1].

يتبين من دراسة الدلائل الأثرية أن القرى الزراعية الأولى كانت ذات أحجام صغيرة ولم يكن انتاجها الزراعي يكفي إلا لأعداد قليلة من الناس، مما اضطر الفائض السكاني التخلي عن المجموعات الأولى والانتقال إلى أماكن جديدة يقطنها. ويحتمل أن الأساليب الزراعية المتبعة آنذاك كانت تستنفد كل امكانات الأرض، ولم يكن الانسان قد توصل بعد إلى أن يعيد إلى الأرض خصوبتها. لذلك كان لا بد لهذه الجماعات من الانتقال، كل سنتين أو ثلاث

---

1 ـ نظراً لتطور علم الآثار الشرقية، أصبحت غير ملائمة تلك المصطلحات العلمية التقليدية (= العصر الحجري القديم، الوسيط، الحديث) المعتمدة في تعريف مراحل العصور القديمة في أوروبا ـ الغربية ولذا كان لا بد من أن تضاف إليها مصطلحات جديدة تتفق ونتائج المكتشفات الأثرية في منطقة غربي آسيا. نذكر منها التعابير التالية. ما قبيل العصر الحجري الحديث (Proto Neolithic)، «العصر الحجري الحديث السابق للخزف (Pre - Pottery - Neolithic) ثم «عصر الحجر والنحاس» (Eneolithic) أو (Chalcolithic)، وأخيراً «عصر البرونز». إلا أن تعدد هذه المصطلحات لم يسهم كثيراً في جلاء الغموض الذي يحيط بهذه المراحل المتتالية. إذ أن التعابير التي تصلح بالنسبة لبلد ما (كالعراق) قد لا تصلح لبلد آخر مجاور أحياناً (كفلسطين) ذلك لأن ظهور بعض المواد الأساسية (كالخزف، والنحاس، والبرونز) لم يتم، في آن واحد، في جميع هذه البلدان، وإن تشابهت بعض معالمها الحضارية الأخرى. ففي عصر الحجر والنحاس، بقي المعدن مادة نادرة، وعلى الأخص في فلسطين، كما لم تعرف هذه المنطقة (فلسطين) من المعادن في عصر البرونز، سوى النحاس، ومثل هذا التناقض يفقد هذه المصطلحات العلمية مضمونها العام، ويحتم علينا البحث عن مصطلحات جديدة، تعبر لا عن ظهور أو استعمال هذه المادة أو تلك، بل تعبر عن حالات اجتماعية معينة مثل. عملية الاستقرار الأولى، أو المستوطنات ـ القرى ـ الأولى، ثم ظهور المدن، أو بدء الحياة المدينية...

سنوات، إلى أقاليم جديدة بحثاً عن أراضٍ خصبة. واعتمد مثل هذه الطريقة الدانوبيون قديماً، ويتبّعها الآن بعض سكان أفريقيا. ويعتقد أن اتباع مثل هذا النمط الحياتي قد ساعد على نشر معالم حضارة العصر الحجري الحديث في مناطق مختلفة من العالم القديم.

إن ما تكوّن لدينا من معلومات عن هذا التحول حديث نسبياً، إذ إننا ندين بقسم كبير منها للحفريات الأثرية التي أجريت بعد الحرب العالمية الثانية وما زالت قائمة حتى يومنا في عدد من المراكز المهمة في غربي آسيا. وبفضلها بدأت تتضح صورة ما حققه الانسان من منجزات أساسية في هذه المرحلة. ولئن صعب علينا شرح عملية الانتقال من العصر الحجري الوسيط (الذي ما زالت آثاره نادرة في السوق) إلى العصر الحجري الحديث، فإن لدينا من القرائن الأثرية ما يوضح خصائص عدد كبير من القرى الأولى، مثل تشاتال هيوك ومرسين (في هضبة الأناضول)، وأريحا (في فلسطين)، والمريبط (في شمال سوريا)، وجرمو وحسونة (في شمالي العراق)، ورأس شمرا وجبيل (على الشاطىء الكنعاني)... التي تمثل المرحلة الأولى من حياة القرى التي كانت تكفي نفسها بنفسها من انتاج ما يلزمها من المواد الغذائية، وتصنع ما تحتاج إليه من الأدوات، والأسلحة، والثياب، والأواني الخزفية التي عرفت في فترة لاحقة من العصر الحجري الحديث. لكن هذا الاكتفاء الذاتي انحصر داخل حدود القرية في باديء الأمر واقتصر على تأمين ما تحتاج إليه الجماعة واختزان فائض منه لفترة ما بين الموسمين. ومع تطور هذه المجتمعات (في بداية عصر الحجر والنحاس) وارتفاع عدد السكان، كان لا بد من مضاعفة العمل للحصول على فائض في الانتاج الزراعي، استخدم في تأمين حاجات مجموعات من السكان تخصصت في مجالات غير زراعية. ويبدو أن مبدأ الاكتفاء الذاتي هذا لم يكن، حتى في العصر الحجري الحديث الشكل الاقتصادي الوحيد الذي عرفته تلك القرى البدائية، إذ تؤكد الآثار المكتشفة في عدد من المراكز القديمة وجود نوع من التبادل التجاري بين اقاليم تبعد مسافات كبيرة جداً بعضها عن بعض. لكنه تبادل اقتصر على الحلي وأدوات الزينة، والدهنج (Malachite) لتجميل العيون، وكذلك الزجاج الطبيعي (Obsidienne)، والنوعيات الجيدة من الصوان لصناعة الأدوات والأسلحة الحجرية.

هذا التبادل بقي إذاً محدوداً في بداية العصر الحجري الحديث، لأن القرى النيوليتية لم تكن قد توصلت في انتاجها الاقتصادي إلى تخصص من شأنه أن يقسم افراد هذه الجماعات إلى فئات وطبقات متباينة. فكانت كل جماعة أو عائلة تصنع لنفسها ما تحتاج إليه من أدوات،

وتبني بنفسها منازلها الخاصة، وتكفي ذاتها بما تنتجه من مواد غذائية، ولم يكن لديها بالتالي فائض من الانتاج الزراعي. لذا يحتمل أن تقسيم العمل اقتصر على الجنسين: فيقوم الرجل بصناعة الأدوات وبناء المنازل، ويهتم بتربية المواشي وصيد الحيوانات البرية والأسماك، في حين يعود للمرأة عمل المنزل والفضل في اكتشاف النول والمغزل والخزف، إلى اسهامها في مجالات أخرى وبخاصة الزراعة والافادة من انتاج القطن والكتان. ولكن يفترض أنه، مع تطور الزراعة وتنوع نشاطات بعض القرى (مثل أريحا وتشاتال هيوك) واتساع أبنيتها في فترة لاحقة من العصر الحجري الحديث، أصبح بمقدور القرية انتاج كميات من المواد الغذائية تزيد عما تستهلكه، فتستخدمه في تأمين حاجات فئات لا تسهم في الانتاج الزراعي، لتخصصها في مجالات أخرى.

أما بشأن المنطقة التي تمت فيها للمرة الأولى عملية الاستقرار ومكنّت الانسان من تحقيق مثل هذا التطور الاقتصادي، فإنه يصعب تحديدها بشكل تتفق حوله الاراء. فيرى البعض أن الزراعة نشأت في مكان واحد ومنه انتقلت إلى المناطق الأخرى، في حين يقول آخرون أنه طالما يتمتع الانسان، حيثما وجد، بمواهب كثيرة، فباستطاعته أن يحقق مثل هذا الاكتشاف إذا ما توافرت له الظروف الملائمة. ففي بداية هذه المرحلة، بقي الصيد المصدر الاقتصادي الرئيسي، على الرغم من أن ما لدينا من شواهد أثرية، في عدد من مراكز الشرق الأدنى القديم، يؤكد تدجين الحيوان (وقد كان الماعز أول ما دُجّنَ منها) منذ الألف العاشر ق.م، في حين أن زراعة النباتات لم تتم إلا في فترة لاحقة، قد تكون في الألف الثامن ق.م.

لكن هذه النباتات (القمح، والشعير، والعدس، والبازيلا، والخضار...) كانت تنبت وتنمو تلقائياً في الطبيعة، فيجمعها الإنسان ويقتات بها قبل أن يتوصل، بمرور الزمن، إلى زراعتها ثم انتقاء أفضلها وتحسين نوعيتها. وإن مثل هذا التحول لا يمكن أن يتم إلا في المناطق التي توافرت فيها مثل هذه النباتات البرية، وكذلك الحيوانات المتوحشة، أسلاف الحيوانات التي دجنها الانسان، كالماعز والغنم والخنزير والبقر. واستناداً إلى هذه المعطيات وإلى ما توصلت إليه الحفريات والتحريات الأثرية، حددت المنطقة التي عرفت فيها الزراعة للمرة الأولى في تاريخ البشرية بأشكال مختلفة. فيدعي البعض أن مثل هذا التطور حصل في منطقة القوقاز، في حين يرى فريق ثان أن هضبة الأناضول، وإيران، وحوض بحر قزوين، وبلوخستان وأواسط الجزيرة العربية، كانت كلها مناطق هامشية لمراكز الزراعة الرئيسة. إلا أن

الحفريات الحديثة وما ألقته من أضواء جديدة ـ خاصة في هضبتي إيران والأناضول ـ جعلت من الصعب القبول بمثل هذه النظريات، وبات من الضروري أن يعاد النظر في تحديد المنطقة التي تمت فيها للمرة الأولى عملية تدجين الحيوان وزراعة النباتات. ويُرجّح أن هذا التحول قد حصل في عدة أماكن من منطقة واسعة تمتد من الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط حتى سلسلة جبال زغروس والقوقاز وحوض بحر قزوين، ومن جنوبي هضبة الأناضول واعالي دجلة والفرات حتى فلسطين والجزيرة العربية. ففي هذه المنطقة الواسعة يمكن تحديد عدة مراكز رئيسة: فلسطين، والشاطيء السوري، ووادي العاصي، ومنطقة جنوبي الأناضول، وجبال زغروس، مع امتداد لها في القوقاز، ثم اعالي دجلة والفرات، وربما شرقي جبال ألبرز (شمالي ايران).

## I ـ فلسطين وسوريا
## والشاطىء الكنعاني

تؤكد الآثار المكتشفة في فلسطين (سواء في كهوف جبل الكرمل التي وجدت فيها آثار العصر الحجري القديم، أو في المناطق المجاورة لها، أو في وادي نهر الأردن) أهمية التحول الذي شهدته فلسطين ابتداء من العصر الوسيط. ففي عدد من مواقعها عثر، فضلاً عن الأدوات الحجرية والعظمية الصغيرة الحجم، الدقيقة الصنع، المميزة للعصر الحجري الوسيط عامة، عثر على أدوات جديدة لم تعرف من قبل، كالمناجل التي تجسد، إلى جانب الفؤوس والمعاول، أولى محاولات الانسان استثمار الأرض، المحاولات التي قادت سكان هذه المنطقة تدريجياً إلى الاستقرار وتدجين الحيوانات، وزراعة النباتات.

هذه الحقبة التي تُعرَّف معالمها الحضارية باسم «الحضارة النطوفية»، نسبة إلى وادي النطوف، شمالي شرقي القدس، تشكل إذاً مرحلة انتقالية، جمعت بين تقاليد العصور السابقة وبعض معالم حياة الاستقرار الجديدة. ففي الكرمل وأريحا، تقدم لنا الآثار المكتشفة شواهد محسوسة على أقدم محاولة لانتاج الطعام. وقد سكن انسان «الحضارة النطوفية» في الكهوف ثم الأكواخ، لينتقل بعد ذلك إلى تأسيس أول حضارة «مدينية» ويعيش في قرى صغيرة أحيطت بأسوار خارجية.

وتعتبر أريحا[1]، الواقعة في وادي الأردن المنخفض، أهم هذه المواقع[2] خارج كهوف

---

1 ـ أجريت في تل أريحا حفريات أثرية في مناسبات مختلفة، كان أهمها الحفريات التي قام بها جار ستنغ J. GARSTANG في السنوات ما بين 1930 ـ 1936، راجع كتابة: The story of Jericho, London, 1948 ثم عدلت نتائجها وزيد عليها بفضل الحفريات التي قامت بها كينيون K. KENYON في السنوات 1952 ـ 1958 ووضعت عنها دراسات مهمة في مؤلفاتها.

Excavations at Jericho, London, 1960, 1965; Diggingup Jericho, London, 1957; Archaeology in The Holy Land, London, 1970.

2 ـ من المراكز الأخرى «عين ملاحة» الواقعة على ضفة بحيرة الحولة، حيث عثر على بيوت دائرية الشكل في ثلاث سويات، تعكس آثارها احدى محاولات الاستقرار الأولى لجماعة كانت لا تزال تعتمد في اقتصادها على الصيد والجمع:

J. PERROT. Eynan (Ain Mallaha), in Rev. Bibl., 69 (1962), 384 ff.

جبل الكرمل، ومن أقدم قرى منطقة الشرق الأدنى، إن لم تكن الأقدم. يقع تل أريحا في جوار نهر صغير، على بعد حوالي 34 كلم شمالي شرقي القدس، ويغطي مساحة لا تقل عن خمس هكتارات تكونت أثاره من تراكم أنقاض قرى بنيت على مراحل متتالية، في فترة زمنية طويلة تقدر بحوالي سبعة آلاف سنة. المستوطنة الأولى تشبه في أدواتها السويات المعاصرة لها في جبل الكرمل، إلا أنه وجد بين أنقاضها أثار بناء هو عبارة عن فسحة أو بهو أحيط به جدار شيد من الحجارة، يعتقد أنه معبد كُرس لعبادة ربة الخصوبة. وحدد تاريخ هذا البناء، بفضل الكربون 14، بحوالي 7800 (± 200) ق.م[1]. ويتبين من تراكم أنقاض البيوت وكثافتها (حوالي أربع أمتار) في وسط التل، أن جماعة عرفت بعض مبادىء الزراعة قد استوطنت بالقرب من النبع لفترة زمنية طويلة، تاركة بين هذه الأنقاض أدوات مصنوعة من الصوان والزجاج الطبيعي والعظم تعكس معالم «الحضارة النطوفية»، إلا أن هذه المستوطنة الأولى في اريحا تعتبر سابقة لعصر الحجر الحديث وممهدة له.

لكن هذه الجماعة الأولى التي سكنت أريحا لم تباشر ببناء منازل أكثر متانة من الأكواخ البدائية إلا في مرحلة تالية تُعرَّف أثرياً باسم «عصر الحجر الحديث السابق للخزف[2] Pre - pottery - Neolithic. وقد جاءت هذه البيوت المبنية من اللبن دائرية، تقلد، في شكلها العام، أكواخ المرحلة السابقة، ولكنها تعبّر عن تطور بنائي، تحقق على أيدي جماعة النطوفيين، صيادي العصر الحجري الوسيط. ويلاحظ مثل هذا الترابط مع المرحلة السابقة، سواء في أريحا أو في كهوف الكرمل، في استعمال الأدوات نفسها، كشفرات المناجل والسهام والقُدم والمخارز... وحجر الزجاج الطبيعي المستورد من الخارج. فآثار أريحا تقدم شواهد أكيدة تشرح عملية الانتقال من حياة التنقل والصيد إلى حياة الاستقرار والانتاج الزراعي. وتتضح هذه المعالم الحضارية في اتساع نطاق القرية الجديدة التي غطت أثارها التل بكامله (حوالي خمسة هكتارات)، وأخذت طابع المدينة عندما أحيطت (حوالي 7000 ق.م) بأسوار مبنية من الحجارة لا تزال أثارها باقية في الجهة الغربية حتى ارتفاع 3.7م. وهنا بنى، داخل السور، برج كبير من الحجارة يتضمن

---

1 ـ راجع: Archaeology in the Holy Land, p. 43, 330 f. cf. CAH, I – I, 509 f.

2 ـ K. KENYON, Archaeology in the Holy Land, 43.

سلما مؤلفا من 22 درجة[1]. وبالرغم مما تعرض له هذا البرج فإن ما تبقى منه يصل إلى ارتفاع 9 أمتار[2]. ويقدر سكان هذه القرية، استناداً إلى مساحتها وكثافة بيوتها، بحوالي 3000 نسمة، كانوا يعيشون فيها بشكل دائم. ومثل هذا العدد من السكان لا يمكنه الاكتفاء بالصيد وجمع الثمار والأعشاب البرية، وكان لا بد له من اللجوء إلى مصادر معيشية أخرى تشكل عاملاً مهماً في حياة القرية. ولئن لم يعثر على بقايا حبوب نباتية، فإن تواجد بعض الأدوات الحجرية، (كالمطاحن والمدقات بالاضافة إلى المخازن) يشير إلى نوع من الحياة الزراعية. لكن لم يتوافر من الشواهد ما يؤكد تدجين الحيوانات، ربما عدا الماعز[3]، لأن إنسان أريحا كان ما يزال في هذه المرحلة، يعتمد على صيد الحيوانات، وبخاصة الغزال. ولعله كان من عوامل ازدهار هذه القرية التجارة[4]، إذ كانت أريحا تستورد حجر الزجاج الطبيعي من الأناضول، ويحتمل أنها كانت تصدر مما لديها من مواد أولية في منطقة البحر الميت، كالملح، والقار (الحمر)، والكبريت. بيد أنه يصعب تحديد أهمية دور التجارة في اقتصاد المدينة، سيما وأن وسائل النقل كانت معدومة، وتكاد تقتصر على الانسان نفسه.

هكذا، بعد مضي ما يقارب 2000 سنة من أول محاولة استقرار في أريحا، تشكل (حوالي 7000 ق.م) أول مجتمع صغير ـ انعكست بعض ملامحه في بناء البرج الكبير والسور الذي يحيط بالمدينة، وفي إقامة أحواض الملح والحفاظ عليها، ثم في بناء خزانات المياه، وتوزيع الانتاج، وإقامة علاقات تجارية مع الخارج... هذه كلها كانت من الأمور التي تطلبت عملاً جماعياً وتنظيماً خاصاً على صعيد المدينة[1].

لكن أريحا تعرضت في أواسط هذه المرحلة لأحداث ما تزال غامضة كانت السبب

---

1 ـ المرجع نفسه 44.

2 ـ المرجع نفسه، الصورة رقم 7.

3 ـ F.ZEUNER, History of Domesticated Animals, London, 1963, 132 F. cf. CAH, I - I, 501.

4 ـ E. ANATI, Palestine before the Hebrews, London, 1963, 246 ff.

3 ـ لم تكن أريحا المركز الوحيد في فلسطين الذي شهد مثل هذا التطور، إذ لوحظ وجود آثار ترجع إلى هذا العهد الباكر من عصر الحجر الحديث في عدة أماكن، سواء على الشاطىء (وادي فلاح)، أو في الداخل (قرب جرش). راجع: J. PERROT. Palestine.

في تدمير قسم منها. لذا هجرها سكانها وأهملت لفترة من الزمن، ثم استوطنتها، بعد ذلك جماعات جديدة يحتمل أنها تنتمي إلى قسم آخر من النطوفيين كانوا يقيمون في مناطق أخرى من فلسطين، واحتفظوا ببعض معالم حياة الرحل. ولكن يرجح أن هؤلاء عرفوا الاستقرار قبل ذلك الوقت، وربما كانت لهم تقاليد خاصة في البناء وفي صناعةالأدوات تؤكد أنهم أتوا من الخارج[1].

وفعلاً كان البناء من أبرز مظاهر هذه الفترة إذ رممت الأسوار القديمة وشيدت البيوت، ذات الغرف المتعددة والمتوازية الاضلاع، من اللبن وطليت جدرانها وأرضها بالكلس. ووجدت بين أنقاض أريحا لهذه الحقبة أثار بناء ديني يحتمل أنه كرس لعبادة عدة آلهة، إذ عثر في داخله على ثلاثة تماثيل فخارية تمثل رجلاً وامرأة وطفلاً، لعل لها علاقة باعتقادات دينية مشتركة، وهي تشكل بالتالي أقدم ثالوث ديني عرف حتى الآن[2].

ولعل أغرب ما وجد في اريحا الجماجم الانسانية التي نزع عنها الحنك الأسفل، ثم طليت بمادة صلصالية، ورصعت فيها العيون بالصدف، في محاولة لاعطائها مظاهر طبيعية حية[3]. وعثر داخل القرية على هياكل عظمية (ولكن باعداد تفوق الجماجم التي وجدت منفصلة عنها) نزعت عنها الجماجم ما عدا الحنك الأسفل. يؤكد اكتشاف هذه الهياكل العظمية التي فصل عنها الرأس أن أصحابها هم من سكان القرية نفسها ويُستبعد أن يكونوا أسرى حرب. ونظراً لاهتمام سكان أريحا بهذه «الجماجم ـ التماثيل» وحفظها والاعتناء بها يظن أنهم

---

1 ـ BRAIDWOOD and G.N. WILLEY, Courses toward Urban Life. Chicago, 1962, 151, cf. CAH, I – I, 503.

2 ـ CAH, I – I, 503 – 4; K. KENYON, op. cit., 47 , 48.

وان كنا نجهل مصادر هذه الجماعات التي استوطنت أريحا فإنه لا بد من الاشارة إلى بعض أوجه الشبه التي تقدمها لنا آثار أريحا وبعض المراكز الشمالية ابتداء من تل الرماد، جنوبي غربي دمشق، حتى تشاتال هيوك وهاكيلار في الأناضول. ويتجسد هذا التقارب بين مختلف هذه المراكز في استعمال أدوات حجرية متشابهة، وفي طلاء جدران الغرف وأرضها بالجص، وتلوينها أحياناً، ثم في التقاليد المدفنية المتمثلة في حفظ الجماجم بمعزل عن الجسم.

راجع: J. PERROT, op. cit., 153 ff.

3 ـ K. KENYON, op. cit., 51.

كانوا يتبعون نوعا من الطقوس التي ترتبط بعبادة الرؤوس الانسانية، ربما للاحتفاظ بأرواح أسلافهم.

يستنتج من ذلك كله أن تطورا محليا تحقق على أيدي سكان أريحا في الألفين الثامن والسابع، وتجسّد في الانتقال تدريجيا من حياة الصيد والبداوة إلى حياة الاستقرار القائمة على الزراعة وتدجين المواشي. إلا أن هذه المراحل الأولى من العصر الحجري الحديث كانت سابقة لظهور الخزف الذي لم يعرف إلا في فترات تالية. ففي ذلك الوقت كانت تستعمل، إلى الأواني الخشبية والأوعية الجلدية، أوانٍ حجرية دقيقة الصنع[1]، فضلاً عن الأدوات الأخرى المميزة لعصر الحجر الحديث، كالمطاحن اليدوية والمدقات، ولا سيما شفرات المناجل التي تدل على أهمية الزراعة وتطورها. بينما تصبح رؤوس السهام (وهي الأدوات التي ارتبط وجودها وتطورها بصيد الحيوانات) نادرة بسبب هذا التحول المهم في اقتصاد الجماعات الأولى التي استوطنت أريحا. فاقتصادها بات يقوم لا على الصيد الذي فقد دوره كمصدر رئيسي في حياتها المعيشية، بل على الزراعة وتربية الحيوانات التي كان قد دجن منها الكلب والماعز[2]، في حين يبقى الأمر ملتبساً في ما يتعلق بحيوانات أخرى، كالخنزير والبقر والغنم، التي لم يتأكد تدجينها على الرغم من الحفريات في اسفل تل أريحا. ويبدو أنه كان لسكان أريحا، من جهة أخرى، علاقات «تجارية» مع بلاد مجاورة، أو بعيدة، يصدرون إليها ما ينتجونه أو ما يتوافر في بلادهم من مواد أولية، ويستوردون منها ما يحتاجون إليه من سلع تجارية، كالفيروز من سيناء، والأصداف من شواطىء البحر المتوسط، وحجر الزجاج الطبيعي من الأناضول[3].

لكن أريحا، وهي أحد أهم المواقع التي انتقل سكانها تدريجياً إلى حياة الاستقرار وبداية التحضر، لم تكن المركز الوحيد الذي شهد مثل هذا التحول في العالم القديم. ذلك أن مجموعة من القرى عاشت حالات مماثلة، انتشرت في منطقة واسعة تمتد من التلال الايرانية إلى المتوسط، مروراً بهضبة الأناضول وفلسطين ومناطق أخرى، مثل حماه وتل الجديدة وتل عطشانه وتلال العمق في شمالي سوريا، ورأس شمرا وجبيل على الشاطىء الكنعاني، ومرسين

---

1 ـ المرجع نفسه، 52 ـ 53.

2 ـ K. KENYON, Archaeology in the Holy Land, 49.

3 ـ F. ZEUNER, op. cit., 93, 131: K. EKNYON, op. cit., 50.

وهاكيلا وتشاتال هُيُوك في الأناضول، وجرمو وحسونه في أعالي دجلة والفرات، ثم سيلك وعلي كوش... في ايران.

إن وصول حجر الأوبسيدين من أواسط الأناضول إلى أريحا في العهد النطوفي الأخير، ربما بعد سنة 8300 ق.م، ووصول أصداف البحر الأحمر إلى تشاتال هيوك VII (حوالي 6200 ق.م)، في جنوبي غربي الأناضول، يؤكد أن التجارة عبر سوريا قد عرفت منذ عهود مبكرة جداً، لكننا نجهل كثيراً من ملامح حضارة هذا العهد ولا نعرف سوى النذر اليسير عن الشعب الذي قام بمثل هذا الدور في العلاقات الخارجية، بالرغم من حفريات رأس شمرا، شمالي اللاذقية وتل الرماد، جنوبي غربي دمشق. إلا أن التطور الحضاري لهذه الفترة في سوريا يبدو أنه على علاقة بحضارة «ما قبل الخزف» (B)في أريحا، وبيضا، قرب البتراء، ووادي الأردن بشكل عام. وقد تبين أن تاريخ هذه الحضارة يرجع، استناداً إلى الكربون 14، إلى الألف السابع، وقد تميزت ببيوتها الفسيحة، حسنة البنيان، المؤلفة من عدة غرف (غرفة رئيسة وغرفتين جانبيتين تحيط بفسحة خارجية)، والمطلية جدرانها وأرضها بالكلس الملونة أحياناً باللون الأحمر أو البني. كما امتازت هذه الحضارة بطقوس مدفنية خاصة ترتبط بعبادة الأجداد المتمثلة في حفظ الرؤوس أو الجماجم المطلية بالجص والمفصولة عن الجسم. يظن البعض أن هذه الحضارة وصلت متكاملة إلى فلسطين من الخارج، ربما من الشمال، ولذا فهي تشكل انقطاعاً تاماً مع الحضارة السابقة المعروفة باسم «ما قبل الخزف» (A).

لكن الحفريات الأثرية في رأس شمرا وفي تل الرماد ألقت بعض الأضواء حول هذا الموضوع. وقد لُوحظ أن أقدم آثار هذين المركزين ـ رأس شمرا (VC) وتل الرماد (IB, IA) تتضمن بيوتا تشبه أريحا، إذ طليت أرضها أيضاً بالكلس، إنما لم تلون باللون الأحمر. وبالرغم من غموض الملامح البنائية، يلاحظ وجود مثل هذا التقارب مع أريحا في الأدوات الحجرية، كالمطاحن اليدوية من حجر البازلت والمدقات والأدوات والأسلحة من الظران والاوبسيدين (أزاميل، شفرات، مناجل، ورؤوس سهام مثلومة أو مذنبة....). وفي هاتين المستوطنتين، لم يتعرف السكان إلى الخزف في حين أنهم صنعوا صوراً حيوانية طينية. وفي حين دجن الماعز في اريحا لم يعثر في تل الرماد سوى على عظام حيوانات متوحشة كالغزال والوعل. هذا ويلاحظ أن التشابه الحضاري العام بين اريحا (في مرحلة العصر الحجري الحديث السابق للخزف B) وتل الرماد أكثر وضوحاً مما هو عليه بين اريحا وراس شمرا في الفترة نفسها.

وحدد تاريخ هذه المرحلة استناداً إلى الكربون 14 كما يلي 6665 + 100 و 6436 + 10 بالنسبة لبداية ونهاية هذه المرحلة في رأس شمرا (VC)، في حين حدد تاريخ المرحلة التالية في تل الرماد (أي تل الرماد II) ما بين 6250 + 80 و 5950 + 50، أي أن تل الرماد (I) ينتهي قبل 6250ق.م.

وتتضح معالم هذا التطور في تل الرماد II (ما بين 6250 و 5950) التي تشكل أكثر مراحل هذه المدينة ازدهاراً، حيث بنيت المنازل (بحسب تصاميم مستطيلة) باللبن فوق أسس حجرية. أرضها من التراب المرصوص، المطلي أحياناً بالجص، تماما كما في العهد السابق.

تقاليدها المدفنية تشبه أريحا «ما قبل الخزف»، إذ وجدت فيها أيضاً جماجم مطلية بالجص. أمّا الزراعة فتطورت نتيجة استثمار نباتات جديدة (اللوز والخوخ والفستق) أضيفت إلى ما كان قد عرف سابقاً (القمح والعدس...)، وتم تدجين الخنزير، وربما الغنم والماعز. لذا يحتمل أن تل الرماد معاصر لنهاية ما قبل الخزف B في أريحا. وقد وصلت إلى تل الرماد بعض المكتشفات الجديدة من شمال سوريا، متمثلة بنوع خاص من الخزف، أبيض اللون، تقلد أشكاله الأواني الحجرية من العهد السابق، يرافقه فخار آخر رديء الصنع، سريع التفتت. إلا أن هذا الخزف الطباشيري قد اقتصر استعماله على منطقة غربي سوريا ولم يصل إلى فلسطين. فنجده، في وقت أكثر قدما، مباشرة بعد 6400، في راس شمرا (VB)، وفي تل سوقاس، وفي حماه، على العاصي، كما نجده في جبيل، في السويات السفلى، إلى جانب خزف أسود مصقول يعتقد أن الأناضول هي المصدر الرئيسي له. وقد عرفت جبيل في السويات السفلى (حوالي 6000 ق.م.) هذا الخزف الأسود المصقول تزينه أحياناً خطوط محفورة أو مطبوعة بواسطة الصدف. كما كان يطلى أحياناً بطلاء كلسي شفاف من الداخل والخارج.

هكذا شهدت سوريا تطوراً خاصاً بها انطلاقاً من حضارة سابقة لخزف راس شمرا (VC)، وعرفت بعد ذلك أنواعاً مختلفة من الخزف. ففي رأس شمرا (VB)، يحتمل أن الخزف الطباشيري الأبيض يمثل محاولة محلية لتقليد الأواني الحجرية، إلى جانب انتاج خزف مصقول أسود، وخزف آخر أحمر أو بني مزجت تربته بالحصى الناعم، يحتمل أنه تأثر عن طريق قيليقيا، بخزف مشابه في الأناضول. فإن حفريات تشاتال هيوك، في سنة 1965، قدمت الشواهد على انتاج خزف بدائي مصقول، رمادي اللون، مزجت تربته بالقش والحصى الناعم، وذلك ابتداء من السوية (XIII) حوالي 6750 ق.م). ويحتمل أن خزف سوريا جاء خالياً من

التزيين، أضيفت إليه عناصر تزينية طبعت عليه بواسطة الأصداف. وبتطور هذا النوع الجديد من الخزف زال الفخار الأبيض نهائياً بعد أن عرف انتشاراً كبيراً في سهل البقاع.

يبدو أن أول محاولة استقرار في جبيل تعود إلى العصر الحجري الحديث الذي يبدأ في هذا الموقع حوالي 6000 ق.م، اي قبل فترة قصيرة من نهاية رأس شمرا (VB) والعمق (A)، ويتميز بدوره بالبيوت المتوازية الأضلاع والتي لم يبق منها سوى الأرضية المطلية بالجص، تماماً كما في تل الرماد وأريحا ما قبل الخزف. ويتبين من الصور والأختام الطينية، والأدوات الحجرية وجود بعض أوجه الشبه مع تشاتال هيوك (VI) (حوالي 6000). وفي حين بقي الأوبسيدين نادراً، فقد استوردت الفؤوس المصنوعة من حجر الديوريت الأخضر. بيد أن شفرات المناجل المسننة، التي لم نجد ما يقابلها في الأناضول، تشبه أدوات مماثلة في تل الرماد (II). قد نجهل الكثير عن اقتصاد مدينة جبيل، إلا أنها عرفت زراعة القمح (Emmer) كما في العمق (A).

ويتزامن العصر الحجري الحديث الأسفل في جبيل مع كل من رأس شمرا (VA)، والعمق (B)، ما بين 6000 و 5450 + 80 ق.م، حيث يلاحظ استمرار البناء المتوازي الأضلاع، المرافق لتطور الخزف الأسود المصقول، ولظهور خزف جديد، عادي وبسيط، ذو عناصر تزيتية محفورة يعتقد أنها على صلة بخزف حسونة. كما ظهرت في نهاية هذه المرحلة أولى الخزفيات الملونة (أحمر على أساس رمادي فاتح).

أما الصناعات الحجرية فتشكل تطوراً للعهد السابق. ويبدو أن الحجر الزجاجي وحجر الديوريت الأخضر استوردا من الأناضول، ربما عن طريق التبادل بحجر الظران من النوعية الجيدة.

في هذا الوقت الذي شهدت فيه منطقة غربي سوريا تطورا متتاليا من الألف السابع حتى بداية عهد حلف (5300 ق.م)، شهدت المناطق الجنوبية توقفاً وانقطاعاً حضارياً شبه كلي. ففي الأردن وفلسطين، أهملت حوالي 6000 ق.م، مراكز ما قبل الخزف (B)، ولم تصلها مظاهر سوريا ولبنان الحضارية، إذ يبدو أن هذه المراكز الجنوبية، على الرغم مما شهدته من تطور في السابق رجعت، لفترة طويلة من الزمن، إلى حالة من حياة البداوة، يشرحها الفراغ الكامل في الشواهد الأثرية.

## II ـ أعالي الرافدين

هذا التطور الذي شهدته منطقة الشرق الأدنى وتوضحت بعض معالمه منذ الألف الثامن (ربما قبل هذا التاريخ) في أريحا (شمالي فلسطين) والمريبط (شمالي سوريا)، تركز بعد ذلك في عدد من المواقع العراقية الشمالية مثل جرمو وحسونة. بيد أن هذه المنطقة الشمالية[1] قد عرفت قبل ذلك مرحلة انتقالية ظهرت آثارها في مواقع أخرى كزاوى جمي ـ شايندر وكريم شاهير وملفعات[2]... ويبدو أن أقدم محاولة استيطان شهدتها هذه المنطقة كانت في زاوي جمي، الواقعة على بعد كلم واحد من الزاب الكبير، وعلى ارتفاع 425م (في محافظة أربيل). وجدت فيها بقايا أكواخ دائرية (قطر الواحد منها حوالي 4 م) بنيت جدرانها من حجارة النهر الطبيعية، وعثر في داخلها على مجارش، وحجارة الرحى، وأجران، ومقابض عظمية للفؤوس. لكن، مع ذلك كانت زاوي جمي[3] ما برحت تعتمد في اقتصادها على الصيد، وليس لدينا ما يؤكد

---

1 ـ نجد في هذه المنطقة العراقية الشمالية آثاراً ترقى إلى العصر الحجري القديم الأسفل من الطراز المعروف باسم الأشولي (Acheuléen)، وذلك في «برده بلكا و «بلكا»، قرب جمجمال، في محافظة كركوك. كما عثر على بقايا أثرية من الفترة اللاحقة، المعروفة باسم «الموستيري» (Mousterien)، في كهف هزار مرد (محافظة السليمانية)، وفي كهف شانيدر (محافظة أربيل). ويعتقد أن هذا الموقع الأخير، الذي وجد فيه هيكل عظمي كامل الجمجمة ينتمي إلى انسان النيندرتال، كان، في الفترات اللاحقة، بمثابة المقر الشتوي للجماعة نفسها التي كانت تمضي الصيف في زاوي جمي القريبة منه. كما أننا نجد آثاراً ترجع إلى العصر الحجري الأعلى (أورينياسي Aurignacien) في عدة أماكن وبخاصة في جبال برادوست، في كهف زرزي (محافظة السليمانية)، وفي الطبقات العليا من كهفي هزار مرد وشانيدر، كما في سنجار والصحراء الغربية قرب الرطبة.

2 ـ تعود آثار هذه المواقع الانتقالية، في قسم منها، إلى الفترة الزمنية المعروفة باسم العصر الحجري القديم الأوسط.

3 ـ كانت التحريات الأثرية قد تركزت، حتى نهاية الحرب العالمية الثانية، في المناطق السهلية من العراق الشمالي. ثم تحولت بعد ذلك باتجاه سفوح التلال، في جبال زغروس ومنطقة الكردستان العراقي، على أيدي البعثات التي أرسلت من قبل المعهد الشرقي في شيكاغو (باشراف بريدوود Braidwood) وهووه (Howe). وتم الكشف عن حضارات قديمة ترجع إلى ما بين العصر الحجري الأعلى وعهد حسونة. كما رافق ذلك أعمال تنقيب قام بها سولوكي (R.L., R.S. Solecki) في منطقة الزاب الكبير، وأدت إلى اكتشاف كهف=

أنها تحولت فعلاً إلى قرية زراعية. أما تاريخ هذه المستوطنة فيعود ـ استناداً إلى الكربون 14 ـ إلى أواخر الألف العاشر ق.م، أي أنها معاصرة، على ما يبدو، للحضارة النطوفية في فلسطين. ويلاحظ، من خلال التحولات التي طرأت على مجموعة الأدوات الحجرية، أنها استخدمت لفترة زمنية طويلة لم يعرف خلالها الخزف ولا التماثيل الطينية الصغيرة. لكن، خلافاً لما شهدناه في فلسطين، حيث أن عدداً من المراكز النطوفية، مثل أريحا وبيضا، يمثل حقبات زمنية مترابطة ومتتالية ويشرح بالتالي عملية التطور، فإنه لم يعثر حتى الآن في شمالي العراق، على مواقع أثرية يمكن أن تجسد مثل هذه الحقبات المتعاقبة، والانتقال من زاوي جمي إلى حضارة «جرمو». فإن بعض المواقع مثل كريم شاهير (في محافظة كركوك)، وملفعات (محافظة نينوى) قد تشكل مرحلة انتقالية من العصر الحجري القديم الأعلى إلى العصر الحجري الحديث، ولكن لا يزال يوجد فراغ زمني كبير ما بين نهاية زاوى جمي 8500 ق.م، وبداية جرمو ما بين 7000 و 6500 ق.م.

يمثل موقع كريم شاهير مستوطنة فصلية شبيهة بزاوي جمي، تجسد بعض ملامح عملية الانتقال إلى حياة الاستقرار، إذ عثر فيها ـ على خلاف زاوي جمي ـ على شفرات مناجل، يُرجح أنها استعملت في حصد النباتات البرية، وعلى بقايا عظام حيوانات داجنة. وللمرة الأولى تظهر في هذه القرية الصغيرة حلقات صغيرة أو خواتم حجرية وأساور ودمى طينية مشوية. وقد وجدت آثار مشابهة في ملفعات (الواقعة ما بين أربيل والموصل) يحتمل أنها ترجع إلى المرحلة الأخيرة من كريم شاهير، إذ تظهر فيها آثار جدران دائرية بنيت من الحجارة، وتكثر فيها الأدوات الحجرية المصقولة والحادة.

---

= ومستوطنة شانيدار. ثم قامت، من جهة ثانية، البعثات الدانماركية ـ بإدارة انغولت (H. Ingholt) بحفريات أثرية مهمة في تل جحجار بالقرب من دوكان دام. كما أن بعثة أميركية (باشراف هول F. Hole) تابعت أعمال التنقيب بنجاح كبير في ده لوران عند أسفل تلال الخوزستان، وتتابعت الأعمال الأثرية في السنوات الأخيرة باشراف عدد كبير من البعثات الأجنبية والعراقية في مناطق عديدة من العراق، منها في حوض نهر حمرين حيث تم الكشف عن آثار ترجع إلى العصر الحجري الحديث....

## 1 ـ جَرْمو

بيد أنه لا تتضح معالم العصر الحجري الحديث إلا في جرمو[1]، الواقعة في سهل جمجمال، شرقي كركوك. وجرمو عبارة عن قرية صغيرة (تقدر مساحتها بحوالي 14000 م²)، إذا ما قيست بمساحة أريحا (حوالي 40500م²) أو تشاتال هيوك (حوالي 129،600م²). وقد عثرت أعمال التنقيب فيها على ست عشرة سوية أثرية تؤكد أن سكانها (الذين يقدرون بحوالي 1500 نسمة) عاشوا في هذا الموقع، بشكل متواصل، فترة طويلة من الزمن. لكنها لم تعرف الخزف إلا في السويات العليا منها. وتشكل جرمو مرحلة جديدة من مراحل عصور ما قبل التاريخ في شمالي الرافدين، إذ تتمثل فيها حياة الاستقرار الفعلي، في قرية زراعية كانت حاصلاتها القمح (بعضه قريب من اصوله البرية (Emmer)، والشعير، والبازيلا، والعدس والفستق، كما عرفت أنواعاً متعددة من الحيوانات الداجنة، كالماعز والخنزير والكلب، علماً بأن سكان جرمو مارسو أيضاً، في المراحل الأولى، صيد الغزلان والأغنام والأبقار.

سكن هؤلاء المزارعون، أولاً، في أكواخ دائرية، ثم ما لبثوا أن شيدوا بيوتاً متوازية الأضلاع متعددة الغرف، بنيت جدرانها اما من الحجارة الطبيعية غير المنحوتة، واما من الطين الذي وضع، أحياناً، (بخاصة في السويات العليا) فوق أسس حجرية. هذا واستخدم الجص في طلاء الجدران، وكذلك أرضية الغرف بعد أن فرشت بطبقة من القصب. وجهزت هذه المنازل بمواقد أو أفران لشي الخبز، إنما لم يتعرف سكانها على الخزف إلا في الفترات الأخيرة من تاريخها. ومن الحجارة أيضاً، صنعوا بعض الحلي، كالعقود، والأساور، والأدوات (من حجر الصوان والزجاج الطبيعي البركاني) التي امتاز بها العصر الحجري الحديث بوجه عام، كالسكاكين وشفرات المناجل (كانت تثبت في مقابض خشبية بواسطة القار)، والفؤوس المصقولة، والأجران، والمجارش (المطاحن اليدوية). وفي جرمو تظهر ايضاً أولى التماثيل الطينية الصغيرة التي تمثل ربة الأمومة وبعض الحيوانات. أما بالنسبة إلى الخزف الذي يظهر في السويات الخمس العليا فإنه يشكل مجموعتين متمايزتين. الأولى تبدو أكثر اتقانا من الثانية، إذ زينت بعناصر ملونة (حمراء على أساس أصفر برتقالي).

وعرّف هذا الخزف باسم «خزف جرمو الملون» الذي يرتبط، على ما يبدو، بنماذج خزفية وجدت في الجهات الشرقية، في تبة غوران، في إيران. ويتبين من دراسة هذه الأواني الخزفية، سواء في جرمو، أو في تبة غوران، أو تبة سراب، أن نهاية جرمو تعود إلى ما بين 6000

خزف سامراء، الالف الخامس ق.م.

و 5500 ق.م أي تاريخ بداية «حسونة» التي تتجسد فيها عملية الاستقرار الدائم في سهل الرافدين الرسوبي.

## 2 ـ حسونة

مع بداية الألف السادس ق.م، شهدت منطقة أعالي الرافدين تطوراً زراعياً مهماً، بانتقال مراكز الاستيطان من المناطق الجبلية إلى السهول المجاورة في الشمال. وتتمثل هذه المرحلة بعدد من المراكز مثل حسونة (على بعد 20 كلم جنوبي الموصل) وتل الصوان وسامراء، الواقعتين على نهر دجلة، شمالي بغداد. وتعتبر حسونة، التي تلي عملية الاستقرار في جرمو، أقدم مستوطنة في سهل الرافدين، وتشبه في كثير من معالمها القرى الأخرى، في نينوى ومطاره، كما أنها تلقت بعض التأثيرات الخارجية. وحسونة، التي استوطنت لفترات زمنية طويلة، عرفت عدة مراحل يجسدها تراكم أنقاض القرى المتعاقبة في المكان نفسه[1]. فالسوية الأولى (IA) تتضمن آثار أول وأقدم محاولة استقرار في هذا السهل، ممهدة للاستقرار الفعلي والدائم في هذا الموقع نفسه. وتتمثل المرحلة التالية من تطور هذه القرية الزراعية في حسونة (IB) وفي السوية الأولى في تل الصوان (I) الذي يعتبر أقصى قرية ممثلة لحضارة حسونة باتجاه الجنوب. وكان للحفريات العراقية الحديثة في تل الصوان أثر مهم في توضيح بعض معالم حضارة حسونة وفي تحديد بداية تاريخها (أوائل القرن السادس ق.م).

يتبين من دراسة آثار حسونة وتل الصوان مدى ما حققته هذه القرية من تطور في مختلف المجالات. ففي الزراعة تحسنت نوعية الحبوب المنزرعة، نتيجة للخبرة الطويلة في انتقاء الأنواع الجيدة منها. كما زرعت أنواع مختلفة من القمح والشعير والنباتات الأخرى وبخاصة بذر الكتان الذي يتطلب مياهاً كثيرة ويؤكد بالتالي تطور عمليات الري. أما في مجال البناء، فقد ظهرت، إلى جانب الأشكال الدائرية، بيوت متوازية الأضلاع، متعددة الغرف، شيدت من الطابوق حول باحات خارجية وعلى جانبي طرقات عامة.

وفي تل الصوان، يعتقد أنه كُرّس أحد البيوت الكبيرة للعبادة، إذ وجدت فيه مجموعة من التماثيل الصغيرة لربة الأمومة وعدد من الأواني الحجرية الرخامية كما عثر على نماذج مشابهة لهذه الأواني في المدافن التي وجدت تحت هذا البناء، بالاضافة إلى الأواني الخزفية والتماثيل الرخامية الصغيرة التي رصعت عيون البعض منها بالصدف المثبت بواسطة القار. وتتضح

معالم هذا التطور في المراحل التالية من حياة هذه القرية، وذلك في حسونة الثالثة وحتى الخامسة (III – V) التي تشكل أعلى ما توصلت إليه هذه الحضارة. ومثل هذا التطور يلاحظ أيضاً في كل من مطاره، وتل الصوان (III – V). وقد انعكس هذا التطور في البناء بشكل خاص، حيث أصبحت البيوت تتألف من عدة غرف متفاوتة الأحجام وتدعم جدرانها من الداخل اسناد لاصقة، وتحتوي على أرصفة أو أفاريز جانبية، وحواجز، ومواقد وأفران، ومخازن لحفظ الحبوب حفرت في الأرض وطليت بالقار أو الكلس. وقد رافق هذا التطور في البناء تطور مماثل في صناعة الأدوات الزراعية، كالمجرفة التي صنعت من حجر الكورتز والحجر الرملي، وغالباً ما كانت تثبت بواسطة القار في مقبض خشبي. هذه الأداة، التي يعتقد أنها استعملت في الزراعة، بقيت نادرة في المناطق الأخرى في الشرق الأدنى. وثمة أداة تشبه الفأس (Celt)، هي من الأدوات الشائعة الاستعمال في النجارة. ووجدت أدوات أخرى، كالشفرات والمناجل، صنعت من الصوان أو من الزجاج البركاني الذي استورد من مناطق شمالية يصعب تحديدها. ويؤكد وجود حجر الأوبسيدين والفيروز علاقات حسونة بأقاليم مختلفة في الخارج. ومن الأدوات المهمة أيضاً المغازل التي تشير إلى حياكة الصوف.

لكن أبرز معالم حضارة حسونة تتمثل بوجود أنواع مختلفة من الخزف الذي شُوي على درجة حرارة عالية. ويظهر الخزف في حسونة مع السوية الأولى (IA)، حيث نجد إلى جانب عدد قليل من الأواني (الصحون) المصقولة الناعمة مجموعة كبرى من الفخار التقليدي الشائع الاستعمال، الذي مزجت تربته بالقش. وهذا الفخار، الخالي من العناصر التزينية، المحفورة أو الملونة، يشبه خزف السويات العليا في جرمو، وعرف انتشاراً كبيراً، من تل حلف في الشمال الغربي حتى منطقة شوش في الخوزيستان. لذا يحتمل أن هذه الفخاريات العادية كانت الأصل لأشكال خزفية شتى تفرعت عنها في أماكن عدة. إلا أنه، في قليقيا وسوريا الشمالية، رافق هذا النوع من الأواني الفخارية خزف آخر اسود مصقول، قد يعود بأصوله إلى الأناضول، ولم يعرف في شمالي العراق ولا في الخوزيستان، ولكنه يظهر في حسونة ابتداء من السوية (IB). وهناك خزف جديد يتمثل، بحسب تطوره، في أنماط انشائية مختلفة، إنما تجمع في ما بينها تقنية واحدة وعناصر تزينية ـ محفورة أو ملونة ـ مشتركة.

هذه الأواني الخزفية هي ـ في حسونة الثانية (II) ـ بدائية ملونة باللون الأحمر (Archaic

(paintedware)، أي أنها زينت بعناصر خطية (متوازية ومتقاطعة) حمراء اللون[1]، تبدو مبسطة وساذجة إذا ما قارناها بخزف «تبة غوران» و «تبة سراب» في ايران و«هاكيلار» في الأناضول، في حين تبدو أقرب إلى خزف شمالي سوريا وقليقيا، وذلك لاحتفاظها بشيء من القساوة والباسطة. ويتطور هذا الخزف نفسه تطوراً كبيراً (سواء في اشكاله أو في عناصره التزينية) في السويات التالية في حسونة (V - III)، ويقسم إلى ثلاث مجموعات. الخزف «النموذجي الملون» (Standard painted ware)، والنموذجي المحفور، والنموذجي الملون والمحفور (Standard incised ware). أشكاله تبدو أكثر اكتمالاً واتقاناً مما كانت عليه في السابق.

### 3 ـ سامراء

عرفت هذه المنطقة الشمالية في وادي الرافدين طرازاً خزفياً جديداً يعرف اصطلاحاً باسم خزف «سامراء»[1] نسبة إلى المكان الذي اكتشف فيه للمرة الأولى. إلا أن هذا الخزف الجديد الذي عثر عليه في مقبرة سامراء، الواقعة شمالي بغداد، قد ظهر في أماكن عدة من شمالي العراق، كما في حسونة نفسها، ابتداء من السوية الثالثة. وانتشر خزف سامراء في منطقة واسعة[2]، إذ يلاحظ تواجده في يونس (قرب كركيمش) وسكاجية جوزيه (Sakcagözü)، والعمق، والخابور وكذلك في نينوى ومطاره وشاغار بازار... كما وصل تأثيره حتى أريدو (جنوب العراق)، وشوش (جنوبي غربي إيران). ولكن بالرغم من انتشاره الواسع، فإن هذا الطراز الخزفي لا يشكل بحد ذاته حضارة مستقلة خاصة بسامراء، سيما وأنه لم يعرف شيء عن هذه المستوطنة سوى الخزف الملون (الأحمر، البني، أو الأسود، على اساس أصفر شاحب).

هذا الخزف الجديد يختلف كلياً عن خزف حسونة أو خزف أريدو الأنيق المعاصر، ويحتمل أن يكون على صلة بخزف غربي إيران، بخاصة في سيلك. ولكن مع ذلك لا تزال أصوله غامضة.

---

1 ـ وجد خزف آخر مصقول، زين بالحفر ويشبه في عناصره الطراز الأول في مطاره.

2 ـ عثر حديثاً على خزف سامراء في عدة مواقع عراقية وبخاصة في منطقة سد حمرين في وادي الديالى الأوسط.

وخزف سامراء، الذي عرف في النصف الثاني من الألف السادس (بعد 5300 ق.م)، هو أكثر تعقيداً في عناصره التزيينية من الخزف القديم في حسونة، ويعتبر من أجمل ما وصل إليه الخزف الشرقي القديم. ففي هذه الأواني الخزفية يحاول الخزاف أن يوفق بين الغاية والجمال الفني سواء في الشكل أو التزيين. فقد زينت بعناصر جديدة، اضافة إلى ما عرف سابقاً من خطوط متوازية ومتقاطعة أو متكسرة وأشكال أخرى هندسية، كالمربع والمستطيل والمثلث. هذه العناصر تجمع بين الرسوم التجريدية، والأشكال الصورية الطبيعية المستمدة من الواقع، ولكن بأشكال مبسطة مختزلة كأنما الغاية منها لم تكن تجسيد الشيء المرئي (المنظور) نفسه، بل الاشارة إليه[1]. وهي تصور الواقع الذي يعيشه إنسان ذلك العصر، بأسلوب متحرر، يعبر عن الحياة والحركة التي نادراً ما تظهر في الفنون الشرقية القديمة. فنرى فيها حلقات من الراقصين أو الراقصات، وحيوانات (وعول أو ايائل) تعدو، وعصافير طويلة الأعناق تحمل بمنقارها سمكة... ثم اشجار النخيل، وبرك المياه... ونرى على صحن جميل من طراز سامراء أربعة حيوانات (أيائل) في حلقة مستديرة حول الشجرة «المقدسة»، وعلى صحن آخر طيور ماء ذات أجنحة طويلة يحمل كل منها سمكة في منقاره. وفي سامراء يلاحظ انتقال الرسام من الفن الصوري الطبيعي إلى الفن التجريدي حيث لم يعد الحيوان يرسم بكل تفاصيله، إنما يشار إليه، وذلك بالتركيز على أبرز العناصر التي يمتاز بها. فتتحول مثلاً قرون الحيوان إلى مجرد خطوط هندسية كما تتحول إلى شكل صليب (صليب مالطا) صورة الحيوانات الواقفة حول بركة ماء.

## 4 ـ تَل حَلَف

في أواخر الألف السادس ـ أي بعد 5300 ق.م ـ عرفت منطقة شمالي الرافدين مرحلة جديدة تمثل، في هذه المنطقة، بداية عصر الحجر والنحاس، وتعرف باسم «حضارة حلف»، نسبة إلى المركز الأثري في تل حلف، الواقع على الخابور، قرب رأس العين، شمالي سوريا. إلا أن المركز الرئيسي لهذه الحضارة الجديدة يتمثل، كما بينت الحفريات اللاحقة، في أربجية، الواقعة بالقرب من الموصل. وحضارة حلف، التي تعتبر أول حضارة متكاملة، تتواجد آثارها في عدد كبير من المراكز الشمالية مثل: حسونة نفسها، ونينوى وشاغير بازار، وكركيميش، بالإضافة طبعاً إلى أربجية وحلف ومراكز عراقية شمالية عديدة. كان لحلف انتشار وتأثير كبيران في

منطقة واسعة تمتد من مقدمات زغروس إلى المتوسط وجبال طوروس، اضافة إلى مواقع في هضبة الأناضول نفسها، شرقي بحيرة فان، وفي مقاطعة ملاتيا. أمّا أصول هذه الحضارة، التي يختلف خزفها عن خزف حسونة وسامراء، فلا تزال غامضة، ولكن يُرجح، كما يشير إلى ذلك مالوان، أن يكون خزف حلف نتيجة لتطور خزف محلي عرف سابقاً في هذه المنطقة الواقعة ما بين الخابور ونهر دجلة[1].

يتبين من دراسة آثار أريجية أن هذه الحضارة عرفت مراحل مختلفة، وقد امتازت بأبنيتها الدائرية ـ إلى جانب بيوت متوازية الأضلاع ومتعددة الغرف ـ التي بنيت من الطين على أسس حجرية، وتراوح قطرها بين 5 و 10م، بحسب مراحلها. يرجح أن هذه البيوت ـ المؤلفة من غرفة دائرية كبيرة تتقدمها غرفة مستطيلة صغيرة ـ كانت معقودة. جدرانها متينة، بلغت كثافتها حوالي 2،5م. ظن البعض أن البناء الكبير الرئيسي في أربجية كرس للعبادة، إلا أن الحفريات الحديثة في بعض المراكز التركية قد كشفت عن آثار أبنية دائرية مشابهة قدمت الدليل على أنها ليست أبنية دينية بل مدنية، لاحتوائها على حفر لحفظ الحبوب ومواقد.

شهدت المنطقة تطوراً مماثلاً في الصناعات الحجرية، جعل من الزجاج الطبيعي والصوان مادتين رئيستين استعملتا بمهارة فائقة في صنع الأدوات والأواني الحجرية، وكذلك الأختام والتمائم والخرز، كما استعملت أيضاً أنواع أخرى من الحجارة كالستياتيت الأسود والبازلت وحجر النسفة أو حجر الصقل (Pumic – stone). وهنالك بالاضافة إلى الأدوات الزراعية التقليدية (المطاحن والمدقات...) عدد من الفؤوس المصقولة والمقامع. ويبدو أن المعادن لم تعرف في الرافدين إلا مع بداية حضارة حلف، إذ عثر في أربجية على أدوات صنعت من النحاس كالدبابيس والأزاميل (صنعت بالتذويب والصب في قالب)، وعلى أوراق من الرصاص. ويحتمل أن بعض الأواني الخزفية تقلد في أشكالها ومظاهرها نماذج من الأواني المعدنية.

أما خزف حلف فهو جميل جداً، متقن، ويعتبر من أبرز مظاهر حضارة حلف. وقد بلغ أعلى مراحل تطوره في المرحلة الثالثة أو الأخيرة من تطور هذه الحضارة. الخزف الجديد ناعم أملس السطوح تغطيه طبقة شفافة من الطلاء الصلصالي (Slip)، أصفر برتقالي اللون. زينت هذه الأواني بالأحمر والأسود ذي البريق، والأبيض أحياناً. وتتمثل هذه العناصر الملونة، والمحفورة أحياناً، بمجموعات من الخطوط المتموجة أو المتكسرة أو المتوازية، عمودياً وأفقياً، وضعت أحياناً داخل اطار خارجي. يضاف إليها عناصر تزينية طبيعية كالعصافير والوعول

والفهود، والحية، وبخاصة رأس البقرة (Bucrane). المرحلة الأخيرة من هذه الحضارة شهدت انتاجاً كبيراً من الأواني الخزفية (كالصحون الكبيرة ذات العناصر المتعددة الألوان والعناصر الأخرى المحفورة) التي تعتبر أجمل ما أنتجه الشرق الأدنى القديم في هذا المجال. ونظراً لهذا التطور الكبير في صناعة الخزف من طراز حلف قدر البعض أن هذه الأواني الخزفية قد صنعت على ايدي فئات من الاختصاصيين المهرة. ففي هذه المشاهد التصويرية يعبر الرسام عن دقة في الملاحظة وعن تحرر في رسم الأشكال وتجسيد الحركة. فهو يصور الاثيل يعدو، والظبي منطوياً على نفسه، والعصافير تطير بعد أن فوجئت بالخطر، كأنما أراد أن يُعبّر عن لحظة خاطفة سريعة، من خلال صور رسمت باختصار وتبسيط، وتحولت بالنهاية إلى أشكال زخرفية مجردة.

وإن كنا لا نعرف الشيء الكثير عن اقتصاد هذا العهد، إلا أنه يعتقد أن حلف اعتمدت الزراعة (القمح والشعير والكتان) وتدجين الماعز والغنم والأبقار، فرأس البقرة ورأس الكبش كانا من أبرز العناصر التزينية الخزفية. ومرة أخرى نستعين بالعناصر الزخرفية لتحديد بعض الصناعات التي عرفتها هذه البلاد الشمالية، إذ يحتمل أن كثيراً من هذه العناصر ذات الخطوط المتشابكة قد أخذت نماذجها الأولى عن الغزل والنسيج وصناعة الحصر والسلال.

يحتمل أن الأواني الخزفية صنعت بالأيدي ولكن على درجة حرارة عالية تقدر بحوالي 1200 درجة. الجواهر والمعادن والنسيج كانت تتطلب تخصصاً كاملاً، كان لا بد من تغطية نفقاته بفائض من الانتاج الزراعي أو بواسطة الأعمال التجارية. ولكن يبدو أن أربجية كانت تعتمد بشكل أساسي على الصناعة والتجارة أكثر من اعتمادها على الزراعة. إن استعمال الأختام وطبعها على الجرار يشير إلى وجود الملكية، مما يدفع للاعتقاد بأن نوعا من تبادل السلع كان يتم ضمن نظم اجتماعية خاصة. ويؤكد وجود هذا التبادل التجاري مع البلاد والأقاليم المجاورة استعمال الزجاج البركاني بكميات كبيرة في جميع القرى الحلفية، ووجود أصداف (في شاغير بازار) استوردت من الخليج العربي.

## III ـ الهضبة الايرانية

تختلف ايران في مظاهرها الطبيعية الجغرافية عن المنطقة المجاورة لها في وادي دجلة والفرات؛ فأنهارها قليلة وصغيرة ومعظمها يتكون من مياه الأمطار وذوبان الثلوج ويجف في فصل الصيف. وقد حال غياب الأنهر الكبيرة دون ترابط أجزائها المتباعدة وتحددت بسبب ذلك

عملية التطور المتجانسة في مساحات ضيقة، وبدت إيران أكثر من الرافدين تبايناً في خصائصها الاقليمية المحلية. ففي السهول المرتفعة والوديان، ثمة أراض خصبة تكثر فيها المراعي بفضل تواف المياه بما يكفي حاجة مستوطنات صغيرة قليلة السكان، في حين أن مناطق أخرى كانت على اتصال دائم بوادي الرافدين بواسطة ممرات وثغور جبلية؛ أما الخوزيستان، في الجنوب الغربي من ايران، فإنها تشكل امتداداً طبيعياً ـ جغرافياً ومناخياً ـ لجنوب الرافدين. وكانت، سواء في العصور الحجرية أو في العصور التاريخية القديمة، على صلة دائمة بالحضارات التي عرفتها البلاد المجاورة.

تتمثل عملية الاستقرار الأولى في ايران في عدد من المراكز في منطقة ده لوران Deh – Luran الواقعة جنوبي سلسلة جبال زغروس حيث كشفت الحفريات الامركية والدانمركية الحديثة عن شواهد عديدة تعود إلى بداية عصر الحجر الحديث. وهذه المراكز تبدو، في معظمها، معاصرة للمستوطنات الأولى في الشمال العراقي، وشهدت مراحل التحول نفسها من حياة جمع الطعام إلى الاستقرار الفصلي ثم الدائم. ولعل أفضل الشواهد الخاصة بهذه الفترة وجدت في «علي كوش»، المعروفة أيضاً باسم «بوس مورده» (Bus – Mordeh) التي تعتبر من أقدم هذه المراكز. فآثارها تعود إلى ما بين 7000 و 5700 ق.م. ففي المرحلة الأولى منها (المعروفة باسم بوس مورده، ما بين 7000 و 65000 ق.م)، عرفت المنطقة أقدم محاولة استقرار حيث سكنت هذه القرية جماعة كانت تجهل الخزف، يحتمل أنها توصلت إلى تدجين الماعز وعرفت بعض الحبوب البرية، إنها اعتمدت في اقتصادها بشكل خاص على صيد الحيوانات المتوحشة كالبقر والغزال والخنزير البري والحمار الوحشي والأسماك... وبنت بيوتها الدائرية من الصفائح الطينية غير المشوية، حيث عثر في داخلها على مواقد ومطاحن وإلى جانبها حبوب متكربنة، وصور طينية مشوية، وعدد كبير من الأدوات الحجرية المشطوبة. وحققت هذه المستوطنة مزيداً من التطور في المرحلة الثانية (مرحلة «علي كوش» ما بين 6500 و6000 ق.م)، وهو التطور الذي يلاحظ في استعمال قطع الطابوق بأكبر حجم مما كانت عليه سابقاً، كما يلاحظ في طلاء الجدران من الداخل بطلاء صلصالي. وتنعكس معالم هذا التقدم ايضاً في الزراعة، لا سيما في زراعة القمح (Emmer – Einkorn) والشعير وفي تربية الحيوانات. وكان من الطبيعي أن يرافق هذا التطور في الحياة المعيشية تقدم مماثل في صناعة الأدوات الخاصة

بالزراعة وانتاج الطعام. وبقي الصوان المادة الرئيسة التي استخدمت في صناعة هذه الأدوات الحجرية التي تشبه النماذج المقابلة لها في جرمو السابقة لظهور الخزف. وإلى جانب الصوان استخدم أيضاً الزجاج الطبيعي البركاني المستورد من خارج منطقة ده لوران. وكان من أبرز مظاهر مرحلة «علي كوش» استعمال النحاس الطبيعي المطروق، الذي كانت الهضبة الايرانية مصدراً له.

في المرحلة الثالثة (تعرف باسم «محمد جعفر» ما بين 6000 و 5700 ق.م)، شهدت القرية ظهور الخزف للمرة الأولى في هذه المنطقة، وتطوراً للمعالم الحضارية التي كانت قد تحققت في المرحلتين السابقتين. فبنيت المساكن من الطابوق فوق أسس حجرية، وأقيمت مدافنها، تحت أرضية المنازل، حيث عثر على حلى من الفيروز، وعلى خرز من الحجر والصدف.

لكن «علي كوش» هُجرت لتبدأ مرحلة جديدة في «تبة سابز» المجاورة تشكل في سوياتها السفلى امتداداً للمرحلة السابقة سواء في الخزف أو البناء، وتكشف عن تطور الزراعة التي عرفت أنواعاً مختلفة من الحبوب كالقمح والشعير والعدس والبازلاء وكذلك الكتان الذي يتطلب أعمال ري متطورة. ونجد في السويات العليا في تبة سابز أختاماً ومسامير طينية معقوفة تبدو معاصرة لأواخر العبيد وبداية أوروك في الرافدين. وتتمثل هذه المرحلة في عدد كبير من مواقع لوران حيث عثر على آثار خزفية من طراز العبيد. هكذا، فإن بداية العصر الحجري الحديث في ايران تلاحظ في عدد كبير من المراكز التي ترجع إلى مرحلة باكرة من تطور الزراعة وحياة الاستقرار، وهو تطور يقابل ما يشاهد في جرمو وتشاتال هيوك، إلا أن المواقع الايرانية تبدو أفقر نسبياً.

أمّا تبة غوران (Tépé – Guran)، الواقعة شمالي اللوريستان، فتمثل أهم مواقع أواسط زغروس وترجع آثارها، المؤلفة من ثمانية أمتار من الأنقاض المتراكمة، إلى ما بين 6500 ـ و 5500 ق.م. ويلاحظ من خلالها تطور في البناء وتحول الأكواخ الخشبية (في السويات السفلى) إلى بيوت مبنية من الطين على أسس حجرية. ويبدو أن سكان هذه القرية كانوا في الأصل رعاة ماعز يعتمدون على صيد الغزلان وحيوانات أخرى مختلفة. ثم تطورت هذه القرية تدريجياً من مقر فصلي إلى مقر دائم مارس سكانه الزراعة واستخدام المطاحن اليدوية وشفرات المناجل.

## IV ـ هضبة الأناضول

إن طبيعة الأناضول الجغرافية وتباين أجزائها وكثرة نتوءاتها كانت من الأسباب الرئيسة التي أدت إلى وجود مظاهر حضارية اقليمية متباينة وإلى ظهور دويلات صغيرة تميز بها تاريخ هذه المنطقة في العصور القديمة. والأناضول التي يراد بها القسم الأسيوي من تركيا الحالية هي عبارة عن هضبة يتراوح ارتفاعها ما بين 1000 و 1600م ويصل تدرجياً إلى ما يقارب الـ 2000م في الجهات الشرقية، ويتخللها وديان ومنخفضات، ابتداء من ارتفاع 700م، وتكثر فيها البرك والبحيرات. قديماً، كانت الأحراش تغطي معظم تلالها وسفوح جبالها، إلا أنه بمرور الزمن فقد قسم كبير منها وباتت مناطق واسعة من الأناضول جرداء، شبه قاحلة، سيما وأن سهولها قليلة ومحدودة المساحة، ما عدا سهل قيليقيا. وتنحصر هضبة الأناضول بين سلاسل جبلية: البنطس في الشمال، وطوروس في الجنوب، وجبال أرمينيا في الشرق. لذا فإن المواصلات كانت تتجه من الشرق إلى الغرب جاعلة من هذه الهضبة جسراً طبيعياً يربط بين آسيا وأوروبا. إلا أن المناطق الواقعة شرقي الأمانوس وجنوبي سلسلة طوروس ارتبطت حضارياً، على الرغم من تأثير الأناضول، بشمالي سوريا والعراق، في حين أن قيليقيا التي تأثرت بدورها بحضارات سوريا وشمالي الرافدين بقيت أكثر ارتباطاً بالشمال، واعتبرت جزءاً من الأناضول لغوياً وأثرياً[1].

ولكثرة آثارها وتنوعها، من حثية، ويونانية ـ رومانية، وبيزنطية، واسلامية، اهتم العالم الغربي منذ فترة طويلة بهذه المنطقة الآسيوية. التي شهدت أولى أعمال التنقيب عن الآثار في سنة 1833. إلاّ أنه لم تتضح معالم العصور الحجرية فيها إلا بفضل الحفريات الحديثة (بخاصة في هاكيلا وتشاتال هيوك). والأناضول غني بمواقعه من العصور الحجرية التي يعود البعض منها إلى عهود مبكرة من العصر الحجري القديم. ولما كانت هضبة الأناضول تشكل احدى المناطق التي توافرت فيها الحبوب في حالتها الطبيعية، كالقمح والشعير، وعرفت أسلاف الحيوانات الداجنة (البقر والغنم والماعز والخنازير...) فمن الطبيعي أن تشهد هذه المنطقة باكراً عملية انتقال إلى حياة الاستقرار. ويبدو أن منطقة الجنوب والجنوب الغربي من هضبة الأناضول

كانت احدى أهم المراكز التي تم فيها مثل هذا التحول ابتداء من الألف السابع ق.م. وأبرز مواقع العصر الحجري الحديث تقع في سهل قيليقيا الخصيب، مثل مرسين وطرسوس، ومراكز أخرى ذات مظاهر حضارية خاصة نجدها في الوديان والسهول المرتفعة في طوروس، مثل هاكيلار وكيزيلكايا في الجنوب الغربي، أو محاذية لسلسلة طوروس، مثل تشاتال هيوك، في سهول قونيا، ومراكز أخرى أقل أهمية بالقرب من اكسارى أحد مصادر الزجاج الطبيعي الذي استعمل على نطاق واسع، إلى جانب الصوان، في صناعة الأدوات الحجرية. ويبدو أن سوريا وفلسطين استوردتا هذه المادة من الأناضول منذ وقت مبكر جداً يرجع إلى العهد النطوفي في فلسطين.

إلا أن أقدم القرى التي تم الكشف عنها حتى الآن ترقى إلى ما بين 7000 و 6500، وتتمثل بشكل خاص في هاكيلار قرب بحيرة بوردور. ففي هذه المرحلة السابقة للخزف، يلاحظ أن ثمة انتقال من أكواخ بدائية إلى بيوت مبنية من الطين على أسس حجرية. المتوازية الأضلاع، مغلقة لا أبواب لها لأن الدخول إليها كان يتم ـ كما سنرى في تشاتال هيوك ـ بواسطة السلالم المؤدية إلى فتحة في السطح. وعرفت هذه المرحلة المعادن، بالاضافة إلى الأدوات الحجرية (من الصوان والزجاج الطبيعي)، لكن النحاس استخدم على نطاق محدود جداً في صنع أدوات كالمخارز. فالأناضول هي إحدى المناطق التي ظهرت فيها المعادن للمرة الأولى، وتطورت فيها هذه الصناعة في المراحل التالية. أمّا الزراعة فكانت في مراحلها الأولى ولم يدجن من الحيوانات سوى الكلب.

شهدت الأناضول في المرحلة الثانية من العصر الحجري الحديث تطوراً مهماً تعبّر عنه أفضل تعبير آثار تشاتال هيوك[2] التي تشكل تلاً من أكبر التلال الأثرية، إذ تقدر مساحته بحوالي 13 هكتاراً، ويتضمن 14 سوية أثرية تشرح عملية استقرار لم تعرف الانقطاع طوال ما لا يقل عن ألف سنة (ما بين 6700 و 5700 ق.م). في نهاية هذه المرحلة ينتقل السكان لأسباب لا تزال غامضة إلى مكان آخر، يعرف باسم التل الغربي، على الضفة المقابلة من النهر الصغير الذي يفصل بين القريتين.

---

1 ـ

2 ـ .

يبدو أن غنى السهول المجاورة يشرح ازدهار هذه القرية الأولى (في التل الكبير) التي يقدر عدد سكانها ما بين خمسة آلاف وعشرة آلاف نسمة. فاقتصادها يعتمد على الزراعة التي حققت خطوات ملموسة، إذ كانت تُزرع (في السوية السادسة) أنواع مختلفة من القمح (Bread Wheat, Emmer Einkorn)، ونوعان من الشعير (Naked Six – row barley, two row barley) بالاضافة إلى البازيلا والعدس والتفاح والفستق واللوز... وهي تشكل بذلك أكثر الأغذية تنوعاً في الشرق الأدنى القديم. يضاف إلى ذلك صيد الحيوانات البرية (الأبقار والماعز البري والحمار الوحشي والأيائل...)، وتربية الحيوانات التي دجنت في هذه الفترة مثل الماعز والغنم والكلب. ورافق هذا التطور الداخلي اتساع نطاق التجارة التي شملت، إلى المناطق المجاورة أو البعيدة داخل الأناضول، بلاداً تقع خارج هذه الهضبة مثل سوريا وفلسطين. وبالرغم من أنه لا تتوافر في هذا السهل سوى الأخشاب والتربة الصلصالية، استعملت شتى الحجارة (مثل حجر الديوريت الأخضر في صنع الفؤوس والأزاميل، والصخور البركانية في صنع المطاحن اليدوية والأجران والمدقات، والحجر الكلسي والزجاج الطبيعي) التي استوردت من مناطق مختلفة من الأناضول، كما استورد حجر الصوان من سوريا، والأصداف من فلسطين. وفي مقابل ذلك كانت بعض مدن سوريا وفلسطين ومناطق أخرى في غربي آسيا تستورد حجر الزجاج الطبيعي من الأناضول. إلى جانب الحجارة دخلت المعادن (كالرصاص والنحاس الطبيعي المطروق أو المذوب) في صناعة بعض الأدوات، ابتداء من السوية العاشرة، أي حوالي 6500 ق.م. وفي هذه المرحلة ظهرت الأواني الخزفية، وعرف سكان تشاتال صناعة النسيج وجلد الفرو، واستخدموا الأختام الطينية، ذات العناصر التزيينية التجريدية، كدلالة على الملكية الخاصة.

أما في مجال العمارة، فكان البيت والمعبد يتشابهان في التصميم المؤلف عادة من غرفة مستطيلة تلتصق بها على الجهة الطولية غرفة صغيرة لحفظ الحبوب. وشيدت هذه الأبنية من اللبن المجفف، في أحياء كبيرة متجاورة. لكن تشاتال، على خلاف أريحا، لم تحط بأسوار خارجية، إذ أن بيوتها المتلاصقة شكلت حصنا دفاعياً منيعا، سيما وأنها جاءت ـ كما في هاكيلار ـ مغلقة، بدون أبواب، ويتم الدخول إليها فقط من السطح، بواسطة السلالم[1].

في الداخل أقيمت صفتان رئيستان، وأحياناً صفة ثالثة ثانوية. هذه الصفات كانت تخصص بالتتالي للرجال والنساء والأطفال، فيتخذون منها مقاعد للجلوس وأسرة للنوم،

كما يدفن الميت في داخلها. قسمت الجدران، من الداخل، بواسطة أعمدة وعوارض خشبية إلى لوحات عمودية وأفقية، زينت بالألوان، وحملت، في المعابد، رسوما جدرانية ونتوءات تصويرية. وتميزت المعابد عن بيوت السكن بمظاهرها الدينية، إذ تكثر فيها التماثيل من الحجر والطين، وتمثل عناصرها التزينية ربة الأمومة والخصب وأشكال رمزية طقوسية (كرأس الثور، وقرون الثور) غرست في افريز من الطين. أما الجداريات فتصور ألبسة حمراء اللون، وشباك صيد، وصفوفا من الأيدي الانسانية، وأبقاراً، وفراشات، ونخلاً. وثمة صور أخرى ترتبط بحياة الميت، كصورة العقاب يحط على جسم ميت نزع عنه الراس، وصورة الجماجم البشرية، والصورة التي تمثل بناء مدفنياً من القصب والحصير جمعت في داخله جماجم بشرية. وتعبر هذه الصور عن تقاليد دينية مدفنية تقضي بأن يعرض الميت في الهواء الطلق، فتقتات بلحمه الطيور، وعندما لا يبقى منه سوى العظام تلف بالحصير أو الأقمشة وتدفن داخل المنزل أو المعبد، وتوضع معها الهدايا والحلي (للنساء والأطفال) والأسلحة (للرجال). ولوحظ أن عدداً من هياكل النساء العظمية دهنت بالأصفر والأحمر (وهو التقليد نفسه الذي اتبع لاحقاً في الهضبة الايرانية، خاصة في سيلك)، كما استعمل أيضاً اللون الأزرق فقط في طلاء الرقبة والعيون (بالنسبة إلى الرجال والنساء معاً) في السويتين السابعة والسادسة.

أصول هذه الحضارة غامضة على الرغم من أنه كان لها تأثير كبير في بعض المراقع القديمة مثل مرسين في قيليقيا، وسهل العمق في شمالي سوريا. ينعكس هذا التأثير في بعض المظاهر المشتركة في صناعة الأدوات من الصوان والزجاج الطبيعي والفؤوس من حجر الديوريت والخزف الأسود المصقول، ويصل إلى جبيل والشاطىء الفلسطيني في اقصى مداه.

نهاية تشاتال هيوك غامضة أيضاً، فالقرية انتقلت بعد 5700 ق.م إلى الضفة المقابلة من النهر، حيث تشاتال هيوك الغربية. يعتمد في دراسة هذه المرحلة الجديدة على آثار هاكيلار في السويات من التاسعة إلى السادسة (IX – VI)، وهي على بعد 330 كلم باتجاه الغرب، ويبدو أن سكانها يشكلون جماعة جديدة نجهل مصدرها ولا ترتبط بسكان تشاتال هيوك القدماء، ويلاحظ هذا التحول السكاني في تحول حياة هذه الجماعة التي أهملت الصيد وضعفت بالتالي صناعة حجر الزجاج الطبيعي وزالت الرسوم الجدرانية التي كنا نراها في تشاتال. ومن مظاهر

---

1 .

هذا التحول اختلاف طقوس العبادة التي انتقلت من المعبد إلى منازل الأفراد الذين اقتنوا التماثيل في بيوتهم، كما انتقل التصوير من الجدران إلى الخزف الذي احتفظ مع ذلك ببعض عناصر التصوير في تشاتال. أما في مجال البناء فشهدت المدينة تحولاً مماثلاً تجلى في تشييد بيوت فوق أسس حجرية، حول بهو خارجي، تفصل بينها طرقات ضيقة، وربما كان يحيط بها سور خارجي. لكن هذه القرية اعتمدت في اقتصادها على الزراعة وتربية المواشي، وبقيت التجارة كما كانت عليه سابقاً. كذلك فإن الخزف في هذه المرحلة الأخيرة من عصر الحجر الحديث يشكل امتداداً وتطوراً لخزف هيوك. فهو ذو بريق، مصقول، لوّن بلون واحد، أحمر أو رمادي، وفي السويات (I – V)، ظهر خزف جميل جداً يعتبر أيضاً تطوراً لخزف عرف سابقاً في تشاتال هيوك.

هكذا شهدت الأناضول عملية تطور تتابعت طوال العصر الحجري الحديث، وحصل الانتقال إلى عصر الحجر والنحاس من دون انقطاع على الرغم من أن هذا العصر تميز بشيء من الاضطراب نتيجة غزوات مفاجئة أو هجرات بطيئة، حيث ظهرت للمرة الأولى المدن المحصنة. ويبدو أن مدن عصر الحجر والنحاس انتهت بالدمار، وليس لدينا ما يشير إلى أن حضارة هذا العهد أدخلت إلى الأناضول من خارج البلاد، إلا أن عصر الحجر والنحاس الأسفل قد تميز بانحطاط صناعة الحجر (ربما بسبب ظهور المعادن، النحاس)، وبانتشار الخزف الملون وتدني نسبة الخزف الأحادي اللون.

تمثلت حضارة هذا العهد بعدد من المواقع أهمها: مرسين في قيليقيا، وتشاتال هيوك الغربية في سهل قونيا، وهاكيلار (في السويات من 5 إلى 1) جنوبي غربي الأناضول.

أما في العصور التالية ـ عصر الحجر والنحاس الأخير 4300 ـ 3300 ق. ب، وعصر البرونز القديم 3300 ـ 2300 (وهما مرحلتان يصعب التمييز بينهما، إذ لم يعرف من المعادن سوى النحاس)، فلم تعرف الأناضول تطوراً بارزاً وبقيت، ربما بسبب تباعد مراكزها الحضارية، متأخرة إذا ما قارناها ببلاد الرافدين التي توصلت، منذ نهاية الألف الرابع وبداية الألف الثالث، إلى أشكال حضارية جديدة تمثلت في ظهور الدولة ـ المدينة.

## V ـ وادي النيل

لقد مرت حضارات العصور الحجرية في مصر وشمال أفريقيا بمراحل تطورية مشابهة تقريباً للمراحل التي عرفت في أوروبا، بل في العالم القديم كله. لذلك قسمت هذه المراحل وأطلقت عليها المصطلحات العلمية العامة نفسها: العصر الحجري القديم (Paléolithique) أو عصر الحجر المشطوب، العصر الحجري الوسيط Mésolithique، العصر الحجري الحديث Néolithique أو عصر الحجر المصقول، واخيراً عصر الحجر والنحاس Chalcolithique – Enéolithique.

قسمت هذه المراحل بدورها إلى عدة أقسام (الأسفل والوسيط والأعلى)، وأطلقت عليها أحياناً أسماء الأماكن، التي عثر فيها على آثار حجرية للمرة الأولى، فأخذت بسبب ذلك صفات عامة، وأصبحت من المصطلحات العلمية، سواء كان بالنسبة لأوروبا نفسها أو بالنسبة للبلاد الأخرى في أفريقيا وآسيا.

قد يتعذر الآن، لقلة المصادر، تحديد الفترة الزمنية المعروفة باسم العصر الحجري القديم في مصر. لذلك عمد الأثريون في تحديد هذه المرحلة الطويلة من عمر الانسان إلى الدراسات الجيولوجية، ودراسة تحول المناخ كان له من أثر كبير في حياة انسان العصر الحجري. لكنه غير مجدٍ اعتماد مثل هذه المعطيات في وادي النيل، سيما وأن العصور الجليدية لم تكن متشابهة في أوروبا وأفريقيا، كما لم يكن لها الأثر نفسه في تطور حياة الانسان. وان البقايا الانسانية (العظام والهياكل العظمية) من العصر الحجري القديم في مصر نادرة جداً، ويبدو أنها قد اندثرت كليا مع مرور الزمن. أما الأدوات الحجرية فهي متوافرة في مناطق عديدة من وادي النيل وتعتبر المصدر الوحيد الذي يؤكد وجود الانسان في مصر منذ ذلك العصر.

عثر على أدوات حجرية ظرانية مبعثرة على وجه الأرض الصحراوية حيث بقيت في أماكنها الأولى، وعلى ما كانت عليه من قبل، على ضفاف البحيرات ومجاري الأنهر التي جفت مياهها في ما بعد، كما وجدت آثار مماثلة من الباليوليتي الأسفل (شيليان نسبة إلى شيل ـ Chelles / Chelléen ـ واشوليان نسبة إلى اشول ـ Cheulléen/ St. Asheul ـ في

فرنسا) والوسيط (موستريان نسبة إلى موستييه ـ Moustérien/ Moustier ـ في فرنسا) على الهضاب المطلة على النيل (قرب وادي الملوك) وفي المناطق المحاذية للنيل، بخاصة بالقرب من قنا، ونجع حماده، والفيوم. تميزت الأدوات الحجرية، العصر الحجري القديم الأوسط، بأحجامها الصغيرة (ميكروليتيه ـ Microlithe)، وبأطرافها الحادة الدقيقة الصنع، كما تنوعت أشكالها، كالفؤوس اليدوية التي كانت قد ظهرت من قبل، والمقاشط، والأزاميل، والمحكات،مما يؤكد اتساع النشاط الانساني على الرغم من الأوضاع العامة البدائية. أما آثار العصر الحجري القديم الأعلى فوجدت أيضاً في هذه الأماكن نفسها، بالقرب من كوم أمبو (مصر العليا)، حيث أن إنسان الحضارة السبيلية (Sébilien) (نسبة إلى قرية السبيل بجوار كوم امبو) قد عاش مدة طويلة على ضفاف بحيرة كانت تغذيها مياه ساعدين من سواعد النيل. وعندما جفت مياه هذه البحيرة انتشر سكانها في مناطق عديدة من وادي النيل، حيث عثر على آثار هذه المرحلة بالقرب من اسوان والفيوم، وفي الصحراء العربية على الضفة الشرقية لنهر النيل. آثار مشابهة وجدت خارج حدود وادي النيل في شمالي أفريقيا (في تونس وليبيا وفي المغرب) وحتى في فلسطين، تؤكد أن سكان وادي النيل كانوا على صلة، منذ هذه العصور البدائية، مع شعوب أخرى في البلاد المجاورة، وتتضح هذه العلاقات، وتأخذ دوراً تاريخياً مهماً في العصور اللاحقة، في عصر الحجر الحديث وعصر الحجر والنحاس.

## العصر الحجري الحديث Néolithique

يلي العصر الحجري القديم مرحلة انتقالية تعرف باسم «العصر الحجري الوسيط (Mésolithique)، الذي لا تزال أثاره نادرة في معظم بلاد الشرق الأدنى القديم، كما لم يعثر على آثار هذا العهد في مصر إلا في عدد قليل من المراكز القديمة، منها في حلوان وكوم امبو وفي منطقة واحة اللقيطة.

كنا قد أشرنا سابقاً إلى تحول المناخ وكيف أصبح، منذ أواخر العصر الحجري القديم وبداية العصر الحجري الحديث، أكثر جفافاً وحرارة، بل كان السبب في جفاف الهضبة الصحراوية، وانخفاض نسبة المياه. ويبدو أن وادي النيل قد بدأ منذ ذلك الحين يأخذ شكله النهائي، والنهر مجراه الحالي. ونتيجة لهذا التحول الطبيعي انتقل الانسان (الذي كان يسكن من

قبل الأودية في الصحراء الغربية والمناطق الأخرى الشرقية، ويتنقل في المناطق الجبلية والبقاع التي كانت تغطيها الغابات) إلى وادي النيل حيث تتوافر المياه. وبدأت هذه الجماعات الأولى حياة جديدة، وانتقلت بذلك تدريجياً من حياة البداوة والتنقل، سعياً وراء سبل العيش التي تقدمها الطبيعة، إلى الاستقرار والتحضر وتأسيس القرى الأولى على ضفاف النيل. اعتمد الانسان، في هذه المرحلة (مرحلة انتاج الطعام)، على وسائل انتاج جماعية، وسعى إلى تحسين أدواته الحجرية وتنويعها بحيث أنها تتفق ومتطلبات الحياة الجديدة وتصلح في استثمار ما تنتجه الأرض من غلال. وكان لهذه العوامل الطبيعية، وبخاصة انتظام فيضان النيل، أثر في تقدم المجتمعات البدائية.

لكن القرى النيوليتية الأولى التي تأسست على ضفاف النيل، في أماكن أكثر انخفاضاً مما هي عليه الآن، قد جرفتها المياه أو غمرتها الرواسب وباتت الآن في أسفل «الأكوام» (التلال) التي أصبحت، في العصور اللاحقة، مراكز gقرى أعيد بناؤها من جديد، ولبعض المدن التي ترجع إلى أواخر العصر الحجري وبداية العهود التاريخية. وهنالك مواقع نيوليتية أخرى على الحدود الصحراوية، بعيداً عن خطر فيضان النيل، احتفظت بآثارها حتى الآن، حيث عثرت عليها الحفريات الحديثة بالقرب من حلوان العمري (قرب القاهرة)، ومرمدة بني سلامة في الطرف الغربي من الدلتا، وديمة وكوم أوشيم وقصر الصاغة في الفيوم، والبدارى وتاسا وقطاره في مصر العليا، كما عثر على قبور نيوليتية في مناطق أخرى منتشرة على طول ضفتي النيل، بالقرب من الحدود الصحراوية.

إن تحول المناخ تدريجاً نحو الجفاف في مصر وأفريقيا الشمالية كلها كان من عوامل زوال الغابات الكبرى، ما عدا بالقرب من البحيرات ومجارى الأنهر، وتقلص مساحة الأراضي التي كانت من قبل مسرحاً لحياة الانسان البدائي، حيث كان يصطاد الحيوانات ويلتقط ثمار الأشجار البرية. الأمر الذي دفعه بعد ذلك إلى تدجين الحيوانات (البقر والماعز والغنم والخنزير) وإلى زراعة الأرض (القمح والشعير). فازدهرت، بسبب ذلك، الصناعات اليدوية، وظهرت، إلى جانب الأدوات الحجرية القديمة، أدوات جديدة، كالمثاقب (المخارز) والمعاول والأجران والأزاميل والمقاشط (Racloire)، في حين فقدت رؤوس السهام أهميتها واصبحت نادرة، مع أنها كانت من أبرز الأدوات الحجرية في العصور السابقة لاستخدامها

على نطاق واسع في صيد الحيوانات. واصبحت الفؤوس الصوانية المصقولة من الأهمية بحيث أنه أطلق اسمها على المرحلة الجديدة. وترجع إلى هذا العهد صناعة النسيج (حيث عثر في أحد أكوام الفيوم على أقدم نموذج للكتان) والسلال، وكذلك الخزف الذي ظهر للمرة الأولى في هذا العهد، وعمّ استعماله في جميع أنحاء الشرق الأدنى القديم. وصنعت أقدم هذه النماذج الفخارية باليد، وجاءت خالية من التزيين (في مرمدة بني سلامة). ثم ظهرت أنواع خزفية جديدة، سوداء أو حمراء اللون، متنوعة الأشكال، كانت قد صقلت قبل الشي. وفي مصر العليا عرفت اقدم الخزفيات التي زينت برسوم هندسية حفرت بواسطة أداة حادة، ثم رصعت بمادة بيضاء اللون.

كانت قرى العصر الحجري الحديث تتألف من بيوت صغيرة مستقلة عن بعضها البعض، وهي، في مرمدة بني سلامه، بيضوية الشكل، لم يبق منها إلا آثار بسيطة جداً، إذ يعتقد أن جدرانها كانت من القصب. ووجد في داخلها آثار مواقد، كما وجدت على مقربة منها شظايا فخارية. يعتقد أن هذه البيوت الأكواخ لم تكن مسقوفة، وأن الإنسان كان يلجأ إليها في بعض الأحيان ليتقي شر العواصف الرملية والبرد في أيام الشتاء[1].

أما المدافن فأقيمت إما داخل القرية، على مقربة من بيوت السكن (في مرمدة بني سلامه وفي أحد مقابر العمري)، وإما خارجها، قريباً من الحدود الصحراوية، لتكون في مأمن من الفيضانات (في العمرى وفي معظم مقابر مصر العليا). وكان الميت يدفن في هذه القبور في أوضاع مختلفة حسب التقاليد المحلية لكل من هذه الأقاليم. وقد يلف بالجلد أو الحصير، وتوضع إلى جانبه بعض الأواني الفخارية والحبوب (القمح)، ما يؤكد أن إنسان العصر الحجري الحديث في مصر قد أخذ يهتم، كغيره من سكان المناطق الأخرى في الشرق الأدنى القديم، بفكرة الخلود واستمرار الحياة بعد الموت. ففي أحد قبور العمري، عثر على عصاة تشبه الصولجان كانت قد وضعت إلى جانب الميت. الأمر الذي يدفع للاعتقاد أن هذه الجماعات الأولى قد خضعت لنوع من التنظيم السياسي، وولت عليها زعيما لإدارة أمورها المحلية. ولكنه

---

1 ـ أما في العمري ـ شمالي حلوان ـ فكانت هذه الأكواخ مستديرة الشكل يتوسط كل منها موقد. وقد عثر بالقرب منها على سلال طليت بالغرين ووضعت في حفر اقيمت في الأرض، واستعملت مخازن لحفظ الحبوب.

يصعب تأكيد مثل هذا الرأي سيما وأن المصادر الأثرية ما تزال غير كافية لدراسة مثل هذا الموضوع.

يتبين من الدلائل الأثرية أن مجتمعات العصر الحجري الحديث في مصر قد جمعت بين مظاهر حضارية مشتركة وأخرى متباينة، وذلك لاختلاف المراكز الجغرافية التي ظهرت فيها هذه القرى.

ويبدو أن هذا الاختلاف في بعض المظاهر الاجتماعية إنما يرتبط بوجود مجموعتين حضاريتين، الأولى في منطقتي الفيوم والدلتا، والثانية في منطقة مصر العليا. وتميزت حضارة الشمال بأدواتها الحجرية المتقنة الصنع: رؤوس الرماح، جميلة الشكل (تشبه ورقة الغار)، والفؤوس المصقولة التي وجدت أيضاً في مختلف الأقاليم المصرية الأخرى. وقد تفوقت هذه المنطقة (في مرمدة بني سلامة والعمرى) على الجنوب في الصناعة الحجرية وفي بعض المجالات الأخرى كتدجين الخنزير (الذي بقي مجهولاً في الجنوب)، كما صنعت الأواني الفخارية الحمراء أو السوداء، ولكنها لم تتعرف على اواني الجنوب الخزفية التي صنعت من الفخار الأسود اللون ورصّعت رسومها بمادة بيضاء. أما حضارة الجنوب المعروفة باسم «التاسية» (نسبة إلى المكان الذي نشأت فيه «تاسا») فإنها تتميز بالأواني الفخارية السوداء اللون والأدوات الحجرية، كالفؤوس المصقولة.

# الفصل الثاني

## عصر ما قبيل التاريخ

## ونشوء المدن

## عصر الحجر والنحاس

## جنوبي الرافدين
## نشوء المدن

في الوقت الذي كانت لا تزال فيه منطقة الشمال مقراً لحضارة «حلف»، شهد جنوبي الرافدين نشوء حضارة جديدة سميت باسم حضارة «العُبَيْد»، نسبة إلى المكان الواقع غربي «أور» والذي عثر فيه، للمرة الأولى، كلٌ من «هول» (H.R.Holl) و «وولي» (Wooley) على مجموعة من الأواني الخزفية ذات سمات جديدة[1]. ولكن الحفريات الأثرية اللاحقة (بخاصة الحفريات العراقية في أريدو) أظهرت أن العُبَيْد لم تكن الأولى في الجنوب، إذ سبقتها مراحل حضارية تمثلت في عدد كبير من مراكز هذه المنطقة مثل: أريدو، والحاج محمد، وأور، وكيش، ولجش. واستناداً إلى هذه المكتشفات الجديدة، تحددت مراحل هذه الفترة من العصور الحجرية، وصنفت الأواني الخزفية بحسب أنماطها ومراحلها[2]. وعلى الرغم من تنوعها تبدو هذه الأواني الخزفية متشابهة ومترابطة في تطورها، ويرى البعض أنها تمثل مراحل متتالية لحضارة واحدة يمكن أن نُعرّفَها اصطلاحاً باسم «حضارة العُبَيْد»، علماً أن فئة من الأثريين تعارض هذا الرأي، وترى في هذا الخزف العراقي الجنوبي مراحل حضارية مختلفة. وإذا ما اعتبرناه ممثلاً لحضارة واحدة لتشابه معالمه الأثرية وتطوره الطبيعي ـ فإن علماء الاثار يقسمون هذا العهد إلى مراحل ثلاث رئيسة. الأولى تتمثل في «خزف أريدو» (عُبَيْد الأولى)، والثانية في «خزف الحاج محمد» (عُبَيْد الثانية)، والثالثة يمثلها نوعان جديدان من الخزف يعرفان باسم «خزف العُبَيْد» (عُبَيْد الثالثة)[1].

أما المرحلة الزمنية الواقعة بين نهاية العُبيد وبداية العصور التاريخية، ما بين 3500 و3000 ق.م، فاتفق على تسميتها، منذ 1929، باسم «أوروك»، كما تعرف الحقبة الأخيرة منها باسم «جمدة نصر». هذه الاصطلاحات لا تقتصر فقط على تحديد مراحل الخزف، بل تشير أيضاً إلى مراحل التطور الحضاري بشكل عام. فارتبط اسم «جمدة نصر» بمرحلة قديمة من تطور الكتابة، إذ عثر فيها على مجموعة من اللوحات كتبت عليها نصوص بالسومرية. غير أن هذه المرحلة «جمدة نصر» التي تقابل ما يعرف باسم «أوروك 3»، سبقتها في الوركاء نفسها

مرحلة أقدم عهدا هي «أوروك 4» التي تتضمن أقدم مجموعة من اللوحات الطينية الكتابية، اللوحات التي يرتبط معظمها ببداية ظهور الكتابة. ونظراً لظهور هذا العنصر الجديد، أدخل دلوغاز (Delougàz) تعبيراً جديداً: «ما قُبيل الكتابة» (Protoliterate)، قاصداً به المراحل الأولى، بما في ذلك أوروك (4) و (3). إلا أن هذا التعبير استعمل بشكل متناقض يصعب البت به نهائياً، وذلك لعدم اكتمال الحفريات في السويات السفلى في أوروك وفي منطقة الديالى. ويرى البعض، من جهة ثانية، أن التعبير "أوروك" يجب أن يطلق على هذه المرحلة بكاملها. لكن مالوان (Mallowan) يعتقد، مع ذلك، أنه أكثر ملاءمةً استعمال تعبير «جمدة نصر» تمييزاً للمرحلة الأخيرة عما يمكن تسميته بعهد أوروك، علماً أنه ليست هناك خطوط فاصلة بين المرحلتين. وبذلك فإن عهد أوروك يتمثل في السويات من (12) إلى (4) كما تتمثل جمدة نصر في السوية (3).

## 1 ـ أريدو والعُبَيْد

جاء في التقاليد الأدبية السومرية أن أريدو هي احدى أقدم خمس مدن[1] وجدت قبل الطوفان في جنوبي الرافدين. هذه المدينة التي كانت مقراً لعبادة الاله «أنكي»، اله المياه العذبة في جوف الأرض، تقع على بعد حوالي 19 كلم جنوبي غربي أور، وهي حالياً على بعد 240 كلم من الخليج العربي. يحتمل أنها، قديماً، كانت متصلة بهذا الخليج بواسطة سلسلة من البحيرات المالحة الصغيرة، إذ ورد في النصوص القديمة أن البلاد كلها كانت بحرا... ومن ثم تكونت أريدو». آثارها، وإن لم يكتشف سوى أجزاء منها، ذات أهمية كبرى، لأنها أقدم ما وجد حتى الآن في جنوبي الرافدين. وقد كشفت الحفريات عن آثار أبنيتها الدينية المتعاقبة في ثماني عشرة سوية ترجع إلى ما بين الألف الخامس ونهاية الألف الرابع ق.م.

البيوت المدنية فيها متواضعة، عبارة عن أكواخ مؤلفة من عدة غرف، جدرانها من القصب، طليت من الداخل والخارج بالطين، بحيث لم تتعدّ سماكتها 15 سم. وعثر في داخلها ـ في السوية العاشرة ـ على صناديق فخارية لحفظ الحبوب، ومواقد فخارية، كما وجدت، في السويات التالية، مناجل ومسامير صُنعت من الطين أو الصلصال المشوي. واستعمل بعد ذلك اللبن في البناء بأحجام كبيرة (8/ 26/ 49 سم)، بقي الجدار، مع ذلك رقيقاً، لا تتعدى سماكته حجم قطعة اللبن.

لكن أهم مكتشفات أريدو تتمثل في المعابد (حوالي 18 معبداً) التي بنيت فوق بعضها البعض، على فترات زمنية متتالية، في وسط المدينة، حيث توجد آثارها الآن تحت الزقورة التي بناها أمارسوين (2047 ـ 2039 ق.م)، أحد ملوك أسرة أور الثالثة. هذه المعابد معاصرة لحضارة العُبَيْد ـ في معناها الشامل ـ وترجع، في السويات من الخامسة إلى الأولى، إلى عصر أوروك وجمدة نصر. فالمعبد الأول عبارة عن بناء صغير، مربع التصميم، لا يزيد طول ضلعه على ثلاثة أمتار، يتصل في احدى جهاته بتجويف أو كوة ربما أعدت لوضع تمثال الاله فوق قاعدة عالية. وقد أعيد بناء هذا المعبد مراراً في العهود التالية وأخذ أحجاماً كبيرة. وقد توضحت معالم هذه الأبنية الدينية واتسعت أحجامها تدريجياً ابتداء من السوية (16)، بحيث أصبح المعبد يتألف من رواق وسطي يتضمن مذبحاً وطاولة للنذور ومن غرف جانبية. ويعبّر عن هذا التطور معابد السويات من (11) إلى (9)، وكذلك معبد السوية (8) الذي بلغت أبعاده: 12/ 24م.

إلى جانب البناء يقدم الخزف في أريدو ومواقع أخرى في الجنوب مادة أساسية لدراسة مراحل هذا العهد ومظاهره الحضارية. ونظراً لتنوعها، صنفت هذه الأواني الخزفية وفق مراحل تطورها[1] وهي كما يلي:

خزف أريدو (في السويات 18 ـ 15)، وخزف الحاج محمد (في السويات (14 ـ 12)، وخزف العُبَيْد (في السويات 11 ـ 6).

في المرحلة الأولى، يتضمن الخزف من «طراز أريدو» آنية فخارية أنيقة جميلة، طليت بطلاء صلصالي (Slip – engobe) أصفر فاتح أو برتقالي، ولونت باللون البني أو الأسود ونادراً الأحمر. وأهمية هذه الأواني الخزفية هي أنها تشبه في بعض مظاهرها الفنون الشمالية في سامراء وحلف، كما تشبه من جهة أخرى خزف سوزيانا.

ويلي خزف أريدو ـ في السويات (14 ـ 12) ـ خزف جديد يعرف باسم «الحاج محمد» نسبة إلى المكان المعروف بهذا الاسم بالقرب من الوركاء. وهذا الخزف يمتاز بعناصره التزيينية الملونة الهندسية الطابع.

أما في عهد العُبَيْد (السويات من 12 إلى 6 في أريدو) فقد ظهرت أشكال خزفية جديدة وبكميات كبيرة. ولكن في المراحل الأخيرة منه، لوحظ أن ثمة تراجعاً في هذه الصناعة الخزفية وضعفاً في إنشائها وفي تقنيتها. ويبدو أن قسماً منها صنع بواسطة دولاب الخزاف الذي

أسهم في زيادة الانتاج وأدى بالتالي إلى ضعف النوعية. لكن تنوع الأشكال الخزفية ساعد في المقابل على انتشار خزف العُبَيْد في مختلف مناطق الشرق الأدنى القديم.

على الرغم من الحفريات التي أجريت في مواقع عديدة من جنوب العراق الحالي، تبقى أصول هذه الحضارة العبيدية غامضة، سيما وأنه لم يلاحظ أي انقطاع حضاري يرتبط بمجيء شعوب جديدة طوال هذه المرحلة المهمة من عصور ما قبل التاريخ في هذه المنطقة. لكن، مهما كانت أصول هذه الحضارة، فإنها لم تكتمل وتصل إلى ما وصلت إليه من تطور إلا في منطقة الرافدين نفسها، حيث يحتمل أن شعوباً أتت من جهات مختلفة وسكنت دلتا دجلة والفرات وأسهمت في هذا التطور. ويلاحظ من دراسة آثار أريدو أن تبايناً بارزاً قد حصل في عملية التحول هذه: ففي الوقت الذي كان فيه الخزف ـ في السويات السفلى، طراز أريدو ـ يعبر عن اتقان أو تكامل فني، كان البناء لا يزال بسيطاً جداً، ولكن عندما تطور هذا البناء وأخذ أشكالاً صرحية متكاملة وواضحة فقد الخزف الكثير من معالمه الفنية في الزخرفة والشكل، ووقع في التقليد نتيجة لتطور عملية الانتاج. لذا فإنه لا بد من البحث عن عوامل مثل هذا التحول في تطور المجتمع نفسه، ففي البداية كان سكان الجنوب يشكلون مجموعات صغيرة تعيش على صيد الأسماك وتسكن أكواخاً من القصب والطين. وقد تبين من دراسة خزفهم أنهم تأثروا بالشمال (حضارة حلف) من جهة وببعض معالم مدن الهضبة الايرانية من جهة أخرى. ولكن، ابتداء من السوية (13)، أخذ هذا التحول الحضاري ينعكس في تزايد أحجام المعابد وتطور بنيانها. ولا شك في أن هذا التطور العمراني وتحسن الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية نتجا عن ازدياد مساحة الأرض المستثمرة زراعياً، وعن تطور وسائل الري، كحفر أو شق الأقنية وبناء السدود التي ساعدت على ري الأراضي البعيدة عن مجاري المياه. هذا فضلاً عن أن منطقة دلتا الرافدين هي منطقة غنية، تتراكم فيها الرواسب التي تجلبها فيضانات الأنهر السنوية (رغم أن هذه الفيضانات هي اقل انتظاماً مما هي عليه في دلتا النيل)، وتجعل منها ارضا زراعية خصبة. وبفضل ذلك تمكن السكان من انتاج كميات كبيرة من الحبوب، استخدم الفائض منها في تغطية ما تتطلبه المنشآت العمرانية، الدينية منها والمدنية، من نفقات. فللمرة الأولى تظهر في السوية (12) في «أريدو» مناجل وشفرات صنعت من الفخار المشوي يتفق وجودها وتطور الزراعة وأعمال الري، واستعملت بالاضافة إلى ذلك فؤوس حجرية مصقولة من الصوان والزجاج الطبيعي، أما الأدوات النحاسية فبقيت نادرة.

يعتقد البعض أن أسباب هذا التطور تعود لانتشار مادة النحاس، إذ يبدو أن فقدان الحجارة في الجنوب وصعوبة الحصول عليها دفع السكان للتفتيش عن مادة جديدة أكثر صلابة من الأدوات المصنوعة من الطين. لكن النحاس بقي، في المراحل الأولى، مادة نادرة اقتصر استعمالها على صناعة الأدوات الصغيرة كالدبابيس والحلى ورؤوس السهام، إلى أن أدخلت بعد ذلك في صناعة الفؤوس والأواني وبعض القطع النحتية. بيد أن ظهور النحاس وانتشاره تدريجياً لم يحل كلياً محل الأدوات الحجرية التي بقيت مستعملة إلى جانب الكتل الطينية المشوية ذات الأطراف الحادة القاطعة، فإن ظهور النحاس لم يكن ليشكل، في البدء، عاملاً فاعلاً في تطور حضارة العبيد.

يتبين من دراسة الآثار العمرانية أن تطور المعابد وأحجامها يرتبط بنظام سياسي خاص، فالسلطة تركزت في أيدي الكهنة الذين جعلوا من المعبد محور الحياة الاقتصادية والاجتماعية. ففيه تتمثل ثروة البلاد ويكدس الفائض من الانتاج. وكان لهؤلاء الكهنة القيمين على الطقوس الدينية نفوذ كبير في هذه المجتمعات الأولى في بلاد ما بين النهرين، نفوذ أتاح لهم الجمع ـ بخاصة في العهود السومرية التالية ـ بين السلطتين، الدينية والمدنية[1].

## 2 ـ أوروك وجَمْدة نصر

تعرف هذه المرحلة الجديدة باسم «حضارة أوروك» نسبة إلى المدينة التي حملت قديما هذا الاسم، وتقع على ضفة المجرى الرئيسي لنهر الفرات، على بعد حوالي 65 كلم شمالي غربي أور. ويعتبر عهد أوروك امتداداً طبيعياً للحضارة السابقة، لكنه اتسم بمظاهر حضارية جديدة تجلت في ظهور خزف جديد أحمر رمادي اللون، لا يحمل عناصر زخرفية أحياناً، كما تجلّت في اتساع النشاط البنائي وتطور صناعة المعادن، التي لم يعثر منها في هذه المدينة سوى على كميات قليلة. وانتشرت في هذا العهد «الأختام» (الطوابع) التي حلت محلها ابتداء من السوية الخامسة في أوروك أنواع أخرى من الأختام أسطوانية الشكل تميزت بها بلاد الرافدين طوال تاريخها القديم. المرحلة الأخيرة من هذا العهد عرفت باسم «جمدة نصر»، الواقعة في منطقة أكد، ما بين دجلة والفرات، وذلك لظهور خزف جديد متعدد الألوان (أبيض أحمر، أسود) استخدم إلى جانب الخزف الرمادي من طراز أوروك. وقد انتشرت معالم حضارة أوروك في معظم مدن جنوبي الرافدين مثل أريدو وأور... ـ كما وصلت بخاصة في مرحلتها الأخيرة (جمدة نصر) إلى

مناطق الوسط والشمال مثل كيش، والعقير، وماري... إلا أن أوروك بقيت في هاتين المرحلتين (أوروك وجمدة نصر) المدينة الرئيسة لأهمية آثارها واتساع نطاقها، ولأنها كانت، منذ عهد العبيد، مدينة كبيرة ومزدهرة، إذ حيثما وصل معول الأثري عثر، في سوياتها السفلى، على خزف من طراز العبيد. وقد كشفت الحفريات الألمانية عن مجموعة كبرى من المعابد التي تعتبر من أجمل ما وجد في بلاد الرافدين وأهمها، وتعكس مدى تطور الفكر الديني والتقدم الاجتماعي والحضاري. بنيت هذه المعابد تبعاً لتصاميم وأساليب بنائية عرفت من قبل، ابتداء من السوية السادسة عشرة في أريدو، ولا تختلف عنها إلا في أحجامها الصرحية ومظاهرها الفنية المتقنة.

وجدت آثار هذه المعابد[1] في سويات متتالية في قطاعين رئيسين، في وسط المدينة، حيث توجد آثار زقورتي آنو (Anu) وايانا (Eanna). ففي القطاع الثاني، حرم الربة أيانا، كشفت الحفريات الألمانية، من خلال أسبار عميق وصل حتى الأرض العذراء، عن 18 سوية أثرية. السويات السفلى منها (18 ـ 15) معاصرة للعبيد، في حين أن السويات التالية من (14) إلى (4) تمثل حضارة أوروك، كما تعتبر السوية الثالثة ممثلة للمرحلة الأخيرة لهذه الحضارة والتي يطلق عليها اصطلاحاً اسم جمدة نصر.

رافق هذا التطور البنائي تقدم مماثل في مجالات شتى. ففي مجال صناعة الأواني الفخارية ظهر خزف جديد أحمر أو رمادي من طراز أوروك، وعرف بعد ذلك نوع جديد من الخزف المتعدد الألوان ظهر في عهد جمدة نصر إلى جانب الخزف الرمادي. وقد صنعت جميع هذه الأواني الخزفية بواسطة دولاب الخزاف. ويعتقد أن خزف أوروك يرتبط بمجيء شعوب جديدة ربما سامية، وذلك لتشابه خزف أوروك مع أنواع من الأواني الخزفية كانت قد انتشرت في سوريا وفلسطين.

إن التطور الذي شهدته بلاد الرافدين، في هذه الفترة، لم يكن نتيجة هجرات شعوب تحمل معها بذور حضارة جديدة، بل يرتبط مباشرة بالتحول الاجتماعي الناجم عن تقدم وسائل الري والزراعة وارتفاع عدد السكان محلياً وعن طريق هجرات جديدة.

إلى جانب الخزف، استعملت أيضاً الأواني المعدنية والحجرية، وزينت هذه الأخيرة بالصور التشكيلية كالتي نراها على وعاء الوركاء؛ أما الأختام المعبرة عن تطور الملكية الخاصة، فجاءت، في بادىء الأمر، مسطحة ثم حلت محلها بالتدرج (ابتداء من السوية الخامسة في أوروك) أختام أسطوانية[1] عرفت انتشاراً كبيراً، في الرافدين وحتى في البلاد المجاورة، طوال

التاريخ القديم، وقد زينت أختام أوروك بعناصر طبيعية حلت محل العناصر الهندسية السابقة مقلّدة، في صور منمنمة، مشاهد تصويرية تظهر على جداريات أوقير، وعلى الوعاء الحجري الكبير الذي وجد في الوركاء. ولذا تعتبر هذه الأختام، من الناحيتين التقنية والانشائية، تحفاً فنية صغيرة، وتشكل بفضل ما تحمله من نقوش، قرائن قيمة يمكن اعتمادها في الدراسات الأثرية.

ولعل أبرز منجزات هذا العهد الكتابة التي عرفت للمرة الأولى في التاريخ. فهي لا شك من أهم معالم الرافدين الحضارية، بل الظاهرة الرئيسة في تاريخ البشرية التي تميز الحضارة عن «همجية» العصور السابقة. أولى الرقم الطينية وأقدمها ظهرت في السوية الرابعة في أوروك (النصف الثاني من الألف الرابع ق.م)، كما عثر على نماذج اضافية منها في السويات التالية في أوروك نفسها، وفي أماكن أخرى مثل جمدة نصر وشورباك، وقد جاءت هذه الكتابة صورية[1]، ترمز إلى أشياء مختلفة أو إلى كائنات حية باشكال مبسطة يصعب تفسير بعضها. وغير أن تطوراً قد طرأ على هذه الكتابة منذ عهد جمدة نصر، عندما استخدمت، إلى جانب الأشكال الصورية، بعض الاشارات للتعبير عن قيم صوتية مجردة انبثقت عنها، بعد ذلك، المقاطع والكلمات، كالاشارة «تي» (Ti) في «انليل ـ تي» (Enlil – Ti). وقد توصل العلماء إلى معرفة اللغة التي تعبر عنها هذه الكتابة بالمقارنة مع نصوص متأخرة عنها زمنياً، وتبين لهم أنها سومرية، إذ وردت في احدى لوحات أوروك عبارة «انليل ـ تي». وهي تعبير سومري عن دعاء يوجه إلى الاله انليل ويعني: «انليل احفظ حيا»[1]. وبفضل اكتشاف هذه الكتابة ومظاهر حضارية أخرى، يتبين أن السومريين قدموا إلى بلاد الرافدين في وقت سابق يختلف الأثريون على تحديده.

### 3 ـ المجتمع البدائي

هذا التطور الكبير الذي تحقق في عهدي أوروك وجمدة نصر وانعكست معالمه في المنشآت البنائية والمنجزات الحضارية الأخرى، هو بلا شك ثمرة تطور الأحوال الاقتصادية المرتبطة ارتباطاً مباشراً بتقدم عمليات الري وتحسين الوسائل الزراعية. يبدو أن سكان هذه المدن اعتمدوا في اقتصادهم على الصيد ( الأسماك والطيور ) والزراعة وتربية الحيوانات الداجنة (كالماعز والغنم والأبقار...). وهو ما تكشف عنه نصوص اللوحات السومرية

القديمة، المتعلقة في معظمها، بأمور اقتصادية خاصة بالمعبد، أي المؤسسة الرئيسة التي يُجمع فيها ما يفيض عن حاجات العاملين في الزراعة وتربية المواشي[1]. هذا الفائض من الانتاج الزراعي كان من الأهمية بحيث أنه استخدم في التعويض على فئة كبيرة ـ غير منتجة لمواد غذائية ـ من المهنيين المتخصصين في مجالات شتى (كالخزف والنحت، وصناعة المعادن، والجلود، والتجارة، وبخاصة البناء)، وفي تغطية نفقات التجارة واستيراد المواد التي تفتقر إليها البلاد[2]، وهي كثيرة. ففي مجال البناء وحده، استخدمت أعداد كبيرة من العمال، إذ قدر فلكنشتين أن بناء مصطبة واحدة من مصاطب معابد أوروك يتطلب جهود 1500 عامل يعملون عشر ساعات في اليوم لمدة خمس سنوات. وهذه الحالة إن عبرت عن شيء فإنما تعبر عن تطور كبير في اقتصاد مدن جنوبي الرافدين القائم، بالدرجة الأولى، على الزراعة، كما تعبر عن تصاعد عدد السكان بشكل لم يعرف مطلقاً من قبل. وكي يتحقق مثل هذا التطور الحضاري، كان لا بد من وجود سلطة ما تحسن إدارة شؤون البلاد التي كان ازدهارها لا يتطلب فقط انضباطاً ومحافظة على التقاليد في المهن والعمارة وأعمال الري، بل يفرض وجود شكل من أشكال الإدارة يرتبط بوجود حاكم وهيئة إدارية أكثر ما يرتبط بنظام القرابة العائلية (Nepolisme) في المجتمعات القبلية البدائية. لكن عدم وجود آثار قبور وقصور ملكية يدفع إلى الاعتقاد بأن الملكية لم تكن قد عرفت بعد.

وبتطور اقتصاد البلاد اتسع نطاق الأعمال الحربية، فنرى في المشاهد المنقوشة على الأختام[1] صوراً ذات طابع ديني، وأخرى تمثل رجلاً يصارع حيوانات غريبة متوحشة، أو يحارب الأعداء، إلى جانب صور الأسرى المكبلين والعربات الحربية. ويرى جاكوبسون أن الرجل الذي يظهر على رأس جيشه لم يكن ملكاً أو حاكماً يتوارثونه، بل مجرد قائد اختير من بين جماعته، كما يحتمل أن يكون «الأنسي» (Ensi)، الأمير الكاهن، الذي جمع بشكل يصعب تحديده، بين السلطتين الدينية والمدنية.

ففي هذا العهد كان المعبد المؤسسة الرئيسية التي اضافت إلى صلاحياتها الدينية مهام سياسية ومدنية. وكان لهذه المؤسسات الدينية أملاك واسعة وأراض تزرع قمحا وشعيرا. كما تشير النصوص إلى منتجات البساتين والجنائن والكرمة وربما النخيل، بالاضافة إلى تربية المواشي (الغنم والماعز والبقر والخنازير). وقد أدى ذلك إلى زيادة الانتاج العام، وأسهم في انشاء تقنيات جديدة وفي ظهور فئات جديدة من المهنيين والعمال الذين لم يفيدوا مباشرة من

تصاعد الانتاج الزراعي، إذ ارتبطت حياتهم ببعض المؤسسات، وأبرزها المعبد. كان هؤلاء العمال من زراعيين ومهنيين تابعين للمعبد ( النجارون والحدادون والخزافون والصاغة... والرعاة والمزارعون) يعملون في مجموعات تخضع لمراقبة مناظرين ورؤساء تُوضح مهامهم بعض التعابير مثل «رئيس الحدادين» أو «رئيس الرعاة». وكان ال«أنسي» يشرف بدوره على أملاك الدولة ـ المدينة التي كانت، مع شعبها، مُلك «الاله»، وتشكل بالتالي اقليما خاصا بالكهنة. والأنسي يبني المعابد ويشرف على إدارتها ويهتم بشبكة أقنية الري التي تمثل أعلى مظاهر التطور المادي لهذه الحضارة. ويوكّل على أملاكه رعاة وفلاحين تدفع أجورهم عيناً، ويحتفظ بالفائض من المحاصيل في مخازن المعبد، كي يستخدمه في تغطية نفقات المشاريع العمرانية غير المنتجة والأعمال التجارية. فالتجارة المعتبرة أيضاً من صلاحيات الدولة، ويشرف عليها موظفون رسميون، شملت، بخاصة في عهد جمدة نصر، مناطق بعيدة كمصر وآسيا الصغرى. فاستورد النحاس والرصاص من مناطق بعيدة في الشمال، ربما من جبال طوروس، كما حصلت بلاد جنوبي الرافدين، عن طريق التجارة الخارجية، على الذهب والفضة والحجارة الكريمة والأخشاب من مصادر مختلفة. وكانت التجارة تتم إما براً، ربما بواسطة عربات تجرها حميرٌ وحشية أو ثيران[1]، وإما عبر الأنهر والبحار، بواسطة مراكب شراعية ذات حيازيم وكوائل مرتفعة[2]. وتؤكد وجود مثل هذه المراكب (بالاضافة إلى النموذج الطيني الذي عثر عليه في أحد قبور أريدو)[3] الرسوم المصرية المعاصرة لجمدة نصر، في الوقت الذي تأثرت فيه مصر بكثير من معالم الرافدين الحضارية. ويظهر هذا التأثير في البناء، حيث استخدمت التجويفات والنتوءات في جدران المصاطب، وفي النحت المصريين.

وبموازاة تطور الاقتصاد الكهنوتي واتساع نطاق العلاقات الخارجية، كان لا بد من وسيلة تسمح بتسجيل الحسابات العامة، كالأجور والتكاليف والأرباح. وكان من الطبيعي أن تنشأ الكتابة في المعابد، وأن تقتصر معرفتها في بادىء الأمر على الكهنة. فالكتابة بحد ذاتها حدث ثانوي نتج عن تعقيد البنية الاجتماعية والاقتصادية وتطورها. لكن الكتابة تأخذ في نظر المؤرخ أهمية كبرى إذ تعكس مدى التطور الذي تحقق في البلاد، وتمثل بحد ذاتها مادة مهمة يستعان بها في عملية تقويم الآثار المكتشفة وتأريخها[4].

## سوريا والبلاد الكنعانية

إن ما شهدته دلتا دجلة والفرات، من نشاط حضاري في المراحل الأخيرة من عصور ما قبل التاريخ، لا يقتصر على هذه المنطقة الجنوبية من العراق الحالي. ففي بلاد ما بين النهرين نفسها (في الوسط والشمال)، كما في أنحاء مختلفة من البلاد المجاورة لها والمحيطة بها، تكونت مجموعة كبيرة من القرى التي شهدت تحولاً مماثلاً نحو الحياة المدينية، وإن اختلفت نسبة هذا التحول وأهميته باختلاف المناطق الجغرافية.

ففي المنطقة الواقعة ما بين الزاب الكبير والزاب الصغير (وهي المنطقة التي عرفت في العصور التاريخية باسم أشور)، نجد في عدد من مراكزها، مثل نينوى، وتبه غورا، وأربجية...، آثاراً خزفية وبنائية تجمع بين التقاليد المحلية وتأثير الجنوب الحضاري. فإلى جانب الأبنية الدائرية المعبرة عن استمرار التقاليد الشمالية المحلية في تبه غورا[1]، الواقعة شمالي شرقي نينوى، ثمة أشكالٌ بنائية جديدة (متوازية الأضلاع) تتمثل في أبنية دينية[2] تشبه في تصميمها الثلاثي الأقسام معابد أريدو وأوروك في الجنوب، وتقدم الدليل على وجود علاقات بين المنطقتين.

يلاحظ تأثير جنوبي الرافدين أيضاً في المنطقة الواقعة لجهة الغرب، في وادي الخابور،

---

1 ـ تعتبر تبه غورا أحد أهم المواقع الشمالية، بل تشكل آثارها مصدراً رئيساً لدراسة مراحل عصور ما قبل التاريخ ومعالمها الحضارية في منطقة أعالي دجلة. وبالرغم من تأثير الجنوب الذي خضعت له غورا في عهد العبيد، فإنها تميزت في المرحلة التالية (أي في عهد أوروك) بسمات خاصة. لكنها، مع ذلك لم تعرف الكتابة، كما لم تعرف سوى الأختام المسطحة، وهي الأختام التي كان قد استبدل بها في الجنوب (في السوية الخامسة في أوروك) الأختام الاسطوانية. وبقي المعدن، في هذه المنطقة، مادة نادرة، ما عدا في المرحلة الأخيرة من هذا العهد. كذلك، فإن ظهور دولاب الخزاف جاء متأخراً بالنسبة إلى جنوبي الرافدين. وللمرة الأولى عثر في السوية الثامنة في غورا على نماذج فخارية لعربات تقوم على الدواليب. راجع:

A.J.TOBLER, Excavation at Tepe Gawra, Philadelphi, 1950

2 ـ تنعكس معالم هذا التطور البنائي في معابد السوية (13): Ibid. Pl. XII.

3 ـ M.E.L. MALLOWAN, Excavations at Brak and Chagar Bazar, In Iraq. 9 (1947). Iff.

منتدى سور الأزبكية
www.books4all.net

أحد روافد الفرات. ففي تل براك[1]، شمالي شرقي سوريا، مجموعة من المعابد من عهد أوروك، بنيت أيضاً حسب التصميم الثلاثي المتبع في الجنوب. إلا أن هذا التأثير الجنوبي يصبح أقل وضوحاً وأهمية باتجاه الشمال، في وادي الخابور الأعلى، ولا وجود له سواء في وادي البلخ، في أواسط سوريا الشمالية، أو في أواسط الفرات.

وبقدر ما نتجه غرباً، بقدر ما تزداد نسبة الأمطار التي تروي الحقول وتغذي الينابيع ويتغير معها وجه الطبيعة. فكانت محاصيل وادي العاصي وسهول الشاطىء تكفي السكان الذين اعتمدوا على الصيد وعلى ما تقدمه زراعة الحبوب وتربية المواشي، دون أن يؤدي ذلك إلى نمو سكاني بقي محدوداً نسبياً. وكان سهل العمق[1]، في العصر الحجري الحديث، مأهولاً، خصب التربة، تحيط به الجبال من ثلاث جهات، ويبدو على شكل مثلث ترسمه نقاط ثلاث رئيسة: انطاكية، والريحانية، وكيريخان. ويتضمن هذا السهل بحيرة أنطاكية، وتقدر مساحته بحوالي 500 كلم². وقد تجمعت معظم قرى هذه المنطقة الشمالية الغربية من سوريا في وادي العاصي ـ عفرين، وعلى طول الطريق ما بين الاسكندرون وحلب وحماه؛ وهي القرى التي يفترض أنها كانت، منذ أقدم العصور، مراكز مهمة.

يتبين من التحريات والاسبارات الأثرية في وادي العاصي (في حماه)، وسهل العمق (تل الشيخ، والجديدة)، وسكشه غوزه لجهة الشمال، أن منطقة شمالي غربي سوريا كانت منذ العصر الحجري على علاقة بشمالي وادي الرافدين، إذ نجد في جميع هذه المراكز شظايا خزفية من طراز حسونة وسمراء وحلف. ولكن عندما انتقلت المراكز الحضارية إلى جنوبي الرافدين، ضعف تأثير هذه المنطقة الأخيرة على شمالي سوريا، إذ لم يعثر على خزف من طراز العُبيد، بل عثر على خزف يقلد بعض مظاهره.

على خلاف المناطق الداخلية (أواسط الفرات) وفي أعالي سوريا (وادي البلخ ووادي العاصي)، حيث بقي تأثير الرافدين محدوداً، نجد أن هذا التأثير كان أكثر فعالية ووضوحاً على الشاطىء السوري الشمالي. ففي رأس الشمرا (أوغريت)، على بعد 12 كلم شمالي اللاذقية،

---

1- R.J. and L.S. BRAIDWOOD, Excavaxions in the Plain of Antioch, Chicago, 1960.

نجد أن كثيراً من الأواني الخزفية تشبه في أشكالها وعناصرها التزينية خزف جنوبي الرافدين ومنطقة أعالي دجلة[1].

يتبين من الشواهد الأثرية التي كشفت عنها حفريات شيفر CL.SCHAEFFER ثم كونتوسون H. de CONTENSON في رأس شمرا[2]، وجود مراحل حضارية متتالية تتمثل في خمس سويات أثرية ترجع أقدمها إلى الألف السابع ق.م؛ وهي تجسد تاريخ هذه المدينة ابتداء من أول عملية استقرار حتى نهاية الألف الثاني ق.م، عندما دُمرت أوغريت حوالي سنة 1200 ق.م، على أثر زلزال أصاب المدينة. السوية الخامسة تتضمن آثار العصر الحجري الحديث، تليها السوية الرابعة ممثلة العصر الكلكوليتي Chalcolithique، اي عصر الحجر والنحاس. وتؤكد آثار هذه السوية الأخيرة أن رأس شمرا ـ أوغريت كانت، في هذه المرحلة، على علاقة، من جهة، بقبرص، ومن جهة أخرى، بأعالي الرافدين، إذ عثر فيها على أوان خزفية من طراز قبرصي (في الطبقة السفلى من هذه السوية الرابعة)، وعلى خزف آخر من الطراز المعروف باسم حلف، في شمالي الرافدين (في الطبقة الوسطى من السوية نفسها). ويبدو أن الأحداث قد دفعت سكان أوغريت إلى تحصين مدينتهم، فأقاموا حولها أسواراً خارجية جاءت على شكل جدار منحن تغطيه طبقة من الحجارة الكبيرة الحجم[3]، وما تزال آثاره باقية في الطبقات المتتالية من السوية الرابعة. مع ذلك، تعرضت المدينة في أواخر هذه المرحلة لغزو خارجي يلاحظ في آثار الحريق[4] الذي شب في المدينة في الطبقة الأخيرة، ثم في التحول الداخلي المتمثل بظهور خزف جديد وأدوات صوانية جديدة في بداية السوية الثالثة.

إلا أن أوغريت لم تخضع لتأثير جنوبي الرافدين إلا في أواخر الألف الخامس، ذلك عندما ظهرت فيها للمرة الأولى بعض معالم العُبيد في السوية الثالثة (في الطبقتين الثالثة

---

1 ـ Ugaritica, v, 1962, 479, fig. 5, Pl. Iv.

2 ـ بدأت هذه الحفريات في رأس شمرا سنة 1930 على يد بعثة فرنسية وباشراف شيفر. وقد وضعت عنها مجموعة كبرى من الدراسات والتقارير العلمية في مجلة سيريا (Syria) وفي مجلة الحوليات الأثرية السورية، هذا فضلاً عن المجلدات الخمسة بعنوان أوغريتيكا (Ugauritica) ودراسات أخرى. ثم تابع هذه الحفريات مؤخراً العالم الأثري كونتونسون.

3 ـ Ugaritica, IV, 187.

4 ـ Ibid., 188, 362, 366, 369.

والثانية). هذا التأثير الرافدي يتجلى سواء في الخزف، أو في التقاليد المدفنية (كدفن الميت فوق سرير من شظايا خزفية، تماماً كما في أور)، وتؤكد أهميته الانقاض الكثيفة المعاصرة للعبيد (ما لا يقل عن أربعة أمتار)[1].

وقد حدد تاريخ بداية هذا العهد في رأس شمرا بحوالي 4184. وهو تاريخ يتفق مع تاريخ هذه الحقبة في جنوبي الرافدين.

تنتهي هذه المرحلة بشيء من الغموض، تماماً كما بدأت. ففي القسم الأعلى من السوية الثالثة (الطبقة الأولى)، يبدو أن جماعات جديدة سكنت المدينة، وظهر بمجيئها خزف جديد يعرف اصطلاحاً باسم خربة الكرك (في فلسطين). ويتبين من دراسة المصادر الأثرية أن هذه المرحلة الجديدة معاصرة لبداية التاريخ المدوَّن في الرافدين. ذلك يعني أن المرحلة الممثلة لحضارة العُبَيْد في أوغريت دامت فترة طويلة (طيلة الألف الرابع)، ننتقل بعدها مباشرة إلى عصر البرونز (بداية العصور التاريخية في وادي النيل والرافدين)، دون أن نشهد في أوغريت ما يقابل حضارة أوروك الرافدية غير الممثلة على الشاطىء السوري.

أما في جبيل[2]، فإن التأثير الرافدي لهذه الفترة بقي، على خلاف ما شاهدناه في رأس شمرا، ضعيفاً نسبياً، إذ كانت هذه المدينة أكثر ارتباطاً بفلسطين كما ستصبح، مع بداية الألف الثالث ق.م، على علاقة وثقى بوادي النيل. ففي هذه المرحلة ـ عصر الحجر والنحاس ـ المعاصرة لنهاية عصر أوروك[3]، اتسع اطار القرية التي بنيت فوق المستوطنة القديمة من العصر الحجري الحديث، وغطت مساحة كبيرة من التل تقدر بعدة هكتارات. بيوتها دائرية أو

---

1 ـ Ibid., 196.

H. de CONTENSON, ds. A.S.O.R., 175 (1964), 44, cf. CAH. I. 1, 419 - 20.

1 ـ قام بحفريات جبيل العالم الأثري موريس دونان (DUNAND) ووضع عنها عدة مجلدات بعنوان Fouilles de Byblos فضلاً عن تقارير أولية في نشرة المتحف الوطني ببيروت وفي مجلات علمية أخرى.

3 ـ إن تقارب جبيل (B) من العمق (F) يشير إلى أن هذه المرحلة في جبيل معاصرة جزئياً للفترة التي يطلق عليها اسم جمدة نصر في الرافدين. وإذا كانت جبيل (ب) معاصرة فعلاً لأوروك كما يقول موريس دونان، يكون تطورها قد جاء متأخراً، إذ أن المراكز الأخرى في غربي آسيا تبدو أكثر تطوراً منها في المجال التقني.

بيضوية الشكل (يتراوح قطرها بين ثلاثة وأربعة أمتار) بنيت بكثافة إلى جانب المدافن، حيث وجدت آثارها في عدة طبقات أثرية متتالية[1]. غير أن شيئاً لم يبق من أجزائها العليا (يفترض أنها كانت من المواد البالية كالقصب، أو الحصير...) ولم يعد قائماً منها الآن سوى المداميك السفلى من جدرانها. أما أرضيتها فهي من التراب المرصوص أو الجص. الأواني الخزفية التي وجدت في جبيل الثانية (Enéolithique B )، صنعت باليد وليس بدولاب الخزاف[2]، وهي في معظمها غير مصقولة صقلاً جيداً، أو ملونة، إلا أنها طليت، أحياناً بطلاء صلصالي، وزينت بعناصر خطية محفورة. استخدم سكان جبيل خلال هذه المرحلة أدوات حجرية إلى جانب أدوات نحاسية صنعت بأعداد قليلة، إذ لم يعثر سوى على خمسة خناجر نحاسية في ما لايقل عن 850 قبرا. ووجدت في جبيل أيضاً، كميات من الخرز والخواتم الفضية تشير إلى وجود علاقات بين هذه المدينة والأناضول، كما تشير إلى وجود علاقات مماثلة بينها وبين وادي الرافدين[3]. وقد اتبعت جبيل طقوسا مدفنية مميزة في كثير من مناطق الشرق الأدنى القديم؛ فكان الميت يدفن إما في جرار فخارية كبيرة توضع في الأرض إلى جانب بيوت السكن، وفي داخلها أحياناً، وإما في كهوف صغيرة، وإما مباشرة في الأرض[4].

أما في فلسطين فقد شهدت في هذه المرحلة جموداً، بل تراجعاً عما كانت قد وصلت إليه من تطور في الفترات السابقة. ولعل السبب في ذلك يعود إلى أن أريحا قد تعرضت لغزو خارجي، أو أن شيئاً آخر قد حصل، وأدى إلى انقلاب كلي في اقتصادها، كتحول في المناخ أو في مجرى النهر المجاور[5]. هذا فضلاً عن أن مراكز أخرى قد ظهرت في مناطق عديدة من سوريا والرافدين، وعرفت كيف تستثمر تجارب المرحلة السابقة وتطورها.

---

1 ـ M. DUNAND. Rapports Sur les fouilles de Byblos, dans BMB, XIII (1956), 74.

2 ـ لم تصنع الأواني الخزفية في جبيل بواسطة دولاب الخزاف إلا في المرحلة التالية.

3 ـ M. DUNAD, Biblia Grammata, 46.

غير أن مظاهر التأثير الرافدي المحدود يشير إلى أن علاقات جبيل مع جنوبي الرافدين لم تكن مباشرة، راجع: CAH, I' – 1, 421.

4 ـ M. DUNAND, dans BMB, XVI (1961), 82 s.

5 ـ K.KENYON, Archaeology in the holy Land, (ed. 3), London, 1970.

ولكن على الرغم من ظهور النحاس في هذه المرحلة الجديدة المسماة، اصطلاحاً، باسم عصر النحاس، فإن استعماله بقي محدوداً جداً ولم يشمل جميع المناطق. ففي فلسطين لم يكن للنحاس سوى دور ثانوي، وبقي هامشياً حتى نهاية الألف الثالث. غير أن أهمية هذا المعدن لا تقتصر على استعماله في صناعة الأدوات فحسب، بل تكمن في العلاقات الناشئة عن كيفية الحصول عليه واقامة علاقات تجارية مع الخارج للغرض نفسه؛ كما تكمن أيضاً في الحاجة لاقامة مراكز خاصة لتصنيعه، وفي ما يتطلب ذلك من تحول في البنية الاقتصادية لهذه المجتمعات القائمة على الزراعة، وايجاد طبقة من الصناع الحرفيين الذين ازداد عددهم مع بداية العصور التاريخية.

تعرف هذه المرحلة الجديدة في فلسطين باسم «الحضارة الغسولية» نسبة إلى تليلات الغسول[1]، الواقعة في وادي الأردن، شرقي النهر وشمالي البحر الميت، سكانها مزارعون اهتموا بزراعة البلح وربما الزيتون[2]، وسكنوا بيوتاً متوسطة الحجم، بنيت من اللبن فوق أسس حجرية، وهي إما ملاصقة لبعضها البعض، أو يفصل بينها طرقات ضيقة، ولا تحيط بها أسوار خارجية. من الداخل، جهزت بمخازن وجرار لحفظ الحبوب، ووجدت فيها أوان خزفية أكثر تطوراً من تلك التي عرفت سابقاً في أريحا.

هذه المعالم الحياتية الجديدة لم تقتصر على الغسول وحدها، فإننا نجدها منتشرة في مناطق اخرى من فلسطين، وبخاصة في جوار بئر السبع في الجنوب، كما نجدها أيضاً في السهل الساحلي، وفي وادي غزة وبالقرب منها... ولعل أهمها تلك المجموعات السكنية بالقرب من بئر السبع، حيث استوطنت هذه المنطقة للمرة الأولى[3] من قبل جماعة حفرت بيوتها، كلياً أو

---

1ـ تتألف من ثلاث تلال صغيرة كشفت الحفريات الأثرية فيها عن أربع سويات يصعب التمييز بينها بوضوح، إلا أنها تمثل مرحلة واحدة.

R. NORTH, Ghassoul 1960 Excavation Report (An. Biblica, 14), Rome, 1960.

2ـ K. KENYON, op. cit., 73.

3ـ عثر على ما لا يقل عن ست تجمعات سكنية منتشرة على مسافة كيلومتر واحد، لكن تصل بينها بيوت معزولة. أهمها في تل أبو مطر، وبئر الصفدي، ثم في خربة البيطار.

J. PERROT, The Excavation at Tell – Abu – Matar, in I. E. J., 5 (1955), 17 ff.; ibid., Bir es-Safadi, in I.E.J., 9 (1953) 141f,. cf. CAH. I – 1, 534.

جزئياً، في الأرض، وقُدّر مجموع سكانها بحوالي ألف نسمة. وكانت هذه البيوت على شكل مغاور يتم الدخول إليها بواسطة منحدرات شبه عامودية، كما تتصل فيما بينها بواسطة ممرات داخلية[1]، وتتضمن مواقد وحفراً لحفظ الحبوب. وقد تعرف سكان هذه القرى الصغيرة على النحاس، إذ عثر فيها على افران خاصة بتذويب هذا المعدن الخام، ما يؤكد أنه كان لهؤلاء فائض من الانتاج الزراعي يكفي لتغطية نفقات استيراد هذا المعدن وتصنيعه.

بيد أن النحاس بقي مادة نادرة ولم يكن لها اثر كبير على تطور اقتصاد القرى الفلسطينية. فأدوات الانتاج كانت ما تزال تصنع من حجر الظران، في حين اعتبر النحاس مادة ثمينة اقتصرت في معظم الحالات على صناعة بعض الأسلحة[2] والحلي.

لكننا نجهل أصول هذه الحضارة (الغسول ـ بئر السبع) التي نشأت في مناطق لم تكن قد استوطنت من قبل، وعرفت في عهدها تقنيات جديدة (كصناعة المعادن). لذلك يرجح البعض[3] أن أصحابها أتوا من الشمال، وربما كانت لهم علاقة بسكان الأناضول الذين عرفوا، منذ فترة طويلة، صناعة المعادن. في حين تبدو ضعيفة علاقات هذه القرى الفلسطينية سواء مع الرافدين أو مع وادي النيل.

أما في الشمال، حيث لم يكن لحضارة الغسول ـ بئر السبع الجنوبية امتداد كبير، فقد شهدت المنطقة، في أواخر الألف الرابع ق.م، تحولات مماثلة لكنها ذات طابع خاص وأكثر ارتباطاً بسوريا والرافدين من جهة، وبوادي النيل من جهة ثانية. اكتشفت آثارها في عدة

---

1 ـ K. KENYON, op. cit., 79.

2 ـ عثر في أحد كهوف وادي محراس (نحال مشمار)، على كمية كبيرة من الأدوات النحاسية تضم ما لا يقل عن 400 قطعة، من بينها حوالي 200 مقمعة وصولجان (أو عصا مجوفة ذات رأس مزخرف) ومجموعة من الفؤوس والأزاميل. R. de VAUX in CAH., I-1, 527.

3 ـ R. de VAUX, in CAH, I – 1, 529, K. KENYON, op. cit., 81.

4 ـ تشكل مجدو الآن تلاً من أكبر التلال الأثرية في فلسطين. في العصور التاريخية اكتسبت أهمية كبرى بفضل موقعها الجغرافي الذي يطل على الممر الذي يجتاز المنطقة ما بين جبل الكرمل وسلسلة جبال الوسط. وهو الممر الذي كان، في التاريخ القديم، يشكل الطريق الداخلي الرئيسي الذي يصل ما بين سوريا ومصر، مروراً بسيناء. بيد أن أهمية مجدو لا تقتصر على كونها صلة وصل بين هاتين المنطقتين، فآثارها، في الطبقات السفلى من التل، ترجع إلى عهود قديمة جداً، أقدم بكثير من العهد الذي أصبحت فيه مجدو مدينة محصنة مع بداية التاريخ. راجع:
P.L.O.GUY, MEGIDO, Tombs (O.I.P.33), Chicago, 1938; cf. K. KENYON, Archaeology in the Holy Land, 92.

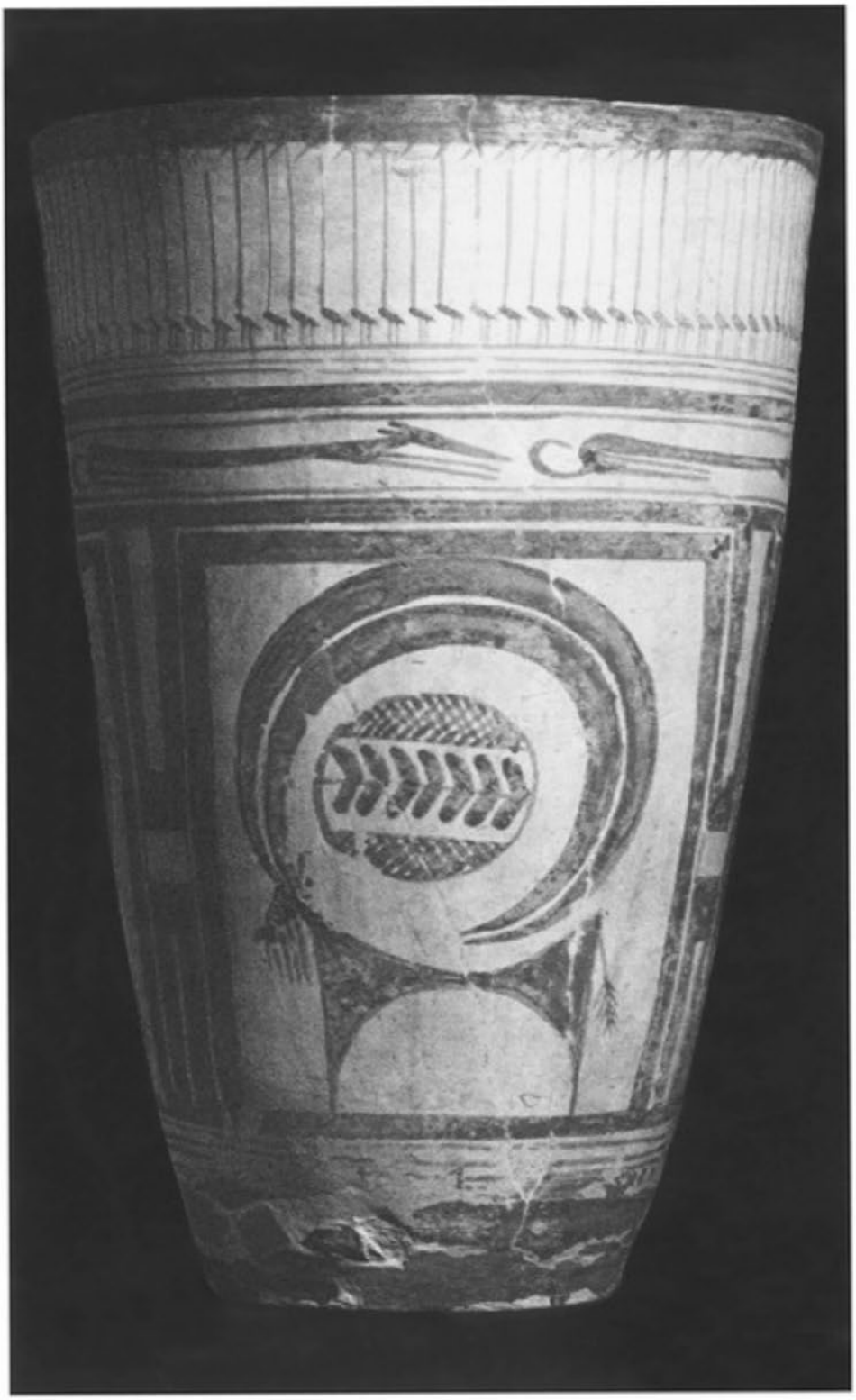

شوش (عيلام)، إناء من الخزف، (ارتفاع 29سم)، الألف الرابع ق. م، متحف اللوفر

أماكن شمالية، وبخاصة في مجدو[1] وبيت شان وعفولة وخربة الكرك، كما نجدها ممثلة في وادي الأردن (في أريحا)، ما بين بحيرة طبريا، والبحر الميت. بيد أن هذه الحضارة الشمالية التي كان لها امتداد باتجاه الوسط (أريحا والقدس)... لم تصل الجنوب إلا في حالات نادرة.

عرفت معالم هذه الحضارة المعاصرة[1]، اقله في بدايتها، لحضارة «الغسول بئر السبع»، عرفت بفضل محتويات القبور المحفورة في الصخر[2]، عند سفوح التلال. ففي حين اندثرت معالم أماكن سكن هذه الجماعات ولم تقدم لنا الشواهد الكافية لدراستها، احتفظت قبورها بالشيء الكثير من أثاثاتها المدفنية المتضمنة كميات كبيرة من الخزف والأدوات الحجرية، فضلاً عن بعض القطع النحاسية.

وبفضل الآثار المكتشفة في مدافنها الصخرية، توصل علم الآثار، للمرة الأولى، إلى تحديد علاقات واضحة ما بين فلسطين ونقاده الثانية في مصر (مصر العليا). إذ تبين من دراسة أشكال الأواني الخزفية وعناصر زخرفتها أنه دخلت مصر، عن طريق فلسطين، بعض الجرار التي يرجح أنها استخدمت في نقل الزيوت. ويبدو أنه كان لفلسطين، في هذه الفترة، علاقات مماثلة مع الرافدين يجسدها الشبه الكبير بين خزف فلسطين (الأحمر والرمادي) وخزف جنوبي الرافدين من عهد أوروك.

بنهاية الألف الرابع ق.م، أهملت مراكز هذه الجماعات، باستثناء البعض منها، مثل: أريحا، ومجدو، وتل الفرعة... التي تحولت، مع بداية الألف الثالث (بداية عصر البرونز)، إلى مدن.

---

1 ـ يتبين من دراسة الأواني الخزفية وجود ثلاثة أنماط مختلفة تعكس وجود ثلاث مجموعات بشرية متباينة أتت، على ما يبدو، من الشرق، ودخلت فلسطين في أوقات لم تتفق حولها آراء الباحثين ولكن يحتمل أنها تعود إلى ما بين نهاية عصر النحاس وبداية عصر البرونز.
راجع: G.E. WRIGH, The Pottery of Pelestine, New Haven, 1937; K. KENYON, op. cit., 97; R. de VAUX, in CAH, I-1, 535 ff.

2 ـ للمرة الأولى في فلسطين تحفر المدافن في الصخر، أو تحول الكهوف الطبيعية إلى مدافن. لقد تضمن بعضها ما لا يقل عن 400 هيكل عظمي، كانت تفصل عنها الجماجم في معظم الأحيان K.KENYON, op. cit; 84 - 5.

## سوزيانا والهضبة الايرانية

أما منطقة سوزيانا في جنوبي غربي إيران فأبرز مواقعها الأثرية شوش التي بدأت فيها الحفريات على يد بعثة فرنسية منذ أواخر القرن التاسع عشر. ونظراً لقدم هذه الحفريات فقد تم التوصل حديثاً إلى تحديد مراحلها بفضل حفريات جديدة في التلال المجاورة لها (بنديبال وجعفر أباد...) وقسم لوبرتون هذه العهود الأولى في سوزيانا (استناداً إلى دراسة الأواني الخزفية) إلى خمس مراحل (Susiane a,b, c, d, e)، والمرحلة الأخيرة منها تقابل ما يعرف باسم شوش (A) المتمثلة بالخزف الملون الجميل الذي عرفَّه مورغان من قبل باسم شوش الأولى (SuseI). يتبين من دراسة الخزف في مواقع سوزيانا أن المراحل الأربع الأولى توازي مراحل التطور الحضاري في الرافدين في حسونة وسامراء وحلف وأريدو، مقدمة بذلك الشواهد على وجود مراحل متتالية سابقة لخزف العُبَيْد. وهي، بالاضافة إلى ذلك، تبين عن وجود علاقات مهمة بالشمال (حسونة وحلف) من جهة، وبالجنوب (الحاج محمد)، من جهة أخرى. ويليها سوزيانا (e) أو (A) التي توافق زمنياً نهاية العُبَيْد وبداية أوروك.

ففي الوقت الذي شهد فيه الجنوب العراقي شيئاً من الجمود والتقليد في صناعة الخزف حققت منطقة سوزيانا تقدماً بارزاً في هذه الصناعة، وباتت شوش (A)، في هذا العهد، من أشهر المدن الشرقية القديمة في صناعة الخزف. ففيها عثرت الحفريات الفرنسية، بإدارة مورغان (J. de. Morgan)، على اعداد كبرى من الأواني الخزفية، منات منها ما زالت على حالها كاملة، وتشكل الآن مجموعة مهمة في متحف اللوفر. صنعت هذه الأواني من تربة صلصالية نقية، ناعمة، إلا أنها تتضمن عناصر غريبة، وتحتفظ، بعد الشي (حوالي 900 درجة)، بمسامها. أما أشكالها فجميلة جداً، وأهمها: الكأس والطاس (Coupe – Verre) والزبدة (Bol) والصحن والقنينة والابريق ذو المثعب (المصب) (الشبيه بابريق الشاي)، لكنه بدون عروة، ويعوض عنها بتتؤ بسيط مثقوب، ثم القدور البيضوية أو الكروية. وعلى الرغم من أن بعض هذه الأواني أخذ أحجاماً كبيرة (يبلغ ارتفاعها حوالي 35 سم) فهي رقيقة الجوانب. أما

الألوان فكانت توضع مباشرة على الوعاء، وجاءت متعددة الدرجات اللونية ربما لاختلاف درجة الحرارة أثناء الشي، أو لوجودها فترة طويلة في باطن الأرض. فاللون الأسود الذي وضع على الفخار قبل الشي مال أحياناً إلى الأسمر أو البنفسجي. لاحتوائه، كما يظن، على أوكسيد الحديد الطبيعي؛ وهو شبيه باللون الأسود الجميل على الأواني اليونانية. زينت أواني شوش بعناصر هندسية تجريدية وأخرى طبيعية تعبّر عن حياة إنسان ذلك العصر والعالم المحيط به. فهي تمثل نباتات الحقول وضفاف الأنهر، والأغصان والأوراق، والورديات إلى الأسماك والحيوانات البرية والطيور وعصافير الماء الطويلة الأعناق.

أما الصورة الانسانية فبقيت نادرة، وهي تمثله واقفاً بين رمحين أو محارباً يحمل القوس. وفي هذه الحالة (الصورة الانسانية) يلجأ الرسام إلى التبسيط والاختصار مظهراً الشكل العام من دون أية محاولة لتحديد أو ابراز ملامح الجسم أو الوجه الانساني.

وجدت الأواني الخزفية بين الأنقاض التي بلغت كثافتها حوالي ثلاثة أمتار، في المقابر التي أقيمت خارج أسوار المدينة حيث عثر على ما لا يقل عن ألفي قبر وإن كان هذا الخزف متميزاً في اشكاله وعناصره التزينية إلا أنه تأثر ببعض المظاهر الفنية في الرافدين، وكان له، من جهة أخرى، انتشار كبير بخاصة في المواقع الايرانية، حيث نصادف نماذج مشابهة له في كل من تبة موسيان وتبة سيلك وتبة جيان.

إلى جانب الخزف، عثر في شوش على أعداد كبيرة من الأختام؛ كثير منها نصف كروي ويعبر عن تطور النحت في المدينة. فرسومها إما هندسية خطية واما حيوانية (وعول في معظمها) ذات مظاهر هندسية قاسية. وهي تشبه النماذج التي عرفت في الرافدين في نهاية العُبَيْد وبداية أوروك. ويرافق هذا التطور في الفنون الخزفية والنحتية تقدم مماثل في صناعة المعادن التي تعتبر من المعايير المهمة للحكم على التطور العام في العالم القديم. فهي تتمثل بعدد من الأدوات النحاسية كالفؤوس والأزاميل والدبابيس والمرايا الدائرية. إن تنوع هذه الأدوات يؤكد توافر المعادن في ايران أكثر مما هي عليه في بلاد الرافدين، حيث بقيت نادرة حتى في عهد أوروك. فإيران كانت متقدمة في هذا المجال، والشواهد الأثرية تشير إلى استعمال المعادن منذ عهد سيلك الأولى التي يحتمل أنها ليست أحدث من حسونة وسامراء. اكتشاف مهم أيضاً تمثل في استخدام أقمشة من الكتان الذي كان يزرع في «علي كوش» واستمر بعد ذلك على نطاق واسع. ولا شك في أن انتاج مثل هذه الأقمشة الدقيقة تطلب قروناً من الخبرة.

في نهاية شوش (A) يبدأ عهد جديد يتمثل في تنوع كبير في الآثار المكتشفة التي قسّمها بروتون إلى ثلاث مراحل (B.C.D)، تقابل الفترة ما بين بداية عهد أوروك وبداية العصور التاريخية. لذا لا يهمنا هنا سوى المرحلتين (B.C). ففي المرحلة الأولى شهدت شوش (B) تحولاً كبيراً تميز بتقاربها من أوروك، في الوقت الذي تحققت فيه منجزات حضارية عظيمة في جنوبي الرافدين، كان لها تأثير كبير حتى في المناطق البعيدة، مثل سيلك في الهضبة الايرانية. وخزف هذه المرحلة صنع بواسطة الدولاب، وهو يشبه، في بعض أشكاله، خزف أوروك. وكثرت أيضاً الأواني غير الملونة التي تعكس أشكالها محاولة تقليد الأواني المعدنية.

في المرحلة (C)، شهدت شوش تحولاً حضارياً تمثل بظهور الكتابة التي جاءت، كما في سومر، لتعبر عن حاجات اقتصادية. وكتبت هذه اللوحات المعروفة باسم «ما قبيل العيلامية» بالأشكال الصورية القريبة من الكتابة السومرية. واستعملت هذه الكتابة، حتى عهد امبراطورية أور للتعبير عن اللغة المحلية.

إذا ما انتقلنا إلى الشمال نجد «تبة سيلك» الواقعة على بعد حوالي 4 كلم جنوبي غربي قاشان، في الطرف الغربي للصحراء الايرانية الوسطى. فإن موقعها الجغرافي قد جعل منها مركزاً مهماً على الطريق التجارية، إذ تتصل من جهة بمراكز جبال البرز، كما تتصل، من جهة ثانية، بالمراكز الواقعة في الجهات الغربية والجنوبية الغربية. ففي المرحلة الأولى شهدت سيلك تطوراً في البناء وانتقالاً من الأكواخ (من القصب والأغصان) إلى البناء بواسطة الطابوق كما ظهرت الأواني الخزفية الملونة منذ البداية.

أما العلاقة مع جنوبي الرافدين فيعبّر عنها استخدام الطابوق الممزوج بالقش الذي يحمل بصمات الأصابع على الوجه الأعلى منه، تماماً كما لوحظ ذلك في معبد السوية 15 في أريدو. كذلك فإن خزف سيلك الثانية يقدم لنا عناصر تزينية تذكرنا بسامراء وحلف. ونظراً لكثافة أنقاضها (حوالي 7 أمتار) يحتمل أن سيلك الثانية دامت فترة طويلة، ويحتمل أن المرحلتين، الأولى والثانيةن دامتا معاً ما لا يقل عن 500 سنة.

تبدأ مع سيلك الثالثة مرحلة جديدة من التطور الحضاري حيث ترك سكان القرية مركزهم الأول وانتقلوا بعد فترة من الزمن إلى مكان جديد يعرف حالياً باسم التل الجنوبي الذي تبلغ مساحته حوالي 260× 190م². ويبدو أنه لم يكن هناك انقطاع فعلي وإنما تقدم سريع في مختلف المجالات. وسيلك الثالثة تعاصر، في بدايتها، العُبيد، لكنها تصل في سوياتها العليا

إلى عهد أوروك. وللمرة الأولى في سيلك الثالثة يستعمل الدولاب في صناعة الخزف، وهو اكتشاف قد بدأ ينتشر للمرة الأولى في الرافدين منذ نهاية العبيد وبداية أوروك. أما النحاس فأصبح الآن يصنع بواسطة التذويب والصب، وهناك نماذج من الخناجر والأزاميل والدبابيس والفؤوس صبت في قالب مفتوح. ويبدو أن المعادن قد ظهرت في مرتفعات إيران قبل أن تعرف في الرافدين، ويعتقد أن إيران كانت، في هذه العهود الباكرة، متقدمة على جارتها في هذا المجال. وقد تميزت سيلك الثالثة بنوع من الخزف الجميل الملون الذي تبدو عناصره التزينية أكثر اكتمالاً وتعقيداً من خزف سيلك الثانية. وتشير بعض هذه العناصر إلى شيء من التقارب مع مواقع أخرى في شمالي العراق وإيران مثل: غورا (13) وباكون (A) وشوش (A).

ولعل أهم ما وجد في سيلك الرابعة مجموعة من اللوحات الكتابية يعتقد أنها أحدث عهداً من أوروك الرابعة، وربما هي معاصرة ماصرة لجمدة نصر، وتعبّر عن بعض اللهجات المحلية في هذه المنطقة من الهضبة الايرانية.

## مصر في عصر الحجر والنحاس

عرفت هذه المرحلة الجديدة باسم عصر الحجر والنحاس (أو الأنيوليتي - Enéolithique)، لأن الانسان القديم في وادي النيل تعرف بدوره إلى مادة النحاس وأدخلها في صناعة ما كان يحتاج إليه من أدوات. إلا أنه، بالرغم من اكتشاف هذا المعدن وانتشاره في معظم بلاد الشرق الأدنى القديم، احتفظ إنسان هذا العهد بالأدوات الحجرية التي لم يستغن عنها حتى في العصور التاريخية.

وجدت آثار هذه المرحلة في مختلف المناطق المصرية[1]، لكنها ما زالت شبه نادرة في منطقة الدلتا (حيث يعتقد أن قسما منها قد اندثر بسبب العوامل الطبيعية، كتراكم الرواسب التي تتركها الفيضانات بعد انحسارها)، في حين أنها متوافرة في الأقاليم الجنوبية. ويقسم هذا العهد إلى عدة مراحل أطلق عليها اسم أهم الأماكن الجغرافية التي يعتقد أنها كانت تشكل المراكز الرئيسة للنشاط الحضاري لأهمية الاثار التي وجدت فيها، مثل: البدارى (الحضارة البدارية)، ونقاده (الحضارة النقادية)، وجرزه (الحضارة الجرزية)، والعمرة ( الحضارة العمراتية). وتُعرّف هذه المراحل نفسها (لكونها سبقت مباشرة العصور التاريخية ومهدت لها) بمصطلحات علمية جديدة: عصر ما قبل الأسر الأول (جرزه الأولى في مصر السفلى، العمرة ونقاده الأولى في مصر العليا)، عصر ما قبل الأسر الثاني (المواقع نفسها، وإنما يضاف إليها المعادي وهليوبوليس في مصر السفلى)، ثم عصر ما قبل الأسر الثالث (في نقاده الثانية).

أما المصادر المعتمدة في دراسة مصر ما قبل الأسر فهي القطع الأثرية (الحجرية والمعدنية والخزفية والعظمية) التي وجد معظمها في منطقة الصعيد، ثم النصوص (كتاب الأهرامات وحجر بالرم) من العصور التاريخية التي يعتقد أنها تصف، وإنما بشكل غامض، بعض ملامح حضارة عصر الحجر والنحاس في المجالات السياسية والاجتماعية والدينية. ويبدو أن أجزاء

---

1 ـ أهم المواقع التي ترجع إلى عصر الحجر والنحاس هي: جرزه وهليوبوليس والمعادي في مصر السفلى، والبداري (أقدم هذه المواقع وتلي مباشرة حضارة تاسا)، ونقاده وهيراكونبوليس... في مصر العليا.

من هذه النصوص ترجع إلى أواخر هذه المرحلة، لكنها جمعت (أو نقلت شفهياً) ودونت في العصور التاريخية.

يعتبر هذا العصر من أهم مراحل تطور الحضارات القديمة، إذ أنه، بالاضافة إلى اكتشاف المعادن وتصنيعها، كان على سكان وادي النيل، سواء في الدلتا أو في الصعيد، متابعة النشاط الذي بدأه من قبل انسان العصر الحجري الحديث لاستصلاح الأراضي واستثمارها زراعياً. فالمواقع التي أقيمت سابقاً على الحدود الصحراوية لم تعد تتفق وتصاعد عدد السكان، وازدياد الحاجة إلى المواد الأولية التي تعطيها الأرض، وكان لا بد من اقامة مراكز جديدة على ضفاف النيل غير المهيئة للسكن، الأمر الذي دفع الانسان لأن يصلح، تلبية لحاجاته، ما كانت تغمره المياه وأن يبني من أجل ذلك السدود ويحفر الأقنية محاولاً تجفيف المستنقعات وتوزيع المياه في المناطق المرتفعة. أن هذه المحاولة الكبرى في تاريخ الانسان المصري القديم كانت، على ما يبدو، قد تمت كليا تقريبا مع نهاية عصر الحجر والنحاس وبداية العصور التاريخية.

الحضارة المصرية نشأت في وادي النيل وعلى ضفافه، لا سيما في منطقة الدلتا التي يعتقد أنها كانت أكثر تقدماً في شتى المجالات الحضارية من الجنوب. فالأسباب الرئيسة لهذا التباين بين المنطقتين قد تكمن في البيئة نفسها التي نشأت فيها كل من الحضارتين. ففي الشمال، حيث تتوافر السهول الخصبة الواسعة، كان باستطاعة الانسان أن يستثمر ما تعطيه الأرض من خيرات، والافادة من الموقع الجغرافي للدلتا باقامة علاقات تجارية مع شعوب غربي آسيا وجزر البحر الأبيض المتوسط. أما في الجنوب فكان السهل طويلاً، لكنه قليل العمق، تحيط به مباشرة مناطق صحراوية وتتخلله أيضاً، في أجزاء منه، مناطق شبه صحراوية تكثر فيها الحيوانات المتوحشة. لذلك احتفظ سكان الجنوب (الذين اقتصرت صلاتهم في بادىء الأمر على الشعوب الأفريقية والقبائل المتنقلة)، على الرغم من استقرارهم، ببعض مظاهر العصور السابقة. لكن هذه المنطقة الجنوبية تصبح، ابتداء من أواسط عصر الحجر والنحاس، مركزاً حضارياً مهماً بفضل علاقاتها مع الدلتا والتأثر بمظاهرها الحضارية. ومصر كانت قد تعرضت لهجرات شعوب أتوا من جهات مختلفة، كالليبيين والنوبيين (من الغرب والجنوب) والأسيويين (من الشرق)، الذين استوطن بعضهم أماكن عديدة من وادي النيل، ولا سيما في منطقة الفيوم وجنوبي أسيوط. ويبدو أن هذه الهجرات تتابعت في العصور اللاحقة، كما أن جماعات أسيوية جديدة، من الذين حملوا معهم بعض مظاهر حضارة بلاد ما بين النهرين، أتت في النصف الثاني

من الألف الرابع (عصر نقاده الثانية) واستوطنت جنوبي مصر. وللوصول إلى وادي النيل اتبعت هذه الهجرات الشرقية طريق سيناء، ومنها إلى الدلتا، حيث عثر على عدد من الأواني الفخارية (ذات الأيدي المموجة) من طراز الفخار الذي ظهر في فلسطين (بخاصة في بيت شان)، كما اتبعت طريقاً آخر آتية مباشرة، إما من الخليج العربي، وإما من الشواطىء الغربية للجزيرة العربية (الموازية للشواطىء الأفريقية)، واجتازت البحر الأحمر، ثم وادي الحمامات، ووصلت إلى قفط (شمالي طيبة) في مصر العليا. كانت هذه الشعوب على صلة ببلاد سومر، في جنوب بلاد ما بين النهرين، تحمل إليها النحاس المستخرج من مناجم عُمان، والأواني الحجرية، وتقيم علاقات موازية مع مصر العليا، وتنقل إليها بعض معالم حضارة بلاد ما بين النهرين في البناء (مقبرة نيت حوتب في نقاده) والنحت (مقبض جبل العرق) والخزف.

لكن بعد مرور فترة من الزمن ـ في أواخر الألف الرابع وبداية الألف الثالث ـ كانت هذه الشعوب (فيما لو صح هذا الافتراض الخاص بهجرات الشعوب الحامية والسامية إلى وادي النيل) قد امتزجت بسكان البلاد الأصليين، وانصهرت في هذه البيئة التي نشأت فيها الحضارة المصرية العريقة. لكن هذه الحضارة التي تأثرت في بادىء الأمر، في عصري ما قبل الأسر الوسيط والأخير، ببعض معالم البلاد المجاورة (خاصة بلاد ما بين النهرين)، اكتسبت، ابتداء من العصور التاريخية، مظاهر خاصة بها تميزها عن غيرها من الحضارات القديمة.

شمل التطور الحضاري، في عصر الحجر والنحاس، مختلف النشاطات الانسانية، فظهرت القرى الجديدة على ضفاف النيل وأقيمت فيها بيوت سكن بنيت من أغصان الأشجار. جاءت هذه البيوت دائرية أو بيضوية الشكل في البدارى (أي كما كانت عليه من قبل في عصر الحجر الحديث)، ثم تطورت بعد ذلك وأصبحت مستطيلة في الدلتا، ثم في الصعيد، وبنيت جدرانها من الطين أو من اللبن، وتوقفت نهائياً الأكواخ البدائية، كما حلت الجرار الفخارية الكبيرة محل سلال القصب، كمخازن لحفظ الحبوب. ويبدو أن إنسان هذا العصر قد أخذ يهتم أكثر من السابق بالنواحي الكمالية، استناداً إلى ما عثر في هذه البيوت من بقايا أسرّة خشبية وحصير كان يفرش في الغرف، وإلى ما عثر فيها من أصنافٍ مختلفة من أدوات الزينة والحلي.

ويلاحظ هذا التطور في بناء المدافن التي جاءت، في بادىء الأمر، دائرية أو بيضوية، يوضع فيها الميت بعد أن يلف بالحصير أو الجلد، كما توضع إلى جانبه آنية فخارية وعدد من الأدوات النحاسية والحجرية والعظمية. أما التماثيل النسائية من العاج أو الفخار فكانت تقدم

للميت لأغراض دينية. ولوحظ في البدارى أن الميت وضع في كيس من قصب، الشكل الأولي الممهد للتابوت الذي عرف في الحضارات اللاحقة. وشهدت البدارى أيضاً أولى المحاولات لبناء القبر، إذ عثر على بقايا أغصان كانت توضع فوق الميت لتحميه من تراكم التراب. ثم تطورت هذه الأشكال المدفنية في عهد نقاده ليصبح القبر مستطيل الشكل، شبيهاً ببيت السكن، واختفت تماماً الحفر الدائرية والبيضوية خلال هذه المرحلة. كما استعمل الطين واللبن في تدعيم القبر الذي أخذ في النهاية شكلاً هندسياً واضحاً، وأقيمت حوله حفر ثانوية ربما لوضع ما يحتاج إليه الميت، حسب اعتقادهم، في حياته الماورائية. كما ظهرت في أواخر هذا العهد التوابيت التي صنعت إما من الفخار المشوي، وإما من الخشب. ومما لا شك فيه هو أن تطور البناء المدفني يرتبط مباشرة بتطور الفكر الديني والطقوس الدينية الخاصة بالخلود واستمرار الحياة بعد الموت. فالمعتقدات الخاصة بتقديس بعض الحيوانات في العصور التاريخية ترجع اصولها إلى بداية عصر الحجر والنحاس. ففي البدارى عثر على عدد من القبور التي أعدت لدفن الحيوانات مثل: الثعالب، والثيران والخرفان والغزلان، التي لفّت جثثها بالحصير أو الأكفان، ووضع إلى جانبها أثاث مدفني لا يقل أهمية عن الأثاثات الخاصة بالانسان. وكان الكلب يدفن أيضاً، أما إلى جانب صاحبه، أو في قبر خاص به. لكنه لم ينل من العناية والتقدير ما خص به غيره من الحيوانات التي أتينا على ذكرها.

تميز هذا العصر بانتشار النحاس الذي اقتصر استعماله في بادىء الأمر على الأدوات الصغيرة الحجم (دبابيس، ابر، أزاميل). ولكن سرعان ما تطورت هذه الصناعة الجديدة وحلت أدواتها محل كثير من الأدوات الحجرية القديمة. أما الأدوات الحجرية التي لم تتوقف صناعتها كلياً حتى في العصور التاريخية، فأصبحت نادرة، ولذلك جاءت متقنة الصنع حادة الأطراف جميلة الأشكال.

في هذا العصر، ازدهرت صناعة الأواني الخزفية التي جاءت فنية المظهر، جميلة الألوان، متنوعة الأشكال والزخارف، الأمر الذي سهّل دراستها وتصنيفها حسب مصادرها ومراحلها الزمنية. وعلى الرغم من أنها صنعت بواسطة اليد، من الطمي الممزوج بالرمل، جاءت متناسقة الأشكال والخطوط، تزينها المشاهد التصويرية الحيوانية والنباتية والانسانية، ومشاهد الزوارق في المياه. لكن صناعة الأواني الخزفية الجميلة لم تدم طويلاً، وأصبحت، ابتداء من العصور التاريخية، من الصناعات الثانوية التي اقتصر استعمالها على الأواني المنزلية العادية، وذلك عندما

حلت محلها الأواني الحجرية الثمينة. لكن هذه الأخيرة بقيت نادرة في المراحل الأولى من عصر الحجر والنحاس، ثم انتشرت على نطاق واسع، بخاصة في مصر العليا، في المرحلة الأخيرة من هذا العصر، كما ازدهرت بصورة ملفتة في عهد الدولة القديمة.

ومن الصناعات الأخرى: المينا (email)، وهي الصناعة التي تميزت بها مصر، ويرجع تاريخها إلى بداية عصر الحجر والنحاس. والمينا عبارة عن مزيج من مسحوق البلورات الصخرية والكلس والبوطاس وكربونات النحاس التي تمزج بالماء وتستعمل في طلاء القطع التي يراد تجميلها، ثم تشوى في الفرن. واستعملت المينا على نطاق محدود جداً في البداية حيث كانت تستعمل في طلاء حبات أو قطع صغيرة من حجر الكريستال أو الستياتيت، كما أضيف هذا الطلاء أيضاً إلى قطع من العظم أو الحجارة الكلسية، لكنه لم يستعمل في تزيين الخزف لاعتباره مادة ثانوية. ثم تطورت هذه الصناعة واتسع نطاقها في العصور التاريخية حيث ظهرت أولى القطع الفنية الجميلة المطلية بالمينا.

كان اكتشاف المينا بمثابة الخطوة الأولى لاكتشاف الزجاج. فالمصريون عرفوا، منذ بداية العصور التاريخية، الزجاج ولكن في حالته العجينية، إذ اقتصر استعماله على تزيين قطع من الحجر أو العظم، كما أدخلت إلى المينا مواد أخرى أفقدتها شفافيتها.

## الحالة السياسية في عصر ما قبل الأسر الأخير

لقد أشرنا من قبل إلى التطور الحضاري المهم في وادي النيل، التطور الذي شمل مختلف النشاطات الانسانية، المادية والفكرية. وقد رافق هذا التحول الدائم في حياة الانسان تطور مماثل في الأوضاع السياسية، إذ تمكنت مصر، في أواخر الألف الرابع وبعد مراحل طويلة من الصراع الداخلي، من تحقيق الوحدة السياسية التي جمعت بين مملكتي الشمال والجنوب، وكانت بداية التاريخ المصري. ولكن قبل أن تتوصل إلى هذه الوحدة السياسية، كانت مصر مقسمة إلى عدة أقاليم، تشكلت منها، منذ عصر الحجر والنحاس، مملكتا الجنوب والشمال، اللتان اختلفتا في الحدود الجغرافية والعواصم السياسية والدينية، كما وكان لكل منهما آلهة ورموز خاصة. فاحتفظت الملكية، حتى في العصور التاريخية، ببعض مظاهر هذه الازدواجية كما احتفظ الفرعون بلقبه المزدوج، ملك الجنوب وملك الشمال. وكانت هذه الازدواجية تشكل خطراً دائماً إذ أنها تهدد وادي النيل بالانفصال في كل مناسبة تتعرض فيها البلاد لاضطرابات سياسية

داخلية. وكان لكل من هذه الأقاليم مدينة رئيسية تشكل عاصمة محلية ترتبط بها مجموعة من القرى، بما في ذلك المركز الرئيسي لعبادة اله خاص يحمل لقب، «سيد المدينة والاقليم». وكان حاكم المقاطعة يمثل الكاهن الأكبر، ويجمع، لا سيما في فترات الضعف والانحلال، بين السلطتين الدينية والسياسية.

تركزت النشاطات الحضارية في مصر العليا في عدد من المدن الرئيسة مثل: نخن (Nekhen) (هيراكونبوليس)، شمالي أدفو، ونخب (الكاب)، ونقاده وثيث وادفو وغيرها من المدن التي تميزت بالطابع السياسي والديني. يعتقد أن نخن، مدينة حورس، كانت عاصمة الجنوب السياسية ومقر قصر الملك الذي حمل التاج الطويل الأبيض شبه الأسطواني، وحكم باسم الالهة نخبت Nekhbet (أنثى العقاب). أما الملك الذي كان يقيم في هذه المدينة فعرف باسم نسوت (Nesout)، وهو اللقب الذي كتب قديما على شكل نبتة السوسن، أحد رموز مصر العليا. وفي مقابل هذه العاصمة السياسية، كانت نخب (الكاب) تعتبر المدينة المقدسة، وهي بالتالي مقر عبادة الالهة نخبت.

أما في الدلتا، فكانت بوتو Bouto (تل الفراعين) عاصمة الشمال ومقر الحاكم «بتي» (Biti) الذي يكتب اسمه على شكل نحلة، ويحمل التاج الأحمر (وهو عبارة عن قبعة ينطلق منها شريط عمودي من الخلف وآخر من الامام ينتهي بشكل حلزوني). كان هذا التاج يخص في الأصل الهة الدلتا، «نت»، ذات المظهر الحربي. أما مدينة بوتو فيقسمها أحد فروع النيل إلى قسمين، الأول يعرف باسم «به» (Pe)، مقر الاله حوروس، ويعرف الثاني باسم «ديب» (Dep)، مدينة الالهة أوادجت التي تصور أحياناً على شكل كوبرا، رمز مصر السفلى، وتعتبر مماثلة للالهة نخبت في الجنوب. أما هليوبوليس (اون Oun، ايونو Iounou) فكانت من المدن الرئيسة في منطقة الدلتا، وأخذت أهمية كبرى عندما أصبحت بعد ذلك مقر عبادة الاله رع.

لكن عندما توحدت مصر في بداية العصور التاريخية، جُمع التاجان في تاج واحد عرف باسم «بشنت» Pschent، كما دمج الاسمان في لقب واحد «نسوت ـ بتي» Nesout – Biti، وتوحدت بعض الرموز الخاصة بكل من الاقليمين. وقد تجلت بوادر الوحدة (على الرغم من الاحتفاظ بالحدود السياسيّة الاقليمية والعواصم الخاصة في عصر ما قبل الأسر) في تبني الاله حوروس واعتباره من الالهة الرئيسة في كلتا المقاطعتين، واضافة اسمه إلى الأسماء الشخصية لملوك مصر.

وللوصول إلى الوحدة السياسية، كان لا بد من صراع متواصل دام طويلاً بين أقاليم مصر، صراع لم نتوصل إلى معرفة بعض فصوله إلا بفضل مجموعة من اللوحات الحجرية والعاجية والأواني الخزفية ترجع إلى عصر ما قبل الأسر، وتروى نقوشها ومشاهدها التصويرية أسطورة هذا الخلاف الذي أدى في النهاية إلى الوحدة بين الجنوب والشمال. فكانت هذه الأقاليم تتصارع في ما بينها أحياناً، أو تتحالف أحياناً أخرى، للوقوف في وجه خطر خارجي. فاتحد الصقر والحارس (Ibis) ضد جماعة المحاربين من ذوي اللحى الطويلة والشعر المجعد، كما نشبت الحرب مرة أخرى بين سكان البلاد (في لوحة الجزية الليبية) وجماعة أتت من الخارج، ربما من ليبيا. واضطرت هذه الأخيرة أن تدفع، بعد أن خسرت المعركة، جزية مؤلفة من البقر والحمير والخراف. وهنالك جماعة يبدو أنها أتت من الشرق في قوارب طويلة، كالتي تظهر على المقبض العاجي لسكين جبل العرق، تشبه القوارب التي كانت تعرف في ذلك الوقت في بلاد ما بين النهرين.

بيد أن مصر كانت قد قطعت، في هذه المراحل الأولى، شوطاً مهماً في طريق الوحدة السياسية التي لم تتحقق فعلياً إلا في بداية العصور التاريخية. فكانت بعض الأقاليم قد توحدت وتشكلت منها مملكتا الجنوب والشمال، يحكم كلا منهما ملك يعتبر ممثلا للاله حوروس. قبل ذلك كانت مصر العليا تخضع لإشراف الاله ست (Seth)، ولكن يبدو أن الدلتا قامت، ربما في عصر ما قبل الأسر الوسيط، بمحاولة احتلال الجنوب ونجحت في وضع آلهتها إلى جانب آلهة هذه المنطقة، كما استبدلت عدداً منها بآلهة شمالية. وهذا ما يشرح اعتقاد الجنوبيين بالاله حوروس (اله الدلتا)، وجعله الاله الرئيس في هذه المملكة. لذلك يرى بعض المؤرخين أن الوحدة السياسية الأولى قد حصلت قبل نعرمر، لكنها لم تدم طويلاً، وتجزأت مصر على أثر أحداث، يفترض أنها أدت إلى نشوء مملكتين مستقلتين، تعترفان مع ذلك بالاله حوروس. وكانت عاصمة الأولى، في الشمال، بوتو (Bouto)، والثانية، في الجنوب، نخن (هيراكونيوليس، الكوم الأحمر).

تناولت النصوص المصرية المتأخرة تاريخ هذه المرحلة وجعلت من ملوك هاتين الدولتين كائنات شبه أسطورية، كان لها دور بارز في المعتقدات الدينية. فعرفوا باسم «خدام حوروس»، واعتبروا أنصاف آلهة تفوق قواهم قوى الانسان وحتى الملوك، حكموا في الفترة الطويلة (عدة آلاف من السنين) التي تفصل، في اعتقاد المصريين، ما بين الأسر الالهية

الأسطورية والأسر التاريخية.

الحفريات التي أجريت في مصر، بخاصة في الجنوب، قد ألقت بعض الأضواء على تاريخ هذه المرحلة، وذلك بفضل ما عثر عليه من لوحات حجرية أسهمت في معرفة أسماء بعض هؤلاء الملوك القدماء. ومنها مقمعة من الحجر الكلسي (وجدت في نخن) خاصة بالملك الذي يعرف حالياً باسم «الملك العقرب»، لأن شكل العقرب يدخل في تركيب اسمه. وقد نقشت على هذه القطعة الحجرية مشاهد تصويرية وزعت في ثلاثة حقول، تشير جميعها إلى انتصار الجنوب على تحالف الطِبط (سكان الدلتا) والأقواس (سكان الواحات والبقاع الصحراوية)، وتُمثّل الاحتفال بهذا النصر حيث يظهر الملك لابسا التاج الأبيض ويمسك بيده المعول اسهاماً منه في حفر إحدى الأقنية. ويستفاد من ذلك أن محاولة لتوحيد مصر قد حصلت في عهد الملك العقرب، لكنها لم تنجح كلياً، إذْ اقتصر حكم هذا الملك على مصر العليا، ولم يحمل إلاّ تاج الجنوب، مع أن نفوذه شمل بقاعاً واسعة امتدت حتى منف، حيث عثر على قطعة خزفية يعتقد أنها تحمل اسمه.

يعتقد أن نعرمر (Nărmer) (يكتب اسمه على شكل سمكة ومقص)، خلف مباشرة الملك العقرب، وتوصل إلى توحيد مصر وحمل، حسب ما تمليه الظروف، تاج الجنوب أو تاج الشمال. وقد وصفت مراحل هذه الوحدة تصويراً على لوحة حجرية ذات وجهين (من حجر الشيست الأخضر، وجدت أيضاً في نخن) يحمل كل منهما مشاهد نحتية ترتبط بأعمال نعرمر العسكرية وانتصاره على سكان الدلتا. فظهر نعرمر على الوجه الأول متوجاً بتاج الجنوب ووقف أمامه الصقر، حوروس، إلهه، الذي يُنسب إليه هذا الانتصار الحربي، إذ يمسك بالحبل المربوط بأنف انساني وضع في وعاء إلى جانب الرموز التي تشير إلى الأعداء المهزومين، سكان «تورمنهو» (مصر السفلى). ويظهر الملك على الوجه الثاني من اللوحة حاملاً تاج الدلتا الأحمر، مؤكداً بذلك انتصاره الحربي وبسط نفوذه على هذه المنطقة الشمالية وتوحيد المملكتين. وتشير المشاهد التصويرية المنقوشة على المقمعة الخاصة بنعرمر إلى هذه الأحداث التاريخية نفسها، إذ يبدو فيها الملك مرة أخرى حاملاً تاج الشمال الأحمر، وتحلق فوقه نخبت (أنثى العقاب) الهة الكاب في مصر العليا.

يتبين من دراسة هذه المصادر الأثرية أن مصر قد توحدت في عهد الملك نعرمر، الذي يفترض أن يكون أول ملوك الأسرة الأولى ومؤسسها، مع أن التقاليد والنصوص المصرية

المتأخرة تنسب هذا العمل المهم في تاريخ وادي النيل إلى الملك مينا (Ménès) الذي رُفع إلى مصاف الالهة. لذلك لا يستبعد أن يكون «مينا» (الذي تشير إليه النصوص الكتابية) هو الاسم الذي عُرف به نعرمر نفسه (وهو الذي تؤكد وجوده المعطيات الأثرية) في العصور التاريخية، أي أن الاسمين هما، على ما يبدو، لشخص واحد، وهو الذي كان على راس هذه الأعمال العسكرية التي أدت إلى توحيد مصر العليا ومصر السفلى وتأسيس المملكة الفرعونية التي احتفظت ببعض المظاهر الازدواجية طوال التاريخ القديم.

أما على الصعيد الخارجي، فقد اتسع نطاق العلاقات التجارية مع البلاد الأسيوية وبخاصة بلاد ما بين النهرين وفلسطين. ويؤكد ذلك العثور في مصر (سواء في الجنوب أو الشمال) على مجموعة من الأواني الخزفية، منها ما يرتبط بطراز الأواني الفخارية الفلسطينية (في بيت شان وأريحا)، ومنها ما يشبه الأشكال الخزفية التي ظهرت في أواخر الألف الرابع في بلاد ما بين النهرين (جمدة نصر). ويظهر هذا التاثير نفسه في العمارة المصرية في عهد ما قبل الأسر الأخير، عندما زينت جدران المباني الخارجية بالعناصر الزخرفية، كالتوءات والتجويفات، (Décor a Redans) التي تلاحظ في مقبرة نيت حتب، زوجة نعرمر، في نقاده. ويتضح هذا التأثير الرافدي في المجالات الفنية المصرية الأخرى كالأختام الأسطوانية التي تميزت بها حضارة بلاد ما بين النهرين، واللوحات النحتية (الحجرية أو العاجية) التي تظهر فيها بعض عناصر فنون وادي الرافدين، كالحيوانات المتشابكة الأعناق (لوحة نعرمر)، ومشهد الرجل بين حيوانين (مقبض سكين جبل العرق ـ مصر العليا).

هذه التأثيرات الخارجية، وإن كانت من جانب واحد، إنما تعبّر عن أهمية العلاقات، في أواخر الألف الرابع ق.م، بين مصر وبلاد الرافدين. وكنا قد أشرنا إلى أن جماعات من الساميين كانوا على صلة ببلاد سومر في جنوبي العراق قد نقلوا بعض معالمه الحضارية إلى وادي النيل، كما يعتقد أن فئة منهم قد تركت بلادها الأصلية وأتت إلى مصر لتستقر في بعض أقاليمها سلميا من دون أن تلجأ إلى الغزو أو الاحتلال العسكري.

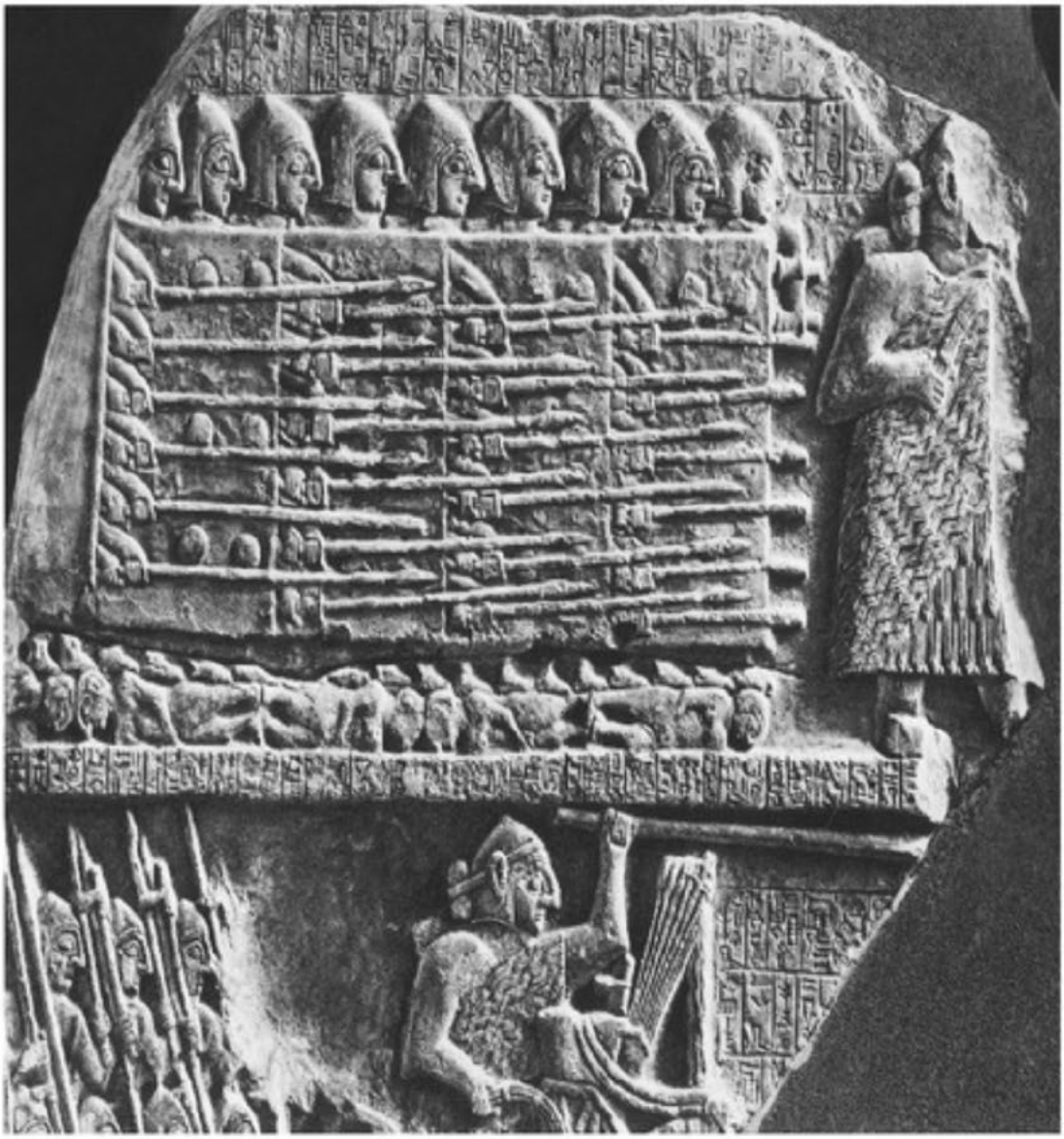

تللو ـ لجش ـ نصب العقبان، الملك ايياناتوم يتقدم جيشه،
جزء من نصب حجري يبلغ ارتفاعه 1.88م، متحف اللوفر.

# الفصل

# الثالث

## بلاد ما بين النهرين

## في

## الألف الثالث ق.م

# عصر الاسر الباكر

في بداية العصور التاريخية (أواخر الألف الرابع، وبداية الألف الثالث ق.م)، شهدت مصر والرافدين تطوراً حضارياً مهماً، في حين بقيت مناطق عديدة في الشرق الأدنى القديم متمسكة بتقاليد العصور السابقة. وفي حين تُوّج هذا التحول في وادي النيل بالوحدة السياسية التي جمعت بين اقليمي مصر العليا ومصر السفلى، فإن بلاد ما بين النهرين لم تتوصل، على الرغم من تقدمها الحضاري، إلى مثل هذه الوحدة السياسية، وبقيت مجزأة إلى دويلات صغيرة (مدن ـ دول) مستقلة، ترى كل منها حاضرها امتداداً لماض أسطوري.

وكما هي الحال في مصر التي ارتبط تاريخها القديم بمجرى النيل، فإن تاريخ جنوبي الرافدين ارتبط بدوره بنهري دجلة والفرات وما يتفرع عنهما من روافد وأقنية أخصبت برواسبها ارض الجنوب. يعتقد البعض أن الخليج (حيث يصب دجلة والفرات) كان قديماً أكثر اتساعاً وعمقاً باتجاه الشمال الغربي، وإنه كان لكل من النهرين مصب خاص به. ومصدر هذا الاعتقاد ما ورد في النصوص القديمة من أن مدناً جنوبية، مثل أريدو، تقع على شاطىء البحر. غير أن الدراسات الجيولوجية والأثرية الحديثة قد اثارت شكوكاً حول هذا الموضوع عندما تبين أن تراكم الرواسب يقابله انخفاض مماثل له بسبب أمواج البحر التي تجرف قسماً من هذه الرواسب. لذا يُرجح أن طبيعة دلتا الرافدين والخليج لم تتبدل كثيراً عما كانت عليه منذ العصور الحجرية[1]. ولعل تفسير ما جاء في الكتابات القديمة هو أن مدن الجنوب كانت، على ما يبدو، تتصل بالبحر بواسطة سلسلة من البرك المالحة والمستنقعات.

في بداية العصور التاريخية كانت قد تكونت على ضفاف مجاري المياه بعض المدن

---

1 ـ CAH, I,1, ch. II, p. 57ff. G Roux, Recently Discovered Ancient Sites in the Hammar Lake District, in Sumer, 16 (1960), 20ff.

والقرى المجاورة لها، انتشرت وفق خطين رئيسين شبه متوازيين، مثل: أدب زابالام، أوما... لجش، لجهة الشرق، ثم كيش، نيبور، شوروباك، أوروك، أور، لجهة الغرب. ووقد لوحظ أن مجموعة المستنقعات والمناطق الصحراوية كانت تفصل بين هذه المدن وتعزلها عن بعضها البعض، بحيث شكلت، حسب ما يعتقد جاكوبسن، حواجز طبيعية بين مدن الجنوب، كانت قد حدّت من نشاطها السياسي ودعمت استقلالها الذاتي، وحالت، لفترة طويلة من الزمن، دون تحقيق وحدة سياسية. وهي الوحدة التي تعرضت دوماً، بعد أن تحققت، للتفكك، بسبب الأحداث التي عادت بالبلاد، في حالات كثيرة، إلى صيغة المدينة ـ الدولة.

بيد أن هذا الوضع الجغرافي لم يكن العامل الوحيد الذي حال دون تحقيق وحدة سياسية على غرار ما حصل في مصر. فهنالك عوامل أخرى تمثلت، بشكل خاص، بنظام الحكم السائد في كل من هذه المدن، حيث أن إدارة المعبد كانت تهيمن على اقتصاد المدينة وتشرف على جميع القطاعات المرتبطة بها، وتعمل للحفاظ على مصالحها داخل اطار المدينة. يبدو أن أيّاً من هذه المدن لم تبلغ من القوة ما يمكنها من بسط نفوذها على جيرانها. فالحواجز الطبيعية لم تكن لتشكل عوائق فعلية في وجه أية محاولة جدية لتوحيد البلاد، ودليلنا على ذلك أن مدن الجنوب تميزت بمعالم حضارية واحدة تجسدت في العمارة والفنون التشكيلية، كما تجسدت في وحدة اللغة وآدابها، وجميع خصائص المجتمع الأخرى. ذلك يعني أن مجاري المياه لم تكن مجرد حواجز تفصل بين المدن السومرية بقدر ما كانت أيضاً صلة وصل تحمل الأفكار والسلع التجارية من طرف لآخر داخل منطقة جنوبي الرافدين وخارجها. فوصل تأثير الجنوب الحضاري إلى مناطق بعيدة، مثل اشنونا، على الديالة (بالقرب من بغداد)، وماري على الفرات الأوسط (في سوريا)، وحتى أشور، على ضفاف دجلة في الشمال. أمّا الاطار الجغرافي الفعلي الذي تكونت داخله الحضارة السومرية فيقتصر على المنطقة الجنوبية من العراق الحالي، المنطقة الواقعة على ضفاف دجلة والفرات، ما بين الخليج العربي جنوباً ومنطقة بغداد شمالاً، حيث تقع مدينة كيش (جنوبي بغداد)، وتمثل أبعد مدن سومر باتجاه الشمال[1].

---

1 ـ وردت أسماء مدن رئيسة ـ مثل: أريدو، كيش، أوروك، أور، أدب، لارسا... ـ في لوائح أسماء المدن التي قيل عنها أنها كانت مقراً للحكم قبل الطوفان وبعده. غير أن عدداً آخر لم يرد له اسم في هذه اللوائح، لكننا تعرفنا إليه من خلال الحفريات الأثرية والكتابات الخاصة به ـ مثل لجش، واشنونا (A. PARROT, Tello, Synthèse de vingt compagnes, Paris, 1948; Ibid, Archéol. Mésopotomienne,

أما تاريخ هذه المرحلة التي تلي مباشرة عصر جمدة نصر، وتعرف باسم عصر الأسر الباكر، السابق لعصر أسرة أكد، فيُحدد بالفترة ما بين 2800 و 2400 ق.م.

وقد تم تحديد مراحل هذه الفترة بفضل النصوص القديمة، بخاصة ما يعرف منها باسم «اللوائح الملكية»[1]، وبفضل المكتشفات الأثرية في المدن السومرية. ويتبين من دراستها أن واضعي هذه اللوائح الملكية قد اعتمدوا التقاليد المحفوظة بشيء من العناية، في عدد من المدن الكبرى، وراعوا في ذلك ذكر اسماء هذه المدن وملوكها، والاشارة أحياناً إلى أحداث رافقت حكمهم وإلى أعمال عمرانية تحققت في أيامهم.

وبفضل هذه اللوائح تم احصاء عشرين أسرة تعاقبت بعد الطوفان، وحكم فيها حوالي 140 ملكاً، خلال فترة زمنية طويلة تقدر بعدة آلاف سنة. لكن هذه اللوائح على أهميتها وما تقدمه للمؤرخ من فوائد كبرى، لم تكن مجردة كل التجرد بالنسبة للأحداث التي تتكلم عنها، ولعلها خضعت لعوامل سياسية محلية، فأغفلت أحياناً، لأسباب نجهلها، اسم هذا الملك أو ذاك، وتجاهلت أحياناً أخرى مدنا بكاملها. وقد ورد اسم هذه الأسر بشكل متتال كما لو أنها حكمت في أزمنة مختلفة ومتعاقبة؛ فيما يرجح أن بعضها معاصر للبعض الآخر، سيما وأن هذه الأسر لم تتول الحكم في مدينة واحدة، بل في عدد من المدن، وفي آن واحد على ما يعتقد، وتبدو واضحة رغبة الكاتب في المبالغة، وكذلك رغبته في اغفال ذكر أحداث بارزة ترجع إلى بداية العصور التاريخية.

---

I. Paris 1946, 369 ss).

ولا بد هنا، من ذكر مدينة ماري لموقعها، وشهرتها ولاعتبارها من المراكز الكبرى التي ورد اسمها في لوائح أسماء المدن، مع أنها، على خلاف المدن السومرية السالفة الذكر، تقع على الفرات الأوسط (في سوريا)، بالقرب من أبو كمال، خارج الاطار الجغرافي السومري الذي حددناه. ولئن تأثرت كثيراً بالحضارة السومرية، غير أن شعبها لم يتكلم، على ما يبدو، اللغة السومرية. مركز آخر كان على علاقة وثقى بسومر هو اشور، المدينة الشمالية التي تأثرت بدورها بتقاليد السومريين ونفوذهم وأفكارهم. أما شوش، في عيلام، فلم يرد اسمها في لوائح اسماء المدن السومرية، إلا أنها كانت على صلة بجيرانها في الرافدين، واستعانت باللغة السومرية ثم الأكدية في كتابة نصوصها.

1 ـ كتبت هذه اللوائح في عصور متأخرة عن الأحداث التي تصفها. فالنسخة الرئيسة منها تعود إلى القرن الثامن عشر ق.م، حيث وضعت آنذاك لأغراض سياسية تبرر أطماع مدينة أسين التوسعية T. JACOBSEN, The Sumerian Kinglist 128 ff. M.B. Rowton, the Date of the Sumerian Kinglist in J.N.E.S., 19 (1960), 156ff.

تماثيل متعبدين (النصف الأول من الألف الثاني ق.م)
مصدرها خفاجي ووادي الديالي ـ العراق
A - متحف فالادلفيا
B C D - متحف بغداد (قبل الغزو الأميركي)

لقد جاء في التقاليد السومرية التي سبقت التوراة بما لا يقل عن ألفي سنة أسطورة الملوك العشرة الأوائل الذين حكموا قبل الطوفان، ودام حكمهم حوالي 241200 سنة، بحسب ما ورد في لائحة الملوك السومريين، أي الوثيقة التي كتبت في أوائل الألف الثاني ق.م. هذه الفترة نفسها تقدر بحوالي 432000 سنة في تاريخ بروسوس (Berossos)، أحد كهنة الاله مردوك في بابل. وقد عاش هذا المؤرخ البابلي في القرن الثالث ق.م، وكتب تاريخ بلاده باللغة اليونانية. كان آخر هؤلاء الملوك «بطل الطوفان»: زيوسدرا (Zi – u – Sudra) في السومرية، وأوتانا بشتيم (وأحياناً اترام هاسيس) في البابلية. وقد ذكره بروسوس أيضاً في اليونانية باسم: كزيسوتروس (Xisuthros). أما الطوفان فقد حدث بحسب الأسطورة بعد حكم (أوبار توتو) في مدينة شوروباك، وذلك في عهد ابنه زيوسدرا، الرجل الذي استطاع، بفضل مساعدة أحد الآلهة له، أن ينجو من الطوفان وينال الخلود، كما استطاع أن يحمل معه بذور شتى النباتات، وأنواع الحيوانات على اختلافها.

وقد تبين من خلال الحفريات الأثرية في عدد من مدن الجنوب، مثل: أور، وكيش، وشوروباك، أن طبقة كثيفة من الغرين (لا تتضمن أي أثر انساني) يحتمل أنها تكونت من الرواسب التي جلبها الفيضان، وجدت بين سويتين أثريتين. ويعتقد وولي[1] (Wooley)، العالم الأثري الذي قام بحفريات أور في بداية القرن العشرين، أن هذه الطبقة الغرينية ترتبط بالطوفان الذي تتكلم عنه النصوص القديمة والكتب المقدسة. ولكن تبين أن هذه البقايا الرسوبية ترجع إلى ما بين عهدي العُبيد الأول والثاني، (حوالي 5000 سنة ق.م)، في حين أن الطوفان الذي تتحدث عنه التقاليد السومرية لا يرقى إلى مثل هذا العهد، ولا بد أن يكون أحدث تاريخا. فإذا ما قبلت نظرية وولي فذلك يعني أن السومريين دخلوا البلاد منذ فترة طويلة جداً وأن الملوك الذين حكموا بعد الطوفان يبدأ عهدهم بعد ذلك مباشرة، أي في عصر العُبيد،

---

1- C.L. Wooley, The early Period (Ur Excavation II.), London and Philadelphia, 1956, 15ff.

إلا أن الشواهد الأثرية وكذلك المصادر الكتابية[1] نفسها لا تقدم أي دليل يدعم مثل هذا الراي. أما الطبقات الرسوبية المماثلة التي عثر عليها في كيش وشوروباك هي من عهود مختلفة. لذلك يصعب تحديد الطوفان الذي يتفق ومضمون ما ورد في الأساطير السومرية، سيما وأنه لم يعثر على مثل هذه الطبقة الرسوبية في جميع المدن السومرية. هذا ولا يعرف شيء عن تاريخ ملوك ما قبل الطوفان سوى ما ورد في لائحة ملوك سومر ونصوص السحر والنبؤات. وهنا لا بد من الإشارة إلى أن حوادث الطوفان كانت غالباً ما تحصل في الرافدين. ففي عهد أحد ملوك أور، إبيّ سن، سميت احدى سني حكمه بعد حادث طوفان مماثل السنة «التي حجبت أفق السماء والأرض». من الواضح أنه كان لهذه العوامل الطبيعية أثرها العميق في تطور الفكر الديني عند سكان الرافدين الذين تأثروا بمظاهر بيئتهم واعتمدوا عليها في تدوين مراحل تاريخهم، وسجلوا حوادث الطوفان التي كانت من أهم الموضوعات التي تناولتها الأساطير السومرية والبابلية ـ الآشورية، كما حاولوا أن يفسروها تفسيراً دينياً يساعدهم على الاستقرار الذهني كبديل لعدم استقرار الطبيعة والوسط الاجتماعي الذي عاشوا فيه.

بعد الطوفان، أصبحت «كيش» مقراً لأول أسرة في جنوبي الرافدين، مجسدة استمرار الحياة وتجددها بعد الكارثة التي حلت بالبلاد، فاكتسبت بعد هذا الحادث من الأهمية بين المدن السومرية بحيث أن ملوكها حملوا في العصور التاريخية اللاحقة لقب «ملك كيش». إلا أن هذه المرحلة التي تلت الطوفان تميزت أيضاً، في النصوص القديمة، بالطابع الأسطوري، إذْ دام حكم ملوكها مئات، بل آلاف السنين[2]، وعرفوا بمظاهر أسطورية تعكسها التقاليد السومرية التي جاء فيها أن «ايتانا» (Etana)، أحد ملوك كيش، قد حكم 1500 سنة، ونسب إليه أنه أنقذ النسر الذي لدغته الحية، وصعد إلى السماء على جناحيه، ثم ذهب بعد ذلك يفتش عن

---

1 ـ مباراجيزى (MEBARAGASI) أول حاكم سومري حمل لقب ملك وقد ورد اسمه في لائحة الملوك السومريين، وهو أول ملك تأكد وجوده تاريخيا بفضل كتابة معاصرة له تحمل اسمه، وجدت في سوية ترجع إلى المرحلة الثانية من عصر الأسر الباكر ـ أي حوالي 2700 ق.م. وفي مدينة أور، وجدت الكتابات الأولى الخاصة بالملك ميسانيبادا (MESANNIPADA)، في السوية التي تلي مباشرة القبور الملكية، وترجع بالتالي إلى نهاية عهد الأسر الباكر. راجع CAH, I – 2 107 – 108, E. SOLLBERGER, Notes on the Early Inscriptions from Ur and el – Obeid, in Iraq, 22 (1960) 71ff.

2 ـ حكم في أسرة كيش 33 ملكاً مدة 24510 سنوات و3 أشهر و3 أيام ونصف اليوم.

عشب الولادة لزوجته أثناء آلامها[1]. ملوك آخرون كانوا بمثابة أنصاف آلهة وأبطال عظام، مثل دوموزي[2] (تموز)، ملك أوروك الذي أغرمت به الربة اينانا (Innana). أما خليفته جلجامش (ثلثه انسان وثلثاه آله) فورد اسمه إلى جانب أسماء الالهة، واعتبر بطل الملحمة التي حملت اسمه، وهي اقدم ملحمة عرفت في العالم، كما تناولته الروايات أكثر من أية شخصية أخرى في تاريخ الرافدين القديم. وقد اتضح الآن أن اللوحات الاثنتي عشرة التي كتبت عن مغامراته الأسطورية في العهد الآشوري لم تكن سوى مقاطع من مجموعة نصوص لاسطورة سومرية الأصل[3] لم يعثر عليها بكاملها. ولكن من المرجح أن هذه الأسطورة تحتوي على عناصر تاريخية حقيقية، حورت وأعطيت صفة الأسطورة. بيد أن جلجامش لم يعرف فقط بمغامراته ذات الطابع الأسطوري الخيالي، بل تنسب إليه التقاليد ـ كما تنسب عادة إلى كبار الملوك ـ أعمالاً عمرانية، كترميم معبد الـ «تومال» في نيبور، وبناء أسوار مدينة أوروك[4] التي يبلغ طولها حوالي 9،5 كلم ويتخللها 900 برج نصف دائري، وتحيط بمساحة تقدر بحوالي خمسة كيلومترات مربعة.

كانت البعثة الألمانية قد تمكنت من اكتشاف أجزاء منها، تبين أنها بنيت في معظمها من اللبن المسطح المحدب الذي استعمل في جنوبي الرافدين في بداية عصر الأسر الباكر، أي في الفترة التي عاش فيها جلجامش.

---

1 ـ «ايتانا» هو الحاكم الذي تصوره النصوص القديمة وكذلك الأختام، من العهد الأكدي بصورة الراعي الصاعد إلى السماء على جناحي نسر .J.T.JACOBSEN, The Summerian Kinglist, 81; J. PRITCHARD, Ancient Near Eastern Texts, 114, H. FRAKFORT. Cylinder Seals (1939), 138 – 9, p l XXIV – h.

2 ـ T. JACOBSEN, op. cit, 88; S.KRAMER, From the Tablets of Summer, 232f.

3 ـ P. GARELLI, Gilgamesh et sa légende, Paris, 1960; 835.

4 ـ تروي التقاليد القديمة قصة الحرب التي نشبت بين جلجامش واغا، ابن مبارا جيزي، وهي الحرب التي يفترض أنها انتهت بانتصار جلجامش، وتقدم لنا صورة عن الحالة التي سادت المدن ـ الدول السومرية المتنازعة من أجل السيطرة وبسط النفوذ. M.LAMBERT, La Période presargonique, dans Sumer, 8 (1952), 156.

أكثر واقعية صورة مباراجيزى[1]، أحد ملوك كيش، الذي عاصر جلجامش ومعه ننتقل فعلاً من الأسطورة إلى التاريخ الحقيقي، إذ لم يرد اسمه في لائحة ملوك سومر وحسب، بل عثر في مدينة توتوب (حالياً خفاجي قرب الديالة) على كتابة خاصة به، كما تعتبره التقاليد، وكذلك ابنه آغا (Agga)، من البناة الأوائل لبعض معابد نيبور، بخاصة معبد الـ «تومال»[2]. ويبدو أنه هو أول من حمل لقب ملك (Lugal) بينما كان الحكام في السابق (ومنهم انمركار وجلجامش) يعرفون باسم «أن» (En) التي تعني «السيد». ومع هؤلاء الملوك الثلاثة السالفي الذكر (الذين عاشوا حوالي السنة 2700 ق.م)، والملوك الذين أتوا بعد ذلك، يلاحظ أن فترات الحكم بدأت تنخفض تدريجياً حتى وصلت، بانتقال النفوذ إلى مدينة أور، إلى مستوى حياة البشر[3].

لقد تعرضت البلاد السومرية في بداية العصور التاريخية، لأحداث لا تزال غامضة، بيد أنها كانت على ما يظهر من الأسباب التي أدت إلى بعض التحول في الحضارة السومرية في أواخر العصور الحجرية. ففي هذا العهد، تميزت بلاد سومر، بالرغم من استمرار معالم العصور السابقة، بمظاهر حضارية جديدة تجلت في الأواني الخزفية، سميكة الجوانب، والمعابد التي يتوسطها بهو على شكل (T)، تحيط به مجموعة من الغرف التي خصص بعضها للعبادة والبعض الآخر للكهنة، كما استعمل قسم منها كمخازن تابعة للمعبد[4]. أما الزقورة التي كانت من قبل عبارة عن مصطبة مرتفعة، فأخذت للمرة الأولى، بخاصة في كيش ونيبور، شكل البرج أو الهرم المدرج الذي أصبح، في العصور التالية، من أبرز مظاهر العمارة الدينية في

---

1 ـ T. JACOBSEN, The Sumerian Kinglist, 82 – 85.

2 ـ E Sollberger, the Tummal Inscription, in J.C.S. 16 (1962), 40 f.

3 ـ GARELLI, Le Proche – Orient asiatique, P.66,

4 ـ (Plano – Convexe)، وبأحجامه الصغيرة (18/ 16 سنتم)، إذ ما قيست بقطع اللبن العادية في العهود السابقة (بلغ طول البعض منها حوالي 60 سنتم). يرجع البعض هذا التأخر في صناعة اللبن لعوامل خارجية، إذ يعتقد أن حضارة جمدة نصر انتهت بكارثة على اثر مجيء شعوب جديدة كانت في طور البداوة. وقد يرتبط بهذه الأحداث التحول الاجتماعي الذي تمثل بتفكك السلطة «السياسية الدينية» عندما انفصل القصر عن المعبد (باقامة جدار بينهما في بادىء الأمر) وازداد نفوذ الملك.

بلاد ما بين النهرين. وللمرة الأولى شُيّد في مدينة كيش قصر ملكي منفصل عن المعبد، مؤكداً بذلك بداية تفكك السلطة «السياسية والدينية».

ترتبط بهذه الأحداث، على ما يبدو، الأسطورة التي تَنْسب إلى جلجامش بناء أسوار مدينة أوروك، كما يعتقد أن جلجامش كان على صلة بسوريا، ولعله أتى من الغرب. وتصوره الملحمة (على خلاف الاله دموزي، تموز) عدواً للربة «ايننا» التي حاولت التقرب منه، وعرضت عليه الزواج منها، لكنه رفضها بعنف ووحشية وانتبها على مسلكها. بيد أن هذا الخلاف لم يدم طويلاً وسرعان ما انصهرت الجماعات التي يرجح أنها أتت من الخارج في المجتمع السومري. وبرزت في الفنون النحتية الموضوعات الخاصة بالاله دوموزي، والمجالس، والقطعان المقدسة، والصراع ضد قوى الشر المتمثلة بالحيوانات الغريبة. وتتجسد فكرة استمرار الحياة والخصب في صورة الرجل ـ الثور (دوموزي، أو جلجامش) والكائن الغريب (التنين) الذي يأخذ شكل النسر ـ الأسدي.

في هذا العهد، أي المرحلة الأولى في تاريخ وادي دجلة والفرات، انتقل المركز السياسي الرئيسي في البلاد إلى مدينة كيش، في أقصى شمال سومر، كما أصبحت مدينة «نيبور»، الواقعة في هذه المنطقة الشمالية نفسها، العاصمة الدينية، ومقراً لعبادة اله الحرب «زبابا» (Zababa). وفيها (نيبور) بني الـ«أكور» (Ekur)، معبد الاله انليل Enlil الذي تحول، لأسباب نجهلها، من اله الهواء إلى سيد البلاد، وأصبح ملك الآلهة.

كان ملوك كيش يقومون بدور الحَكَم في النزاع الذي كان يحصل بين المدن السومرية. فتدخل ميسليم، ملك كيش، حوالي 2600 ق.م، في النزاع الذي دام طويلاً بين أوما ولجش بسبب الاختلاف على احدى مقاطعات الحدود بين المدينتين. وبعد مضي حوالي مئة سنة على هذه الأحداث يروي كل من «أياناتوم» (Eannatum) و «انتيمينا» (Entémena) (من أمراء لجش) أن ميسليم قد أصدر قراراً بانهاء الصراع بين المدينتين وخلّد ذكراه في نصب اقامه عند حدود المنطقة المتنازع عليها. وقد ورد اسم ميسليم (الذي تجاهلته لائحة اسماء الملوك السومريين) في كتابة معاصرة له جاء فيها: «ميسليم، ملك كيش، باني معبد نينجر سو، اقام ذلك من أجل نينجرسو...».

## 1 ـ أسرة أُور الأولى

### الصراع بين لجش وأوما

كان «عهد ميسليم»[1] قصير الأمد، إذ انتقل النفوذ بعد ذلك من مدينة كيش الشمالية إلى الجنوب. وسميت الفترة التالية (2550 ـ 2370 ق.م). باسم «عصر لجاش» لأن معظم الوثائق الكتابية وجدت في هذه المدينة. لكنه من الأصح أن تسمى هذه المرحلة، مع ذلك، باسم «أور الأولى» لأهمية الآثار التي وجدت فيها، وضخامة أبنيتها وكثرتها، وغنى مقابرها الملكية التي تؤكد أن أور كانت المركز الرئيسي في بلاد سومر، بينما بقيت لجش مدينة إقليمية على الرغم من أن عدداً من أمرائها حمل لقب «ملك وأخضع البلاد كلها لنفوذه، وعلى الرغم من أن وثائقها القيمة قد ألقت بعض الأضواء على تاريخ هذه المرحلة[2].

ازدهرت مدينة أور في عهدي: «مس آني بادا» (Mesannipadda) الذي جعلت منه التقاليد نصف اله وقالت إنه حكم ثمانين سنة، وابنه «آني بادا» (Annipadda) الذي شيّد معبدا للرّبة «نينهورساج» (Ninhursag) (سيدة الجبل الكبير)، حيث عثر على كتابة يخلّد فيها ذكرى بناء هذا المعبد.

وتتضح بعض معالم حضارة سومر وتقاليدها بفضل القبور التي اكتشفها الأثري الانكليزي وولى (Woolley) في جبّانة أور الملكية[3]، حيث عثر على عدد كبير من القطع الأثرية الثمينة، مثل: راية أور الرمزية (المزخرفة بما يشبه الفسيفساء، التي تمثل مشاهد معبرة من الحرب والسلم)، والخوذة الذهبية، والختم الاسطواني الذهبي الخاص بالملك «مس

---

1 ـ سمي العهد السابق بهذه التسمية اصطلاحاً نسبة إلى «ميسليم» ملك مدينة كيش، وذلك للدور الذي قام به لحل النزاعات القائمة بين المدن السومرية.

2 ـ A. PARROT, Tello, Synthèse de 20 campagnes, Paris 1948.

3 ـ على الرغم من أهمية محتوياتها وما ألقته من أضواء على الطقوس الدينية، والنشاطات الفنية، تبقى هذه القبور غامضة في ما يتعلق بأصحابها الذين لا بد من اعتبارهم ملوكاً، وان تجاهلتهم لائحة ملوك سومر. لذا لم يكن لهذه المدافن أية فائدة تاريخية بحته، كما أن شيئاً لم يعرف عن بُناتها أمثال: «آني بادا»، راجع: C.L.WOOLIEY, The Royal Cemetery (Ur Excavations, II), London, 1934, 314. P. GARELLI, Gilgamesh et sa légende, 1960, 63.

كلامدوك» (Meskalamdug)، ثم الكؤوس والأدوات الأخرى الفضية والذهبية، والآلات الموسيقية المذهبة والمرصعة بالحجارة الكريمة، والأسلحة الجميلة كالخناجر والسيوف، وقطع الحلي التي وجدت في قبر الملكة «شوباد». كانت هذه القبور التي أقيمت في الأرض تتألف من مجموعة غرف معقودة السقوف وتتصل بالخارج بواسطة ممر قليل الانحدار. وتبيّن من آثارها (كذلك في كيش وربما في ماري) أن السومريين قد اتبعوا حتى في هذا العصر تقاليد التضحية البشرية الجماعية عند موت الملك، إذ عثر في عدد من هذه القبور الملكية على مجموعة من الهياكل العظمية البشرية بلغت أحياناً الثمانين (من رجال ونساء) في القبر الواحد، إلى جانب جثة الملك.

على الصعيد السياسي، تشير وثائق لجش[1] بوضوح إلى حالة عدم الاستقرار السائدة في البلاد وإلى عدوى الحرب التي شملت عدداً من المدن السومرية، ولم تتوقف منذ عهد جلجامش وقصته مع «اغا» (Agga)، ملك كيش. ففي هذا الوقت ابدت مدينة أور حرصها على تقاليدها الاجتماعية وتمسكها بطقوسها ومعتقداتها الدينية، في حين كان أمراء لجش (على بعد 70 كلم شمالي شرقي أور، في المكان المعروف الآن باسم تللو، الواقع شرقي القناة التي تجمع بين دجلة والفرات) أكثر نشاطاً على الصعيدين السياسي والعسكري، مع أن مدينتهم لم تكن في بادىء الأمر سوى مدينة اقليمية لا شأن لها، وكانوا هم بدورهم يخضعون لسلطة ملك كيش. وندين بمعرفتنا لبعض تفاصيل هذه الحقبة التاريخية للوحات لجش التي جاءت، على اختصارها وانحيازها، لتؤكد صحة الشواهد الأخرى في عدد من المراكز السومرية وفي لوائح أسماء الملوك. وبفضلها تعرفنا إلى عدد من ملوك لجش وإلى الأعمال العمرانية التي قاموا بها. منهم «اورنانشه» (Ur - Nanche) الذي تصوره احدى اللوحات النحتية حاملاً هو وأولاده المواد الضرورية لبناء المعابد التي تذكرها الكتابة المنقوشة على القطعة الحجرية نفسها.

---

1 ـ إن لجش التي لم تأت على ذكرها لائحة الملوك تقدم، بفضل وثائقها الخاصة، والقطع الفنية التي عثر عليها أثناء حفريات تللو (= لجاش) (راجع كتاب أندريه باروو المذكور أعلاه ص 9 وما يليها)، أهم المصادر لدراسة تاريخ هذه المرحلة. وبفضلها عرفت أسماء ملوك هذه المدينة وحددت سني حكمهم، والأحداث التي رافقتهم. ويعتقد أنه كان لمدينة لجش لائحة ملكية خاصة بها، لكنها لم تسلّم وثائقها للذين سجلوا أسماء ملوك سومر في عهد أسرة أسين (القرن الثامن عشر). راجع E. SOLLBERGER in, J.C.S. 21 (1967) 279 ff.

ويبدو أن الصراع القديم بين لجاش وأوما (الواقعة على مسافة 25 كلم فقط من لجاش، على الضفة الغربية لمجرى المياه الفاصل بينهما)، قد تجدد في الفترات التالية، بسبب الخلاف على الحقول الواقعة بين المدينتين.

لكن خليفته «ايانا توم ((Eannatum استطاع أن يجعل من لجاش عاصمة بلاد سومر لفترة من الزمن، بعد أن انتصر على أوما وخلد ذكرى انتصاراته كتابة ونحتاً في لوحة حجرية تعرف اليوم اصطلاحاً باسم «نصب العقبان»، لأن أحد مشاهده تصور العقبان ينقضون على أجساد القتلى من جيوش أوما. وبعد سلسلة من العمليات العسكرية أصبح أياناتوم أقوى ملوك عصره، على الرغم من أن اللوائح الملكية القديمة قد تجاهلته ولم تذكر اسمه.

ملك آخر في لجش هو انتيمينا (Entéména) الذي انتصر بدوره على أعدائه وترك لنا نصاً طويلاً يشرح فيه تاريخ هذا الصراع القديم منذ عهد ميسليم[1]، وخلّد فيه انتصاره على اوما التي خضعت مرة أخرى لشروط المنتصر. لكن ذلك لم يحل دون انهيار لجش الداخلي بعد موت أنتيمينا وفي عهد خلفائه الذين تفاقمت في أيامهم المشاكل الاجتماعية بسبب اجراءات الدولة التعسفية. ونتيجة لهذه الأوضاع السيئة قام أوروكا جينا (Urukagina)، وهو الذي اغتصب العرش ووصل إلى الحكم على اثر انقلاب داخلي، قام بحركة اصلاح كانت الأولى من نوعها في التاريخ

جاءت هذه الاصلاحات[2]، بما تعكسه من تطور في العلاقات الاجتماعية وتعقيدها، لتعالج ما استجد من فوضى واضطراب داخلي في دولة لجش. فالغرض المباشر منها دعم موقف

---

1 ـ جرى التحكيم بين مدينتي أوما ولجاش منذ فترة طويلة باشراف ميسليم، أحد ملوك كيش الذي أقام نصبا يفصل بين أملاك الطرفين. غير أن هذا التحكيم جاء، على ما يبدو، لصالح لجش، لذلك كانت أوما تتحين دوما الفرص لاقتلاع حجارة الحدود واستعادة حقوقها. راجع: س. كرامر، من ألواح سومر، ص 98 ـ 102
E. SOLLBERGER, Aspects du contact suméro – akkadien, dans Geneva, n. s. 8 (1960) 248.

2 ـ كان لهذه القرارات أثر كبير في نفوس الكتبة القدماء، فسجلوها على الرقم الطينية التي عثر على أربع نسخ منها اكتشفت جميعها أثناء حفريات البعثة الفرنسية في لجش (تللو) سنة 1878. استنسخها وترجمها للمرة الأولى فرنسوا «تورو دانجان (F. Thurau – Danjin)، وتناولها بالبحث بعد ذلك عدد كبير من العلماء استناداً إلى فهم صحيح للنصوص وما تضمنه من وصف للحالة الاجتماعية ونظام الحكم. راجع
M. LAMBERT, Les Réformes d'Urukagina, dans R.A., 50 (1956), 169; Y.

الحاكم الجديد ومحاولة تحسين أوضاع أفراد الطبقة التي كان لا بد من الاستعانة بها لتجنيد العساكر في أيام الحرب، ولتأمين اليد العاملة في ايام السلم، لأن البلاد كانت قد أصبحت فريسة للطامعين من كبار الموظفين الذين ما برح عددهم يتصاعد، وبخاصة فئة المفتشين والنظار وجباة الضرائب الذين انتشروا في «أرض ننجوسو كلها حتى شاطىء البحر».

وبمرور الأيام واستمرار الحروب ساءت الأحوال الاجتماعية ووجد أهل لجاش أنفسهم وقد سلبوا حريتهم وأرهقتهم الضرائب، في حين ازدادت فئة الموظفين (البيروقراطيين) ثراء، وحققوا مكاسب جديدة أصبح من الصعب التخلي عنها. فوضع ناظر السفن يده على السفن واستحوذ ناظر الماشية على الماشية صغيرها وكبيرها، واستولى ناظر صيد السمك على مصائد الأسماك وأماكن صيدها... لذلك قام أوروكاجينا بحركته الاصلاحية، فأعاد «الحرية» إلى المواطنين، ومنع «السخرة»، وكل وسائل الاستثمار غير المشروعة. خفض الرسوم وألغى وظيفة النظار والمفتشين، و«لم يعد هناك جباة ضرائب». وبعد أن أتم هذه الاصلاحات، مدعياً أنه عمل بإيعاز من الاله ننجرسو، قال بأنه يحرص على ألا «يسلم الضعيفَ والأرملة لظلم الأقوياء». وها هو أوروكا جينا يصف حالة الفوضى في البلاد قبل تسلمه الحكم.

«إن ابقار الالهة استخدمت في اسقاء الحقول الخاصة بالأنسي، الحقول الطيبة كانت وقفا على خدام الأنسي، وفي كل مرة يقطع الكهنة الشجرة من بستان والدة الفقير ويأكلون ثمارها، وعندما يمدد الميت في القبر، ينال الكاهن سبع جرار من البيرة ليكون عنده ما يشرب، و 420 رغيفاً و 120 مكيالاً من القمح ليكون عنده ما يأكل، وثوباً وتيساً صغيراً وسريراً».

لذلك قام أوروكا جينا بإجراءاته الاصلاحية:

«عندما أعطى نينجرسو، محارب انليل، عرش لجش إلى أوروكا جينا... أعاد النظام القديم... طرد المفتشين الذين يحققون في المبالغ التي تدفع ثمناً للخروف الأبيض أو الحمل. ابعد الجباة الذين يحققون في الضرائب التي يدفعها الكهنة للقصر... لم يعد هناك مفتشون داخل

---

ROSENGARTEN, La Nation sumérienne de Souveraierté divine, in Rev. Hist. Rel., 156 (1969), 129 ss; M.I. DIAKONOV, some Remarks on the Reforms of Urukagina, in R.A. 52 (1958), 1 ff.

راجع أيضاً: س. كرامر، من ألواح سومر، ص 105 ـ 112.

حدود أراضي نينجرسو. عندما يُمدد الميت في القبر، يأخذ الكاهن ثلاث جرار من البيرة... ثمانين رغيفاً... سريرا وتيسا صغيرا... وعندما يولد حمار جميل عند أحد أتباع الملك يقول له رئيس قريته، «أريد أن أشتريه منك» يرد عليه، إذا رغب بيعه: «ادفع لي المبلغ الذي اراه منصفاً »... هذا ما أمر به محرراً أهل لجاش من الجفاف والسرقة والقتل.... أعاد الحرية. فالقوي لن يسيء بعد الآن إلى الأرملة واليتيم. أوروكا جينا متفق في ذلك مع نينجرسو».

يتبين من هذا النصّ أن اصلاحات أوركاجينا أفادت بشكل خاص فئات الشعب من الصيادين وعمال المراكب والمزارعين والرعاة، كما أفادت أيضاً الكهنة، وإن فقدوا بعضاً من امتيازاتهم[1]؛ فتخلصت جميع هذه الفئات من المراقبة وما كان يتوجب عليها من ضرائب تدفع عيناً أو نقداً (الفضة)، إلا أن الخاسر الأكبر، على ما يبدو، هو القصر الذي فقد بسبب هذه الاجراءات جزءاً كبيراً من موارد اقتصاده. وكان لاجراءات أوركا جينا، من جهة أخرى، أهمية تاريخية إذ ألقت بعض الأضواء على الحالة الاقتصادية في البلاد، وجاءت لتؤكد اتساع نطاق الملكية الخاصة. صحيح أن المعبد كان يملك أراضي واسعة يستثمرها بشكل مباشر، أو يؤجرها لقاء حصة معينة من الغلال، وإن الاله (أي المعبد) كان يعتبر ـ نظرياً ـ مالك الأرض والمهيمن عليها، إلا أن قسماً كبيراً من الأراضي الزراعية، والجنائن، والماشية، كانت ملكاً خاصاً للأفراد وحتى الفقراء منهم؛ وكان الحكام المدنيون يعملون على مدّ سلطتهم، وإنماء ثرواتهم على حساب المعبد، الأمر الذي تسبب أحياناً في ازكاء الصراع بين المعبد ورجال السلطة المدنية.

لكن اصلاحات أوروكا جينا لم تنقذ الأوضاع المتردية في المدينة، إذ قام لوجال زاجيزي (Lugalzagezi) أنسي أوما، بحملة على المدن السومرية، فاستولى على لجش والمدن المجاورة لها، ومُنح لقب «ملك البلاد». هكذا توحدت المدن السومرية للمرة الأولى في تاريخها، وقامت

---

1 ـ ما زال من الصعب تحديد أهداف هذا الملك بدقة، إذ أنه لم يكن واضحاً في معاملته للكهنة. فهو، من جهة، يحدّ من نفوذهم، وامتيازاتهم بتخفيض الرسوم التي يتقاضاها رجال الدين في مناسبات الدفن أو الطلاق، ويعيد إليهم، من جهة ثانية، بعض حقوقهم، وبخاصة الأملاك التي كان القصر (الملك أو الملكة والأمراء) قد استولى عليها. ففي مقابل حرمانهم من بعض مواردهم غير المشروعة أعادت إليهم القوانين الجديدة، حقوقهم المغتصبة. فمن قبل استخدمت ثيران الاله (المعبد) في حرث أرض الأنسي واغتصبت حقوله من قبل الأنسي، كما اغتصبت ثيران وحمير الكثير من موظفي المعبد. فاستفاد الكهنة ليس فقط من استرجاع ممتلكاتهم، بل من اقصاء موظفي الضرائب العامة وصرفهم.

بأعمال توسعية خارج حدود الرافدين، حيث جاء في الروايات القديمة أن لوجال زاجيزي قد وصل بأعماله العسكرية إلى شواطىء المتوسط، وحكم طيلة 25 سنة امبراطورية مترامية الأطراف. ولذلك لا يستغرب أن يطلق على نفسه شتى الأسماء والألقاب[1]:

«عندما انليل ملك البلدان، إلى لوجال زاجيزى، ملك أوروك، ملك البلاد، كاهن آنو، نبي نيسابا، ابن بوبو أنسي أوما... المفضل عند آنو... أمير انليل الكبير، الذي منحه انليل الذكاء.. عرش سن الكبير، قائد آنو... عندما إلى لوجال زاجيزى هذا، أعطى انليل... الملك على البلاد، وعندما قاده امام هذه البلاد وألقى بالبلدان تحت أقدامه وأخضعها له من الشرق إلى الغرب، مهد له الطريق من البحر الأسفل (الخليج العربي) إلى البحر الأعلى (البحر المتوسط) مروراً بدجلة والفرات... لينقل انليل رجائي إلى آنو، والده الحبيب، بأن يضيف إلى حياتي حياة (جديدة)... ليعطني الرجال بكثرة كالعشب... أيمكنه ألا يغيّر شيئاً من المصير الذي قدرته لي الالهة، أيمكنني أن أبقى دوما الراعي على رأس القطيع...

لكن هذه الامبراطورية لم تُعمر طويلاً، بل انهارت فعلاً بعد فترة قصيرة من تأسيسها عندما قام سرجون الأكدي باحتلال بلاد سومر وأسس امبراطورية جديدة.

2 ـ المجتمع السومري

كانت المدن السومرية قد اعتمدت في بناء اقتصادها على الزراعة، المصدر الرئيسي لازدهارها وتطورها. فمنذ فجر التاريخ، بل منذ العصور الحجرية المتأخرة، ـ أولت مدن جنوبي الرافدين الزراعة اهتماماً كبيراً، وأقامت، من أجل ذلك، السدود، وحفرت الأقنية، وبنت خزانات المياه للافادة من الفيضانات، وتخفيف مضارها، أحياناً. وكانت هذه المنشآت تنسب، لأهميتها، إلى الآلهة التي أمرت بها وأشرفت على انجازها. فأشرف اله الزرع (نينورتا) بنفسه[2] على بناء سد كبير من التراب والحجارة كي تجمع المياه ويحول الفائض منها إلى نهر دجلة. ولعل ملكية مجاري الأنهر والافادة من مياهها كانت من عوامل الصراع السياسي

---

1 ـ Jacobsen, Early political Development in Mesopotamia, Z.A., 52 (1957), 136.

I.J. GELB, Old AKKadian writing and Grammar, ed; 2, Chicago, 1961, 15.

2 ـ S. KRAMER, From the Tablets of Sumer, 198, 290 ff.

راجع الترجمة العربية للكتاب نفسه: من ألواح سومر، ص 140، 288.

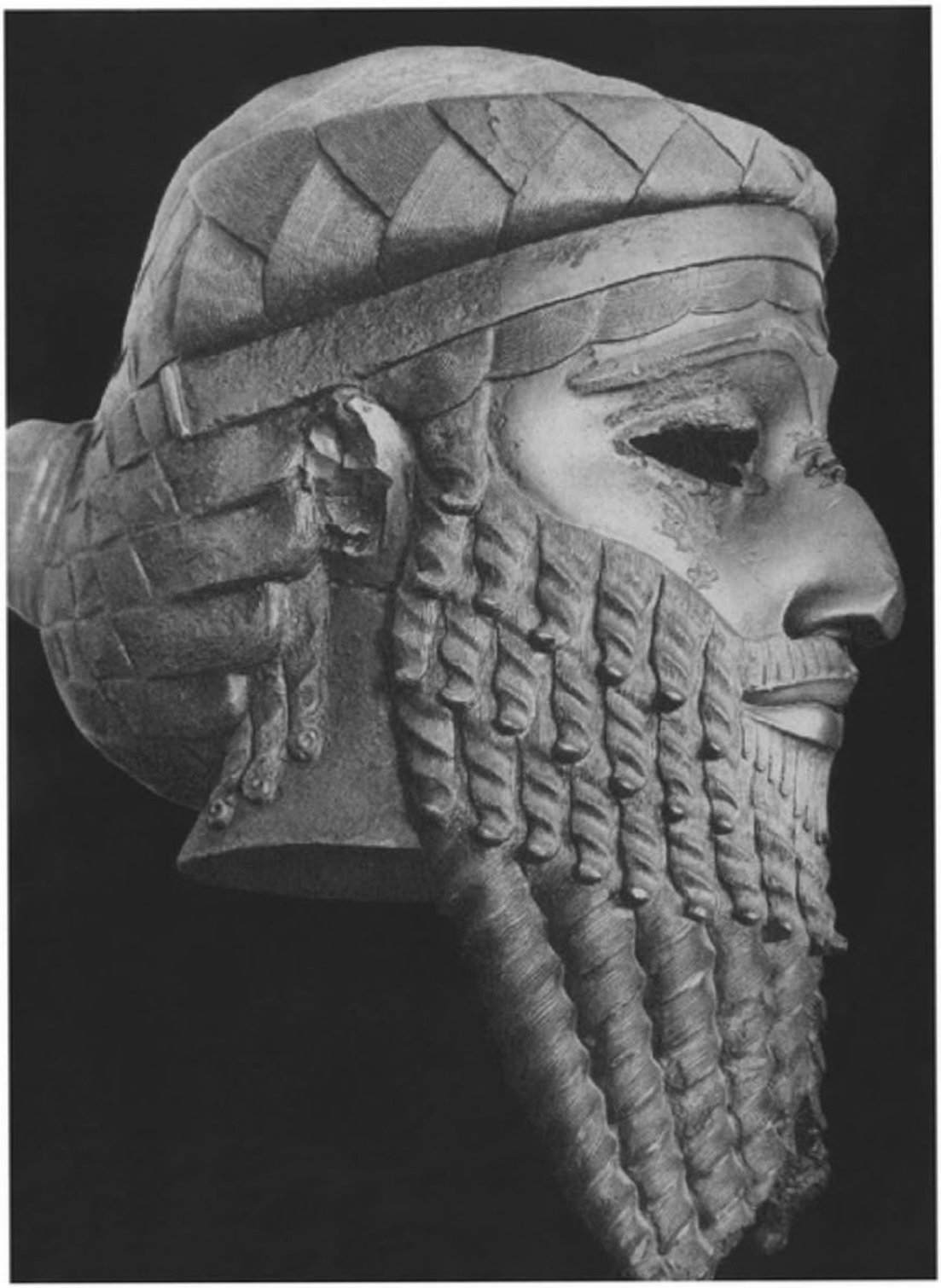

نينوى ـ رأس سرجون الأكدي، برونز (ارتفاع 30سم)، 2350 ق. م
متحف بغداد (قبل الغزو الأميركي)

والعسكري بين المدن السومرية. ففي أثناء النزاع بين مدينتي أوما ولجش، دمرت القناة التي تفصل بين الطرفين أكثر من مرة، كما أعيد بناؤها مراراً أخرى، واعتبر اجتيازها وتحويل مياهها اعتداء على لجش التي فرضت شروطها القاسية على مدينة اوما.

لكن ما يتوفر لدينا من نصوص قديمة غير كافٍ لجلاء الصورة واعطاء فكرة تامة عن نظام الزراعة الذي اتبع في سومر. فيصعب علينا، بسبب ذلك، تقدير حجم الأملاك التابعة للقصر أو للمعبد، أو الأملاك الخاصة. غير أنه اتضحت بعض معالم هذا النظام بفضل الوثائق الخاصة بأحد معابد (معبد الربة بو) لجش، الوثائق التي يمكن اعتبارها ممثلة للحالة العامة في البلاد، ومجسدة للدور البارز الذي يقوم به المعبد في المجتمع السومري.

ففي هذا المجتمع السومري البدائي يشكل المعبد، بالاضافة إلى أغراضه الدينية، المؤسسة الرئيسة اجتماعياً واقتصادياً. فهو المحرك الأول في حياة المدينة كلها (وبشكل لم يعرف إلا في حضارتي الأنكا وأوروبا القرون الوسطى)، ومركز التنظيمات الزراعية والعمالية ومشاريع الري. وهو أيضاً مركز عبادة الاله والأضاحي المقدمة له، والتنبؤات والطقوس الدينية، ومقر القصر الملكي والخزينة، والمحكمة، والمخزن للمحاصيل العامة. وحتى عندما انفصل القصر عن المعبد، في بداية العصور التاريخية، احتفظ هذا الأخير (المعبد) بمكانته ومصادره الاقتصادية (الأملاك الواسعة وتقدر بحوالي ثلث الأراضي الزراعية، الحظائر والجنائن). ويشرح هذا الدور المزدوج للمعبد تصميمه الهندسي العام. فهو عبارة عن مؤسسة اقتصادية متكاملة، حيث يوجد داخل الحرم، وإلى جانب القاعات الخاصة بالطقوس الدينية، مجموعة من الغرف أعدت لمختلف النشاطات الحياتية. وتحتوي هذه الأخيرة على مخازن ومكاتب لتوزيع المحاصيل، وأماكن للكتبة وللدراسة، ومكتبات لحفظ الوثائق الإدارية التي عثر عليها بكميات كبيرة في عدد من المعابد. ولقد عثر في هذه الوثائق على لوائح باسماء العمال والعبيد، كما عثر فيها أيضاً على لوحات سجلت عليها الرواتب والمصاريف العامة وعقود شراء أو بيع العبيد... وكانت المعابد تحتوي أيضاً على غرف خاصة بالعمال، وعلى عدد آخر من الغرف أعد لمختلف المهن الحرفية (محترفات).

ولئن كان المعبد قد فقد دوره السياسي في بداية العصور التاريخية، إلا أنه احتفظ بنشاطه كمركز إدارة وانتاج، وضاعف بذلك من أهميته وبقي احدى المؤسسات الرئيسة في المجتمع السومري. وكان، إلى ذلك كله، يشرف على أعمال التجارة (البرية منها والبحرية أو النهرية) التي

شملت بلاد ما بين النهرين كلها، وكذلك البلاد المجاورة كمصر، وآسيا الصغرى، وفارس، ودلمون (البحرين)، وربما وادي السند. وقد استوردت من هذه البلاد المعادن، كالبرونز والذهب والفضة، والحجارة الكريمة كاللازورد والعقيق، والحجارة الصلبة: الديوريت والستياتيت... واهتمت المدن السومرية، بصورة خاصة، بالزراعة: الشعير (الذي استعمل في صناعة البيرة)، والقمح، والكرمة، والبلح، وتربية المواشي كالبقر والخنازير، والحمير، والماعز، والأغنام التي كان يستفاد أيضاً من صوفها، وصيد الأسماك. ويضاف إلى الاستثمار الزراعي وعمل الحرفيين، موارد أخرى تأتي من الضرائب، وتأجير الأراضي، والهدايا التي كانت تقدم للمعبد.

للقيام بمثل هذه الأعمال المختلفة كان المعبد يستعين باليد العاملة من فلاحين ورعاة ومزارعين وخبازين ونجارين وحدادين ودباغين وحاكة... أي ممثلي جميع المهن والأعمال الضرورية للحفاظ على هذه المؤسسة وتأمين حاجاتها. وكان هؤلاء العمال من الأحرار، ما عدا فئة قليلة من العبيد تستخدم في المطاحن ومصانع النسيج. وقد ورد في نص من نصوص أوروكا جينا أن أحد معابد لجاش كان يستخدم حوالي 1200 عاملٍ يتلقون أجورهم عينا (وقد يتضاعف هذا العدد في حالات خاصة كالأعياد)، ويمنح البعض منهم اقطاعات صغيرة[1]. ومنهم من يملك عدداً قليلاً من الحيوانات ويستثمر حقوله الخاصة مع أفراد عائلته وبمعونة بعض العبيد، بيد أنه كان يتوجب عليهم الخدمة العسكرية أيام الحرب.

ومقابل هذا الدخل من الانتاج في مجال الزراعة والتجارة والحرف، كان على المعبد أن يؤمن كل ما تتطلبه الطقوس الدينية وإدارة شؤون المعبد والحفاظ عليه. لذلك، كان القسم الأكبر من النفقات يدفع للموظفين القيمين على إدارة المعبد، كما يُصرف جزء منه على الطقوس الدينية. أما بناء المعابد (أو ترميمها) فيعتبر من صلاحيات الملك، وهو ما يتضح من خلال كتاباتهم التي يتباهون فيها بمثل هذه الأعمال التي أوعزت بها الآلهة. ولكن يحتمل، لما يتطلب ذلك من مبالغ طائلة، أن يؤخذ قسم من هذه النفقات من أموال المعبد.

---

1 ـ أما بشأن الملكيات الخاصة فإنه يصعب تحديدها ومعرفتها بدقة، بيد أنها وجدت فعلاً، كما أن قسماً كبيراً من الأراضي كان ملكاً لجماعات خارج المعبد، إذ تشير إلى ذلك اصلاحات أوروكا جينا، وعقود البيع والشراء لبعض السلع التجارية، كالمعادن والحبوب والحيوانات والجلود، والعبيد، والحقول...
M.LAMBER T, «Textes commerciaux de Lagash», in R.A. 47 (1953), 57ss., 105 ss.

أدت مثل هذه الأوضاع، في كثير من الأحيان، إلى الفساد والرشوة والاستغلال، الأمر الذي دفع أوروكا جينا للقيام بحركته الاصلاحية التي كانت تهدف إلى الحد من نفوذ الكهنة وكبار الموظفين الذين حاولوا استغلال طبقات الشعب الفقيرة، وفرضوا الضرائب العالية على أفرادها من الفلاحين والمزارعين والرعاة، ورفعوا (الكهنة) أجورهم في حالات الطلاق أو الدفن. فالعقود على اختلافها كانت تضمن مصالح الأغنياء.

أما «القصر» فيشكل القطب الثاني في المجتمع السومري، أو المؤسسة التي كان لها في بعض المدن (مثل كيش واور واوروك وأدب ولجاش)، أهمية كبرى ابتداء من العصور التاريخية. فهو مقر الأنسي Ensi الذي يشرف على إدارة الدولة، في حين كان الاله يمثل الملك الحقيقي ويطلق عليه أحياناً لقب «ملك المدينة». وما الأمير أو الحاكم إلا وكيل هذا الاله على الأرض. لكن في الحقيقة لم يكن هناك تمييز صحيح بين الأمور الدينية والدنيوية. وحمل الأمير ألقاباً مختلفة: الكاهن الأكبر، رئيس المدينة، القائد الأعلى. كان هؤلاء الأمراء يضعون تماثيلهم في المعبد (وهي تصورهم دائماً في وضع المتعبد المتواضع أمام الاله)، ويرتدون الثوب التقليدي الذي يعرف باسم كوناكس (KAUNAKIS)، ويضيفون إلى هذه التماثيل، لا سيما في العهد الأكدي والسومري الحديث، كتابات تحمل أسماء أصحابها وتعدد الأعمال العمرانية التي قاموا بها.

لكن الأنسي، وهو من يجسّد المدينة والدولة، فقد دوره السياسي عندما ظهر الملك، وأصبح، في كثير من الحالات، من أتباعه. وهكذا ظهرت، إلى جانب الإدارة «الانسية»، الإدارة الملكية المتمثلة بشخص الملك الذي عرف باسم «لوجال» (Lugal) (الرجل الكبير)، وأصبح نفوذه أكثر اتساعاً من نفوذ الأنسي. ويبدو أن أهمية الحاكم كانت ترتبط بالظروف السياسية وتطورها، وبالأعمال العسكرية التي يقوم بها. فكان أوروكا جينا يحمل، حسب الظروف، أحد اللقبين (أنسي أو لوجال)، في حين أن لقب «ملك كيش» بقي وحده الصفة الملازمة لنفوذ يشمل بلاد سومر كلها، وذلك لأهمية هذه المدينة وللدور الذي قامت به في بداية العصور التاريخية. وللملك والملكة ولجميع أفراد الأسرة الحاكمة امتيازات خاصة وأملاك واسعة تقطع أحياناً من أملاك المعبد، كما يتلقى القصر الضرائب من أتباعه ومن المدن التي يشرف عليها الأنسي. ففي أحد الأيام أرسل أنسي لجاش إلى مدينة أور المواد التالية:

1716 جذع شجرة (معظمها من النخيل) و 1233 جلد بقر، و 16584 رزمة

قصب، و 3230 وزنة من الأسفلت... وكمية من الزيت وزيت السمك والصوف... وكان الموظفون التابعون للقصر يراقبون وثائق المعبد، إذ وجد مراراً ختم موظف القصر إلى جانب امضاء الأنسي، وكانت الملكة تدير أحياناً شؤون المعبد وتمثل فيه دور الكاهنة الكبرى كما تتجسّد فيها ربّة المعبد. ويشغل أولادها دوراً مهماً في المراسم والطقوس الدينية.

كان الملك في الوقت نفسه كاهناً وقاضياً أعلى، يتوجب عليه بناء المعابد وترميم ما تهدّم منها، وإن كان ذلك من مهام القيمين عليه مباشرة؛ فالمبادرة في هذا المجال للملك، ممثل الاله، والمشرف على إدارة أملاكه. لذلك تصوره المشاهد المنحوتة على الأنصاب الحجرية حاملاً القفة، أي السلة، على رأسه (نصب اورنانشه)، والمعول والرفش على كتفه... (نصب أورنامو، مؤسس أسرة أور الثالثة) ليساهم، رمزيا، في نقل الحجارة ووضع حجر الأساس للمعبد الذي تقرر بناؤه. ومن واجباته أيضاً مراقبة حفر الأقنية الجديدة، مصدر الحياة في البلاد، والدفاع عن المدينة إذا هوجمت. لذلك يشيّد الأسوار، ويقود الجيوش (نصب العقبان) لمحاربة الأعداء. وكان من شأن هذه الأعمال الحربية أن تضاعف من أهمية الملك الذي تنسب إليه الانتصارات وتضاف إلى ألقابه ألقابٌ جديدة مثل: «ملك البلاد»، كما يصبح المفضل عند الالهة: «أعطاه انليل القوة، وأرضعته نينهورساج من حليبها المقدس، ووهبه أنكى الذكاء، وسمّته اينانا باسمه الطيب، محبوب نانشه والمقرّب إليها...».

يبدو، من خلال النصوص القديمة التي وجدت في شوروباك، أن البيت الملكي كان يشكل، هو الآخر، قطاعا إداريا ترتبط به بعض المهن، لا سيما تلك الخاصة بالأدوات الحربية: فدونت، في بعض اللوحات السومرية، حسابات تتعلق بتصليح العربات العسكرية، وعثر على لوائح تعداد فرق الجنود المقيمة في المدينة، أو تلك التي أرسلت إلى الحرب.

إن اهتمام سكان جنوبي الرافدين بشتى النشاطات الاجتماعية، وتطور الأفكار والنظم السياسية، واتساع نطاق التجارة وازدهار البلاد، لم يحل دون القيام بأعمال عسكرية تميزت بها العصور التاريخية منذ بدايتها. فالرُقم الطينية والأنصاب التذكارية، التي تصف هذه الأعمال العسكرية وتعلل أسبابها، ليست نادرة. ولعل أهم هذه اللوحات التاريخية: «نصب العقبان»، و«لواء اور» اللذان يحملان مشاهد تمثل: «الحرب» و «السلم». ومثل هذه الأعمال النحتية والتصويرية يُعتمد عليها للتعرف على الوسائل الحربية المستخدمة في ذلك الوقت. فالجيش السومري كان قد أصبح ـ رغم قلة عدده ـ على شيء من التنظيم وإن لم يبلغ ما بلغته الجيوش

في العصور اللاحقة، في أكد، أو أشور. فاستخدم الجيش السومري المشاة والعربات التي جاءت، كما تظهر في الأعمال النحتية، ثقيلة، تتألف من علبة خشبية، مغطاة بالجلد، تقوم على أربعة دواليب خشبية يربط بينها محوران خشبيان، وتجرها ثيران أو حمير وحشية. بيد أنه لم يكن لهذه العربات، بطيئة الحركة، من دور فعال في المعارك الحربية. أما المشاة، فنظموا في صفوف متراصة، يحملون الدروع الثقيلة، ويعتمرون الخوذ المعدنية، ويرتدون أحياناً ثوباً طويلاً. سلاحهم الرمح والفأس والمقمعة، في حين أن القوس والنشاب الذي عرف منذ فترة طويلة لم يستخدم في القتال، وقد اقتصر استعماله، حتى ذلك الوقت، على صيد الحيوانات.

هذا الجيش السومري كان، في البداية، قليل العدد، ويبدو أنه لم يبلغ الألف رجل. وبمثل هذا العدد من المقاتلين هاجم العيلاميون أرض لجش، في عهد ايناناتوم الثاني. كما تذكر إحدى الوثائق القديمة عدداً من الرجال جندوا من مختلف المدن السومرية على الشكل التالي: «182 (اوروك)، 192 (أدب)، 94 (نيبور)، 60 (لجش)، 56 (شوروباك)، 86 (أوما)، المجموع: 640 رجلاً جندوا في سومر».

في بعض الحالات، كان الجيش الدائم يتألف في معظمه من خدام الملك المباشرين، ويعتمد على تجنيد أعداد كبيرة من أفراد الشعب المزارعين. الأمر الذي يشرح ادعاء ايبانتوم الذي خلد ذكرى انتصاره على اوما في «نصب العقبان»، حيث يقول إنه قتل 3600 رجل من أعدائه (حسب زعمه).

# الدولة الأكدية

## (2230 ـ 2370)

مع انهيار الدولة التي أسسها لوجال زاجيزى انتقلت السلطة للمرة الأولى في البلاد إلى الأكديين الساميين، الذين تمكنوا من تخطي أطر المدينة الدولة السومرية وبسطوا نفوذهم على كل أرض بلاد ما بين النهرين. ويبدو أنه لم يكن هناك غزو أكدي، بالمعنى الدقيق للكلمة، بل مجرد تحول في ميزان القوى لصالح الشعوب السامية، كانت قد عززته هجرات قبائل الرحل المتتالية.

غير أن ذلك لا يعني أن هذا التحول قد جاء سلمياً، وبشكل آلي، أو من دون صراع وأعمال حربية لا نعرف تفاصيلها. وإن لم يكن هذا الخلاف لأسباب قومية أو عرقية، فإنه من الطبيعي أن تتخوف مدن جنوبي العراق من تحركات شعوب الشمال والشمال الغربي، ومنها تلك الجماعات المتنقلة عند أطراف الصحراء، الجماعات التي كانت دوماً تتحين الفرص للنزوح نحو الجنوب والمراكز المتحضرة، يدفعها إلى ذلك تردي أوضاعها المعيشية، من جهة، وغنى بلاد سومر وخيرات مدنها، من جهة ثانية. ولا شك في أن هذا التخوف من خطر خارجي لم يتبدل حتى عندما أصبح الساميون أنفسهم أسياد المدن المتحضرة في الرافدين. فكانوا، بدورهم، يتخوفون من حركة شعوب مجاورة، سامية أو غير سامية، ما زالت في طور البداوة وتسعى للانتقال من حياة الرحل إلى الاستقرار[1].

شهدت العصور التاريخية القديمة عدة هجرات سامية (كالأموريين، في أواخر الألف الثالث، والآراميين، في أواخر الألف الثاني ق.م) انتشر أفرادها في مختلف أنحاء الشرق الأدنى،

---

1 ـ E. Sollberger. Aspect du contact suméro – Akkadien in Genava, 8 (1960) 242, 259; CAH., I – 2 99ff.

وصلوا أحياناً إلى دلتا مصر. وتعرضت لهجرات مماثلة مدن الشاطىء السوري[1] وفلسطين[2]، هجرات الأموريين الذين اجتاحوا هذه المنطقة ودمروا بعض مدنها، ثم أقاموا فيها، وأعادوا بناءها بعد فترة من الزمن تميزت بالفوضى وعدم الاستقرار[3]. وتعرضت بلاد الرافدين بدورها لمثل هذه الهجرات الساحقة، مما اضطر ملوك أكد الساميين الوقوف في وجه جماعات من الأموريين[4].

لكن الوضع يختلف بالنسبة للدولة الأكدية التي لم تنهض نتيجة لهجرات خارجية مفاجئة. فمنذ العهود التاريخية الأولى، ظهرت، في المنطقة التي عرفت باسم أكد (أواسط وادي دجلة والفرات)، مدن سكنتها جماعات من الساميين الذين كانوا قد استوطنوا هذه المنطقة الوسطى وامتزجوا بغيرهم ممن سبقهم إليها؛ وجمعتهم بجيرانهم في الجنوب مصالح مشتركة. ويبدو أن فئات منهم انتشرت في مدن الجنوب نفسه، واستقرت في بلاد سومر، حيث تصاعد، بعد ذلك، عدد أفرادها الذين انخرط بعضهم في الجيوش السومرية، أو عمل في قطاعات أخرى. يؤكد ذلك ورود أسماء أعلام سامية عديدة في الوثائق الاقتصادية في كل من لجش، وأدب، ونيبور[5].

يبدو أنها من أصل سامي الأسماء ذات المقاطع المضاعفة، مثل «دادا»، و «بوبو»، و «لولو»... وقد توصل بعض هؤلاء الساميين إلى مراكز عالية في الدويلات السومرية، حيث تسلّم أحدهم (لابهشوم Labahshum) عرش أوروك، كما شغل رجل آخر (دودو ـ Dudu) وظيفة كبير كهنة الاله نينجرسو. وسبق تأسيس الدولة الأكدية قيام أسرة كيش التي حمل ملوكها أسماءً سامية.

يعتقد أن لوجال زاجيزي (ابن «بوبو») نفسه هو أيضاً من أصل سامي وهو الملك الأول الذي ذهب بأعماله العسكرية إلى ابعد من حدود المدن السومرية وضم إلى مملكته بلاداً

---

1 ـ M. DUNAND, Fouilles de Byblos.

2 ـ K. KENYON, Archaeology in the Holy land 1970 – 135.

3 ـ M. DUNAND, Fauilles de byblos.

4 ـ س. كرامر، من ألواح سومر، 349 ـ 350.

5 ـ R.D. Biggs, Semitic Names in the Fara Period, in or n.s. 36 (1967), 155 ff.

مترامية الأطراف، مخالفاً التقاليد السومرية، عندما وضع كتابات حملت طابع الشمول، وأطلق على نفسه ألقاباً شتى جمعت بين آلهة مختلف المراكز الدينية في البلاد، كما هيأت أعماله لمجيء سرجون الأكدي الذي اتبع سياسة كانت نتاجاً للتطور الذي قضى في النهاية على اطار «المدينة ـ الدولة» السومرية[1].

لقد جعلت التقاليد المتأخرة من سرجون (أوسرجون القديم) الشخصية الرئيسة في بلاد ما بين النهرين، وذلك لانتصاراته التي فتحت صفحة جديدة في تاريخ المنطقة، ولاعتباره مؤسس الامبراطورية الأكدية، وباني عاصمتها «أكد» (Agadé) التي لم يعرف موقعها بعد، ولكن يحتمل أن تكون في جوار كيش، على بعد حوالي 60 كلم باتجاه الشمال. طفولته غامضة، حيكت حوله الأساطير[2]. التي جعلت منه بطلاً قومياً واتخذت من اقواله موضوع تنبوءات تاريخية[3]. عاش سرجون في كيش وأصبح بفضل الربة عشتار من سقاء القصر في عهد أحد ملوكها الضعاف (أورزابابا ـ Urzababa)، حيث تمكن بعد ذلك من قلب الحكم وتسلم العرش. أسس عاصمة جديدة عرفت باسم أكد[4]، انطلق منها لمحاربة لوجال زاجيزى[5]،

---

1 ـ SOLLBERGER, op – cit; 265.

2 ـ تقول احدى هذه الأساطير التي كتبت في عصور تاريخيه متأخرة (في العهدين الآشوري، والبابلي الحديث): عندما أرادت والدته التخلص منه وضعته في قفة ثم رمتها في النهر، فعثر عليه بستاني، فأخذه إلى بيته حيث رباه وعلمه مهنته (زراعة البلح)، وعندما كبر، دخل، بفضل الربة عشتار، قصر ملك كيش «أورزابابا»، وأصبح من سقاء القصر. غير أن هذه القصة ذات الطابع الأسطوري قد تحوي عناصر حقيقية وتقوم على خلفية تاريخية. راجع:

J. PRITCHARD, Ancient Near Eastern Textes..., 119.

3 ـ يفترض أن الكتابات الخاصة بسرجون عديدة، ولكن فقد معظمها، وان ما تبقى منها يشير إلى أنها كتبت بأسلوب يتوخى الدقة والايضاح، سواء بالسنبة لأعماله العسكرية أو المدنية. راجع: I.J. GELB, Old Akkadian writing and Grammar, ed. 2, chicago, 1961, 193, ff.

4 ـ لم يكن سرجون ملكاً لأي من المدن المعروفة سابقاً، وعهده يبدأ انطلاقاً من عاصمة جديدة، ولذا حمل، على ما يعتقد، اسماً جديداً شاروم كين (= الملك الصادق). CAH, I – 2, ch XIX, 420.

5 ـ كان على سرجون أن يواجه، في بادىء الأمر، لوجال زاجيزى بعد أن أصبح ملكاً على أوروك، مؤسساً بذلك أسرتها الثالثة التي لا تتمثل إلا به وحده. ونعلم من كتاباته أن سرجون قد انتصر على خصمه (لوجال زاجيزى)، وأسره، ثم اقتاده «تحت النير» حتى بوابة النليل، ثم واجه الملك الأكدي بعد ذلك المدن السومرية الأخرى، وهزم قادتها في أور ولجش، واوما، وتمت له السيادة، بعد ذلك، على بلاد سومر القديمة كلها. G.A. BARTON, The Royal Inscriptions of Sumer and AKKad, New Haven, 1929, 100 ff.

«ملك البلاد»، كما نظم جيشا من الساميين اعتمد في سلاحه على القوس والنشاب[1]، واستطاع بعد فترة قصيرة، أن يُخضع جميع مدن سومر وبلاد عيلام[2]. اتجه بعد ذلك، نحو الشمال، فاحتل مدينة ماري وقسماً كبيراً من بلاد أمورو (سوريا)[3] وشمالي الرافدين[4]، كما وصل إلى جبال طوروس وأواسط الأناضول في محاولة منه لدعم موقع التجار الرافديين المقيمين في هذه المنطقة، لا سيما في كانيش[5] (كُلْتبه Kültepe)، المركز التجاري الآشوري الواقع قرب نهر حاليس (كزيل أرمق). يرجح أن سرجون قد وصل بانتصاراته العسكرية إلى شواطىء البحر المتوسط (ربما للسيطرة على مصادر أخشاب جبال لبنان)، ومنها إلى قبرص[6].

ثم تتابعت هذه الأعمال العسكرية في عهد ولديه ريموش، وما نشتوزو[7] اللذين اضطرا إلى اخماد الثورات، في سومر وعيلام، بالعنف[8]. ويعتقد أن مانشتوزو قد ذهب إلى

---

1 ـ كانت أسلحة السومريين ثقيلة كالحراب والفؤوس، والتروس، والمقامع، والخوذ البرونزية، والعربات البطيئة التي تجرها الحمير الوحشية التي لا تسمح بالحركة السريعة.

2 ـ G. A Barton, op. cit, 114 ff.

3 ـ J. Nougayrol, dans Ecole Pratique des Hautes Etudes, Annuaire, 1944 – 5, 16, no. 61.

4 ـ إن ما تبقى من كتاباته الخاصة لا تذكر شيئاً عن أعماله العسكرية في الشمال، بيد أن السجلات ونصوص التنبؤات تروى قصة انتصاراته الباهرة في سوبارتو. ولئن كان من الصعب تحديد منطقة نفوذه، إلا أن آشور كانت من أهم المناطق الشمالية التي خضعت للنفوذ الأكدي: I.J. GELB, Hurians and Subarians (S.A.O.C. 22), Chicago, 1944, 36, n. 100.

ويؤكد ذلك الآثار المكتشفة في منطقة آشور: مجموعة من التماثيل الحجرية وجدت في معبد أشتار، يعتقد أنها من العهد الأكدي أمّا الرأس البرونزي الجميل كان في متحف بغداد قبل الغزو الأميركي للعراق الذي وجد في نينوى، فيعتقد أنه يمثل سرجون نفسه، أو حفيده نرام سن. A. Parrot, sumer, p1, 206

5 ـ P. GARELLI, Les Assyriens en Cappadoce, Paris, 1963m 123.

6 ـ CAH, I – 2, 424 – 5.

7 ـ T. JACOB SEN, Sumerian Kinglist, 111.

8 ـ نظراً لقلة المصادر القديمة، ما زال من الصعب تأريخ هذه الأحداث ومعرفة تفاصيلها، وإن كان من المؤكد أن ريموش قام بأعمال عسكرية قادته، بعد أن أخضع المدن السومرية، إلى عيلام (جنوبي غربي إيران) وهزم جيوشها. راجع: R.SOLLBERGER in R.A., 63 (1969), 40, n. 1.

ابعد من حدود عيلام واصطدم بأمراء السند[1].

أما في عهد نرام سين ـ حفيد سرجون ـ الذي رفع نفسه إلى مصاف الالهة[2] وفاقت انتصاراته أعمال جده الحربية، فعرفت الدولة الأكدية اتساعاً جغرافياً عظيماً وتقدماً حضارياً كبيراً. لكنه اضطر، هو الآخر، حفاظاً على استمرار الامبراطورية وبقائها، القيام بعدة حملات عسكرية، أثناء حكمه الطويل[3] (حوالي 37 سنة). وتقول الروايات شبه الأسطورية أنه واجه تحالفاً كبيراً من عشرين امارة (سبع عشرة في نص آخر)، في المنطقة الممتدة من آسيا الصغرى إلى الخليج العربي[4]. فكانت هذه الحملات شاقة ومنهكة، وباتجاهات مختلفة: المتوسط[5]، وآسيا الصغرى[6]. وقد خلد انتصاراته على أنصاب حجرية، وجد بعضها في ديار بكر (في

---

1 ـ وهي المنطقة التي عرفت في النصوص القديمة باسم ملوخا، النصوص التي تشير إليها كما لو كانت بلدا أفريقيا (النوبة أو الحبشة)، في حين يتبين لنا من نصوص أخرى أنها تقع لجهة الشرق، ويتم الاتصال بها عن طريق البحر، وتستورد منها الأخشاب والذهب والعاج والحجارة نصف الكريمة، وسواء قام هذا الملك الأكدي بحملة إلى السند أم لا، فإن هناك من الشواهد الأثرية ما يؤكد وجود علاقات تجارية بين السند والرافدين. وقد بلغت هذه العلاقات أعلى مراحلها في أيام الدولة الأكدية. راجع: CAH., I – 2, 439 – 40.

2 ـ بوصول نرام سن إلى الحكم، شهدت بلاد الرافدين تحولات مهمة، كان أبرزها استخدام اشارة التعريف الدالة على الألهة أمام اسم الملك. كان نرام سن الأول الذي حمل هذا اللقب، بينما اعتبر ملوك سومر أنفسهم خدام مدينة الاله. وللمرة الأولى حمل الملك لقباً آخر فيه شيء من الادعاء (غير أنه اقل تمديفا من الأول) ألا وهو لقب «ملك الجهات الأربع» المجسد لفكرة الشمول الكونية، المعبر عن ادعاء ملوك أكد السيطرة العالمية على الأرض. وتبنى مثل هذه الفكرة أيضاً الملوك السومريون من أسرة اور الثالثة التي تأسست في أيامها امبراطورية على شيء كبير من الأهمية – W.W. HALLO, Early Mesopetamian Titles, New Haven, 1955, 49, 59;
M. J. SEUX, Les Titres royaux, dans R A, 59 (1965), 1ss.

3 ـ ما زال من الصعب التعرف بدقة على مجمل الأحداث التي رافقت حكم نرام سن لأن معظم ما كتب عنه جاء في نصوص وأساطير من عهود متأخرة لا تعطي عنه سوى صورة غامضة.

4 ـ C.J. GADD, in CAH, I – 2, 441 f.

5 ـ جاء في النصوص القديمة أنه وصل إلى مدينة اوليزوم الواقعة قرب صور.

6 ـ يعتقد أن نرام سن وصل إلى «بوروشخاند» المستعمرة التي كان قد وصل إليها من قبله سرجون بناء لطلب التجار الرافديين المقيمين فيها.

CHA, I – 2, 426 ff. 442.

المنطقة الشمالية التي عرفت في ما بعد باسم ميتانّي)، وفي شمالي العراق، جنوبي السليمانية. ففي هذه المنطقة الأخيرة، عثر على لوحة حجرية تحمل مشهداً وكتابة يخلدان انتصاره على سكان جبل زغروس = الـ «لولوبي». وفعلاً قام نرام سين بحملات عسكرية في هذه الجهات الشرقية والجنوبية الشرقية، وخضعت مدينة شوش العيلامية، في أيامه، لنفوذ أكد وتأثيرها، بل أصبحت إحدى العواصم الاقليمية التابعة للامبراطورية، بعد أن ارتبطت تجارتها بجنوب الرافدين[1]، وشيدت فيها مجموعة من الأبنية. وامتد هذا التأثير إلى الشمال الشرقي، وشمل سكان جبال زغروس، حيث استعملت اللغة الأكدية في كتابات أحد ملوك اللولوبي[1] (آنوبانيني) الخاصة، مع أنهم لم يخضعوا كلياً للنفوذ الأكدي[2].

لكن، على الرغم من نجاح هذه العمليات العسكرية، باتت الامبراطورية في أواخر عهد نرام سين مهددة بالخطر. فاتباع مبدأ العنف لم يكن الوسيلة الكفيلة باقرار السلام في المنطقة، لا بل أساء إلى الدولة الأكدية، لدرجة أن التقاليد من العصور اللاحقة وصفت نرام سين بالملك المشؤوم، ونسبت إليه تدنيس معبد نيبور الذي نهبه في احدى حملاته العسكرية.

هنا، لا بد من الإشارة إلى أن أعماله العسكرية قد شملت مدينة إبلا ـ عبله (جنوبي

---

1 ـ يؤكد هذا التأثير الرافدي الوثائق القانونية والإدارية، وكذلك العقود والرسائل وبعض الأعمال الأدبية التي لم تكتب باللغة العيلامية، بل باللغة الأكدية. ويتبين من اللوحات المسمارية أن التجارة كانت ناشطة بين عيلام والرافدين.

2 ـ G. A. BARTON, op. cit, 150.

3 ـ وفي مجال النشاط العسكري تجدر الاشارة إلى الحملة التي قام بها نرام سن إلى بلاد ماغان وانتصاره على ملكها، «مانيوم». يؤكد هذه الحملة، فضلاً عن النصوص، مجموعة من الأواني الحجرية (الالبستر) نقش عليها اسمه، وحملت التعبير «غنائم ماجان»: وكان لهذه الأواني الحجرية أهمية كبرى إذ جمعت بين اسمين، مانيوم، وماجان، كانا محور نقاش طويل، بغية التوصل إلى استنتاجات تاريخية مهمة. فكلمة «ماجان» التي يراد بها على الأرجح الجزيرة العربية، أطلقت أيضاً، في عصور متأخرة من تاريخ الرافدين، على مصر. راجع CAH., I – 2, 439 ولما كانت هذه الأواني الحجرية تشبه تلك المعروفة في مصر (من الأسرتين الخامسة والسادسة)، أراد البعض أن يربط بين اسم «مانيوم» أو «مانوم» واسم الفرعون المصري «مينا» مؤسس الأسرة الأولى في مصر. غير أنه من الصعب القبول بمثل هذه النظرية لاختلاف الفترة الزمنية التي عاش فيها كل من نرام سن «ومينا». أما عن التشابه في الأواني الحجرية فمرده لتأثير فني عن طريق التجارة. فمصر كانت ترسل مثل هذه الأواني إلى جبيل وغيرها من مدن الشاطىء، ولا يستبعد أن يكون قد وصل البعض منها إلى المناطق الشرقية. CAH, I – 2, 445.

مدينة حلب، في المكان المعروف باسم تل مرديخ) التي باكتشافها حديثاً (ابتداءً من 1964) أعيد الاعتبار إلى تاريخ سوريا بعد أن كانت ملحقة ببلاد ما بين النهرين. لقد تبين بفضل هذه الاكتشافات الأثرية، أن منطقة شمالي سوريا لا تقل أهمية عما كانت عليه مدن الرافدين. فبموازاة الدولة الأكدية، وربما قبلها بقليل، تأسست مملكة إبله التي تؤكد آثارها (القصر الملكي والمعابد، والوثائق المدونة بالخط المسماري واللغة الابلاتية على آلاف من الرقم الطينية) أنها كانت من القوة والازدهار ما أثار مخاوف الأكديين وحثهم على مواجهتها عسكرياً، سواء في أيام سرجون، أو في أيام حفيده نرام سين الذي دمرها، ولم يُتح لها بعد ذلك (في النصف الأول من الألف الثاني ق.م) استعادة ما كانت عليه من ازدهار ونفوذ في الفترة المعاصرة للدولة الأكدية.

وفي عهد ابنه ـ شاركلي شاريّ ـ تقلص نفوذ الدولة الأكدية ولا سيما بعد أن أعلنت عيلام الثورة، وظهور خطر البدو الأموريين[1] الذين بدأوا يتسللون إلى داخل البلاد على شكل جماعات ما برح يتصاعد عددها. إلا أن انهيار الدولة الأكدية لم يكن على أيدي العيلاميين، أو الأموريين الذين أبعد خطرهم، بل على أيدي جماعات جديدة من سكان جبل زغروس الهندأوروبيين: الجوتى (Guti) الذين تمكنوا، بعد سلسلة من العمليات العسكرية، من الاغارة على وادي الرافدين ونشر الدمار والفوضى في مدنه التي استولوا عليها وحكموها طيلة 125 سنة[2].

## 1 ـ المجتمع الأكدي:

كان لهذه الأعمال العسكرية المتتالية أثر مهم، سياسياً واجتماعياً، في تاريخ بلاد ما بين النهرين ومنطقة غربي آسيا. فالامبراطورية التي تأسست في العالم الشرقي القديم، شمل نفوذها بلاداً كانت، في نظر سكان الرافدين القدماء، تساوي القسم الأكبر من عالمهم المعروف لديهم.

---

1 ـ I.J. GELB, The Early History of the West Semitic Peoples in J.C.S. 15 (1961), 29 f.

2 ـ في نشيد كتب في فترة لاحقة وصف شاعري لقيام امبراطورية أكد وانهيارها، س. كرامر، من ألواح سومر، 39 ـ 94.

لكننا نجهل حدود هذه الامبراطورية الجديدة، سيما وأنها لم تكن ثابتة ونهائية، بل تعرضت، بحسب الظروف، لعملية مد وجزر كان من عواملها احداث داخلية أسهمت أحياناً في تقلص سلطة أكد ونفوذها. ولقد أعلنت أكثر من مرة التقاليد ونصوص التنبؤ عن قيام ثورات داخلية، وبخاصة تلك الثورة التي نشبت في أواخر أيام سرجون، الأمر الذي اضطر الملك الأكدي أن يخمدها بالعنف عند أسوار عاصمته المهددة بالحصار. وتجددت بعد ذلك تلك المظاهر عند تسلم كل من خلفائه العرش. غير أن نفوذ الدولة الأكدية دام، مع ذلك، أكثر من قرن (2370 ت 2230)، وشمل ـ بشكل فعلي ومباشر ـ منطقة واسعة امتدت من الخابور (شمالي سوريا) شمالا، إلى سومر وعيلام جنوبا.

من المؤسف أن تبقى المصادر والوثائق التاريخية الخاصة بهذا العهد غير كافية لرسم صورة واضحة عنه. فحتى الآن لم تُكتشف مدينة أكد (عاصمة دولة أكد)، ولم يعثر بعد على آثارها ووثائقها التي يفترض بها، لو وجدت، أن تلقى أضواء ساطعة على تاريخ هذه المرحلة. وكل ما لدينا اليوم يقتصر على الكتابات والروايات شبه الأسطورية التي ترجع إلى عصور متأخرة. أما الوثائق الإدارية والاقتصادية المتوفرة الآن فوجدت خارج بلاد أكد، بالقرب من الخابور والديالة، وفي سومر وعيلام. يضاف إليها مجموعة من القطع الأثرية (وجدت هي بدورها خارج حدود أكد) كالقناع البرونزي[1] الجميل الذي يمثل رأس سرجون (؟) (كان في متحف بغداد لكنه سرق أثناء الغزو الأمركي للعراق)، ويعتبر من روائع الفن في العصور القديمة، وبقايا نصبَي سرجون وريموش[2]، ونصب نرام سين[3] (متحف اللوفر)، ثم تمثال مانيشتوزو ومسلته[4] التي جاءت كتابتها لتؤكد صحة قسم كبير مما نسبته التقاليد إلى ملوك أكد.

لعل أبرز ما قامت به هذه الدولة كان توحيد السلطة والبلاد للمرة الأولى في تاريخ الرافدين، حيث ارتبط بهذا الحدث المهم تحول جديد في مفهوم المَلكية عبّر عنه نرام سين عندما

---

1 ـ A. PARROT, Sumer, 206 – 208.

2 ـ Ibid., pl. 207 – 209

3 ـ Ibid., pl. 212 – 213.

4 ـ Ibid., pl. 214.

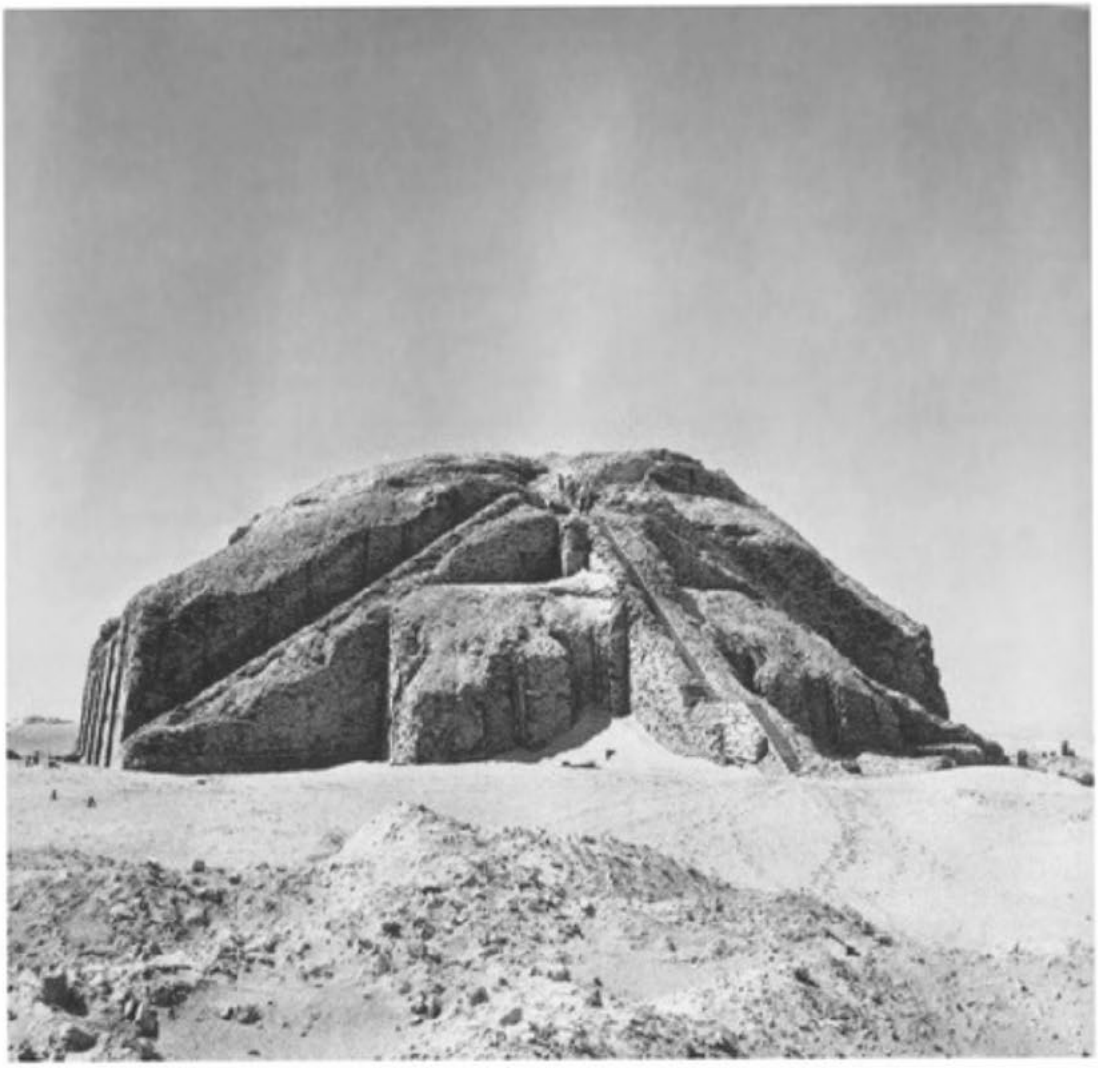

أور ـ زقورة من الاسرة الثالثة، أواخر الألف الثالث ق. م

حمل لقباً جديداً: «ملك الجهات الأربع»، حل محل اللقب التقليدي «ملك كيش»، وتلقب به، من بعده، معظم ملوك بلاد ما بين النهرين، بمن فيهم الملوك الصغار الذين لم يتعد نفوذهم، أحياناً، حدود المدينة التي تولوا إدارتها. وكي يُعبّر عن الدور الذي يقوم به حمل نرام سن، للمرة الأولى في تاريخ الرافدين، التاج المقرّن الذي اقتصر استعماله حتى ذلك الوقت، في المشاهد النحتية والتصويرية، على الآلهة، للدلالة على صفاتهم الالهية المميزة. وللغرض نفسه أضاف هذا الملك إلى اسمه الرمز (شكل مسماري يشبه النجمة) الذي يسبق عادة أسماء الالهة ويعرّف عنها في الكتابات المسمارية. بيد ان هذا التقليد الجديد في مفهوم المَلكية الالهية لم يتبع في الرافدين، على خلاف التقاليد المصرية، إلا لفترات قصيرة كانت تتحكم بها حالة استقرار الوضع الداخلي والتحولات السياسية المتواترة التي تعرضت لها دول الرافدين.

هكذا تبدلت أهداف الدولة وأطماعها مع تأسيس الامبراطوية الأكدية. فملوك سومر لم يذهبوا إلى أبعد من حدود أقاليمهم، أو المناطق التي شملها التأثير السومري (ماري في الشمال، وعيلام في الجنوب الشرقي). أما بشأن الحملة التي قام بها لوجال زاجيري، فإنها بقيت محدودة النتائج، ولم تتأسس فعلاً أول امبراطورية في الشرق إلاّ على يد سرجون وخلفائه الذين وحدوا البلاد، واجتازوا جبال طوروس، وأخضعوا مياه الخليج وتجارته لمراقبتهم، وبسطوا نفوذهم (في عهد نرام سين) على بلاد ماجان (الجزيرة العربية؟) في الجنوب. ولتحقيق مثل هذه الأهداف كان لا بد من ايجاد جيش قوي، لا مجال لمقارنته بجيوش المدن ـ الدول السومرية. وإذا ما أخذنا بتصريحات ريموش، كما وردت، يتكون لدينا صورة عامة عن حجم هذه القوى العسكرية. فهو يدّعي أنه اسر 5700 رجل من المتحالفين السومريين، وقتل في احدى معاركه 17000 رجل من العيلاميين، وأسر منهم حوالي 4000 رجل[1].

إدارياً، واجهت الامبراطورية مشاكل صعبة ومعقدة بسبب تعدد شعوبها. وعمدت من أجل ذلك، إلى وسائل خاصة، كضم المقاطعات ذات الأكثرية الأكدية إلى الإدارة المركزية، وترك الأقاليم الأخرى لإدارة مؤسساتها السابقة. ولئن احتفظت هذه المدن بشيء من استقلالها الداخلي، إلا أنه كان لا بد لها من الاعتراف بالسلطة الأكدية، وفقد أمراؤها (الأنسي)، بسبب ذلك، كثيراً من نفوذهم، وأصبحوا مجرد حكام مقاطعات يخضعون لإدارة

---

1ـ P. GARELLI, Le Proche – Orient – Asiatique, 90.

واحدة متمثلة بالسلطة المركزية.

مع تبدل المفاهيم العامة، شهدت البلاد تحولاً في العلاقات الاجتماعية أسمهت به إدارة الدولة، وكان من شأنه أن اتسع نطاق المُلكيات الخاصة. ففي النص الذي حفر على مسلة مانشتوزو[1]، خصص الملك جزءاً من أموال الخزينة لشراء الأراضي، بعد أن عمدت الدولة إلى نقل عدد من سكان بعض المدن (مثل كيش، ومَرَاد...) بهدف استملاك أراضيهم.

يبدو أن الدولة لم تتبع في ذلك مبدأ القمع والاغتصاب، إذ كانت تدفع تعويضات كبيرة مقابل ما حصلت عليه من أملاك، كما دفعت تعويضات مماثلة للموظفين والعمال الذين خضعوا للاجراءات نفسها. فجميع الحقول كانت تُشرى استناداً إلى تقدير نسبة ما تنتجه من غلال. ويبدو أن السعر الذي ابتاع به مانشتوزو أرضه يعادل الأسعار التي وجدت في مصادر أخرى[2].

صحيح أن النصوص لا تقول من هم المستفيدون من هذه العمليات التجارية، لكن يفترض أن هؤلاء كانوا من المقربين من الملك، أفراد أسرته وبعض الموظفين الذين منحوا مثل هذه الاقطاعيات. وهم في معظمهم من الأكديين إلى جانب نسبة قليلة من السومريين[3].

كان من نتائج هذه الاجراءات أن ظهرت طبقة جديدة من الارستقراطيين، معظم أفرادها من الموظفين، الأمر الذي أساء إلى مصالح الكثيرين من فئة النبلاء القدماء، وولّدَ لديهم شعوراً بالاحباط واحساساً بضرورة التمسك بقومياتهم الخاصة، ولا سيما بعد أن عمد خلفاء سرجون إلى معاملة المدن السومرية الثائرة بالقسوة والعنف.

أما المعبد، فالوثائق التجارية والاقتصادية القديمة[4] لم تأت (خلافاً لتقاليد العهد السومري) على ذكر ما يتعلق بأملاك هذه المؤسسة الدينية وشؤونها. ذلك يعني أن تحولاً كبيراً قد تحقق في العهد الأكدي بحيث سيطرت الإدارة المدنية وفقدت المعابد الكثير من نفوذها وأملاكها.

---

1 ـ A. Parrot, Sumer, pl. 214.

2 ـ CAH., I – 2, 449.

3 ـ I. J. GELB, Old Akkadien Writing and Grammar, ed 2, Chicago, 1961, 12.

4 ـ تتضمن هذه اللوحات عقود بيع وشراء وشهادات بيع حقول ورقيق وحيوانات وسلع مختلفة، ووثائق نقل أراض ومزارعين... Ibid, 7.

لكن هذا التحول لم يغير كثيراً من طبيعة المجتمع العامة، إذ احتفظت بعض المؤسسات الزراعية والحرفية بأنماطها القديمة. فبقي العمال المزارعون والحرفيون يخضعون لإدارة رؤسائهم الذين يشرف عليهم ناظر عام، ويتلقون أجورهم عينا من الحبوب أو الطحين أو الزيت. ولقد ازدهرت الحياة في المدن التي كان يشرف عليها حكام بمعاونة مجلس القدماء، ويخضعون مباشرة للسلطة المركزية. فنشطت في هذه المدن الصناعات الحرفية واتسع نطاق التجارة التي شملت مناطق بعيدة كالجزيرة العربية (ماجان)، والبحرين (دلمون)، والهند (ميلوخا). لكن أكد لم تصل في هذا المجال إلى ما كانت قد وصلت إليه المدن السومرية من الغنى المتمثل في القبور الملكية لمدينة أور. فيلاحظ انخفاض في نسبة مادة اللازورد[1] المستورد من مناجم باداخستان، على نهر أموداريا (أوزبخستان حاليا)، ربما لأن المواصلات عن طريق ايران قد أصبحت أكثر صعوبة، لأسباب ما تزال غامضة. المادة الثانية، والأهم، التي سجلت انخفاضاً مماثلاً هي القصدير الذي يمزج بالنحاس في عملية صنع البرونز. ويلاحظ مثل هذا النقص من خلال دراسة الأدوات، من العهد الأكدي، إذ تبين أنها اقرب إلى النحاس الصافي منها إلى البرونز.

لكن انخفاض نسبة استيراد بعض المواد (اللازورد والقصدير لا يقابله انخفاض في عملية استيراد الأخشاب من الجهات الغربية والشمالية الغربية (لبنان والأمانوس)، بل إن اتساع الامبراطورية قد زاد في حجم العمليات التجارية الخارجية، فكانت سفن «ملوخا» و «ماجان» و«دلمون» تصل حتى مدينة أكد، حاملةً منتوجات هذه البلاد من النحاس والذهب والحجارة الكريمة. إن الاكتشافات الأثرية، بخاصة في أور وأشنونا، تشير إلى أن العلاقات التجارية بقيت قائمة مع هذه المراكز المهمة، وتؤكدها الأختام التي وجدت بأعداد كبيرة في بعض مدن الرافدين، الأختام التي تحمل نقوشا قريبة جداً من النقوش التي ظهرت على أختام مماثلة في وادي السند. لذلك يُرجّح أنها استوردت مباشرة من الهند، أو أن بعضها صنع محليا، ولكن وفق الطراز الشرقي. هذه العلاقات مع وادي السند قديمة جداً، بيد أنها لم تعرف من

---

1 ـ C.L. Wooley. The Royal Cemetery. London, 1934. 372 ff.; R.D. BIGGS, Le Lapis lazuli dans les textes sumériens archaiques. In R.A., 50 (1966). 175 F.

الازدهار يوماً ما عرفته في عهد الدولة الأكدية[1].

أما في المجالات الاجتماعية الأخرى فإن التحولات السياسية لم تؤثر كثيراً على تطور المظاهر الحضارية، إذ اعترف الأكديون بجميع الآلهة السومرية القديمة، ولكن بعد أن أضفوا عليها صفات ومفاهيم جديدة، سيما وأن عدداً من الآلهة السامية قد وجَدت قرائن لها بين الالهة السومرية. وبالرغم من اعتراف الأكديين بالاله السومري «انليل»، احتل الاله «أل» مكانة عالية عند الساميين، كما اشتهرت في هذا العهد آلهة سامية أخرى، مثل: شَمَش (الشمس)، وعشتار. وتتضح هذه الاتجاهات الجديدة، حصيلة اختلاط الشعبين السومري والأكدي، في الأعمال الفنية، كالنحت والحفر على الحجارة. ففي هذا المجال استعار الفنان الأكدي الكثير من المفردات والعناصر الفنية القديمة، ووضعها في قالب جديد تميز بالليونة والمظاهر التعبيرية، ومحاكاة الطبيعة (نصب نرام سين، رأس سرجون البرونزي، ختم شاركلي شري...).

يلاحظ مثل هذا التحول الفني ـ التقني، في الرقم الطينية التي جاءت بأشكال لا تعرج فيها، تحمل كتابات نقشت عليها بكل عناية ودقة؛ خطوطها (أو أشكالها المسمارية) جلية وواضحة وجميلة، لم نشهد مثلها بعد ذلك إلاّ على نصب حمورابي من العهد البابلي القديم وعلى لوحات مكتبة أشور بانيبال من القرن السابع ق.م. هذه الكتابة المسمارية استخدمت في التعبير عن ما لا يقل عن اثنتي عشرة لغة مختلفة، كالسومرية والأكدية (البابلية والآشورية)، والعيلامية والحثية والفارسية... في العهد الأكدي، استعملت هذه الكتابة المسمارية للمرة الأولى في تسجيل لغة سامية عرفت باسم الأكدية القديمة»، حيث أعطيت الرموز والمقاطع أو الاشارات القديمة قيماً صوتية جديدة تتفق وهذه اللغة السامية. ومثل هذه المهارة التي ظهرت في الكتابة الأكدية تتجلى أيضاً في مجالات أخرى وعلى الأخص في الأختام. فهي تصور مشاهد انسانية وحيوانية في أوضاع مختلفة ومتنوعة، تتخللها اسطر من الكتابات المسمارية الجميلة.

## 2 ـ نهاية دولة أكد والغزو الجوتي

إن بوادر الضعف والانحلال بدأت تظهر في الدولة الأكدية منذ أواخر عهد نرام سِن، على الرغم مما عرفته البلاد أثناء حكمه الطويل من ازدهار ومجد. فثمة قصيدة كتبت

---

1 ـ CAH, I - 2, 453.

باللغة السومرية[1]، اعتبرت إثماً كبيراً ما قام به الملك الأكدي عندما هاجم نيبور ودمر معبدها، أغضب الآلهة التي وجهت اللعنة إلى أكد وقدرت لها الخراب ولشعبها الشقاء. والحقيقة أن هذا النص يعكس حالة البلاد السيئة عندما ترك نرام سين العرش لولده شاركلي شَرى (ملك كل الملوك) الذي اضطر أن يواجه، فضلاً عن الأوضاع المتردية في الداخل، خطر الغزو الخارجي، سواء على حدوده الجنوبية الشرقية، أو الحدود الشمالية الغربية. يضاف إلى ذلك خطر البرابرة الجوتي، سكان اللوريسطان في جبال زغروس. ففي عهده تجرأت عيلام على مهاجمة أكد نفسها وأعلنت استقلالها.

لكننا، في الحقيقة، نجهل كيف كانت نهاية أكد. فبعد موت شاركلي شري (دام حكمه 25 سنة) شهدت منطقة الرافدين فترة قصيرة من الاضطراب، حكم البلاد خلالها ملوك ضعاف، وعبرت عنها لائحة الملوك بهذا التساؤل[2]: «من كان ملكاً؟ من لم يكن ملكاً»؟ وتشير إلى حالة الغموض هذه القصيدة السالفة الذكر، ورسالة[3]، معاصرة لعهد شاركلي شَري، تصف خطر الجوتي. لذا يعتقد أن سيطرة هذه العناصر الجديدة قد بدأت فعلاً، ولربما على أثر معركة حاسمة حصلت في أواخر أيام الملك الأكدي، أو في بداية حكم خليفته. ويفسر هذا التناقض بين تواجد الغزاة واستمرار أسرة أكد لفترة تزيد على الثلاثين سنة، أن المجموعات الأولى من الجوتي التي حققت بعض الانتصارات عادت وتشتت من جديد، الأمر الذي أتاح للاكديين أن يحققوا بعض المكاسب الاقليمية.

دام الحكم الجوتي حوالي 125 سنة، حكم خلالها عشرون أو واحدٌ وعشرون ملكاً لم يتركوا آثاراً تذكر، بل إنهم تأثروا بالحضارة الرافدية لدرجة أن أسماءهم التي احتفظت بطابعها الخاص في البداية بدأت تتحول بعد ذلك لتصبح بابلية في نهاية الأمر[4]. ذلك يعني أن الشعب الجوتي الذي لم تكن له أهداف سياسية واضحة قد وجد نفسه في بيئة متحضرة، فتقبل تراثها وتقاليدها، وذاب تدريجياً في المجتمع الأكدي ـ السومري.

اتصف عهد الملوك الجوتي بالضعف والانحلال، إذ بقي نفوذهم محلياً ومحدوداً، ولم

---

1 ـ ص. كرامر، من ألواح سومر، 390 ـ 394.

2 ـ J. JACOBSEN. The Sumerian King – list, 155.

3 ـ Ibid, 24f. L. OPPENHEIM, Letters from Mosopotamia, p. 71 – 72, no 2.

4 ـ CAH, I – 2, 475.

يكن لهذه الحقبة التاريخية سوى الذكرى السيئة في نفوس سكان الرافدين الذين لم تكن ردود الفعل عندهم ضد الحكم الجوتي بأقل عنفا من ردود الفعل لدى المصريين ازاء الهكسوس[1]. فلم يتمكن هؤلاء الجبليون الغزاة من تأسيس دولة جديدة على أنقاض دولة أكد، واقتصرت أعمالهم، لا سيما في الفترة الأولى من حكمهم، على نشر الفوضى في البلاد، وتدمير مدنها، ونهب معابدها. فنهبت أوروك، وأحرقت أور... كما دمرت مدينة أكد التي زال وجودها بعد ذلك ولم تتح لها فرصة النهوض ثانية. ونظراً لضعف الحكم الجوتي، وتفكك أجهزته، نشأت في البلاد الخاضعة لنفوذهم أسر جديدة تمتعت بشيء من الاستقلال الذاتي في أوروك (الأسرة الرابعة)[2]، وفي لجش.

لكن هذه المدن السومرية التي بدأت تظهر من جديد على المسرح السياسي، مستغلة الغزو الجوتي للتحرر من نفوذ دولة أكد، لم تتمكن من النهوض ثانية إلا بعد فترة من الزمن.

---

1 ـ G.A. BARTON, The Royal Inscription of Sumer and Akkad, New Haven, 1929, 170f. 300f.

2 ـ CAH, I – 2 458.

# العصر السومري الحديث

## 1 ـ أسرة لجش

في أواخر العهد الجوتي، وقبل انتقال السلطة فعلياً إلى السومريين في عهد أسرة أور الثالثة، شهدت مدينة لجش[1] شيئاً من الاستقرار الداخلي أتاح لها القيام بدور حضاري تمثل بنشاط تجاري وأدبي وفني. وبعد طرد الجوتي، عرفت البلاد تطوراً مماثلاً في مدن سومرية أخرى، بخاصة في أور الثالثة التي انتقل إليها دور الزعامة السومرية ثانية، وهو التطور الذي جاء ليؤكد استمرار التقاليد الحضارية وترابطها وأهمية ما قدمته الدولة الأكدية في هذا المجال.

ففي مدينة لجش، شهد عهد جوديا Gudéa، نهضة فنية تجلت في مجموعة من المنحوتات تمثل هذا الأمير، وابنه ننجرسو، وتعتبر من أجمل ما وصل إليه فن النحت في ما بلاد ما بين النهرين. ويلاحظ مثل هذا الاتقان والتكامل الفني في أعمال نحتية أخرى (كالانصاب والأواني الحجرية المزينة بمشاهد تصويرية منحوتة) كانت توضع في المعابد التي شيدت أو رممت في هذا العهد. إلا أن المجموعة البنائية العائدة إلى هذه المرحلة تهدمت قديماً ولم يبق منها سوى أسس معبد ننجرسو (Ningirsu)، ومخطط بناء كان قد نقش على أحد تماثيل جوديا. فالنصوص المعاصرة (أهمها النص الذي كتب على أسطوانتين كبيرتين من الصلصال) تشير إلى أن جوديا قد اهتم اهتماماً كبيراً بالعمران، وشيد معبد ننجرسو، بناء لأوامر هذا الاله الذي تراءى له في الحلم.

---

1 ـ تمكن أحد ملوك أوروك، أوتوهجال، من طرد الجوتي حوالي السنة 2120، وكان هذا النصر العسكري قد اعتبر بمثابة عملية تحرر لبلاد سومر سيما وأنه تم بفضل كهنة نيبور الذين حرضوا أمير أوروك على الثورة ضد «تنين الجبل»، عدو الآلهة، فاستحق هذا الأمير بفضل ذلك لقب «سيد سومر» وملك «الجهات الأربع». H. Schmökel, Sumer, trad. De l'allemand, Paris, 1964, 76.

لكن جوديا لم يقم بأي عمل عسكري يذكر باستثناء الحملة التأديبية إلى عيلام التي كانت مصدراً لليد العاملة في سومر، وما تشير إليه النصوص من أن الآلهة قد مهدت أمامه الطريق من «البحر الأدنى إلى البحر الأعلى». أما على الصعيد التجاري فقد وصلت القوافل السومرية إلى مسافات بعيدة براً وبحراً. فاستوردت أخشاب الأرز من لبنان أو من جبال الأمانوس، وخشب الدلب من جبال «ابلا»، والرخام والحجارة الكلسية من «جبال الغرب»، والبازلت من ضفاف دجلة العليا، والديوريت من الجزيرة العربية، والذهب والحجارة الكريمة من بلاد «ميلوخا» (Melukha)، والنحاس من الجهات العيلامية[1]. ولحفظ هذه البضائع، أنشأت مجموعة من المخازن كان جوديا يفتخر دوماً بأنها ملآنة: «كانت التوابل في البيت كأنها دجلة عندما يفيض، وفي بيت المال، كانت الحجارة الكريمة والمعادن النادرة والرصاص، وكان بيت العربات يرتفع فوق الأرض كالجبال...»[2].

وقد خَلَف جوديا أولاده (وأهمهم: أورننجرسو) الذين اعترفوا بزعامة أور وقدموا لها الجزية. وكانت مقابرهم آخر مظاهر الازدهار[3] في المدينة التي زال أثرها التاريخي والحضاري وتوقف نشاطها، بل أهملت في نهاية الألف الثالث (حوالي 2000 ق.م).

### 2 ـ أسرة أور الثالثة

بعد طرد الجوتي على يد ملك أوروك انتقل مركز النفوذ بعد حكم هذا الأخير إلى مدينة أور (حوالي 2120). لكننا نجهل الأسباب التي دفعت اورنامو[4] Ur Nammu، مؤسس أسرة أور الثالثة، للانتقال من أوروك (وهي التي انتصرت على الجوتي) إلى مدينة أور التي جعل منها المركز الرئيسي في بلاد سومر، وأعاد إليها أمجادها القديمة. قام أورنامو بأعمال عسكرية تحقيقاً للفكرة التي طالما راودت أسلافه منذ عهد لوجال زاجيري، ألا وهي توحيد

---

1 ـ W.F. LEEMANS. Foreig in Trade in the old Babylonian Period, Leyde, 1960, 11.

2 ـ H. SCHMÖKEL, op. cit, 74.

3 ـ A. Parrot, op. cit.

4 ـ يعتقد أنه كان قد عين حاكماً على أور أيام سابقه ((CAH., I - 2, 495 كما يرجح البعض أنه ابن أوتوهجال: (P. GARELLI, Le Proche - Orient - Asiatique, 96, no 1).

البلاد. فحارب لجش[1] وأخضع جميع البلاد من «أسفلها إلى أعلاها»، مع أن أوروك احتفظت بشيء من الاستقلال الذاتي، وأن أكد بقيت في عهده على ما يبدو (وان أطلق على نفسه لقب «ملك سومر واكد») خارج نطاق الدولة السومرية، إذ لم يعثر على كتابات خاصة بأورنامو إلا في المدن السومرية مثل أور، ولجش ونيبور وأوروك... كما لم يرد فيها ذكر لاحتلال المناطق الشمالية أو الغربية، كما بقيت ماري مدينة مستقلة.

يعتبر أورنامو أول مشترع، إذ وضع أقدم قانون عرف في التاريخ. وهو القانون الذي سبق شرائع حمورابي بما لا يقل عن 300 سنة، لكن فقد معظمه ولم يبق منه سوى بعض أجزائه[2]. ويتبين من دراسة هذه القوانين أنه كان حاكماً عادلاً، دافع عن حقوق اليتيم والأرملة، ووضع قيماً ثابتة للوحدات النقدية والموازين، كما لم يتبع، في معاقبة الجناة، مبدأ المماثلة، بل التعويض المادي.

وقد أبدى أورنامو اهتماماً كبيراً بالعمران، فشيدت في عهده المعابد ورممت القديمة منها، ورفعت الزيقورات في كل من أوروك واوما واريدو، واستمر هذا التطور العمراني في عهد ابنه شولجي (أو دونجي) (Shulgi/ Dungi) الذي حكم حوالي 50 سنة. وقد اهتم،

---

1 ـ س. كرامر، من ألواح سومر 119.

2 ـ حتى سنة 1947م، كانت شرائع حمورابي ما زالت تعتبر أول سجل قانوني عرف في التاريخ. ولكن في هذه السنة نفسها اكتُشفت مجموعة شرائع تنسب إلى ليبت اشتار (خامس ملوك أسرة اسن) الذي سبق حمورابي بما يزيد عن 150 سنة. كتبت هذه الشرائع باللغة السومرية على لوح من الطين. وبعد سنة فقط من ذلك التاريخ (أي في سنة 1948)، اكتشفت الحفريات العراقية في تل هرمل لوحين يحملان مجموعة جديدة من الشرائع، اقدم من شرائع ليبت اشتار، إذ تنسب إلى بلالاما الذي يرجع أنه عاش قبل هذا الأخير بزهاء سبعين سنة. كتبت شرائعه في مدينة أشنونا، باللغة السامية. استنسخها وترجمها جوتز (A. GOETZE, The Eshnunna Law, New Haven, 1956)، وفي سنة 1952 تمكن كرامر من تفسير خمسة بنود من شرائع سجلت على لوحة طينية كانت في مجموعة نيبور في متحف الشرق القديم في اسطنبول، تبين من مقدمتها أن واضعها هو اورنامو، مؤسس أسرة اور الثالثة (من ألواح سومر، الفصل السابع). هذا وقد نشر مؤخراً جزءان من لوحات وجدت في أور، ويعتقد أنها متممة لما عرف سابقاً من شرائع أورنامو: راجع: J.KLIMA, Au Sujet de nouveaux textes Legislatifs de la Babylonie ancienne, in arch. Orient, 35 (1967), 121 ss. O.R. GURNEY and S.N. KRAMER, Two fragments of Sumerian Laws; in Studies... Landsberger, 13 ff; ef. CAH, I – 2, 597; and J.J. FINKELSTEIN, in J.C.S. 22 (1968 – 9), 66ff.

هو أيضاً، بالادارة الداخلية، وعدّل الأوزان والمقاييس، واتبع النظام الأكدي في تأليف الجيش، بأن أدخل إليه فرقا من رماة السهام. ولوحظ في حفريات جنوب بلاد ما بين النهرين أن عدداً من قطع اللبن البنائية تحمل اسمه واسم أبيه أورنامو، كما عثر في أور على قبر كبير له حفر في الأرض وإنما سرق قديماً.

بقيت الأوضاع العامة على حالها تقريباً في عهد خلفائه، أمارسوين (Amar Suen)، وشوسين (Shû – Sîn) وابي سين (Ibbi – Sîn) الذين اهتموا أيضاً بتشييد المعابد للالهة الرئيسية (مثل آنو، وأنليل، ونانار، وسن، ونينهور ساج، وايننا). واتبع ملوك أور الخمسة بعض التقاليد الأكدية إذ وضعوا أمام أسمائهم الاشارة الالهية، ما يدل على أنهم اعتبروا وقدسوا كآلهة. ويعتقد أنه أقيمت للبعض منهم معابد كرست لعبادتهم، ووردت في بعض النصوص تعابير تشير إلى مثل هذه التقاليد.

## 3 ـ المجتمع السومري الحديث

بلغت هذه الامبراطورية أعلى مراحل توسعها في عهدي شولجي وامارسوين، حيث شمل نفوذها شوش، في الشرق، وماري وتوتول (قرب البلخ) في الشمال والشمال الغربي. اتبع السومريون نظاماً خاصاً، خضعت بموجبه أقاليم الامبراطورية لحكم «الأنسي» الذي يمثل السلطة المدنية و«الشاجين» (Shagin) صاحب السلطة العسكرية. إلا أن هذا الأخير كان أكثر نفوذاً، وتسلم في بعض المدن مهاما إدارية، حيث كان يشرف، بالاضافة إلى وظيفته العسكرية، على أعمال الري وشق الأقنية، في حين تقلصت سلطة الأنسي وفقد الكثير من صلاحيات رؤساء المدن السابقين، وأصبح مجرد موظف تعينه الدولة، ويقتصر عمله على جباية الضرائب التي ينال قسماً منها، وجمع الهبات الخاصة بالملك والالهة، كما كان يراقب الموظفين الآخرين ويترأس محكمة العدل.

اتبع هذا النظام في المقاطعات البعيدة حيث تسلم الحكم فيها اشخاص من سكان البلاد الموالين للسلطة المركزية، لكن الدولة، حرصاً على أمنها واستمرار نفوذها، كانت تستبدل بهؤلاء حكاماً من اصل رافدي أو تكتفي بنقلهم من مدينة إلى أخرى. وتمنح موظفيها اقطاعات صغيرة وتدفع لهم مخصصات تختلف باختلاف رتبهم. وقد أتيحت الفرصة لبعض الموظفين باستغلال مراكزهم لصالحهم الخاص، كما لوحظ أن بعض هذه الوظائف قد اقتصرت أحياناً

على افراد العائلة الواحدة، الأمر الذي أدّى إلى قيام نوع من الأوليجارشيه (Oligarchie) بين الموظفين.

من جهة أخرى، عززت الدولة سلطتها المركزية لضمان أمن البلاد واطلاع القصر عما يجري فيها. فكانت ترسل البعثات إلى مختلف المناطق لنقل الرسائل والمواد الغذائية، أو للحصول على بعض المواد البنائية، وبفضل ذلك تسلم رؤوساء البعثات مهام الديوان الملكي، واتسع نفوذهم، بحيث أن أحدهم أضاف إلى وظيفته هذه مهام الأنسي في ست مدن (منها مدينة لجش) ومهام شاجين في الاقاليم الشرقية. وقد أدى ذلك إلى تدعيم السلطة المركزية، حتى بات النظام السياسي في أور من أكثر المؤسسات الرافدية خضوعاً لاشراف الدولة المباشر. فأعطيت أهمية كبرى للتسجيل، والمراقبة الدقيقة، والمحاسبة التي بفضلها تدعمت سيطرة القصر وهيمنته المباشرة التي شملت حتى دقائق الأشياء. وتتضح مثل هذه المظاهر في الأعداد الكبيرة من اللوحات المسمارية التي نشر منها الآن ما يزيد على عشرين ألف لوحة لا تشكل إلا جزءاً من آلاف اللوحات المحفوظة في متاحف العالم.

كان لهذا التحول السياسي أثر بارز على تطور اقتصاد الرافدين حيث اتسع نطاق العلاقات التجارية مع البلاد المجاورة. فكانت سومر تستورد القسم الأكبر من المعادن، كالنحاس والذهب، والمواد الأخرى كالعاج والحجارة الكريمة وحتى حجارة البناء، من أماكن مختلفة (الجزيرة العربية وعيلام والهند) وعن طريق الخليج العربي، كما استوردت أيضاً النحاس من آسيا الصغرى والفضة من عيلام، أما القصدير فيصعب تحديد مصدره، كما لم يستعمل البرونز إلا بكميات محدودة. والطريقة المتبعة في التجارة، المرتبطة مباشرة بمؤسسات الدولة والمعابد، تقوم على المقايضة التي بموجبها يقدم تجار الرافدين، لقاء هذه البضائع، سلعاً محلية كالحبوب والتمر والصوف والنسيج والجلود... مع العلم أن الفضة قد استعملت أحياناً وسيلة للتداول وقاعدة نقدية. وقد توضحت معالم هذا الاتجاه في العلاقات التجارية في الدولة السومرية الحديثة التي تشكل مرحلة ممهدة للتطور الكبير الذي تحقق في العصور اللاحقة، عندما عمّ استعمال الفضة على نطاق واسع في عهد أسرة بابل الأولى. ولكن بالرغم من استعمال الفضة في أور الثالثة، بقيت الوحدة الشرائية تحدد في كثير من الحالات بأوزان الشعير، بمعدل «شيكل» فضة لكل مكيال شعير (جور، Gur)، تبعاً للنظام الذي وضعه أورنامو وبقي معمولاً به حتى نهاية الدولة السومرية.

ولعل ما استجد خلال هذه المرحلة التاريخية في بلاد ما بين النهرين تمثل بتلك المؤسسات الخاصة التي نشأت تدريجياً بفضل تطور الأوضاع الاجتماعية، وكان المعبد قد

أسهم في هذا التحول عندما قدم نوعاً من القروض للمقربين إليه. وان عدداً من التجار (دمجار Damgar) العاملين في خدمة القصر أو المعبد قد حولوا قسماً من الأرباح لصالحهم الخاص، واستطاع بعض الموظفين، من ذوي المراكز الإدارية أو العسكرية، من تحقيق مكاسب جديدة. وكان لهذا التطور أثر مهم فيما بعد، عندما تكونت طبقة جديدة عظم شأنها في عهد الدولة البابلية القديمة.

غير أن الدولة احتفظت، في عصر أسرة أور الثالثة، بسلطة مركزية شملت صلاحياتها جميع القطاعات، بما في ذلك ملكية الأرض، ولدرجة أن البعض اعتقد، لعدم وجود عقود بيع أو شراء أراض زراعية، أن هذه الملكية اقتصرت على الدولة ما عدا الجنائن أو البساتين والأراضي المجاورة لبيوت السكن الخاصة. ويبدو أن الدولة كانت تؤمن القسم الأكبر مما يحتاج إليه القصر، في حين نجهل ما كان يتطلبه المعبد حفاظاً على استمرار الطقوس الدينية، وذلك لفقدان جميع الوثائق الخاصة بمثل هذا الموضوع. لكننا نعرف، من جهة أخرى، أن ملوك أوركانو يقدمون الهبات شهريا للمعابد الكبرى، كحيوانات الأضاحي، والحبوب والطحين والبيرة، وغير ذلك من المواد الاستهلاكية. وفي عهد شولجي، أقيم مخزن كبير بالقرب من نيبور كانت تجمع فيه حاصلات الضرائب التي تدفعها المدن السومرية الأخرى وتنفق على المعبد الرئيسي والقصر في هذه المدينة. ونظراً لارتباط المعبد بالقصر، كان رجال الدين (الكاهن الأكبر، وسيد الاله، وسيدة الاله) يعينون بمراسيم ملكية، تعكس واقعاً جديداً يتبين منه أن المعبد أصبح أقل نفوذاً وأقل ارتباطاً بالحياة العامة مما كان عليه في السابق.

وقد شمل نفوذ السلطة أيضاً عملية الانتاج الصناعي الذي كانت تؤمنه محترفات نسيج تُشيّد حول المدن، وتَستخدم اليد العاملة من النساء باعداد كبيرة، حوالي 6400 عاملة في ثلاث مقاطعات مجاورة لمدينة لجاش. وكان يشرف عليهن رؤساء ورش يخضعون بدورهم لمراقبة الوكلاء (أو النظار) ورجال الشرطة.

أما في المجالات الأخرى، فكان المهنيون ـ نجارون، حدادون، دباغون، حفارون، صاغة، وصناع القصب والسلال ـ ينتمون إلى طبقة ألـ «ارين» Eren التي كان أفرادها من العبيد أو من ذوي الحرية المقيدة، خاضعين باستمرار للمراقبة الشديدة، فتفحص القطع المعدنية المصنّعة لمعرفة ما إذا كانت توازي نسبة المعدن المعدن الطبيعي قبل صنعه. وكان هؤلاء العمال يتقاضون مخصصاتهم عينا (من الشعير) بنسب مختلفة، ويتمتعون بحريات متباينة تتفق ودرجات تخصصهم.

أما المجتمع السومري فكان يقسّم إلى طبقتين رئيسيتين: الرجل الحرّ والرقيق. إلا أن

التباين، أو التناقضات بين أفراد الطبقة الأولى قد أدّت إلى ظهور طبقة وسطى ما بين الرجل الحرّ والرقيق، أطلق عليها اسم «مشدا»، وهي الطبقة التي عرفت فيما بعد باسم «مشكينوم» (في اللغة الأكدية) وكثر عدد أفرادها في العهد البابلي، ووضعت لهم قوانين خاصة بهم في تشريعات لبيت أشتار Ishtar - Lipit (خامس ملوك أسين) وحمورابي. ويقصد بهذه التسمية الطبقة التي اعتبر افرادها «أنصاف أحرار»، وحرموا من بعض الحقوق المدنية. وثمة فئة أخرى لم يحدد القانون أوضاعها الاجتماعية بوضوح، أطلق عليها اسم «ارين» Eren. هي الفئة التي لم يمنح أفرادها الحرية الكاملة وعوملوا كالعبيد؛ يكلف القصر أو المعبد مجموعات منهم بشتى المهام، كالعمل الزراعي والنقل والخدمة العسكرية، فيخضعون لمراقبة شديدة من «الشاجين» أو «الانسي» الذي يشرف عليهم. ويبدو أن فرق الـ «ارين» كانت تُجمع من بين الأرقاء والأحرار الذين كانوا أثناء العمل يقومون بالواجبات نفسها من دون أي تمييز قانوني.

أما مصادر العبيد فكانت متعددة: فقد يتحول الرجل الحر إلى عبد نتيجة حكم يصدر بحقه من المحكمة العليا، أو لأسباب مادية قد تمنعه من وفاء دين عليه، فيضطر إلى بيع نفسه أو أحد أولاده. وكان بيع الأولاد شائعاً ليس لأسباب اقتصادية وحسب بل لمجرد خلاف عائلي يغضب الأهل.

وهناك فئة من العبيد يطلق عليهم التعبير «ار» (IR) (في الأكدية وردوم = عبد)، و «جيمه» Gemé (في الأكدية «أمْتم» = أمَه) وهم من المستخدمين الذين يعملون في الحقل أو في المنزل، لكنهم يتمتعون ببعض الحقوق المدنية، كالزواج من امرأة حرّة، وحق الملكية والدفاع عن أنفسهم أمام القاضي إذا ما وجهت إليهم تهمة ما.

إلا أن الحروب والغزوات بقيت المصدر الرئيسي للعبيد. فالأسرى يشكلون طبقة العبيد الحقيقيين الذين لم يكن لهم في عصر أسرة أور الثالثة، قانون تشريعي؛ وهم يؤلفون مجموعات من «الارين» تقوم بالأعمال الشاقة، ويجند عدد منهم للدفاع عن البلاد في بعض المناطق، كما تستثمر قوة عملهم في بناء المدن.

وللحكم على هذه الأوضع الاجتماعية العامة في طور التحول لا بد من الاعتماد ليس على الأحكام التشريعية وحسب، بل على دراسة حالة الشعب الاقتصادية، فيتبين لنا من خلالها أن فئة من المزارعين والمهنيين والموظفين والتجار، والمرتبطين بإدارة القصر أو المعبد، قد سهلت عليها امتيازاتها الخاصة أن تشكل، بمرور الأيام، طبقة من الأرستقراطيين، في حين بقي القسم الأكبر من الشعب يشكل الطبقة الفقيرة (البروليتاريا) التي كانت أحوال بعض أفرادها لا تختلف في شيء عن أحوال العبيد.

# الفصل الرابع

## مصر في الألف الثالث ق.م

# مدخل إلى التاريخ المصري القديم

## 1 ـ العوامل الجغرافية:

مصر كما اصطلح على تعريفها هي واد خصب (حوالي 1200 كلم) يمتد على ضفتي النيل من النوبة والشلال الثاني جنوباً إلى البحر المتوسط شمالاً، بمحاذاة مناطق صحراوية وسلاسل من الجبال جرداء، في الجهتين الشرقية والغربية. وقد تشكلت التتوءات الطبيعية (الهضاب والمنخفضات والمنحدرات) في مصر في الوقت الذي انحسرت فيه مياه البحار بعد مراحل زمنية طويلة. فتراجعت المياه باتجاه غربي النيل، في المنخفض الذي تكثر فيه الواحات، كما تكون مجرى النهر في أواخر المرحلة الجيولوجية الثالثة، وكان مصب النهر، بعد تراجع المياه، عند منطقة الفيوم؛ لكن استمرار تراجع المياه وعوامل الردم (في بداية المرحلة الجيولوجية الرابعة) أدت إلى تحول كلي في المظهر الخارجي لأرض النيل، فتكونت السهول الخصبة على ضفاف النهر، والدلتا الحالية، التي كانت قديماً خليجاً ثم ردم تدريجياً عندما تراكم الطمي والرواسب الأخرى.

كان المناخ في مصر، في بداية العصر الباليوليتي Paléolithique (أي في الوقت الذي ظهر فيه الانسان) حاراً ورطباً بسبب هطول الأمطار الغزيرة، لكنه تحول، في الباليوليتي الوسيط، بسبب انخفاض نسبة المياه في النوبة وجفاف الأنهر الفرعية في الوديان، الجفاف الذي اتسع بعد ذلك حتى شمل جميع المناطق الموازية للنيل من الجنوب إلى الشمال. وحال دون ازدهار الحياة إلا حيث تتوافر المياه والسهول الخصبة. كان هذا التحول قد أنجز في أواخر العصر الحجري الحديث، وأصبحت مصر كما عرفت عليه في العصور التاريخية، تدين بوجودها لنهر النيل، ولولاه لكان هذا الوادي نفسه أشبه بالمناطق الصحراوية المحيطة به.

أما نهر النيل فلم يتعرف المصريون القدماء إلى منابعه الأصلية، بل كانوا يجهلون الأسباب الحقيقية لفيضاناته السنوية، فأعتبروها لغزاً دينياً أو عملاً من أعمال الالهة، سيما

أنها كانت تحصل في وقت تشتد فيه الحرارة التي يفترض أن يصحبها جفاف. نعرف حالياً أن قسماً من مياه النيل يأتي من البحيرات الاستوائية الكبرى (فيكتوريا وألبرت وكيوغا... في تنزانيا وأوغندا)، وينبع القسم الآخر من الحبشة (النيل الأزرق) ومناطق أخرى مجاورة (بحر الغزال). لكن البحيرات الاستوائية، ذات الكميات المائية الثابتة تقريباً، لم تكن وحدها مصدر الفيضان، بل تسهم في ذلك مياه الأمطار الموسمية التي تتساقط على أرض الحبشة خلال شهري أيار وحزيران، اضافة إلى ذوبان الثلوج المتراكمة على جبالها. إلا أن الفائض من المياه لا يصل إلى مصر إلا في شهر تموز «فيغمر الفيضان ضفاف النيل ويترك فيها، بعد انحسار المياه في أواخر أيلول، الطمي والغرين وغيرها من الرواسب المخصبة.

تقترن هذه العوامل الطبيعية بالنشاط الانساني الذي أسهم بدوره في تطور الحياة في وادي النيل، بعد أن تمكن الانسان، بفضل أعمال الري، كحفر الأقنية واقامة السدود والجسور، من استثمار الأرض مرتين أو ثلاث مرات في السنة، مضاعفة انتاج مصر من المحاصيل الزراعية. فمصر هي ثمرة هذه المساهمة الفعالة من قبل النيل وفيضاناته السنوية، وعناية الانسان وجهوده المتواصلة. ولقد عرف المصريون القدماء، منذ بدء التاريخ، أن للنيل دوراً أساسياً في هذا العمل المشترك، فاعتبروه الهاً وأعطوه اسم «حابي» Hâpy.

أما من الناحية السياسية فتقسم مصر القديمة إلى منطقتين رئيسيتين: مصر العليا في الجنوب، ومصر السفلى في الشمال، يفصل بينهما خط يقع بالقرب من منف Memphis جنوبي القاهرة، عند رأس الدلتا. كان المصريون يسمون منطقتي الدلتا ووادي النيل باسم (كميت) Kémet، اي الأرض السوداء، بينما عرّفوا المناطق الصحراوية باسم «ديشريت» Désheret أي الأرض الحمراء. وقسمت النوبة أيضاً، ولا سيما في عهد الدولة الحديثة، إلى منطقتين: بلاد «أواوات» Ouaouat، النوبة السفلى، وبلاد «كوش» Koush، النوبة العليا والسودان.

تقع مصر السفلى (الوجه البحري) عند شاطىء البحر المتوسط، وتشمل الدلتا كلها. فهي منطقة عريضة قليلة العمق تتوافر فيها السهول الفسيحة الخصبة، ويتوزع فيها النيل إلى عدة فروع تضاعف من مساحة الأرض المنزرعة. وكانت مصر السفلى، بفضل موقعها الجغرافي على ساحل المتوسط، على صلة بالبلاد الأسيوية والجزر اليونانية، وتقيم معها علاقات تجارية ضاعفت بفضلها من مواردها وانتاجها. لكنها كانت معرضة أكثر من المناطق الجنوبية،

لتحركات الشعوب الشرقية، وأعمالهم العسكرية. أما مدنها فهي منف Memphis عند رأس الدلتا، وتانيس Tanis، وسايس Saîs في شمال الدلتا.

أما مصر العليا (الصعيد) فهي عبارة عن واد طويل ضيق ـ يتراوح عرضه بين 7 و 35 كلم ـ ينحصر بين صحراوين (السلسلة العربية في الشرق والسلسلة الليبية في الغرب)، لكنه يتصل، بواسطة وديان وممرات جانبية، بالواحات في الجهة الغربية، وبشواطىء البحر الأحمر في الجهة الشرقية. لذلك تأثرت مصر العليا بالبلاد الأفريقية المجاورة لها وكانت على صلة بها طوال التاريخ القديم. وتبين من خلال الحفريات الحديثة أن معظم الآثار المصرية وجدت في مصر العليا، وذلك لأن طبيعة الأرض الصحراوية المجاورة، حيث كان المصريون يدفنون موتاهم، ساعدت على حفظ هذه الآثار التي تعتبر من أهم الوثائق لدراسة التاريخ المصري القديم، أما مدنها الرئيسية فلا تبعد كثيراً عن ضفاف النيل، وأهمها: طيبة، وأبيدوس وايراكومبوليس Hiéracompolis.

مصر بلد غني بالموارد الطبيعية، تتوافر فيها المواد البنائية على أنواعها، بخاصة الحجارة التي تفتقر إليها بلاد ما بين النهرين، وأهمها: حجر الغرانيت الوردي في أسوان، قرب الشلال الأول، والحجر الرملي أو حجر المسن Le grès في مصر العليا، والالبستر Albâtre، وهو حجر رخامي (حجر الشطوط) في مصر الوسطى، والحجر الكلسي في الشمال.

استخدم المصريون، إلى جانب الحجارة، الرواسب والصلصال في صناعة اللبن والخزف. أما المعادن (كالنحاس والذهب)، والحجارة الكريمة (كالفيروز واللازورد) التي استعملت في صناعة بعض الأدوات والتماثيل الصغيرة والحلى، فعثر عليها في المناطق المجاورة التي خضعت للنفوذ المصري، كالنوبة وصحراء سيناء.

أما الأخشاب المتوفرة في مصر فهي غير كافية، ومصدرها أشجار النخيل والطلح acacia التي استعملت جذوعها في اقامة الأعمدة، والجميز (Sycomore). لذلك كان لا بد لمصر من أن تستورد ما تحتاج إليه من أخشاب من الخارج، كالابنوس من أفريقيا (لصناعة المفروشات والتماثيل)، وخشب الأرز من جبال لبنان (استعمل في النحت والبناء وصناعة السفن).

## 1 ـ اللغة المصرية والكتابة الهيروغليفية

كانت دراسة أصول اللغة المصرية من المسائل العلمية الصعبة والمعقدة: فأراد البعض

أن يجعل منها لغة أفريقية، بينما رأى فيها البعض الآخر لغة سامية، ولعل سبب التباين في الرأي هو أن مصر خضعت لتأثيرات متعددة ومتباينة وجمعت بين فئات مختلفة، أفريقية وأسيوية، كما أنها تقع جغرافياً في الطرف الشمالي الشرقي من أفريقيا، ولها حدود مشتركة مع بلاد أسيوية. لذلك كان من الصعب تحديد مصادر اللغة المصرية أو ربطها بأصل افريقي وإبعاد الأصل السامي أو القول بعكس ذلك. ولقد حاول العلماء منذ أواسط القرن التاسع عشر ارجاع اللغة المصرية إما إلى مجموعة اللغات الأفريقية وإما إلى اللغات السامية، وبقيت الاراء موزعة حول هذا الموضوع حتى سنة 1895 عندما أصدر العالم الألماني أرمان Erman كتاباً درس فيه قواعد اللغة المصرية مبيناً أوجه الشبه بين هذه اللغة ومجموعة اللغات السامية. وخلال ربع قرن كان معظم اللغويين يميلون إلى الاعتقاد بالأصل السامي، كما ذهب البعض منهم إلى القول بأن اللغة المصرية هي سامية صرفة.

لكن في سنة 1920 قام أتباع (الأصل الأفريقي) بوضع دراسات جديدة معتمدين في ذلك على طرق أخصامهم وأساليبهم العلمية، وأظهروا أوجه الشبه بين اللغة المصرية ومجموعة اللغات الأفريقية، مثل الطوارج Touargg والبيجا Bedja. وتبين أن هذا الشبه مع اللغات العامية البربرية والكوشيتك Couchitique لا يقل أهمية عن الشبه مع اللغات السامية. والسبب في هذا التحول هو أن اللغات السامية كانت، في البداية أكثر وضوحاً وانتشاراً من اللغات الأفريقية في الأوساط العلمية الغربية، مما سمح لعدد من الغربيين باظهار القرابة بينها وبين اللغة المصرية. ولكن عندما تمت دراسة اللغات الأفريقية لوحظ أنه لا يمكن استبعاد صلتها باللغة الفرعونية.

أما الكتابة المصرية فكانت في بادىء الأمر تصويرية Pictographique. أي أن الشكل الكتابي يأخذ صورة الشيء المراد التعبير عنه. لكن هذه الصيغة الأولية للكتابة، وهي مصدر الهيروغليفية، لم تكن كافية لتأدية المعنى بدقة، سيما وأن الشكل الواحد قد يُعطى أكثر من تأويل، كما كان من الصعب التعبير بواسطتها عن الأفكار المجردة وأسماء الاعلام. لذلك كان لا بد للمصريين في المرحلة الثانية من تطور الكتابة من استعمال بعض هذه الأشكال أو الرموز كمقاطع صوتية (أدخلت في تركيب الكلمات) لم يعد لها علاقة بما كانت تعنيه وبالأشياء التي كانت ترمز إليها من قبل، وإنما بقيت قريبة منها صوتيا.

سهلت هذه الطريقة الجديدة الكتابة، إلا أنها لم تكن كافية لتجنب الالتباس

والوقوع في أخطاء قد يسببها تعدد المعاني لبعض الأشكال Amphibologie التي قد تقرأ بطريقتين مختلفتين. وتعدد المعاني يأتي من تجانس المقاطع الصوتية Homophonie في بعض الكلمات. لذلك لجأ المصريون إلى استعمال اشارات جديدة (اشارات تعريف أو مخصصات Déterminatifs) كانت تضاف إلى أواخر الكلمات، وتتمثل أحياناً بالشيء نفسه الذي يراد التعبير عنه أو بأشكال جديدة تشرح، بصورة عامة، طبيعة الموضوع (فعل الكون، شيء، فكرة مجردة). وقد نجحت هذه الطريقة وانتشرت في مصر كلها واختصر بذلك مجال الالتباس أو الخطأ.

يبدو أن هذا التطور في الكتابة قد حصل في فترة قصيرة من الزمن، أخذت خلالها الهيروغليفية Hiéroglyphe[1] شكلها النهائي منذ عهد الدولة القديمة، واحتفظت به، من دون أن يطرأ عليها اي تغير يذكر، حتى أواخر العهد الفرعوني.

ويمكننا تلخيص الكتابة الهيروغليفية وتقسيم أشكالها على النحو التالي:

**أ ـ الرموز Idéogrammes**

(من اليونانية: Idea = فكرة ـ و Gramma = اشارة) التي احتفظت بمعانيها التصويرية القديمة.

**ب ـ الأشكال ـ أو المقاطع ـ الصوتية Phonogrammes**

هذا مع العلم أن بعض المقاطع لا تتألف إلا من حرف واحد ولها بالتالي قيمٌ أبجدية، بيد أنه لا يصح اعتبار الهيروغليفية، في مجملها، أبجدية، أن معظم مقاطعها تتألف من حرفين ساكنين أو أكثر consonnes، كما لم يسجل المصريون الأحرف الصوتية voyelles، أما الأحرف الأبجدية فيبلغ عددها أربعة وعشرين حرفا ساكنا، وإنما يمكن اعتبار أربعة منها نصف ساكنة، وهي:

أ ـ ي ـ ع ـ و.

**ج ـ إشارات التعريف أو المخصصات Déterminatif**

يرتبط ظهور الكتابة في مصر، كما في بلاد ما بين النهرين، بتطور المجتمع وزيادة الانتاج، عندما نشأت الحاجة في سومر إلى التدوين وضبط الحسابات الخاصة بممتلكات المعابد، وإلى وضع تقويم سنوي في مصر يحدد موعد فيضان النيل كي يستفاد من مياهه في الزراعة. وكان

---

1 ـ وهي كلمة اشتقت من مصدر يوناني: Hiéros = مقدس، و Gluphein = حفر.

المصريون بحاجة أيضاً إلى الكتابة لتدوين نصوص التعازيم (التعاويذ) التي تكفل المحاصيل وتؤمن انتقال الانسان إلى العالم الآخر. والكتابة تلبي الحاجة إلى تمجيد أعمال الفرعون. فلم يكن الغرض من النصوص التي نقشت على أعمدة المعابد وجدرانها إرضاءً للالهة وحسب، بل للتأثير في نفوس الذين ينظرون إليها من عامة الناس. لذلك بقيت الكتابة تصويرية ـ تزينية، كي يدرك الناس، وهم في غالبيتهم أميون، شيئاً مما تعنيه اشكالها "المقروءة".

لكن الهيروغليفية كتابة صعبة ومعقدة وتتطلب معرفة في الرسم، كما أنها لم تكن تصلح في الأمور العادية، لذلك لجأ المصريون إلى نوع آخر من الكتابة سميّت في العهود اليونانية هيراتيقية Hiératique، أي كهنوتية، لاقتصار استعمالها في ذلك الوقت على الكهنة. إلا أن تاريخها يرجع إلى عهد الأسرة الأولى، وهي شبيهة جداً بالأولى، إنما اختزلت فيها بعض الأشكال التصويرية كي تسهل كتابتها. فالفرق بين هذين النوعين من الكتابة شبيه بما يميّز كتابة المطبعة عن كتابة اليد. كتبت الهيراتيقية بواسطة الريشة على ورق البردي والجلود وأحياناً على القطع الفخارية واللوحات الحجرية الكلسية التي تعرف باسم «أوستراكا» Ostraka، في حين أن الهيروغليفية كانت قد استعملت بصورة خاصة في النصوص التي نقشت على الحجر أو الخشب.

اقتصر استعمال الكتابة في العصور الأولى على الكهنة وعلى عدد قليل جداً من المدنيين، ولم تستعمل إلا في تدوين النصوص الملكية والدينية، كالتعازيم والسحر والنصوص المدفنية، كالتي وجدت في كتاب الموتى.

أما في العصور التالية فقد عمّ انتشار الكتابة أكثر من ذي قبل، وذلك عندما اشتدت الحاجة إليها بين الناس. ففي القرن الثامن (أي في العصور المتأخرة) ظهر نوع جديد من الكتابة حلّ محل الهيراتيقية (التي لم تفقد كلّياً)، وعرف باسم: ديموتيقية Démotique، أي عاميّة أو شعبية، لأنها كانت أكثر أنواع الكتابة المصرية انتشاراً بين أفراد الشعب. وفيها اختزلت الأشكال التصويرية (من دون أية محاولة جدية لتجديد الكتابة أو تعديلها جوهرياً) حتى صعب معرفة أصولها الهيراتيقية أو الهيروغليفية، المصدر الأول للكتابة المصرية.

في القرن الثالث بعد المسيح طرأ تحوّل جديد وأخير على الكتابة المصرية، عندما استعملت الأبجدية اليونانية وأضيفت إليها بعض الأحرف للتعبير عن ألفاظ خاصة باللغة المصرية. وهكذا ظهرت القبطية (نسبة إلى المسيحيين المصريين) التي حلّت نهائياً وكلّياً محلّ

جميع الكتابات القديمة، وبقيت لغة حيّة حتى القرن السابع عشر حيث اقتصر استعمالها بعد ذلك على الطقوس الدينية في الكنيسة القبطية.

تناول عدد من الأوروبيين، منذ القرن السابع عشر، دراسة الكتابة الهيروغليفية التي فقدت أسرارها منذ القرن الثالث؛ لكن جميع المحاولات الأولى قد باءت بالفشل. وفي سنة 1798 عثر جنود نابليون، أثناء حملته إلى مصر، على نصب حجري (يعرف حالياً باسم المكان الذي وجد فيه «حجر الرشيد») في منطقة الدلتا، يحمل نصا كتب في لغات ثلاث (اليونانية والديموتيقية والهيروغليفية)، يحتوي على مرسوم اصدره بطليموس الخامس (بداية القرن الثاني ق.م.) يقضي بتخفيف الضرائب الخاصة بالكهنة. لذلك أمر الملك أن يكتب النص بهذه اللغات الثلاث وأن يوضع في جميع المعابد.

كان لهذا الأثر التاريخي أهمية كبرى في حل رموز الهيروغليفية، إذ حاول العلماء الغربيون مقارنة النصوص التي ورد ذكرها، فتوصل السويدي اكيربلاد Akerblad في سنة 1802، إلى تفسير عدد من الكلمات وجميع أسماء الأعلام الواردة في النص الديموتيقي، وذلك بفضل معرفته باللغة القبطية. وقد تمكن، من جهة أخرى، العالم الانكليزي يونغ Young من تفسير عدد آخر من الكلمات، كما أصدر (1814 ـ 1816) جدول مفردات (قاموس) يحوي ما لا يقل عن 85 كلمة يونانية ومرادفاتها في الديموتيقية.

لكن الفضل الأكبر في تفسير الهيروغليفية يرجع إلى الفرنسي جان فرنسوا شامبليون Champollion بعد أن توصل في عام 1822 إلى حل قسم كبير من رموز هذه الكتابة، ومن ثم وضع (سنة 1832) كتاباً يجمع نصوصاً مصرية، وقاموسا، وكتاب قواعد اللغة المصرية. هكذا، بعد أن وضعت الأسس الصحيحة، لم تعد مسالة اكتشاف الهيروغليفية ودراسة جميع خفاياها إلاّ مسألة وقت. ولقد اختصر هذا الوقت بفضل أعمال شامبليون؛ ثم تتابعت الدراسات العلمية من بعده على أيدي عدد من العلماء الغربيين (أمثال: Lepsius و Mariette و Goodwin و Chabas). وتطورت معرفة اللغة المصرية بفضل الأبحاث الحديثة وجهود عدد آخر من العلماء الغربيين، ومن بينهم الألماني ايرمان A. Erman، الأول الذي حاول ضبط مبادىء اللغة المصرية وقواعدها.

## 2 ـ المصادر ومسألة التدوين

إن تاريخ مصر يبدأ في الوقت الذي تحققت فيه وحدة النيل، وينتهي بمجيء

الاسكندر. قسم مانيتون Manéthon، وهو مؤرخ مصري عاش في أوائل القرن الثالث ق.م، وكتب تاريخ مصر باللغة اليونانية)، تاريخ مصر إلى ثلاثين أسرة. وقد حاول الباحثون في عصرنا معرفة اسماء ملوك هذه الأسر وأعمالهم العمرانية ووصف الأحداث (حسب التسلسل الزمني وبقدر ما تتوافر المصادر التاريخية) التي رافقتهم. وتعتبر الاكتشافات الأثرية الحديثة من أهم المصادر لدراسة التاريخ المصري القديم، على الرغم من أن النصوص المصرية لم تكن مجردة في وصف الأحداث التاريخية، كما تعمّد أصحابها الغموض والالغاز في الموضوعات الدينية.

تتمثل هذه المصادر التاريخية في المراسيم أو القرارات الملكية، والكتابات التي حفرت في المقالع الصخرية، ونصوص المعابد والأبنية المدفنية من عهد الدولتين القديمة والوسطى. وقد وصلتنا، من الدولة الحديثة، معظم التقارير الحربية التي نقشت على المداخل الصرحية pylône وجدران المعابد، فيما ارتبطت أحداث مصر، منذ ذلك الوقت، بأحداث الشرق الأدنى القديم عامة، ووردت أخبارها أحياناً سواء في النصوص المصرية أو النصوص الأخرى، كالبابلية والحثية... وكان للمصادر الأجنبية، إذا ما وجدت، أهمية كبرى إذ تؤكد ما ورد في النصوص الفرعونية وتكملها. أما فيما يتعلق بالمصادر اليونانية فهي متوفرة لكنها جاءت متأخرة وكتبت في معظمها بعيدة عن الروح العلمية؛ فهي أسطورية ساذجة أحياناً وتجمع بين المغالطات والتناقضات أحياناً اخرى.

لكن، مع ذلك، تبقى مراحل من التاريخ المصري غامضة في حين تتوافر المصادر، وتصبح معلوماتنا أكثر دقة بالنسبة إلى مراحل أخرى، كالأسرتين الثالثة والرابعة، والأسر الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والسادسة والعشرين. ومن بين الملوك العديدين لا تتضح إلا صور بعض الشخصيات ولا سيما الملكة حتشبسوت التي اغتصبت العرش وبنت أجمل معبد في مصر كلها، وتحوتمس الثالث، الرجل المحارب، وأخناتون، صاحب البدعة الدينية، وتوت عنخ آمون الذي اشتهر بفضل اكتشاف قبره الذي أغنت محتوياته متحف القاهرة... وهنالك، في المقابل، عدد آخر من الفراعنة لا نعرف عنهم شيئاً سوى أسمائهم.

إن المؤرخ الذي يشعر بنقص المصادر فيما لو أراد كتابة تاريخ وادي النيل، يجد أمامه مراجع غنية جداً فيما لو أراد أن يدرس النظام الفرعوني ويصف مهام الفرعون ومشاغله، هذا الكائن الغريب الأقرب إلى الآلهة منه إلى البشر. فالأشياء في هذا المجال لم تتغير كثيراً، هكذا كانت، كما يقول المصريون أنفسهم، منذ عهد الآلهة. فبقي المصريون حتى أواخر التاريخ

الفرعوني أوفياء لآلهتهم ولملوكهم ولتقاليدهم، واستمروا حتى ذلك الوقت بتحنيط موتاهم ودفنهم في قبور محتوياتها غنية. فإن مصر، أرض التقاليد، قد بنت حضارة عظيمة لها خصائص تميزها عن غيرها من الحضارات القديمة، ولعل من أهم ما فيها الاستمرار والمحافظة على التقاليد.

أما فيما يتعلق بالمراحل التاريخية وتحديدها الزمني Chronologie، فلم تتوصل الأبحاث الحديثة بعد إلى التأكد من معرفتها وايضاحها، ولا سيما أن المصريين كانوا قد استبدلوا، منذ العصور التاريخية الأولى، طريقة تأريخ الأحداث التي تعتمد على ملاحظاتهم للدورة القمرية، بالتقويم المدني. وكان من أسباب هذا الغموض اعتماد المصريين في التدوين ليس على حدث تاريخي كبير، كبناء مدينة أو توحيد «الأرضين»، بل انطلاقاً من بداية استلام فرعون الحكم. فنقول مثلاً بالنسبة لحدث ما أنه حصل في «السنة السادسة من حكم جلالة الملك...». لذلك فإنه من الصعب معرفة سني حكم كل من فراعنة مصر، لأن معظم المصادر المدونة ترجع إلى بداية حكمهم، ولأن عدداً من كبار الملوك لم يتركوا سوى القليل من الوثائق التاريخية. وإذا جمعت سنوات الحكم المعروفة لملوك وادي النيل فإن النتيجة ستكون حتماً غير صحيحة.

وهنالك لوائح، وضعت في أوقات مختلفة، تحمل أسماء بعض الملوك، منها لائحة سيتي الأول التي وجدت في أبيدوس وتحتوي على ستة وسبعين اسماً، ولائحة سقارة التي وضعت في عهد رعمسيس الثاني، وتحتوي على ثمانية وخمسين اسما. إلا أن هذه اللوائح قد تهمل، لأسباب خاصة، بعض الأسماء، أو يتصرف كاتبها كما يشاء في تحديد سنوات حكم كل من هؤلاء الملوك. أما اللوحة الملكية في تورينو فإنها لو بقيت سالمة لكانت من أهم المصادر التاريخية وحلت بالتالي محل كثير من الوثائق الأخرى. وهي احدى لوائح الأسماء الملكية التي وضعت بكل عناية ودقة في عهد رعمسيس الثاني، ووردت فيها اسماء الملوك والمدة التي حكم فيها كل منهم، كما حُدد فيها، من وقت لآخر مجموع سنوات الحكم لعدد من الملوك. لكن هذه الوثيقة القيمة تحطمت وفقد الكثير من الأسماء المسجلة عليها.

في هذه الوثيقة قدر الكاتب الفترة ما بين مينا Ménes وآبا Aba (أواخر عصر الانتقال الأول) بحوالي 955 سنة، وفترة الأسرة الثانية عشرة (الدولة الوسطى) بـ 213 سنة وشهر واحد و 19 يوما، وفترة حكم الهكسوس بـ 108 سنوات.

أما حوليات الدولة القديمة (الوثيقة الرئيسة في متحف بالرم في ايطاليا، والوثائق

الأخرى في القاهرة) فكانت في الأصل تحتوي على جميع أسماء الملوك منذ عهد الأسر الالهية وحتى الأسرة الخامسة وتذكر جميع الأحداث المهمة التي رافقتهم، ولكن فقد القسم الأكبر منها. أما تاريخ مانتون Manéthon الذي يرجع إلى القرن الثالث ق.م، فإنه فقد كليا، ولا نملك منه سوى ما ورد عند بعض الكتاب اليونانيين.

ولما كانت هذه المصادر القديمة ناقصة وغير كافية اعتمد الباحثون في تدوين التاريخ المصري على دراسة ظهور النجم «سوتيس ـ ايزيس» (الشعري اليمانية، أحد نجوم الكلب الأكبر). وكانت السنة المصرية تتألف من اثني عشر شهراً (الشهر 30 يوم) تقسم إلى ثلاثة فصول نسبة إلى عوامل طبيعية: فصل الفيضان (آخيت Akhet)، وفصل الزرع (بيرت Péret)، وفصل الحصاد (شيموت Shemout)، ويضاف إلى هذه السنة خمسة أيام، فتصبح 365 يوما، أي أنها تتأخر يوما واحداً كل أربع سنوات عن التقويم الحالي. السنة المصرية تبدأ في 19 تموز، أي في الوقت الذي يظهر فيه النجم سوتيس ويحدث الفيضان. وقد رأى المصريون أن الحدث الأول يرتبط بالثاني، علماً أن لا علاقة للواحد بالآخر. لوحظ أن ظهور هذا النجم يتأخر يوماً كاملاً كل أربع سنوات، ولا يعود إلى الظهور من جديد في اليوم نفسه (الذي ظهر فيه للمرة الأولى) إلا بعد مضي 1460 سنة مدنية، وأن هذه المناسبة لم تحصل إلا ثلاث مرات في تاريخ مصر (في سنة 139 ميلادياً، وفي سنة 1320 ق.م. وفي سنة 2780 ق.م).

انطلاقاً من هذه الدراسة لنجم سوتيس واعتماداً على ما ورد في النصوص المصرية يمكن تحديد بداية أهم المراحل التاريخية على النحو التالي:

| | |
|---|---|
| الأسرة الثانية عشرة | 2000 ق.م |
| الأسرة الثامنة عشرة | 1580 ق.م |
| الأسرة التاسعة عشرة | 1320 ق.م |

فيما المصادر السالفة الذكر تسمح بتحديد المراحل الأخرى في تاريخ مصر، ما عدا الفترة ما بين آبا وامنحات الأول لأن التقديرات تتراوح ما بين 190 سنة و 320 سنة. هذا الخلاف يثير الشك في مجمل تاريخ الفراعنة ويحول دون تحديد عصر الدولة القديمة بشكل أكيد.

لذلك يفترض البعض أن تأسيس الدولة القديمة قد حصل في بداية مرحلة جديدة لنجم سوتيس (حوالي سنة 2780)، كما يرى البعض الآخر أن عهد الدولة القديمة يبدأ في سنة 2685 ق.م.

## 4 ـ مراحل التاريخ المصري

| | |
|---|---|
| عصر الحجر الحديث | 5000 ـ 4000 ق.م |
| عصر الحجر والنحاس | 4000 ـ 3000 ق.م |
| العصر البدائي | 3100 ـ 2700 ق.م |
| | الأسرتان الأولى والثانية |
| الدولة القديمة | 2700 ـ 2200 ق.م |
| | من الأسرة الثالثة إلى الأسرة السادسة |
| عصر الانتقال الأول | 2200 ـ 2130 ق.م. |
| | من الأسرة السابعة إلى الأسرة العاشرة |
| الدولة الوسطى | 2130 ـ 1785 ق.م |
| | الأسرتان الحادية عشرة والثانية عشرة |
| عصر الانتقال الثاني | 1785 ـ 1580 ق.م |
| | من الأسرة الثالثة عشرة إلى الأسرة السابعة عشرة |
| الدولة الحديثة | 1580 ـ 1085 ق.م |
| | من الأسرة الثامنة عشرة إلى الأسرة العشرين |
| العصور المتأخرة | 1085 ـ 333 ق.م |
| | من الأسرة الواحدة والعشرين إلى الأسرة الثلاثين |

# الأسرتان الأولى والثانية

## (3100 ـ 2700 ق.م)

تعرف هذه المرحلة الممثلة بالأسرتين الأولى والثانية باسم العصر الثيني Thinite نسبة إلى ثنى This، العاصمة الأولى التي حلت محل نخن (الكوم الأحمر شمالي ادخو)، ويعتقد أنها تقع (إذ لم يعثر على آثارها بعد) على مقربة من أبيدوس، حيث عثرت الحفريات على المقابر الملكية واسماء معظم ملوك هذا العهد. لكن وجود العاصمة في الجنوب، لا ينفي أنه كان لمنطقة الدلتا دور سياسي كبير، يؤكده انتقال عدد من هؤلاء الملوك، أحياناً، إلى الشمال والإقامة، في المدينة التي عرفت في العصور التالية باسم منف التي تنسب التقاليد بناءها إلى الملك مينا. فكان من الطبيعي أن يلفت هذا الموقع انتباه الملك الذي أمر بتأسيس هذه المدينة، وذلك لأهميته الاستراتيجية، ولكونه يشكل الحد الفاصل بين الأرضين (مصر العليا ومصر السفلى). بيد أنه ما يزال من الصعب تحديد تاريخ بناء هذه المدينة، إذ لم يرد ذكرها للمرة الأولى، في المصادر الأثرية، إلا في عهد «ادجيب» Adjib، سادس ملوك الأسرة الأولى، الأمر الذي يخالف التقاليد التي وردت عند هيرودوتس ومانتون والتي تقول أنها ترجع إلى عهد مينا.

إن العثور في مقابر سقارة، وهي أفخم وأكبر حجماً من مقابر أبيدوس الجنوبية، على أسماء ملوك من الأسرة الأولى، دفع للاعتقاد بأن هذه الأبنية الشمالية هي المدافن الحقيقية لهؤلاء الملوك، وأن مقابر أبيدوس لم تكن سوى أضرحة وهمية أو تذكارية أقيمت في العاصمة الاقليمية. لكننا لا نملك من الدلائل ما يكفي لدعم هذا الرأي، سيما وأن جميع هذه المقابر، سواء في أبيدوس أو في سقارة سرقت قديما.

كان نعرمر، وقد عثر على قبر له في أبيدوس، وعلى آثار أخرى خاصة به في نخن، أول ملوك هذه الأسرة، ثم خلفه بعد ذلك ملوك من الجنوب اتخذوا من ثنى عاصمة لهم. وكان من

بينهم «عحا» (المحارب) (Aha) الذي عثر له على قبرين، الأول في أبيدوس والثاني في سقارة، كما عثر على عدد آخر من آثاره، ومنها: لوحة وجدت في نقاده تحمل مشهداً تصويرياً يعتقد أنه يرمز أيضاً إلى وحدة مصر العليا والسفلى.

تتضح هذه المعالم التاريخية والحضارية في عهدي جر Djer، وأوادجي Ouadji (عرف أولاً باسم جيت ـ Djet) بفضل ما تميزت به آثارهما تكامل فني، ومنها نصب الملك أوادجي، (حالياً في متحف اللوفر)، وهو من أولى الروائع الفنية المصرية. وفي عهدهما، اتسع نطاق العلاقات التجارية، إذ عثر على اسم الملك أوادجي محفوراً على صخرة بالقرب من ادفو، على طريق القوافل ما بين النيل والبحر الأحمر. وقد جاء هذا الاكتشاف ليؤكد أن المصريين قد عرفوا منذ بداية العصور التاريخية هذه الدروب المؤدية إلى المناطق الغنية بالمقالع الحجرية والمناجم المعدنية المتوافرة في الجهات الشرقية. وإذا ما نظرنا إلى هذه الرحلة وإلى البعثة التي أرسلت سابقاً، في عهد الملك جر، إلى النوبة، ثم إلى البعثة التي تحققت بعد ذلك، في عهد الملك سمرخت Semerkhet، وأرسلت إلى سيناء، نرى أن ملوك الأسرة الأولى كانوا على شيء من القوة بحيث أن بعثاتهم وأعمالهم الحربية قد تخطت حدود مصر السياسية[1].

---

1 ـ ومن التقاليد المصرية التي ترجع إلى هذا العهد الأعياد التي يحتفل بها في مناسبات خاصة وكان مانتون قد ذكرها في كتابه وأهمها: توحيد مصر وتتويج الملك، ثم السباق الملكي حول الجدار الرمزي. وتتجسد هذه العمليات الرمزية في لوحة عاجية خاصة بالملك أوديمو Oudimou أو دن Den، حيث يظهر الملك في وضعين: جالساً، ثم راكضاً بين ستة أحجار أو علامات تشير إلى هذا السباق الملكي حول الجدار الرمزي. وفي هذا العهد، تطورت التقاليد الملكية باضافة لقب جديد إلى اسم الفرعون: نيسوت ـ بيت Nesout – Bit وهو يعني حرفياً: «الذي ينتمي إلى القصب نبتة السوسن رمز الجنوب، وإلى النحلة رمز الدلتا». وبذلك كان المصريون يحتفلون في الوقت نفسه بتوحيد بلديهما وانتصار الصعيد على الدلتا (إذ يتقدم رمز الجنوب على رمز الشمال).

وفي عهد أوديمو يظهر للمرة الأولى ذكر العيد الثلاثيني حب سد Hebsed (إذ يحتفل به في السنة الثلاثين من حكم الفرعون). يعتقد أن هذا التقليد يرجع إلى عصور تاريخية سابقة يصعب تحديدها، كما يبدو أنه يرتبط ببعض عادات الشعوب الافريقية التي تحدد مدة حكم زعمائها (بمدة زمنية، يقتلون بعدها في حفل ديني). ثم تطورت هذه التقاليد بحيث يفتدي الملك أو الزعيم نفسه باظهار قوته (بصطاد الحيوانات المفترسة) أو بتشييد المعابد استرضاء للالهة. وقد اتبع هذا التقليد في مصر طيلة التاريخ الفرعوني، واعتبر الـ«حب سد» مناسبة لتجديد حكم الفرعون في احتفالات خاصة يثبت فيها الملك جدارته، أو يشيد المباني، ولا سيما معابد الالهة.

أما في عهد الأسرة الثانية فقد بدا واضحاً الانتقال تدريجياً نحو الشمال (وهو الاتجاه الذي لوحظ في الأسرة الأولى بانتقال العاصمة من نخن إلى ثنى، لكن تاريخ هذه الأسرة لا يزال غامضاً وقد اقترن بكثير من الاضطرابات الداخلية، كان أبرزها الثورة على عبادة الاله حوروس. وجاء ذلك كرد فعل على تأثير عاصمة الشمال الجديدة والاله حورس معبودها الرئيسي، ومحاولة للعودة إلى التقاليد الجنوبية القديمة. وقد حصل هذا الخلاف في عهد الملك بري ـ اب ـ سن (Péribsen) الذي أقام في أبيدوس وأعلن رفضه للاله حوروس، إذ حذف اسمه من ألقابه (وهو أقدم الألقاب الملكية) واستبدل به اسم «ست»، اله الصعيد. وتدعيماً لهذا الاتجاه الجديد شيّد الملك بري ـ اب ـ سن قبره في أبيدوس وليس، كما فعل أسلافه من الأسرة الثانية، في سقارة.

لكن هذا الاتجاه السياسي ـ الديني الجديد اقتصر على بري ـ اب ـ سن، وتوقف بموته، كما أعيد الاحترام من بعده للتقاليد القديمة وللاله حوروس. وقد حاول أحد خلفائه، خع سخموى Khasékhémoui، آخر ملوك الأسرة الثانية، التوفيق بين مختلف الاتجاهات واعادة الاعتبار إلى الاله حوروس مع الاعتراف بالاله ست. فإلى جانب اسمه، ويعني «القديران» (الالهان: حوروس وست)، تظهر صورتا حوروس وست الرمزيتين (العقاب وحيوان ست) معاً فوق الاطار الذي يحمل اسمه.

# الدولة القديمة

## من الأسرة الثالثة إلى السادسة
## (2700 ـ 2200 ق.م)

يعتقد أن زوسر (اسمه الحقيقي نتريرخت Nétérierkhet) كان ابنا لآخر ملوك الأسرة الثانية (خع سخموى)، ولكن على الرغم من ذلك، اعتبره مانتون في تقسيمه لتاريخ مصر مؤسساً لأسرة جديدة، الثالثة، ولا يزال هذا التقسيم متبعاً حتى الآن بعد أن تبين من خلال الدراسات الأثرية الحديثة أن عهد زوسر كان بالفعل بداية لمرحلة جديدة تميزت بمختلف النشاطات الحضارية، ولا سيما في مجال العمارة والفنون. وقد جمعت المصادر القديمة بين اسمي الملك ووزيره، المهندس والأديب ايمحوتب (Imhohotep) الذي خلدته التقاليد المصرية واعتبرته، في العصور المتأخرة، إلهاً. فإلى هذا العهد ترجع معظم التماثيل البرونزية التي تمثله جالساً يحمل على ركبتيه ورقة البردى. وفي عهد البطالسة نسبته التقاليد إلى أصل الهي وجعلته ابنا للاله بتاح. وكتب مانتون يقول: «عاش في أيام حكمه (أي زوسر) ايموش (ايمحوتب) الذي يرى فيه الاغريق اسكليبوس (Esculape)، وذلك لمهارته في الطب. وقد اكتشف هذا الشخص فن البناء بالأحجار المنحوتة، وكان يُقبل بحماس شديد على التأليف». ويشهد على صحة ما جاء عند مانتون هرم سقاره المدرج، وهو جزء من مجموعة بنائية عظيمة يُنسب تخطيطها وبناؤها إلى ايمحوتب.

أما على الصعيد السياسي فقد نقلت العاصمة نهائياً إلى الشمال تقديراً لموقع منف الجامع بين الأرضين (مصر السفلى ومصر العليا). وقد شيد زوسر قبره (الهرم المدرج) على مقربة منها، في سقاره، الواقعة على الضفة الغربية لمجرى النيل؛ ولكن لم يعثر على أي أثر آخر معاصر للملك باستثناء كتابة تحمل اسمه وجدت في وادي المغارة في سيناء.

وحكم من بعده عدد من الملوك (ستة أو ثمانية) مدة طويلة من الزمن لم يحصل خلالها

أي تجديد يذكر، ولم تستعد مصر نشاطها في مختلف المجالات إلاّ في عهد الأسرة الرابعة التي يبدأ تاريخها بحكم الملك سنفرو (Snofrou). وتتضح أعمال هذا الفرعون بفضل حجر بالرم، إذ تبين أنه قام، على ما يبدو، بعدة عمليات عسكرية على الحدود المصرية: في النوبة وفي ليبيا. وثمة كتابات ثلاث تحمل اسمه في وادي المغارة تؤكد أنه قام بأعمال حربية مماثلة في سيناء لصد تسلل بدو الصحراء إلى الدلتا. واشتهر سنفرو على الصعيد الداخلي، بأعماله البنائية المتمثلة بإهراماته الثلاثة: واحد في ميدوم واثنان في دهشور، يعتبر أحدهما أول هرم تام ومتكامل.

يذكر حجر بالرم أنه شيد عدداً كبيراً من المعابد والقلاع والبيوت وأنه صنع لنفسه عدة تماثيل من الذهب والبرونز. وفي عهده أُرْسِل أسطولٌ تجاري (أربعون سفينة) إلى الشواطىء الكنعانية للحصول على أخشاب الأرز التي لا يزال قسم منها في حالة جيدة حتى الآن في هرم دهشور الشمالي. كما أرسلت البعثات المصرية إلى سيناء لاستثمار مناجم النحاس والفيروز في وادي المغارة. وتبين من هذه المصادر الكتابية والأثرية أن عهد سنفرو يمثل تحضيرية مهّدت للتطور الحضاري (بخاصة في مجال العمارة والفنون الأخرى) الذي تحقق في الفترات التالية من الأسرة الرابعة، في عهد بناة الأهرامات خوفو Chéops – Khoufou وخفرع Chéphren Khaphra – ومنقاورع Mykérines – Menkaouré.

بيد أننا لا نستطيع أن نحكم على هذا العهد إلا من خلال اهرامات الجيزة، هذه المنشآت البنائية العظيمة التي تؤكد تطور الحضارة المصرية وازدهارها بفضل قوة السلطة الفرعونية وشمول نفوذها. لكننا لا نزال نفتقر إلى المصادر الخاصة بنشاطات الدولة الأخرى، ويبدو أن خوفو وحده قام بأعمال عسكرية في سيناء وأرسل بعثات أخرى إلى صحراء النوبة لاستثمار مقالع الديوريت (Diorite) شمالي غربي أبو سنبل.

في نهاية الأسرة الرابعة وبداية الأسرة الخامسة، حصل تحوّل في سياسة مصر الداخلية أتاح لكهنة هليوبوليس التدخل في شؤون الدولة. ويتبين من دراسة الآثار المعاصرة أن أوسركاف Ouserkaf، أول ملوك الأسرة الخامسة، قد ترك منطقة الجيزة وبنى قبره في سقاره بالقرب من الهرم المدرج. لكننا لا نعرف شيئاً عن أصل هذا الفرعون وعن صلاته بكهنة اله الشمس رع في مدينة اون، ويحتمل أن يكون قد تولى منصب كبير الكهنة قبل أن يتسلم الحكم في منف.

يبدو أن عبادة «رع» كانت من المهام الأولى لملوك هذه الأسرة الذين تبنوا بشكل نهائي

لقب «ابن رع» وأدخلوا اسمه في تركيب أسماء معظمهم، كما بنوا معابد جديدة فريدة من نوعها في تاريخ مصر. فالآثار المكتشفة في أبو صير (جنوبي الجيزة) تشير إلى أن ممارسة الطقوس الدينية كانت تتم، خلافاً للتقاليد القديمة، في العراء، حيث أن المعبد الشمسي الجديد يتألف من هرم مجزوع تقام فوقه مسلة، رمز الشعاع الشمسي (شبيهة تماماً بالـ بتيل أو بيت أل عند الشعوب السامية)، ويتقدمه مذبح كبير. وقد شيّدت هذه الأبنية وسط بهو (غير مسقوف) كي يسمح بدخول الشمس إلى جميع أقسامه، ويحيط به جدار خارجي (بمثابة الحرم) تتوسط الجهة الشرقية منه ردهة دخول Portique، ينتهي عندها المنحدر الذي يجمع بين القصور الملكية والمعبد. داخل هذا السور، ثمة أبنية ثانوية: مخازن وبيوت الكهنة وساحات أعدت لتحضير الذبائح المقدمة للمعبد. وعثر، خارج السور، على بقايا المركبة الشمسية الكبيرة المبنية من اللبن، وتجسيداً للرحلة التي كان يقوم بها يوميا الاله رع[1].

لكن، على الرغم من هذا التحول الديني، لم تحلّ عبادة رع محل الديانات القديمة، ولا يسعنا مقارنتها بحركة أخناتون (من الأسرة الثامنة عشرة) الذي تخلى عن جميع الآلهة ولم يعترف إلا بآتون. ففي معابد رع استمر المصريون في تقديس الآلهة الأخرى مثل حورس وحاطور. ويبدو أن الهدف الأول من هذه الحركة الدينية الهليوبوليتانية (= الشمسية) القصيرة الأجل (توقف بناء المعابد الشمسية بعد الأسرة الخامسة) كان اضعاف السلطة الملكية، فاقترب الفرعون من البشر، وفقد في نظر أتباعه شيئاً من صفاته السامية التي جعلت منه الهاً، أو كائناً أقرب إلى الآلهة منه إلى البشر. وكان لهذا التحول في مفهوم المصريين للملك أثر واضح على

---

1 ـ وجاء في احدى البرديات التي كتبت في الدولة الوسطى (إنما يحتمل أن ترجع عناصرها إلى عهد الدولة القديمة) القصة التي تقول أن الملوك الثلاثة الأول في الأسرة الخامسة هم أولاد «ردجت جت» Reddjgedget، امرأة أحد كهنة الاله «رع» ومن صلب هذا الاله. وقد ولدوا في عهد خوفو الذي أنبأه السحرة بذلك وبالتحول الذي سيحصل في العائلة الملكية في عهد أحد أحفاده. وهذا يعني أن هؤلاء الملوك الثلاثة هم من خارج العائلة الملكية وأن الانتقال إلى اسرة جديدة كان قد تم على أيدي كهنة مدينة اون. ولكن الواقع التاريخي يختلف بعض الشيء عما جاء في هذه الأسطورة إذ تبين أن الملك الأول (وان كان على ما يبدو قد شغل وظيفة كاهن في هليوبوليس) والثاني هو من أولاد شسكاف وزوجته خنتكاوس) Khentaous ابنة منقاورع. لذلك، يعتقد بأنه لم يكن هناك انقطاع ما بين الأسرة الرابعة والخامسة وأن اوسركاف وساحورع Sahouré هما من السلالة الملكية. أما الانتقال إلى أسرة جديدة (الخامسة) فيبرره التحول الديني الذي ترجع أصوله إلى بداية الأسرة الرابعة ولم يتم فعلياً إلا في الأسرة الخامسة.

تطور المجتمع وسياسة الدولة في منف.

أما على الصعيد الخارجي فقد نشطت الأسرة الخامسة عبر تكثيف حملاتها إلى البلدان المجاورة فإلى جانب الحملات التقليدية التي قام بها عدد من ملوكها في النوبة وسيناء، أرسلت حملات أخرى إلى الجهات الشمالية الشرقية. ففي أحد قبور دشاسه من الأسرة الخامسة (ربما من عهد ساحورع Sahouré) عثر على مشاهد تصويرية جدرانية تشير مواضيعها إلى احتلال احدى القلاع الأسيوية. وقد صُوِّر المصريون والأسيويون (من الساميين) بدقة وعناية كلية كما رُسمت مراحل المعركة ببساطة وطرافة. في المشهد الأول: قتال بين رجال الطرفين في السهل ينتهي بتراجع الأسيويين ولجوئهم إلى قلعتهم في نيديا (غير معروفة). في المشهد الثاني، المصريون يحاصرون المدينة ويهيئون السلالم لتسلق الجدران. الأسيويون يشعرون بالخطر الذي يتهددهم بعد أن أحدث المصريون ثغرة في الأسوار. وعندما علم حاكم المدينة بالأمر أخذ ينتف شعره يائساً، في حين تجمعت النسوة لمعاونة الجرحى. ثم سقطت المدينة في أيدي المصريين الذين قادوا الرجال والنساء والأطفال أسرى إلى بلادهم.

ونرى في معبد ساحورع الجنائزي، في أبو صير، مشهداً لحملة سلمية أرسلت إلى آسيا، حيث تظهر السفن في مجرى النيل بعد عودتها حاملة الجنود المصريين والأجانب المرافقين لهم، في حين يقف الشعب على ضفاف النهر لاستقبالهم. ويبدو أن غرض هذه الحملة (حسب رأي مونتيه P. Montet) كان طلب امرأة سورية ليتزوجها الملك.

## 1 ـ مظاهر الحضارة المصرية في الدولة القديمة

بعد أن توحدت مصر في بداية الأسرة الأولى، اعتمد نظام الحكم القائم على مفهوم السلطة الالهية المطلقة المتمثلة بشخص الملك ـ الاله، محور الحياة السياسية في المجتمع المصري القديم.

### أ ـ ألوهية الملك وفكرة الخلود:

في بلاد ما بين النهرين، كان الملك يمثل الاله على الأرض، ويحكم وفق مشيئته، أما في مصر فإن مفهوم الملكية يختلف كلياً لأن الفرعون ليس ممثل الاله وحسب بل تجسيداً له مادياً وروحياً. ويبدو أن طبيعة وادي النيل وأوضاعه الاجتماعية الخاصة وما شهدته البلاد من أحداث سياسية منذ بداية التاريخ المصري كانت من العوامل الرئيسة لمثل هذا الاعتقاد

(ألوهية الملك). فوادي النيل بلد عزلت طبيعته الجغرافية الشعب المصري القديم عن جيرانه في البلاد المتاخمة، وجعلته يشعر بنوع من الطمأنينة والاستقرار، وبأن بلاده قد تميزت عن غيرها بفضل الالهة. ولكن، على الرغم من هذا الشعور العام، كانت مصر مقسمة في الداخل إلى عدة أقاليم، اتحدت بعد ذلك وشكلت دولة كانت الازدواجية (نسبة إلى اختلاف الجنوب عن الشمال) ميزتها الأولى، وكانت بسبب ذلك مهددة دوما بالتفكك والانفصال. فإن وحدة اقليمي الصعيد والدلتا لم تدم إلا بفضل اعتمادها المشترك على مياه النيل والاعتقاد السائد بأنه لم يحكم وادي النيل شخص من الشمال أو الجنوب، بل اله تتمثل فيه القوى والقيم الجوهرية في كل من الأرضين.

وقد أعلن الملك أنه «الصقر» (حوروس)، اله المسافات الشاسعة، اله السماء، وتسمى باسمه. وبعد توحيد مصر اتخذ لنفسه اسماً جديداً: «نب ـ تى» (السيدتان) نسبة إلى إلاهتي الوجه القبلي والوجه البحري (نخبت ـ أوادجت) وحمل لقب «نسوت ـ بت» رمزي مصر العليا (السوسن) ومصر السفلى (النحلة). وكانت احتفالات تتويج الملك تخليداً، في الوقت نفسه، لوحدة مصر نفسها؛ ففيه تتجسد البلاد وشعبها. وأُضيفت إلى الملك ألقاب جديدة، بخاصة في الأسرة الرابعة التي وصل فيها الحكم المطلق ممثلاً بالملك ـ الاله إلى أعلى الدرجات: «الاله الطيب»، "الاله الكامل" (نتر ـ نفر ـ Neter – Nefer)، و «حوروس من ذهب»، كما عرف باسم «ابن رع»، وهو اللقب الذي ظهر بشكل متقطع في الأسرة الرابعة، وعمّ استعماله في الأسرة الخامسة. أما قصره فسمي: «بر ـ أو» (Per –O)، أي الكلمة التي تعني «البيت الكبير»، ومنها اشتق لقب «فرعون» الذي أطلق على الملك نفسه ابتداء من الأسرة الثامنة عشرة. ومنذ الأسرة الرابعة كان اسم الملك ولقبه «ابن رع» يُكتبان داخل اطار بيضوي الشكل (أو خلية Cartouche) يقال له في المصرية: «شينو» Shenou؛ وهي كلمة اشتقت من فعل «أحاط»، يعتقد أن المصريين أرادوا أن يعبروا من خلالها عن قوة الملك، سيد «كل ما تحيط به الشمس».

يرتبط بهذه التقاليد العيد الثلاثيني «سد» Sed، الذي يعتقد أنه كان يشكل في الأصل نهاية حكم الملك، بل نهاية الملك نفسه قضاءً بالموت. وبمرور الزمن، تغير مفهوم المصريين لهذا التقليد القديم (الأسرة الأولى) الذي احتفظ عدد من القبائل الأفريقية ببعض مظاهره حتى الآن. فبدل أن يُخلع الملك ويحكم عليه بالموت في نهاية الثلاثين سنة، أتيح له تجديد حكمه وبدء

مرحلة جديدة، كما أن عدداً من ملوك مصر لم يتقيد، حتى في العهد الثيني، بجميع شروط هذا العيد، واحتفل بال «حب سد» قبل مرور ثلاثين سنة على الحكم. وفي العصور اللاحقة لم يعد الاحتفال به سوى وسيلة لتدعيم حكم الفرعون وبسط نفوذه. وتتضح أغراض هذا العيد في بعض التقاليد الملكية، حيث كان الفرعون يشيّد لنفسه قصراً في السنة الرابعة من توليه العرش، ثم ينتقل إلى قصر جديد في السنة الرابعة من احتفاله بعيده الثلاثيني.

ترتبط بألوهية الملك فكرة الخلود المتجلية بصورة واضحة ابتداء من الأسرة الأولى، في بناء المدافن الكبيرة المعروفة اليوم باسم مصطبه، والتي ما انفكت أحجامها تزداد بازدياد أهمية الملك حتى أخذت في النهاية شكل الهرم في الأسرة الثالثة (هرم زوسر المدرج)، ووصلت إلى الذورة في أهرام الجيزة فبلغ ارتفاع هرم خوفو 146.5 م طول ضلع قاعدته و230 م. فالمصريون اختاروا، في بناء قبورهم، الشكل الهرمي لأنه يضمن بقاءها أكثر من أي شكل هندسي آخر، ويضمن بالتالي خلود أصحابها، لأن خلود الروح يرتبط، في اعتقاد المصريين، بخلود الجسد ماديا. اتبع المصريون في البداية مبدأ التضحية البشرية الجماعية عند موت الملك. وقد عثر في قبر احدى الأميرات على بقايا أشخاص من ذكور واناث دفنوا معها لمرافقتها وخدمتها في حياتها الثانية، كما وجد مع كل منهم أدواته وأغراض عمله الخاصة. هذه الطريقة اتبعت أيضاً، لفترة من الزمن، في بلاد ما بين النهرين، وهي لم تدم طويلاً في مصر، وحيث استعيض عنها بالطقوس أو التعاويز الدينية، كما لجأ المصريون إلى تزيين جدران مقابرهم بالمشاهد التصويرية ذات الموضوعات المستمدة من حياة الانسان العادية، ووضعوا إلى جانب الميت جميع ما يلزمه من حاجيات مادية حتى بدا القبر أشبه بمسكن لا يختلف في شيء عن بيت الانسان العادي سوى في كونه مسكناً أبدياً.

هذا الخلود المادي لم يقتصر على الملك وحده بل شمل أيضاً النبلاء وبعض أفراد الطبقة الحاكمة المقربين من الفرعون، الذين عمدوا إلى بناء مقابرهم في جوار قبر الملك وداخل حرمه، كي يسهل عليهم الاتصال به، في الحياة الماورائية، ويضمن لهم البقاء الأبدي. ثم تطورات هذه المعتقدات الدينية ـ الجنائزية بتطور الأوضاع السياسية والاجتماعية العامة ابتداء من الأسرة الخامسة، عندما حصلت «ثورة رع» في هليوبوليس. ففي الأسرة الرابعة كان هرم خوفو يشرف على كل ما يحيط به، حتى بدا المركب الشمسي المحفور إلى جواره في الصخر صغيراً جداً إذا ما قارناه بالهرم المجسد لعظمة الملك نفسه. لكن الأهرامات التي بنيت بعد خوفو وخفرع (=

ارتفاع هرمه: 5،143 م) جاءت أصغر حجماً وأضعف بناءً وأقل جمالاً، في حين أعطيت الأهمية، في مجموعة «ني ـ وسر ـ رع» (Néouserré) البنائية (من الأسرة الخامسة)، للمعبد الشمسي وللمسلة (= تمثل الشعاع الشمسي) التي أقيمت إلى جانب الهرم، وفاقته ارتفاعاً وحجماً. وعندما ضعفت السلطة المركزية في الأسرتين الخامسة والسادسة وازداد نفوذ حكام الأقاليم لم يعد يشعر هؤلاء بالحاجة إلى بناء مقابرهم إلى جوار مقر الملك الأبدي، قرب العاصمة منف، ووجدوا أن بإمكانهم الحصول على الخلود من دون التقرب إليه؛ فشيّدوا مدافنهم في أقاليمهم، بعيداً عن العاصمة الملكية.

أما على الصعيد الاجتماعي فتركزت جميع السلطات في أيدي الملك، محور النظام السياسي، والمتمثلة فيه البلاد وشعبها. لكنه من الصعب، بل من المستحيل عملياً، أن يقوم الملك بجميع المهام الواقعة على عاتقه، وكان لا بد له من استخدام موظفين ازداد عددهم وازدادت أهميتهم بمرور الزمن.

**ب ـ المجتمع المصري:**

كان من الضروري أن تتبع الدولة الجديدة قواعد وأنظمة تساعدها على ضبط الأمور الإدارية والاجتماعية. فلم يكن هناك قانون بالمعنى الصحيح للكلمة، أو دستور يعمل به القضاة ويحكمون بموجبه من دون الرجوع إلى الملك. وحتى في العصور التالية، لم يعرف شيء قبل العهد الفارسي يمكن مقارنته بمجموعة قوانين بلاد ما بين النهرين، ولا سيما شرائع حمورابي. فالكلمة التي ينطق بها الملك هي القانون المتعارف عليه في البلاد. ويبدو أن تجسيد الدولة في شخص الملك قد حال دون ايجاد قانون مدوّن كي لا تنافس سلطته نفوذ الملك الشخصي، فالقضاة يحكمون حسب الأعراف والتقاليد الموافقة لإرادة الملك ومن غير المقبول تحويرها أو تفسيرها إلاّ متى شاء. كانت فكرة «الماعت» Maat المجردة (الحق أو العدل، أو الاستقامة، أو النظام) هي الصفة الملازمة للحكومة المركزية لكونها، حسبما يفترض، تمثل الحق والعدل وتتفق مع نظام الدولة الالهي.

والملك، المجسد للاله، هو الوسيط بين الناس والالهة الأخرى، الكائن الوحيد الذي نراه في المشاهد التصويرية يقوم بخدمة الالهة. فهو يمثل قمة هذا المجتمع، يليه النبلاء من افراد الحاشية الملكية، ثم مختلف فئات طبقات الشعب (الموظفون ورؤساء الأقاليم والصناع أو الحرفيون... والمزارعون) الذين يعتبرون خداماً للملك. في بادىء الأمر، لم يكن هنالك سوى

طبقتين: حكام ومحكومون. بينما نجهل الكثير عن الطبقات الدنيا من الشعب، كالفلاحين الذين لم تتبدل أوضاعهم الاجتماعية والمادية كثيراً، وربما بقيت على الحالة نفسها تقريباً طوال التاريخ المصري القديم؛ فارتبط مصيرهم بالأرض العاملين عليها، وتعرضوا أحياناً للجوع والفقر والسخرة. فهم يعملون في اراضيهم أو في أملاك أسيادهم ويتلقون لقاء أتعابهم مخصصات عينية من المحاصيل. وكانت الفرص المتاحة لهم لتحسين أوضاعهم أقل بكثير من الفرص التي استفاد منها الحرفيون المهرة وحتى الخدم في بيوت النبلاء. بيد أن المزارع كان أساس المجتمع المصري لارتباط مصيره، وكما البلاد كلها، بمياه النيل وعطائها.

ج ـ الإدارة المركزية:

أما من الناحية الإدارية فالكتابات المصرية لا تعطي فكرة واضحة عن الموظفين وما يقومون به من مهام، لاقتصارها على ذكر ألقابهم التي تبين فقط مدى ارتباطهم بالملك من دون تحديد لنوعية العمل المنوط بهم، حيث وردت أقوال مثل: «قام بإتمام عمله حسب مشيئة الملك ونال مكافأة على ذلك»؛ كما ظهرت ألقاب متعددة، منها شرفية وأخرى خاصة بخدمة الملك مثل: « المشرف على أملاك القصر»، المشرف على جميع أعمال الملك، حامل ختم الوجه البحري»...

ثمة ألقاب أخرى، كهنوتية، علماً أن الكهنة لم يشكلوا في المراحل الأولى فئة خاصة، لأن الحاكم كان يجمع أحياناً بين الوظيفتين الدينية والمدنية، ويتولى ابنه مثل هذه الوظائف، لكن الأوضاع تبدلت كلياً عندما ازداد عدد الموظفين واتسعت نشاطاتهم. كان الملك يشرف بنفسه على الإدارة المركزية ويشرف أيضاً على جميع «البيوت» (الوزارات)، لأن وظيفة «نائب الملك» (وزير) لم توجد إلا بعد العهد الثيني (ربما في عهد سنفرو من الأسرة الرابعة). ويبدو أن ايمحوتب (مهندس الفرعون زوسر في الأسرة الثالثة) قام بجميع مهام الوزير، لكنه لم يحمل هذا اللقب الذي نسبته إليه التقاليد في العصور اللاحقة.

مع بداية الأسرة الرابعة أصبح الوزير يرأس الإدارة المركزية ويشرف على جميع الأعمال المهمة ومكاتب المستندات والوثائق حيث كانت تحفظ المراسيم الملكية والعقود والوصيات... وهو أيضاً مَن يمثل العدل ويرتبط من أجل ذلك بالاهتي العدل والحق، ويحمل أحياناً لقب «كبير بيوت الآلهة تحوت» Thot الخمسة، وكاهن «ماعت». إلا أن كثيراً من ألقابه لا يرتبط بوظيفة دائمة ومحددة بقدر ما يرتبط بالصفة العامة لسلطته. فهو مثلاً رئيس جميع أعمال الملك،

رئيس بيت السلاح، رئيس غرف الملك الخاصة.

أما لقب حاكم مصر السفلى فظهر منذ الأسرة الأولى، لكنه تحول تدريجياً إلى لقب شَرَفي في الدولة القديمة، في حين أخذ «ممثل الاله» أهمية كبرى ابتداء من الأسرة الرابعة وبات يشرف عل تنظيم عمل المناجم والرحلات إلى الخارج، ويحمل لقب قائد أعلى.

**د ـ الإدارة الاقليمية:**

منذ عهود مبكرة، قد تعود إلى العصر الحجري، قسم وادي النيل إلى عدة أقاليم Nomes، يرأس كل منها موظف مهمته مراقبة أقنية المياه وتوزيعها على الأراضي المجاورة. فكان ذلك اصل وظيفة «حاكم الاقليم» Nomarque، المعروف منذ العهد الثيني باسم «عج ـ مر» Adj – mer، وهو المشرف على حفر الأقنية، والمكلّف بإجراء الاحصاءات (يرجع أقدمها إلى عهد «أدجب» Adjib)، ومعاينة ارتفاع مستوى النيل بدقة لمعرفة نسبة مياه الفيضانات وتوقعها، واتخاذ الاجراءات اللازمة في حال عدم وفرة المياه تجنباً للمجاعة.

اتبع هذا التقسيم في الدولة القديمة وفي مختلف مراحل التاريخ المصري الأخرى، وأصبح من أهم مظاهر الإدارة الاقليمية التي كانت قابلة للتطور على الرغم من المحافظة على اطرها العامة. فكان من الطبيعي أن يحاول حكام المقاطعات، وهم الذين منحتهم الدولة امتيازات خاصة، الاستقلال عن السلطة المركزية. وقد ساعدهم على ذلك بُعد هذه الأقاليم عن العاصمة وضعف المواصلات التي لا تسمح للسلطة المركزية بمراقبة ما يجري فيها.

في المراحل الأولى، اتبعت الدولة وسائل خاصة تجنباً لاستقلال رؤساء الأقاليم وانفصالهم عنها، فاعتبرتهم موظفين صغاراً كانت تعمل على نقلهم من مراكزهم عدة مرات في حياتهم الوظيفية. لكن هذه الاجراءات لم تدم طويلاً إذ عمل الملك، مع احتفاظه بصلاحية نقلهم، على ابقائهم في وظائفهم. فأخذ هؤلاء الموظفون في الأقاليم يشعرون باستقلالهم، واعتبروا أنفسهم خارج نطاق القصر، وبنوا مقابرهم في مقاطعاتهم الخاصة، بعيداً عن مقر الملك الأبدي الذي طالما رغبوا في التقرب منه في السابق لينالوا الخلود عن طريقه. ثم عملوا على تكريس انتقال الوظيفية من حاكم إلى آخر بالوراثة وجعله تقليدا، بل حقا من حقوقهم المكتسبة، الأمر الذي مهد لتشكيل أولى العائلات الاقطاعية.

## 2 ـ الأسرة السادسة ونهاية الدولة القديمة (2345 ـ 2180 ق.م)

بقيت منف في هذا العهد المقر الرئيسي للأسرة السادسة، ومؤسسها الفرعون تتي Teti (دفن في هرمه في سقارة)، ثم خلفه أوسركارع Ouserkaré الذي لم يحكم سوى فترة قصيرة لا تزال تفاصيلها غامضة. وبمجيء بيبي الأول Pépi Meriré إلى الحكم استعادت مصر نشاطها، إذ شيّد عدداً كبيراً من الأبنية في مختلف أنحاء مصر (في تانيس وبوباستس وسقاره ودندره وأبيدوس...) وترك لنا عدداً من التماثيل الجميلة من النحاس (متحف القاهرة) والمرمر (متحف بروكلين ـ نيويورك)، ثم جاء من بعده ابنه مرنرع (مرى ان رع ـ Mérenré)، لكنه توفي بعد مضي خمس سنوات من توليه الحكم، فخلفه أخوه بيبي الثاني الذي عاش طويلاً وحكم 94 سنة (أطول عهد في التاريخ). في المراحل الأخيرة من حياته، شهدت البلاد اضطرابات داخلية أطلق عليها اسم «الثورة الاجتماعية»، كانت أحداث الأسرة الخامسة قد مهدت لها، كما تعرضت البلاد في الوقت نفسه لغزو خارجي.

في المجالات الأخرى، حافظت مصر على تقاليدها القديمة وأبدت اهتماماً كبيراً بتوثيق علاقاتها مع البلاد الخارجية المجاورة لها والبعيدة. هذه العلاقات ترجع، كما أشرنا إلى ذلك سابقاً، إلى أواخر العصور الحجرية، واستمرت، بل ازداد حجمها منذ بداية العصور التاريخية. وهي لم تقتصر على الأعمال الحربية، بل شملت البعثات التجارية عن طريق البحر الأحمر أو عن طريق سيناء والبحر المتوسط، وذلك للحصول على مواد أولية غير متوافرة في مصر، كالأخشاب والزيوت والعطور والأحجار الكريمة، كاللازورد Lapis – Lazuli.

من الشواهد على العلاقات المصرية ـ الفينيقية: «حجر بالرم»، اللوحة التي تحمل نقوشاً وكتابة هيروغليفية تقول أن سنفرو مؤسس الأسرة الرابعة قد استقدم أربعين مركباً محملة بالأخشاب من جبيل. ففي هذه المدينة، عثرت حفريات مونته P. Montet وموريس دينان M. Dunand على آثار مصرية عديدة أرسلت إلى أمراء جبيل وإلى ربة المدينة، «البعلة». بعض هذه القطع الأثرية يحمل أسماء فراعنة وألقابهم الملكية ممن قدموا هذه الهدايا: منها وعاء من الالبستر يحمل اسم الفرعون خع سخموي (من الأسرة الثانية)، كان قد أرسله إلى الربة حاطور، وخاتم اسطواني من العهد نفسه، كان بحوزة أحد المسؤولين المصريين المقيمين في جبيل، يحمل ألقاباً ترتبط بآلهة هذه المدينة: «محبوب الربة، ابن الأسد، ابن رع البلاد الأجنبية، اله البلاد الأجنبية، والاله روتى، في جبيل، محبوب الاله خى ـ تاءو Khay – Taou في

«نيجا» Néga، الذي أعطيت له الحياة الأبدية». وقد نقش على هذا الخاتم رسم احدى الربات التي يعتقد، على الرغم من مظاهرها المصرية، أنها الربة بعلة جبيل. مع العلم أن المصريين القدماء قد أطلقوا عليها اسم حاطور وأخذت منذ الألف الثالث شكل «ايزيس ـ حاطور Isis – Hathor، كما وصفت بـ «سيدة دندرة». وعثر في جبيل على عدد كبير من الأواني المصرية يحمل بعضها أسماء أشهر فراعنة الدولة القديمة، خوفو ومنكاورع من الأسرة الرابعة، وأوناس Ounas، آخر ملوك الأسرة الخامسة، وبيبي الأول والثاني من الأسرة السادسة.

ابتداء من الأسرة السادسة، اخذت هذه العلاقات منحىً جديداً تعكسه الكتابات الأكثر وضوحاً وموضوعية، إذ تصف بشكل أكثر منهجية مختلف مراحل تطور السياسة الخارجية. ففي هذا العهد اتبع ملوك مصر سياسة أسلافهم العسكرية، وقاموا بحملات متتالية إلى آسيا، كان قد بداها بيبي الأول عندما أرسل البعثات لاستثمار مناجم وادي المغارة في سيناء، بعد أن كانت مصر قد تخلت عنها منذ نهاية عهد «ني وسررع» (آخر من سجل اسمه في هذا المكان) من الأسرة الخامسة. فاستغل الأسيويون هذه الفرصة لتحصين مواقعهم حتى تمكنوا من التغلب على المصريين عندما حاول هؤلاء استثمار مناجم سيناء من جديد. فاضطر بيبي الأول أن. يؤلف جيشاً كبيراً، بلغ عدد أفراده «عشرات الآلاف» جندوا من مختلف أنحاء مصر. وكان على رأس هذه الحملة القائد أوني ((Ouni الذي وضع تقريراً مفصلاً عن أعماله العسكرية وانتصاراته في سيناء وفلسطين. غير أنه لم يكن ذلك كافياً، إذ اضطر القائد المصري أن يجدد الحملة إلى المنطقة نفسها في مناسبات عدة. وكانت الحملة الأخيرة موجهة ضد احدى المدن الفلسطينية (لم يُحدد موقعها) بعد أن تعرضت لأحداث داخلية، يبدو أنه لا علاقة لها بمصر. لكن أوني استغل الفرصة وسار على رأس قوة برية وبحرية ووصل إلى مكان يصعب تحديده، على الشاطىء (ربما قريباً من جبال الكرمل)، واتجه بعد ذلك نحو الداخل فتمكن من مفاجأة العدو والانتصار عليه. جاء في تقريره قوله: «عبر البحر بالمراكب وبهذه الجيوش، ونزل إلى الشاطىء في آخر تلال تلك الأراضي الجبلية في شمال بلاد البدو. وبينما كان نصف الجيش على الطريق أتى وجمعهم، وقتلهم وقضى على كل ثورة في نفوسهم، وأزال من بينهم كل ثائر». وتقديراً لجهود أوني عينه الفرعون مري أن رع (خليفة بيبي الأول) حاكما على اقليم الصعيد كله حيث قام بمهمة حفر خمس أقنية لجر المياه في منطقة الشلال الأول.

بعد انتصارات «اوني» كان من المنتظر أن تتابع مصر أعمالها العسكرية في آسيا، ولكن

يبدو أنه لم تحصل أية محاولة احتلال فعلي في هذه المنطقة قبل عهد الدولة الحديثة. وحتى ذلك الوقت، كانت هذه الحملات ذات أغراض دفاعية وتأديبية، واكتفت مصر باقامة علاقات ودّية مع مدن أسيوية، ولا سيما جبيل. وقد تجسدت هذه السياسة المصرية في عهد الأسرة السادسة في ارسال عدد كبير من الهدايا (حوالي أربعين قطعة من الأواني وطاولات النذور الحجرية) إلى بعلة جبيل؛ منها تسع عشرة قطعة (وجدت محطمة في معبد البعلة) تحمل اسم بيبي الأول، الفرعون الذي أعلن أكثر من مرة في كتاباته أنه ابن الربة حاطور، سيدة دندرة، المقيمة في جبيل.

عندما هدأت الأوضاع على الحدود الشرقية لم تعد مصر تهتم بهذه المنطقة من الناحية العسكرية، ووجهت حملاتها باتجاه النوبة التي كانت في السابق، منذ عهد زوسر، هدفاً لأطماع ملوك وادي النيل. لكن هذه الأعمال العسكرية، لم تصبح، فعالة ومتواصلة إلا في الأسرة السادسة، بعد أن قام حرخوف، حاكم جزيرة أسوان Elèphantine، بعدة حملات باتجاه الجنوب ووصل إلى احدى الواحات الليبية (سليمة)، ثم رجع إلى مصر محملاً بالهدايا.

لكن هذه الحملات الجنوبية كانت محفوفة بالخطر، فثار النوبيون أكثر من مرة بسبب معاملة المصريين القاسية لهم، وفي احدى الاشتباكات، قتل حاكم جزيرة أسوان، مما اضطر ابنه إلى اخماد الثورة والثأر لأبيه. وفي عهد بيبي الثاني أرسلت سفينة إلى بلاد بونت (Pount) (الصومال)، ولكنها رست في أحد مرافىء الشواطىء الأسيوية (البحر الأحمر). وفي حين كان البحارة يراقبون سفينتهم ويزودونها بالمؤن هاجمهم البدو وقضوا عليهم. لذلك أرسل الملك أحد المسؤولين الكبار لاسترداد أجساد القتلى والثأر من بدو الصحراء.

هكذا يبدو أن مصر قد وجهت اهتمامها الكلي، نحو الجنوب حيث بقيت النوبة بعيدة عمّا شهده الشمال من تطور حضاري وخضعت بالتالي للنفوذ المصري. أما في المناطق الأخرى فلم تحاول مصر اتباع سياسة استعمارية عن طريق الاحتلال العسكري على الرغم من نجاح بعض الحملات المرسلة إلى سيناء وفلسطين، ويبدو أنه لم يكن الغرض من هذه الحملات سوى المحافظة على طرق القوافل التجارية واستثمار مناجم النحاس والفيروز في سيناء. الأمر الذي يفسر ندرة آثار الدولة القديمة المكتشفة خارج حدود وادي النيل، ما عدا في جبيل حيث يعتقد أن جالية مصرية قد اقامت بشكل دائم في هذه المدينة الكنعانية للحصول على أخشاب الأرز.

لكن التطور الحاصل في الأسرتين الخامسة والسادسة قد أدى إلى تحول في الأوضاع

السياسية والاجتماعية. فبعد أن كان الملك قد نال أعمق التقدير والاحترام المتمثلين مادياً في بناء الهرم، أكبر منجزات مصر الفرعونية، بدأت سلطته تضعف تدريجياً منذ نهاية الأسرة الرابعة بالذات، كما فقد ايمان الناس واعتقادهم بطبيعته الالهية على الرغم من احتفاظه بلقبه «الاله الطيب».

أما في الأقاليم فأصبحت وظيفة الحاكم وراثية في الأسرة الخامسة واستمر هذا التقليد على نطاق أوسع في الأسرة السادسة حتى أصبح من النادر أن يعين الفرعون حاكماً جديداً في أي من أقاليم مصر. وقد أدى ذلك إلى استقلال هؤلاء الحكام واعتبار أنفسهم، بخاصة في أبيدوس، ملوكاً يتصرفون وكأنهم في معزل عن الإدارة المركزية ويشرفون مباشرة على الأمور الدينية والقانونية والعسكرية والمالية. وكان حاكم اقليم جزيرة أسوان (ألفنتين) يتمتع، نظراً لبعده عن العاصمة، بامتيازات خاصة، فهو لم يكن مجرد «حاكم اقليم» عادي بل كان موظفاً كبيراً يحمل لقب «رئيس المترجمين»، لقب اقتصر استعماله على حكام هذه المنطقة. فكان هذا الموظف بمثابة مفوض مصر في النوبة، يُكلف بمهام خاصة لا يقوم بها في المقاطعات الأخرى إلا «ممثل الاله».

في أواخر الأسرة الخامسة، ظهر لقب جديد، «حاكم الجنوب». وقد رُفّع الذين احتلوا هذا المنصب إلى رتبة وزير. وكان من بين هؤلاء القائد أوني (أتينا على ذكره) الذي تسلم، قبل أن يبلغ هذا المقام الرفيع، مهاماً عديدة (رئيس أملاك القصر، ناظر كهنة الهرم الملكي، قاضي...) وترأس عدداً من البعثات كالتي أرسلت إلى آسيا.

«حاكم الجنوب» يشرف على جميع أقاليم مصر العليا، ويتحمل مسؤولية جميع الضرائب عينا أو نقدا، ومراقبة الأعمال العمرانية والزراعية وحفر الآقنية. ويبدو أن الفرعون، بعد أن فقد ثقته بحكام الأقاليم الصغار، لجأ إلى تعيين مسؤول كبير يمثل السلطة المركزية ويقوم بضبط الأمن وجمع الضرائب. لكن هذا الاجراء، وإن بدا ذا فعالية في بادىء الأمر، لم يحل دون تفكك الدولة وانهيارها.

من جهة أخرى، كانت خدمة الفرعون، في البداية، واجبا على الشعب المصري، بحيث لا ينال الفرد لقاء أتعابه إلا طعامه وما يحتاج إليه، بينما يكافىء الملك أتباعه المخلصين بتسليمهم وظائف رفيعة في الدولة أو بمنحهم ناووساً أو نصبا أو طاولة نذور، فيما تتكفل السلطة بقطع الأحجار من مقالعها وبناء مقابرهم في جوار الملك.

لم يكن ذلك كافياً، ولا بد من تأمين استمرار الطقوس المدفنية والحصول من أجل ذلك على دخل أو مورد دائم يخصص قسم منه للطقوس المدفنية ويوزع القسم الآخر على الكهنة القيمين عليها. لذلك مُنح الموظفون المقربون من الملك اقطاعات كبيرة، كما منحت مثل هذه الاقطاعات للكهنة المطالبين بموارد خاصة بمعابدهم. كانت هذه الاقطاعات تعفى من الضرائب، وتسهم بالتالي في تقلص نفوذ الدولة. من جهة أخرى. يبدو أن المنجزات البنائية الكبرى التي حققتها الأسرة الرابعة (الاهرامات التي تطلب بناؤها سنوات طويلة) قد استنفذت جميع طاقات البلاد وامكاناتها وأدت، هي بدورها، إلى افقار الدولة وانهيارها كلياً في نهاية الأسرة السادسة.

في أواخر حكم بيبي الثاني الطويل، أخذ حكام أقاليم الجنوب يعملون على جمع قواهم في دويلات صغيرة مستقلة، في حين لم يستطع الملك العجوز أن يقوم بأي عمل لانقاذ البلاد. فازدادت الأحوال سوءاً يوماً بعد يوم إلى أن استغل الشعب هذه الفرصة ليحقق ما سمي بـ «الثورة الاجتماعية» التي ورد ذكرها في بردية «ايبور» (من الأسرة التاسعة عشرة)، وبردية «نفرتي» (من الأسرة الثانية عشرة). صحيح أن النص، في البرديتين، يرجع إلى عصور متأخرة، لكنه نقل، على ما يبدو، عن مصادر قديمة قد تكون معاصرة لهذه الأحداث. ويبدو أن الشعب قد اراد أن يعبّر من خلال هذه الثورة الاجتماعية عن تمرده، وذلك لتردي أوضاعه المادية، وانتقاماً من أفراد الطبقة الحاكمة والأغنياء. فعزل النبلاء من مناصبهم، وعمت الفوضى كل مكان، كما توقف العمال عن القيام بواجباتهم والفلاحون عن استثمار أراضيهم، وهددت المجاعة معظم أقاليم مصر، لا سيما في منطقتي منف ومصر الوسطى. أما في الشمال فإن أحداث هذه المنطقة لا تزال غامضة، لفقدان المصادر والوثائق التاريخية.

لكن منطقة الدلتا بالذات تعرضت، في الوقت نفسه، لأحداث مختلفة، ربما مهدت لها الحالة السيئة في مصر عامة. ولئن كان بدو الصحراء لا يملكون قوة عسكرية تهدد أمن مصر، إلا أنهم لم يتخلوا أبداً، وإن هزموا في عهد بيبي الأول، عن فكرة احتلال الدلتا الغنية. وقد ساعدهم على تحقيق آمالهم اضطراب الوضع الداخلي وعجز الدولة، في أواخر حكم بيبي الثاني الطويل، عن القيام باية حملة عسكرية في الشرق لانشغالها الكلي بأمورها الداخلية. وهكذا أتيحت الفرصة للشعوب الأسيوية بأن تُغير على منطقة الدلتا وتستقر فيها مدة طويلة

من الزمن. وقد جاء في بردية «أيبور» وصف دقيق للحالة في مصر بعد أن سقطت الملكية وتجزأت البلاد وعمت فيها الفوضى:

«حقاً، لماذا تدور الدنيا كما تدور عجلة الخزاف! فاللص هو الآن صاحب الثروة... لماذا يقذفون الجدران بأبناء النبلاء... انظر السيدات النبيلات يجمعن بقايا الحصاد، النبلاء يعملون في المصنع، وأصبح الذي لم ينم في حياته على لوح من الخشب يملك الآن سريراً... ليت ذلك يكون نهاية العالم، فلا حَمْل ولا ولادة، تخلو الأرض من الضجيج والمخاصمات... إن هذه الأيام هي ايام حرب بين الناس...».

«انظر الآن، لقد وصل بنا الأمر إلى الوقت الذي أصبح فيه عدد قليل من اللامسؤولين يحرمون البلاد من الملكية... ويثور الناس ضد حيّة التاج... لقد عُرف سر البلاد التي لا يعرف أحد حدودها. فالقصر الملكي يمكن أن يهدم في ساعة... وتصبح أسرار ملك الأرضين معروفة».

«... لماذا لا تدفع جزيرة أسوان والاقليم الثيني ومعبد الوجه القبلي الضرائب بسبب الحرب... فما فائدة الخزينة من دون دخل؟ أن مثل هذه الضرائب التي يدفعها الناس يسرقها أي موظف من موظفي الخزينة... أن مخازن الملك أصبحت حقاً مستباحة لكل إنسان، ولا يوجد في القصر ما يستحق له الضرائب».

ومدينة جبيل نفسها تعرضت للغزو الأموري في أواخر الألف الثالث، وأصبحت هي بدورها معادية لمصر، وورد اسمها في نصوص اللعنة التي وجدت في طيبة (بداية الأسرة الحادية عشرة)، حيث ذكر أن أموكبني (أهل جبيل ـ Amou Kepeni) كانوا من بين الثائرين على ملوك وادي النيل.

لذلك «توقفت اليوم الرحلات إلى جبيل... فما العمل للحصول على الصنوبر لدفن الطاهرين في أخشابه، ومسح الكبار بزيوته، وحتى إلى بلاد «كفتيو» (الكريت ـ Keftiou) لن يذهبوا بعد الآن...».

«لماذا تفتح المكاتب، وما الذي يدعو لقراءة التقارير... لماذا ألقوا بقوانين الديوان في الطريق، أن الناس يمشون فوقها في الشوارع..».

«انظر الآن، فقد حدث شيء لم يحصل أبداً منذ زمن بعيد، فإن العامة سرقوا الملك...

إن الذي دفن كصقر صار اليوم فوق خشبة نعش، وأصبح الهرم فارغا».

«لماذا يدفن الموتى العديدون في النهر. فقد اصبح مجرى الماء قبرا، واصبح مجرى النهر بيت التحنيط».

«لماذا، إن التماسيح تبقى تحت الماء لكثرة ما حصلت عليه، فالناس يذهبون إليها تلقائياً».

# عصر الانتقال الأول

## (من الأسرة السابعة إلى العاشرة)

لقد عمت الفوضى مصر في أواخر الأسرة السادسة واستمرت هذه الحالة فترة طويلة قبل أن تستعيد البلاد قوتها ووحدتها في نهاية الأسرة الحادية عشرة (الدولة الوسطى). حتى ذلك الوقت بقيت مصر مجزأة، وخضعت الدلتا في الشمال لغزو الشعوب الأسيوية، فيما نشأت في المنطقة الوسطى من وادي النيل دولة صغيرة كانت أهناسيا (خن نن نسوت، قديما) (هيراقليوبوليس ـ Hérakléopolis) عاصمتها، وتجمعت في الجنوب معظم الأقاليم حول مدينة طيبة التي حكمها في هذه الفترة أمراء أقوياء لكنهم اضطروا للاعتراف بنفوذ منف في مرحلة أولى، ثم أهناسيا في مرحلة ثانية. فكانت هذه الفترة بمثابة مرحلة تحضير واستعداد انتقلت بعدها مدينة طيبة إلى خوض حرب مع جيرانها، لم تنته إلا بعد صراع طويل، في عهد الملك منتوحتب الثاني (من الأسرة الحادية عشرة) مؤسس الدولة الوسطى.

تبدأ فترة الانتقال الأولى بالأسرة السابعة التي لم تدم في رأي مانتون أكثر من سبعين يوماً، حكم خلالها سبعون ملكا. مثل هذه الأوضاع تعكس حالة الفوضى التي عمت البلاد على أثر الثورة الاجتماعية، ويبدو أن هذه الأسرة لم يكن لها وجود فعلي، ويرجح أن مجلسا يتألف من سبعين شخصاً قد حاول إدارة شؤون البلاد لمدة قصيرة جداً لم تدم أكثر من سنة. ثم انتقل الحكم بعد ذلك إلى الأسرة الثامنة، أكثر الأسر المصرية غموضاً، وحكم ملوكها أيضاً في منف.

ومع الأسرتين التاسعة والعاشرة انتقلت السلطة إلى حاكم أهناسيا في مصر الوسطى، حيث استطاع مؤسس هذه السلالة الجديدة (مري اب رع) أن يوحد أقاليم هذه المنطقة وأن يعلن نفسه الوريث الشرعي لملوك منف، محاولاً تحرير الدلتا وفرض نفوذه على بعض أقاليم

الجنوب. لكن هذه المحاولات لم تنجح كليّاً وبقيت الحالة على ما كانت عليه في السابق ولم تتمكن مصر من تحرير الدلتا خلال هذه المرحلة.

وإننا لا نزال نجهل أسباب الخلاف بين ملوك أهناسيا وطيبة. ولكن يبدو أن هذه الأخيرة كانت، في الأسرة العاشرة (الأسرة الحادية عشرة في طيبة)، قد بدأت تظهر على المسرح السياسي الداخلي ولا سيما بعد أن أعلن أحد حكامها نفسه ملكاً، ليتخلص من نفوذ أهناسيا.

أما الأقاليم الأخرى في مصر الوسطى (أسيوط) وحتى في الجنوب (ادفو) فبقيت موالية للاهناسيين. وجاء في كتابة نقشت على جدران قبر «عنخ تيفى»، Antifi في المعلا (ما بين الأقصر وأسنا)، إن صاحب هذا القبر كان حاكماً لثلاثة أقاليم جنوبية: جزيرة أسوان وأدفو (نخن/ خيرلكونبوليس) وأرمنت، أي أن نفوذه شمل المنطقة الشاسعة، الممتدة من النوبة جنوبا حتى اقليم طيبة شمالا. وقد حارب هذا الحاكم، حليف أهناسيا، جيوش الطيبيين وانتصر عليهم في عدة مواقع، وتتبعهم حتى طيبة نفسها. لكن مجاعة حلت بالبلاد أوقفت الحرب قبل أن تتوصل إلى نتائج حاسمة.

استؤنفت الحرب من جديد في عهد أحد ملوك أهناسيا، واح كارع ـ خيتي الثالث ـ (Ouankaré – Khéty)، الواسع الشهرة بفضل تعاليمه الموجهة لابنه مريكارع Merikaré؛ وهو الذي تمكن من طرد الأسيويين وتحرير الدلتا وإعادة تنظيمها. لكن الحرب الداخلية بين طيبة وأهناسيا استمرت سجالاً لسنوات طويلة قبل أن تتمكن طيبة، في عهد منتوحتب الثاني (الأسرة الحادية عشرة) من القضاء تدريجياً على أمراء أسيوط والأخمونين وأهناسيا، وتصبح، ابتداء من ذلك الوقت، عاصمة البلاد بعد أن توحدت من جديد في بداية الدولة الوسطى.

بيد أن غموض الأحداث المرافقة لعصر الانتقال الأول لم تكن صفة هذه المرحلة الوحيدة فثمة نصوص أدبية غنية كانت قد ألقت بعض الأضواء على مظاهر المجتمع المصري وتطوره خلال هذه الحقبة التاريخية، ولعل اهمها: «بردية ايبور» المشار إليها سابقاً، و «نصائح الملك خيتي لابنه مريكارع»، التي كتبت في الأسرة الثامنة عشرة وأخذت عن نص يرجع إلى عصر فترة الانتقال الأولى، «وبردية القروي الفصيح»، من الأسرة العاشرة.

تعكس هذه النصوص الصورة القاتمة للحالة العامة في مصر، الصورة التي أدخلت الشك إلى نفوس المصريين، الشك في معتقداتهم الدينية وبالخلود، ودفعت بهم إلى اليأس والميل إلى التمتع بملذات الحياة الدنيا الحسيّة، طالما «لم يأت إلينا أحد ثانية من العالم الآخر ليحدثنا عما

يحصل هناك... فتتمتع بالملذات وانت على قيد الحياة... إن البكاء لا يغني قلب الإنسان عن عذاب الجحيم... تنزه ولا تحمل هما... لا يستطيع أحد أن يأخذ معه ما يملكه... واعلم أنه لم يذهب أحد إلى العالم الآخر وعاد ثانية».

ثمة أفكار جديدة طرحت بهدف شرح فكرة الخلود عن طريق العقل وربطها بالسلوك الخلقي والاجتماعي، بعد أن تبين للمصريين أن قبور القدماء قد نهبت وتعرضت مومياء أسلافهم للتلف على الرغم من الاعتناء بها. فكان لا بد من التركيز على القيم الأخلاقية وفصلها عن المادة والعمل على تحقيق شيء من العدالة الاجتماعية والمساواة بين أفراد المجتمع. من الواضح أن هذه الأفكار الجديدة لم تنشر في المجتمع المصري إلاّ بفضل غياب سلطة الفرعون المطلقة، وهي بالتالي لن تدوم طويلاً، بل ستتوقف عندما تعود مصر من جديد، في الدولة الوسطى، إلى تقاليدها القديمة. لذلك تتميز فترة الانتقال الأولى بأنها العصر الوحيد في تاريخ مصر الذي صُوِّر فيه الملك كغيره من الناس، غير معصوم عن الخطأ، فيعترف خيتي (ملك أهناسيا) لابنه اعترافا صريحا بأخطائه التي تستحق العقاب من الالهة. «لقد تحطمت مناطق اقليم ثنيس، وكان ذلك في الحقيقة بسبب ما فعلت، وعلمت بذلك بعد حدوثه... انظر أن ما فعلته هو سبب جزائي».

من قبل، تجرأ إيبور للمرة الأولى في تاريخ مصر، على انتقاد تصرفات الملك الذي عاصره بقوله: «تتجسد فيك السلطة وقوة الحس والعدل، ولكنك لا تعمل إلا على نشر الفوضى وضوضاء المنازعات في البلاد... فكل شخص يطعن الآخر، لأن الناس يمتثلون لما تأمر به... وهذا يعني أنك مسؤول عما يحدث، وأنك تكذب في أقوالك».

ولما ضعفت منزلة الملك ـ الاله وأصبح أقرب إلى البشر منه إلى الالهة، كان من الطبيعي أن ترتفع سلطة الحكام والنبلاء، وأن يحصلوا أيضاً على امتيازات تمنحهم الخلود بعد الموت، حيث ظهرت في قبورهم وعلى توابيتهم نصوص تضمن الخلود والألوهية، نصوص (نصوص الأهرام ونصوص التوابيت) اقتصر استعمالها قبل ذلك على الملوك.

الأمر الذي يعني أن أي شخص يستطيع، إذا توافرت له الثروة، شراء تابوت كتبت عليه نصوص السحر التي تحوّل صاحبه بعد الموت إلى «أوزيريس»، اله الموتى.

أما الطبقات الدنيا (الحرفيون والفلاحون) في المجتمع المصري، فبقيت على ما كانت عليه في السابق؛ فأفرادها يعتبرون ملكاً لأسيادهم، ووجدوا لخدمتهم، غير أن ثمة تطوراً في

مفهوم الكائن الانساني مهما اختلفت الطبقة التي ينتمي إليها والاعتقاد بأن الآلهة خلقت جميع الناس متساوين في الحقوق.

«لقد خَلقت أربعة أشياء عظيمة داخل بوابة الأفق. خلقت الرياح الأربعة التي يمكن لكل إنسان أن يتنعش بها كزميله المعاصر له، هذا هو العمل الأول. وخَلقت الفيضان العظيم، وللفقير فيه حق مماثل لحق الرجل الغني، وهذا هو العمل الثاني. وخلقت كل رجل شبيهاً بزميله ولم آمر بأن يعملوا السوء، ولكن قلوبهم هي التي أفسدت ما قلت، وهذا هو العمل الثالث. وجعلت قلوبهم تفكر دائماً في «الغرب» حتى يستمر تقديم القرابين لآلهة الأقاليم، وهذا هو العمل الرابع».

في هذا العهد ظهرت للمرة الأولى فكرة محاكمة الأموات قبل أن يسمح لهم بالدخول إلى الجنة، ما أتاح الفرصة أمام مختلف فئات الشعب أن تنال الثواب إذا هي عملت صالحاً. فكان الانسان يحاكم في المحكمة الالهية التي ترأسها الاله «رع» في بادىء الأمر ثم حلّ «أوزيريس» محلّه بعد ذلك، حيث كان الاله يشرف على عملية وزن قلب الانسان (مركز فكره وإرادته) الذي يوضع في كفة الميزان كما توضع «الماعت» (الحق، أو العدل) في الكفة الأخرى. فإذا زادت الحسنات تُمحى السيئات ويدخل الميت «مجلس الالهة»: «ستمحى سيئاتك، وسيغفر ذنبك أمام كفتي الميزان في يوم حساب الأخلاق، وستصبح في عداد أولئك الذين هم في سفينة «رع».

لذلك ينصح خيتي ابنه مريكارع بالتمسك بالعدل والاستقامة والأخلاق الحسنة: «... ولا تثق بطول السنين، فإنهم ينظرون إلى العمر الطويل كأنه ساعة واحدة. يبقى الانسان بعد الموت، وتُكرم أعماله... الوجود هناك خالد إلى الأبد... وإن من يصل إليه دون أن يفعل السوء سيعيش هناك كإله، ويخرج كما يشاء كأرباب الأبدية».

وجاء في تعاليمه أيضاً حث على التمسك بالقيم الأخلاقية:

«لا تكن شريرا، فالصبر خير. اجعل بيت ذكراك خالدا بحب الناس لك»،

«اجعل الناس يحبونك في الدنيا كلها، إن الخلق الحسن ذكرى (للانسان).

«إن خلق الرجل المستقيم القلب أكثر قبولاً من ثور الرجل الشرير».

وتتضح هذه الاتجاهات الجديدة المطالبة بالمساواة في «قصة القروى الفصيح» ذات الأهداف الأخلاقية. فهي تروي قصة رجل فلاح (خوان أنوب) اعتدى عليه، وهو في طريقه إلى أهناسيا، أحد النبلاء (تحوتي نخت) وسلبه ما كان يحمل من سلع يريد بيعها في العاصمة،

فرفع الفلاح شكواه إلى أحد كبار موظفي القصر الملكي (رنسي) وإنما بكثير من الفصاحة والعنف. وعندما لم ينل حقه، هاجم كبير حجاب القصر وكرر شكواه تسع مرات وأوصلها إلى الفرعون (واح ـ مكارع ـ خيتي، آخر ملوك الأسرة العاشرة) الذي تدخل في موضوع هذا الرجل الفقير وأمر بانصافه والتعويض عما لحقه من خسارة، كما أمر بمعاقبة الرجل الذي اعتدى عليه.

كان الغرض من هذه القصة، وهي لا تخلو من طرافة، الحث على اقامة العدل وانصاف الفقير وحمايته من مطامع الرجل الغني.

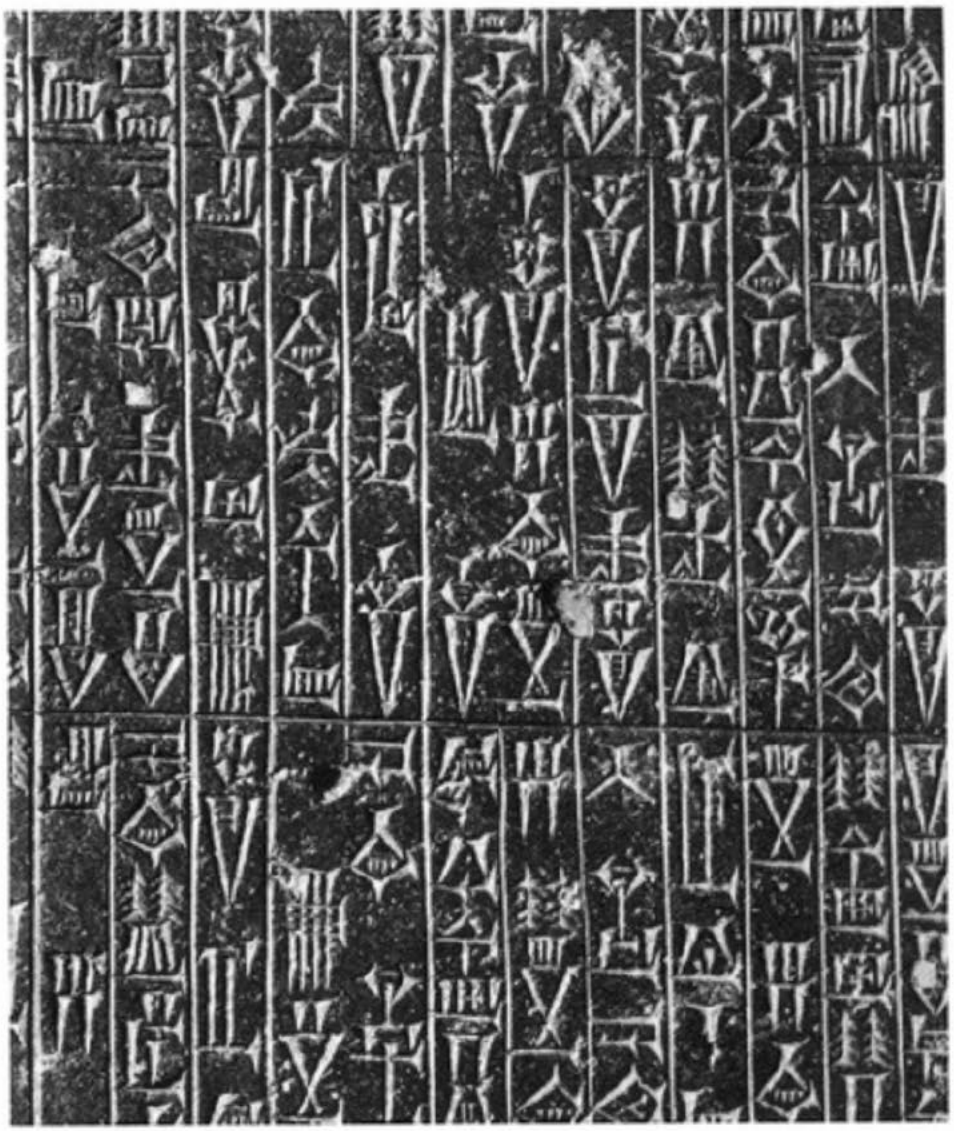

شوش ـ قانون حمورابي (جزء)، القرن الثامن عشر ق. م، متحف اللوفر

# الفصل

# الخامس

## بلاد ما بين النهرين

## في

## الألف الثاني ق.م

# عصر أسرتي اسن ولرسا

## (1765 ـ 2000)

في المرحلة الأخيرة من عصر أسرة أور الثالثة تعرض جنوب العراق لأخطار خارجية تمثلت بالشعوب الأمورية السامية في الغرب والعيلامية في الشرق. وقد اضطر بعض ملوك أور للقيام بأعمال حربية متتالة لاخماد محاولات تمرد سواء كان في بلاد عيلام أو على الحدود الغربية حيث كان تسلل الأموريين يزداد يوما بعد يوم حتى بات من الصعب ايقاف تحركاتهم الخفية، التي لم ينفع معها ما أقيم من حصون لدرء خطرها.

الأحداث تجددت، وتتالت بسرعة بحيث عجزت سومر عن ايقافها. فاجتاحت الشعوب السامية حواجز الحدود، وانتشرت في مختلف أنحاء سومر التي سقطت مدنها الواحدة بعد الأخرى، وانقطعت المواصلات، وأتلف الحصاد، وساءت أحوال الشعب بسبب ارتفاع الأسعار. بدورهم اجتاز العيلاميون البلاد من الحدود الشرقية، ووصلوا حتى مدينة أور وأقاموا فيها حامية لهم. وكان على إبي سن، آخر ملوك أور، أن يعالج هذه الأوضاع بسرعة، فكلف أحد قادته «اشبي ايرا» Ishbi – Erra بالدفاع عن المناطق المهددة بالخطر، في حين قام هو، بعد أن حصّن أور ونيبور، بحملة على عيلام، لكنها باءت بالفشل. وقد استغل «اشبي ايرا» تردي الأوضاع، فاستولى على اسن وجعل منها عاصمة لامارته الجديدة. غير أن ذلك لم يحل دون سقوط امبراطورية اور[1]، حوالي 2000 ق.م، أمام تحالف قوى الأموريين والعيلاميين

---

1 ـ كان لنهاية الدولة السومرية التي حمل بعض ملوكها أسماء سامية أثر كبير في نفوس سكان البلاد. وقد حاول الكتاب التعبير عن هذه الأحداث المحزنة بقصيدتين يعتقد أنهما كتبتا في عهد أسرتي اسن ولارسا، أو في العهد البابلي. الأولى عبارة عن رثاء طويل في أحد عشر نشيدا، من أربعمائة سطر تصف دمار أور وسومر على أيدي «الجوتي». والثانية تقتصر رثاء خاص بإبي سن، آخر ملوك أور.

والـ «سو» Su (من سكان جبل زغروس).

اسن ولرسا

بعد انهيار الدولة السومرية الحديثة، حاول أمراء محليون الحصول على استقلالهم الذاتي، وحمل بعضهم[1] لقب «ملك الجهات الأربع»، وإن لم يكن بوسعهم الذين تألهوا وتمثلوا بالملوك الكبار، تحمل مسؤوليات أسلافهم والحفاظ على تراثهم، أو منافسة أشبي ايرا، أمير اسن. استطاع هذا الأخير استغلال الأوضاع لصالحه الخاص منذ السنوات الأخيرة من حكم ابى سن، ونجح بعد ذلك بضم نيبور إلى نفوذه، وفرض الجزية على اور نفسها. وعندما تمت له السيطرة الكلية على الجنوب باشر باصلاح البلاد واعادة العلاقات التجارية إلى ما كانت عليه في السابق وتأمين طرق المواصلات.

هكذا نجح أمير اسن في فترة زمنية قصيرة بإعادة الأمن والاستقرار إلى البلاد حتى بدا عصره وكأنه امتداد لأسرة أور وتقاليدها. وبقي الوضع على هذا الشكل طوال خمسين سنة أعيد الاهتمام خلالها بالأبنية الدينية وعمّ السلام (كما تشير إلى ذلك النصوص الأدبية لهذا العهد) أنحاء البلاد.

لكن سرعان ما دب الضعف في جسم هذه الدولة الصغيرة بعد أن عجزت عن مراقبة مدن الجنوب، وباتت تجارة الخليج مهددة بالخطر، الأمر الذي اضطرها للقيام باجراءات داخلية لم تكن ذي جدوى ولم تخفف من تردّي الوضع أو تقف في وجه حملة خاطفة قام بها أحد ملوك اشور[2].

اشتد هذا التفكك في البلاد ابتداء من حكم لبيت اشتار (وهو أيضاً صاحب مجموعة من الشرائع تحمل اسمه) خامس ملوك اسن، في حين تصاعدت قوة لرسا. وكان من نتائج هذا التناقض أن تجزأت البلاد إلى دويلات صغيرة متنافسة قد لا يتعدى حجم الواحدة منها أحياناً اطار المدينة الواحدة. على الرغم من أن معظم أمراء هذه المدن كان من الأموريين فلم يتوصل واحد منهم إلى توحيد البلاد، وتفككت جميع الأحلاف التي

---

1 ـ مثل: ايلشو ـ ايليا في أشنونا، ونندوشا في دير.

2 ـ وهو ايلوشوما الذي ترك كتابة تخلد ذكرى هذه الحملة، جاء فيها أنه (أعاد الحرية) لكل من نيبور واور ودير في جنوبي بلاد ما بين النهرين.

كان مبعثها المصادفة أو المصالح الخاصة.

هكذا بقيت اسن، وهي التي شمل نفوذها جنوبي الرافدين وقسما من وسطه، بقيت اقوى دويلات هذه المرحلة؛ ولكنها، بعد أن تعرضت للغزو الأشوري (حوالي 1850)، انتقل مركز القوة إلى لرسا، لمالها من نفوذ شمل مناطق مجاورة تمتد من الديالى شمالاً حتى عيلام جنوبا. وكان لاستيلائها على مدن الجنوب، ولا سيما اور المشرفة على تجارة دلمون، أن تحولت بضائع الخليج إلى لرسا. وكان حجم السلع التجارية كبيراً جداً بلغ أحياناً حسبما ورد في احدى الوثائق، ما قيمته 13000 «مينا» من النحاس. واستمرت الأوضاع على هذه الحالة من الازدهار في السنوات التالية (بخاصة في عهدي: أبي زارية Abizaré وسموأل Sumuel.

بيد أن هذه الفترة تميزت بالصراع الدائم بين الدويلات، سواء بين إسن ولرسا أو بين مدن أخرى (بابل، اشنونا، أشور...) توزعت النفوذ في ما بينها. كانت بابل، احدى هذه الامارات، قد باتت على شيء من القوة، ويبدو أن المدينة، التي بقيت أخبارها غامضة حتى ذلك الوقت، قد تأسست في عهد الدولة الأكدية، ولم تكن في عصر أور الثالثة سوى امارة صغيرة تخضع لحكم الأنسي وتدفع الجزية إلى معبد نيبور. ولكن منذ بداية حكم سومو ابوم (Sumu Abum -، مؤسس الأسرة البابلية الأولى، أصبحت بابل في عداد الامارات المتنافسة على النفوذ السياسي في المنطقة. وفي حين تقلصت حدود اسن، شمل نفوذ لرسا المنطقة من لجاش إلى اريدو، كما اتسعت سلطة بابل حتى شملت المنطقة ما بين سيبار ومَراد.

أما في الشمال، فقد بدأت أشور تظهر على المسرح السياسي بعد سقوط أور، متحررة من التزاماتها الضريبية والسياسية نحو الجنوب. وبعد أن قامت أشور بالحملة، المشار إليها، على إسن ومدن اخرى في الجنوب، تابعت أعمالها العسكرية على نطاق واسع، ولا سيما في عهد شمشي اداد الأول الذي استولى على ماري، وضم إلى ملكه وادي الخابور ووادي الرافدين الأوسط، ووصل حتى حدود مملكة اشنونا على الديالى. ويبدو أنه وصل، من جهة أخرى، إلى وادي العاصي حيث عقد تحالفا مع أمير قطنا، ثم إلى شواطىء البحر المتوسط. ولكنه لم يجرأ على المغامرة في أعالي سوريا تخوفا من الاصطدام مع مملكة ايمخاد (حلب) القوية (كان زمريليم قد التجأ إليها بعد سقوط مدينته: ماري).

ولكن بعد موته لم يستطع ابنه (اشمي داغان الأول) المحافظة على هذه المكتسبات العسكرية، ففشل في صد جيوش اشنونا عندما وصلت حتى ماري، كما تمكن زمريليم، بالاتفاق

مع ملك حلب، من العودة إلى مدينته ماري وتسلم عرشها من جديد. ثم تحررت بعض المناطق الشمالية الأخرى من النفوذ الآشوري ولم يعد لأشمي داغان من نفوذ سوى على اشور نفسها. واستمر النزاع بعد ذلك طيلة عشرين سنة تقريباً بين تحالفين: اشور وأشنونا وعلام، من جهة، وبابل وماري وحلب من جهة أخرى. إلا أن حمورابي استطاع بعد عدة سنوات من تحقيق انتصارات عسكرية، سواء كان على أعدائه أو حلفائه القدماء: ملوك لرسا وعيلام وأشنونا وماري وأشور. وتمكن بعد ذلك من توحيد البلاد من الخليج، في الجنوب، حتى الخابور وبلاد أشور، في الشمال؛ في حين بقيت أعالي سوريا خاضعة لنفوذ دولة حلب (ايمخاد) المستقلة.

في هذا العهد كانت الحياة السياسية والاجتماعية ما زالت تحمل بعض مظاهر التقاليد القديمة، الأكدية السومرية، وكان ملوك هذه الدويلات ـ بخاصة في اسن ولرسا ـ يؤلهون أنفسهم ويحملون اللقب التقليدي «ملك سومر واكد»، وإن لم يتعد نفوذهم أحياناً حدود المدينة أو العاصمة. وفي هذا المجتمع الجديد تكونت طبقة متوسطة، ما بين الأحرار والعبيد، وضعت لها قوانين خاصة في التشريعات المعاصرة، كتشريع بلالاما، في اشنونا، وتشريع ليبت اشتار، في اسن.

أما من الناحية الاقتصادية، فكانت البلاد تعتمد على الزراعة، حيث كان للقصر والمعبد دور مهم في ملكية الأرض. لكن تطور المجتمع واتساع نطاق العلاقات التجارية مع الخارج كانا من الأسباب التي أدت إلى نشوء المُلكية الخاصة. فالنصوص العائدة إلى أواخر القرن التاسع عشر (عهد بورسن في اسن)، تكشف أن المعبد ورجلاً من العامة يمكنهما امتلاك قطعة أرض على السواء.

اتضحت هذه الظاهرة في القرن الثامن عشر، حيث أن رجلاً ابتاع حقلاً من معبد نينورتا، كما عثر على عقد شراء يرجع إلى عهد آخر ملوك اسن (دامق ـ ايلوشو) يؤكد هذا التحول في الملكية الكهنوتية ونشوء الملكية الخاصة. كما يتبين من نصوص أخرى، صادرةعن مدن وامارات مختلفة، أن الملكية الخاصة قد أصبحت أمراً ملموساً.

وحتى في مجال الأعمال التجارية الخارجية لم تعد السلع المستوردة (الحجارة الكريمة والأخشاب والعاج والمعادن، ولا سيما النحاس) بكميات كبيرة تُحوّل إلى مخازن الدولة أو المعبد، بل أصبحت، بعد سقوط أور، في أيدي جماعة من رجال الأعمال الأغنياء (الرأسماليين) الذين يشرفون بأنفسهم على تمويل عمليات الاستيراد، ويقدمون في المقابل البضائع المنتجة

محلياً. فكانوا يحددون أرباحهم مسبقاً ولا يتحملون مسؤولية خسارة، يفترض أنها تقع على عاتق العميل الذي يقوم بالرحلة التجارية[1]. وفي المقابل كانت الدولة تدعم مثل هذه الأعمال التجارية وتستفيد منها بفرض الضرائب على السلع المستوردة.

يبدو أن أشور قد حققت في هذا المجال تطوراً كبيراً جعلها تتقدم على بابل وسائر دويلات المنطقة. فكان عدد من رجال الأعمال قد تمكنوا من تشكيل ما يشبه مؤسسات تجارية يمكن تتبع نشاطها لفترات طويلة ابتداء من القرن التاسع عشر، وذلك بفضل عدة مراكز تجارية (مستعمرات) أقامها الآشوريون في شمال بلاد الرافدين، أو في الأناضول حيث تأسست كانش أشهر هذه المستعمرات. وقد عاش هؤلاء التجار في مجموعات مستقلة خارج المدن، يقومون بتصدير منتوجات بلادهم ويستوردون المعادن كالذهب والنحاس، محافظين على علاقة دائمة بوطنهم الذي يتلقون منه ما هم بحاجة إليه من وثائق رسمية.

مثل هذا التحول في العلاقات الاجتماعية يلاحظ في تنظيم إدارة الدولة المتجلي بوضوح في الوثائق القديمة من عهد شمشي اداد الأول، ولا سيما وثائق ماري. فإلى جانب الرسائل الدبلوماسية والعسكرية، وجد عدد كبير من الرسائل الإدارية والتقارير الحسابية التي أُعطيت الأهمية نفسها سواء كان في المناطق الاقليمية أو في القطاع الخاضع مباشرة لحكم الدولة المركزية. فقد أوكل شمشي اداد إدارة وادي دجلة والفرات الأوسط إلى ولديه، مع ابقائها خاضعة لاشراف السلطة المركزية. وقسمت البلاد إلى أقاليم يشرف على كل منها حاكم إداري

---

1 ـ شارك في هذه الأعمال التجارية عدد من المؤسسات العامة: إدارات معظم المعابد والقصر، والملك نفسه. إلا أن الممولين الرئيسيين هم من أصحاب «البنوك» الخاصة الذين يتحملون القسم الأكبر من نتائج المخاطر التي قد تتعرض لها عملية نقل البضائع ما بين أشور وآسيا الصغرى.

يقدم الممول مبلغاً من المال (رأس المال) يقدر عادة بـ «منين» من الفضة أو ضعف هذا المبلغ، للتاجر الرحالة، أو إلى أحد هؤلاء التجار الذين يقيمون عدة سنوات خارج بلادهم، أشور. يتعهد التاجر الوسيط بأن يعيد ضعفي المبلغ الذي تسلمه بعد مضي عدد محدد من السنوات (أربع سنوات عادة). إذا كانت هناك مكاسب اضافية يتقاسمها أصحاب العلاقة بنسبة 1/ 1 أو 2/ 1.

أما الاجراء (سائق الحمير والرسل من الأولاد) فتدفع أجورهم كشركاء جزئياً في الصفقة التجارية. فهم يتلقون، منذ البداية، مبلغاً من المال يتصرفون به كما يشاؤون، شرط أن يعيدوا هذا المبلغ في نهاية الرحلة. فكان هؤلاء يتاجرون بما يتوافر لديهم من مال، أقمشة من أشور يبيعونها أثناء الرحلة، أو في آسيا الصغرى، وإن ما يجنونه من أرباح يعتبر أجر العمل الذي يقومون به. وقد اصبحت هذه الطريقة المغرية بعد ذلك اسلوباً تقليدياً يتبع في التعويض على المأجورين.

يساعده مجلس خاص وعدد من الموظفين الذين يشرفون على حسن سير الأعمال في البلاد، ويراقبون تنقل البدو، ويجمعون الاحصاءات العامة عندما تحصل من وقت لآخر. أما الجيش فكان يتألف من مجموعة من الأفراد والوكلاء ومكاتب الاستعلامات. واهتمّ الآشوريون بصورة خاصة بالبريد كي يؤمن الاتصال بهذه الأقاليم وبالسلطة المركزية. هذه الاجراءات الجديدة في بلاد ما بين النهرين كانت الأولى من نوعها، بل جعلت من أشور أول امبراطورية نظمت تنظيما إدارياً ومركزياً دقيقاً.

## الدولة البابلية القديمة

عرفت بلاد ما بين النهرين، في أواخر الألف الثالث ق.م، عهد ازدهار، ولا سيما في عصر أسرة أور الثالثة، حيث تسلم السومريون والساميون المراكز الرئيسة في الدولة، وشملت القوانين المدنية جميع المواطنين. وفي حين تجمدت بعض المظاهر الحضارية السومرية في أشكال تقليدية، انتقلت المبادرة في مجالات متعددة إلى الشعوب الشمالية سامية الأصل. فالتجارة مثلاً أصبحت، حتى في المدن السومرية الرئيسة، في أيدي الشماليين، كما أن اللغة السامية بدأت تحل تدريجياً محل السومرية. وتميزت المرحلة الأخيرة من الألف الثالث وبداية الألف الثاني ق.م بالفوضى واللامركزية، مما أدى إلى سقوط مدينة أور وانتقال السيادة إلى الفئات الجديدة (العيلامية والأمورية) بعد أن دخلت وادي الرافدين وأسست أسرتي اسن ولرسا. كان لا بد من نشوب نزاع بين الطرفين بغية الاستيلاء على الحكم وإدارة شؤون البلاد. أما المدن السومرية، ففقدت سيادتها واستقلالها، لكنها حافظت على كثير من مظاهر حياتها التقليدية، بل ازدهرت فيها التجارة، إذ كان من الطبيعي أن يأمل الناس خيراً من هذا التحول السياسي في البلاد الذي أضعف مراقبة السلطة على نشاط رجال الأعمال والتجار، وهذا ما شجع المبادرة الفردية وسمح لها بتحقيق مزيد من المكاسب.

في هذا الوقت كانت بابل في طور النمو والتكوين، لكنها تمكنت بالنهاية من جمع معظم العناصر السامية واستمالتها، كالأكدية. واستطاعت أن تؤسس أسرة جديدة (1830 ـ 1550 ق.م) فرضت سيادتها على أواسط البلاد في المرحلة الأولى، ثم شمل نفوذها لاحقاً، في عهد الملك حمورابي (1792 ـ 1750)، مناطق واسعة من وادي الرافدين. ولقد شهدت البلاد في هذا الوقت غزواً عيلامياً جديداً توصل إلى وضع رجل عيلامي على عرش لارسا، وهو واراد سن (Warad – Sin)، خلفه في الحكم ابنه ريم ـ سن Rim – Sin المعروف بالحزم وشدة البأس.

لكن حمورابي استطاع، بعد حروب طويلة الأمد، من التغلب عليه، والاستيلاء على مدن الجنوب. وبعد هذا الانتصار على العيلاميين، توجه حمورابي بعملياته العسكرية التوسعية نحو الشمال، والشمال الغربي، فاستولى على مدينة اشنونا (Ashnuna) (تل أسمر)، وأخضع المدن الأشورية رغم ما عرفته هذه المنطقة من مجد وغنى وما قدّر لها من آمال في المستقبل في عصر الملك شمشي اداد الذي كان من المتوقع أن يكون على رأس هذه الفتوحات الحربية، وأن يكون هو صاحب الوحدة التي حققها البابليون بفضل حكمة حمورابي ودهائه السياسي وقوته الحربية.

في السنة الثانية والثلاثين من حكمه، استولى حمورابي على مدينة ماري (تل الحريري)، الواقعة على الفرات في شمالي سوريا، احدى أهم المدن السورية القديمة. وقد تبين من خلال حفريات البعثة الفرنسية (باشراف أندريه بارو Andre Parrot، أنها كانت مركزاً ثقافياً وسياسياً مميزاً، إذ عثر فيها على مجموعة كبرى من الآثار ترجع إلى عهود مختلفة، وأهمها آثار القصر الملكي الذي تزيد مساحته على ثلاثة هكتارات ونصف، ويتألف من عدد كبير من الغرف استخدم بعضها إدارات مختلفة مدارس للكتاب، وأماكن لحفظ ما تراكم من وثائق مختلفة (محفوظات - Archive) تضم ما يزيد على 25 ألف لوحة مسمارية، يمثل قسم منها المراسلات الدبلوماسية المتبادلة بين حكام أو ملوك مدينة ماري وملوك العديد من المدن الشرقية القديمة. ولعل ما يدل على أهمية هذه المدينة وعظمتها رسالة بعث بها ملك أوغريت (شمالي اللاذقية) إلى حمورابي (ملك حلب) يرجوه فيها التوسط مع زمريليم Zimri – Lim، أشهر ملوك ماري، للسماح لابنه بزيارة المدينة، ربما كي يتلقى فيها العلم.

هكذا تمكن حمورابي من بسط نفوذه وتوحيد البلاد في مملكة تمتد من الخليج العربي جنوباً إلى نينوى شمالاً ومن جبال بلاد عيلام شرقاً إلى الحدود السورية غربا. وأطلق حمورابي على نفسه لقب «ملك سومر واكد»، اللقب التقليدي الذي حمله من قبله عدد من ملوك الرافدين.

على الصعيد الاجتماعي، قام حمورابي بأعمال قد لا تقل أهمية عن انجازاته في المجال السياسي، تمثلت بمحاولته ايجاد وحدة قانونية شاملة، تجمع الأنظمة والشرائع، منها ما عرف في عهد سابقيه أمثال أورنامو (Ur – Nammu)، المشترع السومري، مؤسس أسرة أور الثالثة، وليبيت ـ اشتار Lipit – Ishtar، خامس ملوك في أسرة اسن، ومنها ما وضع في عهده تلبية لتطور الواقع الاجتماعي.

قامت الدولة البابلية بدور تاريخي بارز عندما تقبلت الارث السومري ـ الأكدي الحضاري واستوعبته، ثم أحيته في قالب يتفق ومتطلبات الحياة الجديدة. ويبدو هذا الاهتمام بالتراث القديم في مقدمة شرائع حمورابي حيث وردت فيها أسماء مدن سومرية مقدسة مثل نيبور Nippour، وأريدو Eridou، اللتان تتقدمان مدينة بابل نفسها. لكن حمورابي أطلق على نفسه لقب «ملك الأموريين»، كما نسب انتصاراته الحربية إلى الاله داغان Dagan، «خالقي» على حد تعبيره، ليبين عن افتخاره بنسبه وانتمائه إلى الساميين الغربيين.

يتجلى هذا التفاعل الحضاري في المجالات الفنية لدرجة أنه يصعب التمييز بين أعمال من عهد حمورابي وأخرى من عهود سابقة. فالأحداث التاريخية لم تحل دون استمرار التقاليد الثقافية العامة المتمثلة في تشابه الانتاج الفني والحرفي والمعماري. وإن كانت هناك بعض الفوارق فهي عادة بسيطة تصعب ملاحظتها، وتدخل في نطاق التطور العام في وادي الرافدين.

لكن الاستقرار النسبي كما عرفته البلاد في السنوات الأخيرة من حكم حمورابي لم يدم طويلاً. فالنزاع الداخلي عاد ليظهر من جديد بين المدن العراقية. فقامت اور على رأس ثورة فاشلة ضد الحكم البابلي في عهد سمسوايلونا Samsu – Iluna ابن حمورابي، الذي أخمد الثورة وهدم المدينة. لكنه عجز عن مقاومة أعدائه في الخارج، حيث تعددت هجمات الكاشيين Kassites، وكثرت عمليات التسلل إلى داخل البلاد. وتأسست في الوقت نفسه أسرة جديدة في جنوب العراق عرفت باسم «أسرة القطر البحري»، وكان ملوكها ينتمون إلى أصول سامية أو سومرية.

استمر النزاع بين الدولة البابلية والعناصر الكاشية في الشمال وعناصر أسرة القطر البحري في الجنوب حتى نهاية الأسرة البابلية الأولى. كما تعرضت البلاد لغزو جديد قام به مرسيل الأول «Mursil ملك الحثيين، في الفترة الأخيرة من عهد الأسرة البابلية، وتمثل بحملة عسكرية على المدن السورية الشمالية والعراقية، كان من نتائجها تدمير مدينة حلب والاستلاء على بابل لفترة قصيرة من الزمن. إلا أنه لم يكن لهذا الحدث التاريخي من نتائج مباشرة بالنسبة للحثيين الذين لم يستقروا في العراق، وتراجعوا ربما بسبب النزاع الداخلي الذي مزق قواهم، أما بالنسبة للأسرة البابلية فكان ذلك بمثابة ضربة قاضية مهدت الطريق أمام العناصر الكاشية، سكان جبل زغروس Zagros، للاستيلاء على الحكم وتأسيس دولة جديدة (1550 ـ 1170).

## 1 ـ تشريعات حمورابي

إن ما توافر حتى الآن من شواهد وقرائن لا يكفي لاثبات وجود تشريع مصري قديم، وإن كان يحتمل وجود مثل هذا التشريع منذ عهد الدولة القديمة، لأن الكتاب والمؤرخين اليونانيين يؤكدون هذا الأمر،، كما أن النصوص المصرية تشير، وإن بصورة غامضة، إلى ذلك، كالنص الذي عثر عليه في قبر رخميرع Rekhmire، وجاء فيه، بمناسبة استلام الوزير مهامه الجديدة: «المكان الذي ستقيم فيه العدالة يتألف من غرفة واسعة الأرجاء ملئت بوثائق جميع القضاة القدماء». لكن هذا التأكيد لا يكفي في غياب أية مادة من مواد هذا القانون، أو أية إشارة إلى تعديل التشريعات المصرية في أي من العصور التاريخية.

صحيح أن حورمحب Horemheb حاول معالجة الأوضاع الناشئة عن ضعف الحكم في عهدي اخناتون وتوت عنخ أمون ويقول أنه «دعم قوانين مصر»، كما نص على كاتبه الشخصي «مجموعة من القوانين الخاصة بغية تصحيح الأوضاع بعد أن اطلع عليها». غير أنه لم يقم، في واقع الأمر، إلا باصلاح الإدارة، كما لم يأت بأي تعديل في الأعراف والتقاليد القديمة، مكتفياً بإضافة أنواع جديدة من وسائل الجزاء لمعاقبة من يخالف الشرائع والأعراف المتبعة.

أما في سومر واكد وبابل واشور وبلاد الأناضول، فقد عثر على قسط وافر من شرائعها، مع العلم أنه لم يكن هناك تشريع، بالمعنى الصحيح للكلمة، بل تسجيل لبعض النظم والأعراف المتبعة في هذه المجتمعات[1].

إن شهرة حمورابي لا تقوم، في واقع الأمر، على أعماله الحربية وانتصاراته العسكرية بقدر ما تقوم على ما أتى به من تشريع إداري وقانوني. وقد بدأ حمورابي بوضع هذه التشريعات منذ العام الثاني من حكمه، وسجلت على عدد من النصب الحجرية، أهمها النصب الذي عثر

---

1 ـ إن المشترع البابلي (أو السومري) لم يتوصل إلى وضع مجموعة قوانين متكاملة، إذ يكتفي بتسجيل التعديلات التي طرأت على البنود القانونية السابقة، والتعديلات الناتجة عن تطور العلاقات الاجتماعية. لذلك لا تسجل البنود التي بقيت دون تعديل في القائمة الجديدة، إذ تعتبر سارية المفعول، كذلك فإن هذه البنود لا تحمل أية صفة نظرية. فحمورابي لا يقوم بأي جهد لايجاد مبادىء تشريعية، إذ أن همه الأول هو أن يعطي الحاكم بعض التعليمات، وأن المواد التي يتبناها لا تعبر عن قرارات متفق عليها بل هي مجرد نماذج للقرارات التي يجب أن تتخذ في المستقبل، هذا ويرى دياكونوف أنه يستحيل الاعتقاد بأن القوانين الحثية أو البابلية وضعت للدفاع عن مصالح الفقراء والأرقاء. فكانت قوانين الدولة تدافع دوما عن مصالح الطبقة الحاكمة.

عليه في شوش، لأن العيلاميين كانوا قد نقوله إلى عاصمتهم بعد أن استولوا على بابل، وسلبوا عدداً آخر من آثارها في عهد ملكهم شوترك ناختنه Shutruk – Nakhunte، في أواسط القرن الثاني عشر ق. م، .

نحت هذا النصب، البالغ ارتفاعه حوالي 2،35م (حالياً في متحف اللوفر)، من حجر البازلت، ونقشت في القسم الأعلى منه لوحة تمثل الملك حمورابي يتلقى التعاليم والشرائع من الاله شمس، رب العدالة.

لم تكن شرائع حمورابي الأولى من نوعها في بلاد ما بين النهرين، إذ سبقتها عدة محاولات للتشريع وتدوين الأعراف القديمة[1]، كمحاولة أرناموا Ur – Nammu، وإبي – سن Ibbi – Sin في أور الثالثة، وليبت ـ اشتار Lipit – Ishtar خامس ملوك إسن[2]، فضلاً عن محاولة الاصلاح الإدارية التي قام بها أورو كاجينا Urukagina، آخر ملوك أسرة لجش الأولى؛ كما حاول سموابوم Sumu – Abum، أول ملوك الأسرة البابلية، وضع مثل هذه التشريعات.

تضمنت تشريعات حمورابي الكثير مما سبقها من نصوص العرف والتقنين، إنما عدلت بعض بنودها أو زيد عليها، لأنه كان من الطبيعي أن يوفق حمورابي بين التقاليد السومرية وما يتطلبه المجتمع البابلي الجديد، وأن يُعدِّل القوانين بحيث تتلاءم ومتطلبات مجتمع بات يتألف من ثلاث طبقات متمايزة. فتشريع أورنامو لا يعترف إلا بوجود طبقتين: الرجل الحر والرقيق،

---

1 ـ لعله من أبرز هذه المحاولات هي تلك المحاولة التي قامت بها مدينة اشنونا، التي تعتبر من أنشط مدن الرافدين بعد سقوط أور الثالثة، ولعل خير ما تركته هو التشريع الذي وضع في أوائل القرن التاسع عشر ق.م (المحاولة الثانية بعد أورنامو). وقد وجدت اللوحات التي تحمل بنوده في تل هرمل، قرب بغداد، حيث عثر منه على احدى وستين مادة تعالج أهم الأمور الحياتية. فاهتمت بتسعير المواد الغذائية الضرورية كالشعير والزيت والملح وتحديد أجور العربات والثيران ومن يعمل عليها، وتحديد أجور العمال الزراعيين. واتبعت هذه الشرائع مبدأ المثل بالمثل، فالقاتل يقتل لكنها أقرت مبدأ الفدية ـ التعويض المادي ـ في الحالات التي لا تؤدي إلى الموت. يحمل هذا التشريع اسم بلالاما، حاكم المدينة.

2 ـ يبدو أن محاولة أشنونا التشريعية قد شجعت مدنا أخرى على أن تسلك مسلكها في جمع تقاليدها وأعرافها، فأتت إسن، كبرى عواصم الأموريين، بتشريع كتب في عهد ليبيت اشتار، خامس ملوكها (منتصف القرن التاسع عشر)، ونقشت بنوده على نصب حجري لكنه فقد قديما ولم يعثر إلا على نسخ سجلت على رقم طينية اكتشف منها سبع لوحات تضمنت ثمان وثلاثين مادة، يعتقد أنها تشكل نصف مواد التشريع.

في حين أن شرائع حمورابي تعترف بوجود طبقة ثالثة، وسطى ما بين الرجل الحر والرقيق، المشكينوم Mushkenum. أما شرائع ليبت اشتار فهي أكثر اتفاقاً وتشابهاً مع تشريعات حمورابي من حيث محتواها والتأليف العام، وهو ما يبعث على الاعتقاد بأن حمورابي قد تأثر به أو أن الاثنين رجعا إلى مصدر واحد ومشترك. لكن موادَّ جديدة أضيفت، وعدل بعضها، أو تغير كلياً في شرائع حمورابي: فأولاد الأمة من أب حر تحرم عليهم وراثته في إسن، في حين أن تشريعات حمورابي تخولهم وراثة الأب إذا اعترف بهم.

اصطبغت شرائع حمورابي بالشدة والقسوة في معاقبة أصحاب الجرائم، واتبعت مبدأ المماثلة (العين بالعين والسن بالسن) Principe du talion الأكثر قساوة مما كان عليه في تشريعات سابقة. واعتماد الشدة والقساوة في تطبيق القوانين إنما ينم عن محاولة الدولة تدعيم السلطة المركزية وضبط الأمن والنظام في بلاد اتسعت حدودها. لكنه في معظم الحالات التي يلجأ فيها القانون البابلي إلى عقوبة الموت يكون صاحب الجرم من فئة العبيد أو المشكينوم وقد ارتكب خطأ بحق أحد أفراد الطبقة الأولى.

إن تشريعات حمورابي، وهي أكبر سجل قانوني قديم عثر عليه حتى الآن، تتألف من 282 مادة تناولت كافة المسائل الاجتماعية، كالقضاء والأمن وحقوق المحاربين وعقود الزراعة وشروط القروض، والتعويضات، وأجور العمال وأصحاب المهن ومسؤولياتهم. كما عالجت مسائل الأحوال الشخصية بما تتضمنه من تقاليد الزواج والطلاق. وقد أُعطي حق الطلاق لكل من الرجل والمرأة، في حين أنه لم يمنح إلا للرجل في التوراة. كما منحت المرأة حق الزواج من رجل آخر فيما لو هجرها الأول، لكنه حتم على زوجة الأسير أن تلزم دارها ما دام فيه ما يعيلها وأولادها وألا تلجأ إلى رجل آخر فيلقى بها في النهر. أما إذا لم يكن لديها ما تحتاج إليه فلا بأس بما فعلت. وأكدت تشريعات حمورابي حق الزوجة في استرداد بائنتها في حال طلاقها، ما لم تكن ناشزا. وتضاف إلى بائنة المطلقة ذات الأولاد نصف أملاك الرجل، تستعين به في تربية أولادها حتى يبلغوا أشدهم، ثم تجتزىء منه نصيباً لها حتى في حال زواجها من رجل آخر.

عنيت تشريعات حمورابي بأمور كثيرة، لعل خير ما أتت به هو تحديد أجور الأطباء، وضرورة مراعاة الحالة الطبقية والاقتصادية في معاملة المريض، بحيث أن الرجل الفقير لا يدفع ما يدفعه الرجل الغني، كما يتحمل السيد أجرة علاج عبده، وهي نصف المبلغ المتوجب على الرجل الحر. ولعل الهدف من ذلك تخفيف العبء لا عن العبد بل عن سيده.

ومن الشرائع الخاصة بالمجتمع وضرورة المحافظة على الأمن، المواد التي تقضي بقتل السارق إذا ثبتت عليه التهمة، وقتل شاهد الزور الذي يتهم مواطناً آخر بجريمة تستوجب الاعدام دون أن يثبت ذلك (يقتل عوضا عنه). ويُقال القاضي من منصبه إذا أصدر حكماً في قضية ووقع عليه، ثم زور فيه لغرض ما، وثبت ذلك عليه، كما أنه يحرم عليه في هذه الحالة مناصب القضاء، ويغرم بمبلغ يساوي اثني عشر ضعفاً من قيمة الشيء الذي زور فيه.

ونظمت العمليات التجارية الخاصة بالبيع والشراء والتأجير، وجعلت تدوين العقود، وشهادة الشهود أساساً في معاملات القروض والمشاركة والأمانات.

لكن شرائع حمورابي اعترفت بالتفاوت الطبقي في المجتمع، كما اتبعت مبدأ المثل بالمثل على أفراد الطبقة الواحدة ولمصلحة الطبقة العليا، في حين أنها قضت بالتعويض المادي كجزاء اعتداء أحد أفراد الطبقة العليا على فرد من طبقة أخرى اقل منزلة منه. فعقوبة فقء عين الرجل من العامة أو كسر عظمه هي نصف «منّ» من الفضة. وجزاؤها بالنسبة للعبد هي نصف ثمنه. وإذا صفع رجل رجلاً من العامة أرقى منه منزلة جلد ستين جلدة علنا، وإذا كان من طبقته دفع «منا» من الفضة. غرامة اجهاض امرأة عشرة «شواقل»، فإذا ماتت قتلت ابنة من تسبب بموتها. أما غرامة اجهاض امرأة من العامة، فهي خمسة «شواقل»، وإذا ماتت ففديتها نصف «من» من الفضة. ويعاقب كل من الزاني والزانية بالقتل. أما المعماري الذي تبين أن اهماله كان السبب في انهيار البيت الذي بناه، وتوفى من جراء ذلك ابن صاحب البيت، فيحكم على ابن المعماري بالموت. ولكن تضمنت شرائع حمورابي أحكاماً ذات صفات اجتماعية متطورة.

فإذا سُرق مواطن ولم يتيسر القبض على سارقه واسترجاع ما سُرق منه، عوضته مدينته وحاكم الاقليم عما سرق منه، بعد أن يعلن ويثبت صحة دعواه أمام تمثال معبوده ورجال الإدارة في مدينته. وإذا قُتل مواطن ولم يتيسر معرفة قاتله والاقتصاص منه تعاونت المدينة وحاكم الاقليم على دفع تعويض مالي إلى أهله، مقداره «منا» من الفضة.

## 2 ـ المجتمع البابلي:

يقسم المجتمع البابلي في عهد حمورابي إلى ثلاث طبقات: أشراف وفقراء وعبيد، يخضعون، إنما بنسب متفاوتة، لقوانين وشروط أو واجبات معينة تتناسب ومنزلة كل منهم.

إن كلمة «أويلوم» Awilum أو «اميلو» كانت في الأصل تعني «رجل»، ثم اقتصر

استعمالها على افراد الطبقة الأولى في المجتمع، ويراد بها الاشراف أو الأحرار الذين يتمتعون بكامل حقوقهم المدنية.

لما كان الحكم ثيوقراطيا Theocratique في الأصل، واحتفظ به على هذا الشكل طيلة العهد البابلي، كان الملك، ممثل الاله على الأرض، يجسد السلطة الرئيسية في البلاد ويشاركه في إدارة شؤون الدولة الكهنة ورجال الدين القيّمون على المعابد وممارسة الطقوس الدينية. فلم يكن هناك تمييز فعلي بين السلطة المدنية والسلطة الدينية، بل إن عدداً من كبار الموظفين كانوا ينتخبون من بين صفوف الكهنة المنتمين إلى الفئة الحاكمة الأولى في طبقة الأويلوم. ويلي الكهنة الكتاب الذين كانوا في بادىء الأمر ينتمون أيضاً إلى صفوف رجال الدين، ولكن عندما ازدادت الحاجة إليهم أقبل عدد من الناس على المدارس التي كان يديرها رجال الدين في المعابد، وتخرجوا منها، وأصبح بإمكانهم تسلم الوظائف العالية. هذه المهنة كانت على شيء كبير من التقدير حتى أن عدداً من أفراد الأسرة الحاكمة كان يحمل بكل افتخار واعتزاز لقب «كاتب». وهنا، بدت فئة الكتاب[1]، الذين يشغلون أعلى الوظائف المدنية في الدولة، مشابهة، في وضعها ودورها الاجتماعيين، لطبقة رجال الاكليروس في القرون الوسطى في أوروبا.

ثمة فئة أخرى تنتمي إلى طبقة الاويلوم، تتألف من الاشراف Patricien المحافظين

---

1 ـ حتى وان لم يتسلم منصبا في الدولة، فالكاتب يكفيه افتخاراً أنه يمتاز عن غيره من عامة الشعب بثقافته وعلمه، وهو لم يخف احتقاره للحرفيين والعمال. وتشرح هذا التباين الاجتماعي تعاليم الفرعون خيتي لابنه مريكارع المشار إليها في الفصل السابق. وقد جاء فيها:

«لم أر مطلقاً حدادا تسلم مهام سفير، إنما رأيت الحداد في عمله عند فوهة جحيمه، أصابعه كأصابع التمساح، يشتم منه رائحة أكره من رائحة بيض السمك. البنّاء يقوم بعمله على الحجارة الأكثر صلابة، وعندما ينتهي من أتعابه تكون قد تلفت ذراعاه، وينام منطوياً على نفسه حتى شروق الشمس، فهو مكسور الظهر والركبتين.. الحلاق يعمل من الصبح إلى المساء لا يجلس أبداً، إلا لتناول الطعام. يسعى راكضاً من منزل إلى منزل يفتش عن الزبائن، ينهك ذراعيه ليملأ معدته، كالنحلة التي تأكل عسلها... المزارع يرتدي دوما الأسمال نفسها وصوته أخشن من صوت الغراب. اصابعه لا تتوقف عن العمل، ذراعاه، يبستا من الهواء، عندما يستريح، إذ وجد فعلاً وقتا للراحة، ففي الوحول يفترش التبن. إذا كان في صحة جيدة، فهي صحة البهائم الجيدة، وإذا كان مريضاً، فالأرض العادية سريره، بين المواشي... تعلم إذا باجتهاد، فلا شيء في الحقيقة يساوي العلم، إن الاستفادة من يوم واحد في الصف هي ربح للمستقبل». وجاء في نص آخر: «أن الكاتب الماهر في عمله جدير بأن يكون في حاشية الملك».

على منزلتهم الاجتماعية بالوراثة؛ وهم المتميزون بشعرهم الطويل خلف الرقبة، وبلقبهم أميلو Amelu، المسجل على الرسائل الموجهة إليهم. ومنهم يُنتخب أعضاء مجالس القدماء في المدن، ويشغلون المراكز الأولى في القضاء (قضاة ومساعدو قضاة). فهم، بطبيعة الحال، من أقرب المقربين إلى الملك، بحكم وظيفتهم، أو لمجرد أنهم ينتمون إلى الاشراف، أي الفئة الحاكمة. ولهم تأثير كبير في تسيير أمور الدولة، ودور مهم في الاشراف على الجيش حيث ينالون أعلى الرتب.

أما الفئة الثالثة في هذه الطبقة الأولى من المجتمع البابلي فتتمثل بجماعة الشعب الحر على اختلاف مستوياتهم المعيشية ومهنهم، وهم يشكلون في واقع الأمر أغلبية السكان الذين يتمتعون بكامل حقوقهم المدنية شرط أن يخضعوا للقوانين ويدافعوا عن البلاد وينخرطوا في الجندية عند الضرورة. فلم يكن هناك جيش نظامي دائم إلا في حالة الحرب، بينما لا يحتفظ في أيام السلم إلا باطار عسكري أو نواة عسكرية معظم أفرادها من المختصين الذين يهتمون بالتجنيد وتنظيم الجيش استعداداً للعمليات الحربية أو للدفاع عن البلاد. فكان لهؤلاء، ولا سيما فئة الضباط منهم، أنظمة خاصة؛ فتمنحهم الدولة، مقابل القيام بواجباتهم ساعة يرغب الملك، اقطاعات يشرفون عليها في أوقات السلم ويستثمرونها. غير أنه لا يحق لهم التصرف بها، فهي لا تباع ولا ترهن. وأصحاب الاقطاعات كانوا معفيين من الضرائب، ويُستحال استرجاع هذه الاقطاعات عن طريق المحاكم أو عن طريق حاكم المقاطعة، فلا تنزع منهم إلا بأمر ملكي. وإذا أسر أحدهم ولم يستطع دفع الفدية اللازمة كي يسترجع حريته ويعود إلى وطنه، فعلى معبد المدينة، التي ينتمي إليها، تدبير الأمر، وإن لم يتيسر ذلك تولت الدولة أمر تسديد الفدية عنه. يتبين من هذه الملاحظة الأخيرة أن هؤلاء، أو البعض منهم، لم يكونوا من أصحاب الثروات الطائلة، وان اقطاعاتهم كانت صغيرة ومحدودة.

أما الطبقة الثانية فتعرف باسم «مشكينوم» Mushkenum، يراد بها الفقراء (المساكين) من عامة الشعب أو الرجال نصف الأحرار الذين لا يتمتعون بجميع الحقوق المدنية. فالمشكينوم يشكلون طبقة خاصة تتوسط طبقتي الأويلوم والعبيد وتختلف عنهما في تحمل المسؤوليات المدنية. فنسبة التعويض في الاصابة تختلف بين أفراد الطبقتين الأولى والثانية، فالرجل الحر يدفع ثلاثة أضعاف ما يدفعه المشكينوم الذي يقتل إذا عجز عن الدفع.

يستطيع المشكينوم اقتناء العبيد إذا تيسرت أحواله، إنما لا يحق له الوصول إلى المراكز الحكومية، ويعتقد أنه يحرم عليه التملك إلا في أماكن خاصة تحدد له. ونادراً ما يسمح له

بدخول الجندية، وهو إن خدم في الجيش، فلا يحمل السلاح، بل يقتصر عمله على تقديم بعض الخدمات للجنود والقيام بأعمال إدارية تابعة للجيش. ويظهر أن المشكينوم ينتمون إلى سكان البلاد الأصليين (من ساميين وسومريين) بعد أن خضعوا للغزاة، فلم يُستعبدوا ولم يُقبلوا كلياً في المجتمع. وهم من صغار المزارعين، يعملون في أملاكهم الخاصة أو في أملاك الآخرين، ومن العمال المياومين وصغار الحرفيين. أن عدم الاستعانة بهم في أيام الحرب لهو دليل على قلة عددهم، وعدم الثقة بهم. لقد تلاشوا مع الزمن، عندما تحسنت أحوال البعض منهم، فامتزجوا كلياً في المجتمع، كما ساءت أحوال البعض الآخر وتحولوا إلى عبيد.

أما الطبقة الثالثة، وتسمى «وردم» (Wardum)، فهي طبقة العبيد، ويمتلكها أفراد الطبقتين الأولى والثانية: والعبد حليق الرأس، مختوم بالحديد الحامي، لا يذكر مطلقاً اسم أبيه، لأنه ينتمي إلى الطبقة السفلى، فهو مجرد سلعة تباع وتُشرى وترهن، كما يلقى أشد العقوبات، فيجدع أنفه أو تصلم اذنه إن لم يطع سيده أو إذا اعتدى على نبيل.

لكن للعبد حقوقاً مدنية وتتكفل الدولة بحمايته، فلا يحق لسيده، مبدئياً، التصرف بحياته كما يشاء، وإن لملكية الرقيق، وإن كانت مطلقة، حدوداً وشروطاً معينة. فالتشريع السومري والبابلي يعترفان بالرق ويعملان على حمايته وتشجيعه كمؤسسة وجودها ضروري. لكن القانون لا يعتبر الانسان عبداً طبيعياً، فالرقيق رجل «حر»، ويستطيع الزواج من امرأة حرة وأولاده يولدون أحراراً، كما تستطيع الأمة الزواج من رجل حر. إنما لا بد من صيانة هذه المؤسسة، فالرقيق إذا هرب يرتكب مبدئياً الجريمة الكبرى، ولكن إذا قبض عليه يسترجعه سيده، ويكتفي بربطه بالحديد تجنباً لمحاولة مماثلة، في حين أن مساعدة الرقيق على الهرب تعتبر جريمة ضد الدولة يستحق صاحبها الموت.

العبيد هم من أسرى الحرب، يمكنهم استرجاع حريتهم لقاء قدر من المال (فدية)، أو مواطنون عاديون استعبدوا نتيجة افلاس أو عدم التمكن من وفاء دين، كما يستطيع رجل حر بيع ابنه أو ابنته لقاء مبلغ من المال يفي به ديونه أو يقدم أحد أبنائه مقابل اعفائه من دين متوجب عليه. إن ابنا مبذرا يطرد من منزل أبيه ويتحول إلى عبد. وفي حالات أخرى يتحول فيها إنسان حر إلى عبد لمجرد أنه «ضرب أخاه الأكبر». وفي هذه الحالة الأخيرة، إذا مات أحدهم، من الأحرار، اثناء استرقاقه نتيجة لسوء معاملة سيده يحكم على ابن هذا الأخير بالموت. أما في حالة الأرقاء الحقيقيين، عندما ينقلون من سيد لآخر كوسيلة لوفاء دين، فإن موت أحدهم نتيجة

لسوء معاملة السيد الثاني، لا يتطلب من هذا الأخير إلاّ أن يدفع مبلغاً من المال للسيد الأول.

أمّا الذي استعبد لافلاسه فيمكنه استرجاع حريته إذا تمكن من دفع الفدية، كما أن الحكم على الرجل الحر بالرق لم يكن بوجه عام إلا لمدة معينة من الزمن. «في ثلاث سنوات سيعملون في بيت الرجل الذي اشتراهم... وفي السنة الرابعة يعتقون». من الواضح أن القانون البابلي يحاول التوفيق بين مفهومه للعبد كوسيلة أو سلعة واعترافه به كإنسان تشمله نظم الدولة وتقوم بحمايته.

وجاء في موعظة حثية شرح لعلاقة العبد بسيده عن طريق علاقة الإنسان بخالقه:

«إذا أغضب عبد يوما سيده، فإما أن يقتل، وإما أن يجدع أنفه أو تصلم أذنه أو تفقأ عينه، ويتحمل المسؤولية لا الجاني وحده بل زوجته أيضاً وأولاده، وأخوه وأخته وأقاربه وعائلته عامة، سواء كان الجاني رقيقاً أم أمة.. إذا أغضب أحد الله، أيعاقب الله الجاني وحده؟ أفلا يقاصص امرأته وأولاده وذريته وعائلته وعبيده الذكور منهم والاناث، وماشيته وأغنامه وغلاله، بعد أن يكون قد عاقب المجرم نفسه؟» أي أن للسيد على العبد ما للخالق على مخلوقاته، فله حق التصرف به، يمنحه الحياة، ويحكم عليه بالموت إذا شاء.

يضيف: «لكن، إذا اعترف العبد بخطيئته أمام سيده يرق قلب سيده، ويمتنع السيد عن معاقبة العبد»، ربما لأسباب مادية ولحاجته إلى العبد.

لكنه يحق للعبد، في التشريع الحثي، التملك والزواج من امرأة حرة شرط أن يقدم لها مهرا يتناسب ومقامها... وإذا اعتُدي عليه يحق له أن يرفع دعوى ويطالب بالتعويض (نصف ما يناله رجل حر). هذه الغرامة تدفع له لا لسيده، بحسب رأي «وولى»، لسيده لا للعبد في رأي «دياكونوف». في أواخر العهد البابلي أصبح باستطاعة العبد تعاطي التجارة والتملك.

## 3 ـ الإدارة في العهد البابلي

أصبح الملك في الدولة البابلية الحاكم المطلق بأمر من «مردوك»، اله مدينة بابل، الذي ارتفع إلى المرتبة الأولى بين مجموعة الالهة، وحل بذلك محل الاله انليل معبود مدينة نيبور Nippur، واعتبر ابنا له. وكان لحمورابي سلطة مباشرة على الكهنة الذين اتسع نفوذهم، في العهود السومرية، لدرجة أنهم باتوا يشكلون خطراً على النظام المَلكي، إلا أن هذا الخطر قد زال في عهد الأسرة البابلية بفضل اشراف حمورابي المباشر وقوانينه الصريحة الحاسمة، وبعد أن وضعت أملاك المعابد تحت رعاية الدولة المباشر.

عزل حمورابي أمراء الدويلات من المدن وأحل محلهم حكاماً يأتمرون بأوامره، وجعل من اللغة البابلية اللغة الرسمية، لغة الدولة، أما السومرية فاقتصر استعمالها على بعض النصوص الدينية وطقوس العبادة.

لقد حاول حمورابي تدعيم الإدارة المركزية، وربط الإدارات الأخرى بها مع احتفاظها بشيء من سلطتها المحلية. فالأمور القضائية والاقتصادية لم تكن مبدئياً من صلاحيات حكام المناطق، الذين يتوجب عليهم الاهتمام بالمسائل الإدارية ورفع التقارير الموسمية عنها إلى السلطة المركزية، في حين كانت هذه الأخيرة تشرف على القضاء وتعمل على تأمين سير اقتصاد البلاد وتجارته، فكان لا بد من تضارب الصلاحيات التقليدية بين السلطات المدنية من جهة والعسكرية من جهة أخرى، كما لم تتوصل الحكومات البابلية إلى تنظيم هيئة إدارية صحيحة تعتمد في تكوينها على موظفين اختصاصيين.

لقد اتبعت الأنظمة نفسها تقريباً في العهد السومري، وطوال عصر الدولة البابلية، حيث كان يعالج الضعف أو النقص بتدعيم السلطة المركزية وزيادة عدد الموظفين بعد أن اقتصرت مهامهم على أن يكونوا خداما مطيعين للملك، من دون أية محاولة لتغيير الأوضاع أو اتباع نظم جديدة. اتبع هذا المبدأ أساساً في نظام الدولة وأنماط الانتاج. فهناك أربعة أنواع من المنتجين التابعين للقصر: مزارعون، وفلاحون، بعضهم من الشعوب المغلوبة، يقدم لهم القصر الحيوانات والمال اللازم للانتاج ويقومون هم في المقابل بالعمل اللازم، ويسددون ما عليهم للدولة، في أوقات معينة، نقداً أو غلالا؛ أمّا المسخرون فيقومون بشق القنوات ولا ينالون لقاء أتعابهم إلا الشيء اليسير وما يترك لهم أحياناً من محاصيل. وهنالك عدد آخر من المنتجين، هم مدنيون وعسكريون يتلقون اقطاعات لقاء القيام بخدمات خاصة. هذه الاقطاعات المتفاوتة في المساحة لا يحق للأفراد القيمين عليها التصرف بها (كالبيع أو النقل)، بل يمكن تأجيرها، في غيابهم، إلى فلاحين آخرين.

فالملك يشرف، في مختلف المجالات، إشرافا دقيقا على ملكه، ولا عجب أن تتدخل الإدارة الملكية في المسائل البسيطة كشكوى الطحان، أو جز صوف الغنم. واحتفظت الإدارة بالطابع التقليدي القديم الذي كان بامكانه ضبط الأوضاع لو لم تأتِ من الخارج عوامل غيرت مجرى الأحداث.

# الأسرة الكاشية في بابل

## والصراع بين الدول المعاصرة

ما زال تاريخ بابل في عهد الأسرة الكاشية (1650 ـ 1170 ق.م) غامضاً، بسبب قلة المصادر الأثرية والتاريخية، لكننا تعرفنا إلى بعض أحداث الشرق الأدنى، في القرنين الرابع عشر والثالث عشر، بفضل الرسائل التي كتبت باللغة البابلية وعثر عليها في تل العمارنة في مصر، الرسائل الدبلوماسية المتبادلة بين فراعنة مصر وحكام أو ملوك الدويلات الشرقية، هذا فضلاً عما كتب في اللغة الحثية من وثائق عثر عليها في بوغاز كوى، وما كتب أيضاً في لغات أخرى.

عرف العصر الكاشي باسم أسرة بابل الثالثة بعد أن تمكنت عناصر قليلة من الكاشيين من الاستيلاء على مدينة بابل، واقامة أسرة جديدة حكمت حوالي خمسماية سنة (1650 ـ 1170 ق.م). كان أفرادها يشكلون طبقة أرستقراطية متسلطة، لكن بابل استطاعت، في ظل هؤلاء الحكام الأجانب، أن تحافظ على تقاليدها وأعرافها، وتحافظ على نشاطاتها في المجالات الفكرية والاقتصادية.

تميز هذا العهد بالصراع السياسي على الصعيدين الداخلي والخارجي، إذ كان على بابل الكاشية أن تواجه باستمرار أطماع أسرة القطر البحري في الجنوب والعيلاميين في الجنوب الشرقي وكذلك دولة ميتاني حديثة العهد، في المنطقة الشمالية. وكان عليها أيضاً أن تواجه خطر الدولة الأشورية الناشئة، في الشمال الشرقي، بالاضافة إلى خطر الدولة الحثية بعد أن استطاعت أن تبسط نفوذها على قسم كبير من أعالي سوريا، ووقفت في وجه القوى الفرعونية تمكنت من القضاء على دولة ميتاني. ويضاف إلى هذه الأحداث، المحاولات الفرعونية في تدعيم وجود مصر في عدد من المدن السورية ـ الكنعانية.

الكاشيون هم من الشعوب الاسيانية، أتوا، على ما يبدو، من مرتفعات جبال زغروس،

ودخلوا بلاد ما بين النهرين واستقروا فيها منذ عصر الأسرة البابلية الأولى. وقد نشب الصراع بين هذه الفئات والدولة البابلية واستمر مدة طويلة من الزمن قبل أن يتمكن الكاشيون من الاستيلاء على بابل في اواسط القرن السادس عشر وتأسيس دولة جديدة عرفت اصطلاحاً باسم «أسرة بابل الثالثة»، وبلغ عدد ملوكها 36 ملكاً، اشتهر منهم كنداش Gandash، مؤسس هذه الأسرة، وكشتيلياش الأول، وأكوم الثاني الذي استولى على بابل حوالي سنة 1530.. وكاريندداش Karaindash.

إلا أن مجيء الكاشيين إلى بابل لم يغيّر شيئاً من مظاهر حضارة بلاد ما بين النهرين طوال خمسة قرون، فهم اكتفوا بممارسة السلطة، بصفتهم طبقة أرستقراطية حاكمة، وأبدوا اهتماماً كلياً بالعمران. فرمموا ما كان قد تهدم من أبنية قديمة واضافوا إليها معابد جديدة، ومنها زقورة عقرقوف (قديما دور كوريجالزو Dur – Kurigalzu، عاصمة الكاشيين، شمالي غربي بغداد)، إحدى أهم زقورات بلاد ما بين النهرين، والمعبد الذي بناه الملك كاريندداش Karaindash للربة اينانا في اوروك.

ولئن احتفظوا بأسمائهم وباسماء الهتهم الأصلية، اهتم الكاشيون بجميع المظاهر الحضارية الرافدية، فاعتبروا اللغة البابلية لغة الكتابة الراقية إلى جانب لغتهم، كما تبنوا الديانة البابلية، وحاولوا التوفيق بينها وبين معتقداتهم وآلهتهم الخاصة. إن هذه المحاولات في التقرب من سكان البلاد واتباع تقاليدهم تظهر في عمل اكوم الثاني، أحد ملوكهم، حين استرجع تمثال الاله مردوك من الحثيين واعاده إلى اساجيل (Esagil) بابل في احتفال مهيب.

لقد حاولوا أيضاً التقرب من رجال الدين عن طريق منح الهبات للمعابد واعفائها من الضرائب، كما منحوا أيضاً الاقطاعات للمقربين إليهم، عسكريين ومدنيين. وقد أصبحت هذه الاقطاعات أشبه بأملاك خاصة بعد أن أباحوا ملكيتها من قبل أفراد الطبقة الحاكمة ولا سيما الكاشيين. اتسم هذا العهد بروح احتكار الوظائف والحرف، بحيث أتيح لبعض الأسر توارث مهن أصبحت من اختصاصهم، فكان من بينها جماعة الكتبة الذين ارتبطت أعمالهم مبدئياً بإدارة المعابد، وكان لهم الفضل في حفظ التراث البابلي، إذ قاموا بتدوين ونسخ النصوص الأدبية والدينية أو إعادة كتابتها من جديد.

أما على صعيد العلاقات الخارجية، فلم يكن لبابل الكاشية أطماع سياسية، مكتفية بحرصها الشديد على ازدهار تجارتها وتوسيع نطاقها في الخارج. فقوافلها كانت تجوب أنحاء

عديدة من بلاد الشام ومصر. واتخذت العلاقات البابلية المصرية طابع الصداقة الشخصية ظهرت في مصاهرة بعض أفراد البيتين الحاكمين (كزواج امنحوتب الثالث من ابنة الملك البابلي كاريندّاش). وعندما ساءت الأحوال في سوريا والبلاد الكنعانية بسبب النزاع السياسي بين أطراف مختلفة، تأثرت التجارة، وتعرضت القوافل البابلية للسلب وقتل أفرادها، فكتب الملك الكاشي إلى أخناتون يطلب منه التدخل لضبط الأمن، ويحمّله مسؤولية ما يحدث في ارض كنعان قائلاً: «كنعان أرضك... وأمراؤها مواليك».

استمر حكم الكاشيين في بابل فترة طويلة من الزمن، تعرض خلالها الشرق الأدنى لأحداث تاريخية مهمة كظهور الحثيين في الأناضول ثم في شمال سوريا، وتأسيس دولة ميتاني في المناطق الغربية والشمالية من نهر الفرات، وتحكم الآشوريين في المناطق الشرقية والشمالية الشرقية من نهر دجلة. إن وجود هذه القوى، إضافةً إلى النفوذ المصري في سوريا وعلى الشاطىء الكنعاني، قد أحدث نوعاً من التوازن السياسي وعرفت البلاد بفضله شيئاً من الهدوء والاستقرار لفترة من الزمن عاد بعدها النزاع من جديد بين مختلف هذه الفئات. ولقد ألقيت الأضواء على أحداث هذه المرحلة (القرن الرابع عشر والثالث عشر)، بفضل الرسائل المتبادلة بين عدد من حكام وملوك هذه البلاد ورسائل تل العمارنة).

كان الحوريون Hurrites، وهم من الشعوب الهندو آرية، قد ظهروا في مناطق شرقية عديدة مع بداية الألف الثاني ق.م. فأتوا إليها إماعن طريق التسلل البطيء، وإما عن طريق الهجرات المتتالية والعنيفة. ولقد عَرّفت النصوص المصرية بكلمات مثل «نهري» و «نهرن» و «نهرينا» (Nahrina) المناطق التي انتشروا فيها، وهي المناطق نفسها التي ذكرتها النصوص البابلية باسم «ماتونهريما» Matu – Nahrima. يعتقد أن الكلمتين، المصرية والبابلية، ذات معنى واحد ربما يشار به إلى «أرض النهر» الواقعة ما بين الفرات والخابور، أحد روافده. لكن للكلمة مدلولا أعم وأكثر شمولاً، كما أن تأثير هذه العناصر الجديدة قد شمل مناطق واسعة في شمالي سوريا والعراق وربما شواطىء البحر المتوسط. ومن بين الحوريين، فئة سكنت بلاد ميتاني Mitanni، حيث تأسست دولة جديدة، في الشمال والشمال الغربي من العراق، اتبعت أساليب الحكم الاقطاعي، وكانت عاصمتها واشوكاني التي لم يعثر عليها بعد، ولكن يعتقد أنها تقع على الخابور شرقي تل حلف.

احتفظ سكان ميتاني بأسمائهم وأسماء الهتهم مثل «اندرا»، و«فارونا» و «ميترا»

Mithra و «تشوب» Techub وغيرها، كما أضافوا إليها بعض آلهة الساميين، ولا سيما «عشتار».

تمكنت الدولة الميتانية من بسط نفوذها في الشرق والوقوف، منذ أواخر عهد الملكة حتشبسوت، في وجه السيطرة المصرية، عن طريق تحريض المدن السورية الفينيقية ودفعها إلى الثورة أو الاصطدام المباشر مع القوات المصرية. فكان لا بد من استمرار العداء بين الطرفين حتى نهاية عهد امنحوتب الثاني عندما بدأت مرحلة جديدة، مرحلة العلاقات الدولية، وتقرّب الميتانيين من المصريين، ربما تخوفاً من خطر الآشوريين في الشرق والحثيين في الشمال الغربي.

ومن شواهد هذا التقارب مصاهرة الأسرتين الحاكمتين وتبادل الرسائل الشخصية في عهد الملوك تحوتمس الرابع وابنه امنحوتب الثالث وحفيده أخناتون. لكن هذا الاستقرار الذي عرفه الشرق القديم في أواخر القرن الخامس عشر وبداية القرن الرابع عشر ق.م، لم يدم طويلاً، إذ ظهرت قوى جديدة تمثلت بالحثيين، سكان حاتي Hatti، في الأناضول، ثم في شمالي سوريا. هذا بالاضافة إلى تعدد الثورات السورية التي كانت تتلقى العون من الحثيين وكان من شأنها أن تضعف سلطان مصر في هذه الأقاليم الأسيوية، ولا سيما في عهد امنحوتب الرابع، اخناتون.

وهنا ما يشير إلى أن سوبيلوليوما Suppiluliuma قد أغار على شمالي سوريا واستولى على قَطْنا ووادي العاصي، كما اجتاح في الوقت نفسه القسم الشمالي من ميتاني. وكان الآشوريون قد استولوا بدورهم (في عهد ملكهم أشور أوبَلّط) على قسم من بلاد ميتاني، في حين كان القسم الآخر من نصيب الحثيين. وكان لا بد لمصر من أن تتدخل للدفاع عن حلفائها الميتانيين مما أدى إلى نشوب الحرب بينها وبين الحثيين، في عهد مرسيل الثاني وابنه موتاللي. لكن ستي الأول تصدى للحثيين في شمالي سوريا واستطاع أن يعيد لمصر السيطرة على المدن الفينيقية والسورية، كما حاول رعمسيس الثاني، من بعده، استرجاع سوريا الشمالية، إلا أن هذه المحاولة لم تنجح كليا، إذ انتهى الأمر بمعاهدة صلح سنة 1278، جاءت بعد سنين طويلة من موقعة قادش، التي سنأتي على ذكرها في الفصل التالي.

أما بابل فكانت في هذه المرحلة خارج النزاع السياسي بين مصر والحثيين ولم يكن لها أطماع سياسية. فكانت علاقاتها ودية مع خاتي، رغبة منها في تأمين طرق القوافل التجارية في الاقليم السوري. فالرسائل المتبادلة بين ملوك الدولتين تشير (لا سيما رسالة حاتوسيل الثالث)

إلى تدخل حاتي في شؤون بابل السياسية الداخلية، كما يتضح منها أن الكاشيين كانوا يوجهون كتبهم في هذه المرحلة إلى الملك الحثي بعد أن فقدت مصر سيادتها على المنطقة السورية الشمالية وحلت محلها السيادة الحثية.

ويتبين من وثائق بوغاز كوي (حاتوساس Hattusas عاصمة الحثيين)، أن للطرفين مصلحة في التحالف، ربما بدافع الخوف من اشور، العدو المشترك. وفي استمرار العلاقات الودية (بين الحثيين والكاشيين) التي بقيت قائمة حتى سقوط الدولة الحثية على أيدي شعوب البحر في بداية القرن الثاني عشر ق.م.

أما العلاقة مع اشور خلال هذه المرحلة فلم تكن دوماً على ما يرام، بل إننا نجهل الكثير عن تطور هذه العلاقات بين البلدين في المراحل الأولى. ويبدو أنه كان هناك عداء كبير لم تنجح في تلافيه محاولات التقرب وتوطيد العلاقات، لا سيما في عهد برنابرياش (1360 ـ 1340) الذي تزوج من ابنة ملك أشور (أشور أوبَلّط). فكان مقتل ابنه بعد توليه العرش (ربما بسبب ميوله السياسية الآشورية) قد ادى إلى مواصلة النزاع بين الطرفين، وبخاصة في عهد الملك الآشوري توكولتي ـ نينورتا الأول، 1945 ـ 1207، Tukulti – Ninurta، الذي هاجم بابل نفسها واستولى عليها ودمرها ثم عزل ملكها وجعل من بابل ولاية تابعة، بقيت على هذه الحالة حتى وفاته.

لكن نهاية الأسرة الكاشية لم تكن على أيدي الآشوريين، فالبلاد تعرضت (عند منتصف القرن الثاني عشر) لغزو العناصر العيلامية الذين هاجموا بابل ودمروها شر تدمير وقضوا نهائياً على الحكم الكاشي، كما أسسوا فيها أسرة جديدة عرفت باسم «أسرة بابل السابعة»، لكنها لم تدم طويلاً. وكان على راس هذه الحملة شوترك ناخونته Shutruk – Nahkunte الذي افتخر بأنه استولى على أكثر من 800 قرية وبأنه عاد إلى بلاده محملاً بالأسلاب والغنائم، منها تمثال ومسلة مانشتوزو Manishutusu، ونصب نرام ـ سين، وكذلك نصب شرائع حمورابي.

أما الأسر التي أعقبت سقوط الحكم الكاشي فكانت ضعيفة، ما سمح لأشور بأن تفرض سلطانها على بابل ابتداء من القرن التاسع وأن تضمها إليها عسكرياً، ثم تدمرها كلياً في القرن السابع قبل الميلاد. ولم تسترجع بابل استقلالها وسلطانها من جديد إلا بعد سقوط نينوى في سنة 612 ق.م.

# الدولة الحثية في الأناضول وشمال سوريا

يقسم تاريخ الدولة الحثية إلى مرحلتين رئيسيتين:

**المرحلة الأولى:** وتعرف بعصر الدولة القديمة (النصف الأول من الألف الثاني ق.م).

**المرحلة الثانية:** أو عصر الدولة الحديثة (من أواخر القرن الخامس عشر إلى بداية القرن الثاني عشر).

إن كل محاولة لمعرفة المراحل الأولى من تاريخ الشعب الذي عرف فيما بعد بالشعب الحثي يجب أن تعتمد على دراسة النماذج الفخارية، المصادر الأثرية الرئيسية. فلم تكن هناك نصوص كتابية تشرح أو تساعد على معرفة أصول هذا الشعب. ولا نزال نجهل الكثير من معالم حضارة بلاد الأناضول في بداية العصور التاريخية. لكن هذه البقاع الغنية بالمعادن كان لها دور رئيس بعد ذلك، عندما تمكن الانسان من استخراج النحاس، ثم البرونز، فالحديد، وصنع منها أدوات حلت محل الأدوات الحجرية. ولقد ابدت شعوب هذه المناطق الشمالية اهتماماً كلياً بصناعة المعادن، كما اهتمت أيضاً، في العصور التاريخية، بالتجارة وتبادل السلع مع جيرانها، الأمر الذي سمح لها بالتعرف تدريجياً على حضارة بلاد ما بين النهرين المتطورة.

لم يكن الحثيون يشكلون شعباً متجانساً، بل مجموعة من فئات محلية مختلفة امتزجت في تنقلها بغيرها من العناصر المتكلمة لغات هندو أوروبية. يعتقد أنهم أتوا من مناطق القوقاز وشواطىء بحر قزوين ودخلوا بلاد الأناضول من جهة الجنوب حيث توصلوا في أواخر الألف الثالث إلى الاستقرار في منطقة بوغاز كوى Boghaz – Koy في حوض نهر حاليس Halys الحصن الطبيعي لدولتهم الأولى.

كشفت الحفريات في ايجدير Igdir، في وادي أراكس الأعلى (في القوقاز)، عن آثار ترجع إلى العصر الحجري الحديث وحتى أواخر الألف الرابع ق.م، تميزت بنوع من الفخار ذي لون أسود مطلي بطبقة شفافة (Vernis)، تزينة عناصر زخرفية محفورة وأحياناً ناتئة. وعثر

ايضاً على مواقد غريبة الشكل من الفخار المشوي، شبيهة بحدوة الحصان، زينت بخطوط هندسية ووجوه انسانية.

لكن هذه الصناعة لم تتطور في ما بعد، ويظهر أن مراكزها قد هجرت في نهاية الألف الرابع ق.م. وثمة آثار مشابهة عثر عليها في كل من منطقة العمق في شمالي سوريا وفلسطين ترجع إلى أواخر الألف الرابع وبداية الألف الثالث ق.م، كما عثر على نماذج فخارية مماثلة في وسط الأناضول ترجع إلى أواخر الألف الثالث ق.م.

وبفضل هذه المكتشفات الأثرية، أصبح ممكناً تتبع مراحل هجرات هذه القبائل في أنحاء مختلفة من الأناضول وسوريا. فقد تركت بلادها الأصلية لأسباب نجهلها، وذهبت تبحث عن أماكن تستقر فيها وتمارس حياتها بسلام. ولما لم يكن باستطاعتها الانتقال مباشرة نحو الأقاليم الغربية لصعوبة المسالك الجبلية اتخذت طريقها نحو الجنوب حتى وصلت إلى أعالي العراق ثم اتجهت إلى شمالي سوريا، حيث استقرت مدة من الزمن في سهل العمق بعد أن تغلبت على السكان المحليين. لكن هذه القبائل أرغمت على متابعة السير، فاتجه قسم منها إلى سوريا وفلسطين كما اتجه قسم آخر نحو الشمال حتى وصل إلى وادي حاليس Halys في وسط الأناضول.

في أثناء إقامتهم في سهل العمق، امتزج الحثيون بسكان البلاد الأصليين، كما أن فئة منهم بقيت في سوريا عندما اضطروا إلى مغادرتها، وهذا ما يشرح الطابع الحثي في كركيميش (جرابلس)، ووجود فئة موالية فيها للحثيين. لكن هذه القبائل لم تكن تحمل، عند دخولها الأناضول واستقرارها في هذه البلاد، الاسم الذي عرفت به في ما بعد: «خاتي» (Hatti). في بادىء الأمر، اهتمت بانشاء إمارات مستقلة (حوالي عشر امارات على الأقل)، لكنها متحالفة تحت زعامة احداها confédération التي حمل حاكمها لقب «الأمير الكبير». فكان نزاع بين هذه الامارات المتنافسة وانتقال للزعامة، وفق الظروف، من امارة إلى أخرى حتى استقرت، في النصف الأول من الألف الثاني ق.م، في حاتوساس Hattusas، وذلك بعد أن استولى لابرناس Labarnas على مملكة ارزاوا Arzawa، في الأقاليم الغربية، وبعد ان نقل ابنه حاتوسيل العاصمة من كوسار Koussar إلى حاتوساس (بوغاز كوى)، وهو الذي قاد الجيش الحثي للمرة الأولى خارج حدود الأناضول، وأغار على شمالي سوريا وفرض سلطانه على مملكة ايمخاد Iamhad (حلب)، ودولة الالاخ Alalakh في سهل العمق.

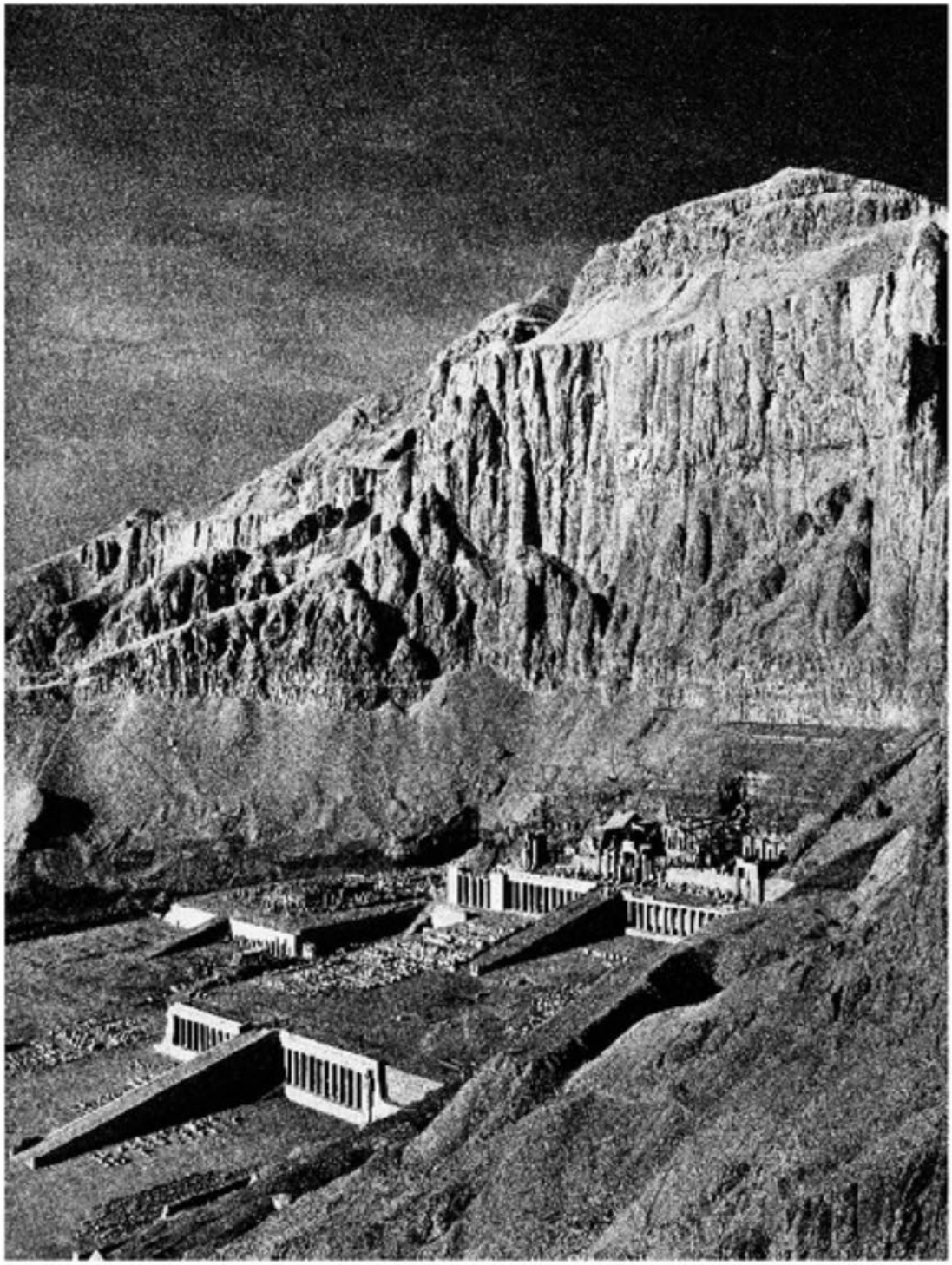

معبد حتشبسوت الجنائزي في دير البحري القرن الخامس عشر ق. م.

يبدو أنه تم في هذا العصر توحيد القبائل التي استقرت في أواسط الأناضول تحت اسم «خاتي». وفي سنة 1585 تمكن مورسيل الأول من القيام بحملة عسكرية على شمالي سوريا، ووصل حتى مدينة بابل واستولى عليها لمدة قصيرة من الزمن. وكان من نتائج هذه الأعمال الحربية ترسيخ السيادة الحثية في شمالي سوريا، السيادة التي عمل الملوك الحثيون جميعهم على ابقائها واستمرارها، الأمر الذي اضطرهم إلى الدخول في نزاع دائم مع المصريين.

لكن هذه الدولة الحثية القديمة لم تبلغ من القوة ما يمكنها من الافادة من انتصاراتها الحربية السريعة، فظهرت عليها بوادر الضعف مع نهاية هذه المرحلة، ربما بسبب النزاع الداخلي، وصراعها مع العناصر الحورية في سوريا.

ومن مظاهر ضعفها في هذه المرحلة قبولها بالمعاهدة التي أجرتها احدى الولايات الجنوبية في آسيا الصغرى ثم استقلال دولة ارزاوا في الأقاليم الغربية. وفي هذا الوقت بالذات، قام تحوتمس الثالث بحملة عسكرية ناجحة في غربي آسيا، كان من نتائجها أن خضع قسم كبير من سوريا الشمالية للسيطرة الفرعونية، وتحولت المدن السورية التي كانت موالية للحثيين إلى مصر وارتبطت بسياستها. لكن هذه الأوضاع السياسية لم تبق على ما كانت عليه في القرن الخامس عشر. فإن تطور الأحداث الداخلية، في اتجاهين مختلفين، في كل من مصر والأناضول، أدى إلى نتائج جديدة على الصعيد السياسي في الشرق.

ففي مصر، انشغلت الدولة، في عهد الملك أخناتون (1379 ـ 1362)، بأمورها الداخلية المتمثلة بحركة الاصلاح الدينية، ونقل مركز إدارة البلاد من طيبة (تخلصاً من سلطة رجال الدين فيها) إلى العاصمة الجديدة، اخيتاتن Akheta – ten. وهنا تكمن عوامل التخلي عن سياسة التوسع الخارجية والفشل في الحفاظ على نفوذها في آسيا الغربية.

أما في حاتوساس، فكانت أغراض الدولة الحثية الحديثة مختلفة تماماً عما هي عليه في مصر. فأعطيت الأهمية الأولى للاستعدادات الحربية والعمل على استعادة ما فقدته من قبل. «حُصّنت حاتوساس وأحيطت بأسوار منيعة في عهد الملك سوبيلوليوما Suppiluliuma (1375 ـ 335)، وهو الذي بدأ مرحلة جديدة من العمليات العسكرية لم تنته إلا بنهاية هذه الدولة. حارب ميتاني من جديد، فانتصر عليها، واستولى على عاصمتها، ونصّب ولديه الأول ملكاً على حلب والثاني في كركيمش، كما وضع ملكاً اسمياً على عرش ميتاني.

وقام سوبيلوليوما بأعمال مماثلة في الأناضول، فاسترجع ما كان قد اغتصب منه

على حدوده الغربية، بل استولى على ارزاوا نفسها. وفي آخر حياته، كانت المملكة الحثية من أكبر الممالك القديمة، تمتد من الفرات إلى البحر الأبيض المتوسط ومن قادش في سوريا حتى حاتوساس في شمالي الأناضول، وربما حتى البحر الأسود. أمّا مصر فقد تقلصت حدودها في سوريا، كما أن أشور لم تكن بعد لتشكل خطراً جدياً، فضلاً عن أنها كانت بعيدة وتفصلها عن الحثيين دولة ميتاني التي لم يعد لها سلطة تذكر.

أما على الشاطىء الكنعاني فقد بقيت بعض المدن خارج النفوذ الحثي في حين عمت الفوضى معظم الامارات الأمورية، وتفاقمت بعد ظهور قبائل جديدة، ولا سيما الـ «خبيرو» Khabiru، كانت تهدد أمن هذه المدن.

وعلى الرغم من الالحاح الكبير والكتب العديدة الموجهة من قبل هؤلاء الحكام إلى أخناتون، فرعون مصر، طلباً للنجدة والتدخل العاجل لرده الخطر، فإنهم لم يلقوا جواباً.. الأمر الذي أفقد مصر عدداً من هذه المدن، مثل: سيميرا Simyra وجبيل، وبيروت وصور، وصيدا، وحتى غزه. ولعل أول ما قامت به الدولة، بعد موت أخناتون «الهرطوقي»، العمل على استرجاع ما فقدته في آسيا الغربية. ففي سنة 1310 اجتاح ستي الأول فلسطين وانتصر على الأموريين الجنوبيين، كما تمكن من فتح طريق القوافل، إلا أنه هزم في قادش عندما تعرض للحثيين.

لكن هذا الصراع بين الحثيين والمصريين استمر بعد ذلك، بخاصة في عهدي مرسيل الثاني وابنه موتالي Muwatalli. ولقد قدر هذا الأخير أنه لا مفر من معركة حاسمة مع المصريين. فقام، خلال عشرين سنة من الاستقرار والهدوء النسبي، بتحصين قادش. وفي سنة 1292، وقع الاصطدام العنيف بينه وبين جيوش رعمسيس الثاني، لكنه لم يكن بالفعل حاسماً، فانتهت المعركة من دون أن ينتهي النزاع كلياً.

تصريحات رعمسيس الثاني تؤكد النصر، مع أن المعركة لم تكن في صالح أي من الطرفين. وعندما رجع رعمسيس الثاني إلى مصر خلّد ذكرى انتصاره كتابة وتصويرا على جدران المعابد، ولا سيما في الكرنك والأقصر والرمسيوم وأبو سنبل وأبيدوس. ويؤكد النص المصري بصورة خاصة على شجاعة الملك وكيفية نجاته مع حاشيته بعد أن كان الحثيون قد نصبوا له كميناً وأحيط بالأعداء من جميع الجهات.

استمرت حالات التوتر فترة طويلة بعد معركة قادش، فاضطرت رعمسيس الثاني

للقيام بحملات عسكرية أخرى لاعادة الاستقرار في كل من سوريا وفلسطين. لكن، في سنة 1278، توصل الطرفان، المصري والحثي (في عهد رعمسيس الثاني وحاتوسيل الثالث)، إلى عقد معاهدة سلام وتحالف كتبت بنودها باللغة المصرية الهيروغليفية والأكادية المسمارية.

تضمنت المعاهدة عدة بنود وشروط تحمل الصفة الدولية. فأشارت في مقدمتها إلى علاقة ود قديمة (يقصد بها الهدنة التي يحتمل حدوثها في عهد حورمحب أو في عهد ستى الأول) بين المصريين والحثيين، وأكدت رغبة الطرفين بالسلام والتحالف والصداقة. وفي هذه الوثيقة تعهد الطرفان بعدم الاعتداء واحترام حدود البلدين، وهي حدود لا ندري خطوطها الحقيقية في شمال سوريا. وجاء في القسم الأخير من المعاهدة الشهود، وهم ألف من الأرباب والربات المصريين وألف من الأرباب والربات الحثيين.

على أثر هذه المعاهدة، ساد سلام حقيقي بين الدولتين لفترة من الزمن، تبودلت خلالها الرسائل الودية بين الملكين. وتدعيماً لهذه المعاهدة السياسية تزوج رعمسيس الثاني في العام الرابع والثلاثين من حكمه من ابنة حاتوسيل الثالث. وكان من شأن هذا التحالف أن أعاد توازن القوى في الشرق وحال دون أطماع الدولة الأشورية وتوسعها لمدة من الزمن.

في المرحلة الأخيرة من الألف الثاني ق.م، كانت البلاد الشرقية مسرحاً لأحداث تاريخية جديدة. فتعرضت منطقة الدلتا، في عهد مرنبتاح Merenptah ابن رعمسيس الثاني، لحملة عسكرية قام بها الليبيون، إنما دون جدوى، ثم جدد الليبيون حملتهم على مصر في بداية عهد رعمسيس الثالث (حوالي سنة 1194)، فهزموا مرة أخرى ولم تؤد أعمالهم إلى نتائج تذكر. الجدير بالذكر أن الجيش الليبي كان يتألف في معظمه من مرتزقة شماليين، مثل: الشردان والأكواش، والصقليين، والأخيين، الذين أتوا من جزر البحر المتوسط الشرقي (جزر بحر ايجه) ومن أقاليم آسيا الصغرى الغربية.

بدورها تعرضت بلاد الأناضول لأحداث مماثلة ولاقت الدولة الحثية الكثير من المصاعب في المحافظة على الأقاليم الخاضعة لنفوذها، وكان عليها أن تواجه ملك اخيياوا Ahhyawa، وهو أحد كبار الملوك الأربعة في آسيا الصغرى، الذي شمل نفوذ مملكته، في الجهة الغربية من آسيا الصغرى، عدداً من الجزر الأيونية.

لكن أهم هذه الأحداث التاريخية كانت تحركات الشعوب التي عرفت في النصوص المصرية باسم «الشماليون في جزرهم»، وأطلق عليها اسم «شعوب البحر». ولقد بدأت هذه

التحركات في الشمال، ربما في بلاد الأناضول، وانطلقت منها لأسباب ما زالت غامضة.

لم يكن هناك جيش منظم، بل مجرد تجمع من فئات مختلفة أتى البعض منها عن طريق البحر والبعض الآخر عن طريق البر من الداخل (أتوا بنسائهم وأطفالهم في عربات ثقيلة تجرها الثيران). لذلك اقتصرت أعمالهم، في البداية على الغزو والسلب والقتل واشعال الحرائق في كل مكان يصلون إليه.

في أثناء سيرهم انضمت إليهم قبائل وعناصر جديدة. فأغاروا على حاتوساس حيث سقطت المدينة وكانت بذلك نهاية الدولة الحثية في آسيا الصغرى، وعندما وصلوا إلى سوريا، نهبوا مدنها مثل كركيميش وحلب والالاخ، واستولوا على مدن الدولة الأمورية لجهة الجنوب. ويبدو أن مراكبهم قد وصلت إلى قبرص التي لاقت مالاقته المدن السورية ـ الحثية، واستمروا في أعمالهم التخريبية حتى وصلوا إلى دلتا مصر، حيث تمكن رعمسيس الثالث من التغلب عليهم وصدهم في سنة 1190. وكان من بين شعوب البحر فئات مختلفة منها: الـ «داناين» Danaens و «بيليست» Peleset (الفلسطينيون Philistins)، و «شردان» Chardanes، و «شكليش»، و «أكويش» Ekwesh، وغيرهم من العناصر التي أتت من جزر بحر ايجه ومن سردينا وصقلية وبعض مناطق آسيا الصغرى.

إن الأسباب الرئيسة التي دفعت هذه الشعوب إلى ترك بلادها الأصلية ما زالت غامضة، أما أغراضهم من اجتياح هذه المناطق فكانت واضحة. فهم على علم بخيرات مصر وغناها، إلا أن انتصار رعمسيس الثالث قد أنقذ البلاد وحال دون تحقيق أهداف الغزاة. وإن لم تحقق هذه الشعوب هدفها الرئيسي، الاستيلاء على دلتا مصر، إلا أنه كان لهذه الأحداث نتائج تاريخية مباشرة، كسقوط الدولة الحثية، واضعاف الامبراطورية المصرية، واستقرار احدى فئات شعوب البحر على الشاطىء الذي عرف باسمهم فيما بعد «فلسطين» – Philistins Pelest، وظهور الفريجيين في غربي آسيا الصغرى وبسط نفوذهم على هذه المنطقة. وكان لانهيار الدولة الحثية وزوال النفوذ المصري في غربي آسيا أثر مهم جداً في تاريخ هذه المنطقة، إذ مهد لأحداث كبرى شهدتها منطقة الشرق الأدنى مع نهاية الألف الثاني وبداية الألف الأول ق.م.

لكن حتى بعد سقوط الدولة الحثية وزوالها عن المسرح السياسي في الشرق احتفظت مناطق شمالي سوريا وجنوبي الأناضول بمعالم الحضارة الحثية، وقد ورد اسم «حاتي» مراراً

في النصوص الآشورية، كما عثر في هذه المناطق، على آثار حثية، منها نصوص كتبت بالخط الهيروغليفي ترجع إلى أواخر الألف الثاني وبداية الألف الأول ق.م. وقد نشأت في هذا العهد ممالك سورية صغيرة تأثرت بالحضارة الحثية. مثل حماه وحلب. كما تأسست ممالك أخرى في سوريا، منها مملكة دمشق التي سيطرت فيها العناصر الأرامية وكانت في نزاع دائم مع القوى الآشورية. والجدير بالذكر أن اللغة الأرامية أصبحت، في الألف الأول ق.م، لغة العصر الدبلوماسية وحلت بذلك محل اللغة الأكدية البابلية.

# الفصل السادس

## مصر

## في الألف الثاني ق.م

# مصر في الألف الثاني ق.م

**الدولة الوسطى**
**عصر الانتقال الثاني**
**الدولة الحديثة**

## الدولة الوسطى (2050 ـ 1785 ق.م)

أدى الصراع بين الأقاليم المصرية (بخاصة بين طيبة وأهناسيا)، في عصر الانتقال الأول، إلى انتصار طيبة التي استطاعت أن توحّد «الأرضين» من جديد في أواخر الأسرة الحادية عشرة. لكننا نجهل تفاصيل هذا التحول وانتقال السلطة إلى أيدي حكام مدينة طيبة، لأن العاصمة الجديدة، لم تكن من قبل إلا مجرد مدينة ريفية صغيرة لا شأن لها تجارياً أو سياسياً.

أما أهناسيا فتقع في منطقة وسطى، بين الشمال والجنوب، سهلت عليها الاتصال بمراكز ازدهار الحضارة المصرية في عصر الدولة القديمة، كما سهلت عليها أيضاً الاتصال تجارياً مع غربي آسيا وجزر البحر الأبيض المتوسط. كانت هذه المدينة، في عصر الانتقال الأول، مركزاً ثقافياً تجسّدت نشاطاته الأدبية في التعاليم الموجهة إلى «مريكارع»، وفي قصة الفلاح الفصيح، وغيرها من النصوص الأدبية، في حين لا نعرف شيئاً عن أعمال أدبية مماثلة في طيبة ولا نعرف إلا القليل عن اله المدينة، الاله آمون الذي ارتفع شأنه بتقدم طيبة في الدولة الوسطى، وعم نفوذه بعد ذلك، في الدولة الحديثة، جميع الأرجاء.

مع ذلك انتصرت هذه المدينة في عهد أحد ملوك الأسرة الحادية عشرة، نُب ـ حبت ـ رع، أي منتوحتب الثاني (2060 ـ 2010) الذي استطاع أن يوحد البلاد، في السنة العاشرة من حكمه، وأن يجعل من طيبة عاصمة مصر الجديدة. وقد نُقش اسمه بعد ذلك في معبد الرمسيوم إلى جانب اسميّ مينا واخمس دلالة على أن هؤلاء الملوك الثلاثة هم مؤسسو الدولة القديمة، والوسطى، والحديثة.

استقرت الأوضاع طوال أيام حكمه بحيث تمكنت مصر من استعادة نشاطها التجاري والعمراني، باستثناء العمل في المناجم والمقالع الصخرية واستخراج الحجارة الكريمة والمعادن من مناجم سيناء القديمة (الفيروز واللازورد والنحاس). ومن أعمال منتوحتب المشهورة المعبد الذي بناه في «دير البحري»، عند أسفل الجبل، وهو معبد جنائزي بني على شكل مدرجات يتوسطها هرم صغير، يختلف كليا عن الأبنية المدفنية الدينية القديمة. وقد اتخذ نموذجاً لمعابد الأسرة الثامنة عشرة، ولا سيما معبد الملكة حتشبسوت، الذي بني على طرازه وبالقرب منه.

اهتم ملوك الأسرة الثانية عشرة اهتماماً كلياً بطيبة، فشيدوا فيها الأبنية والمعابد. وفيها عَظُم شأن الاله آمون، بل تفوق على جميع الالهة الأخرى وأصبح بمستوى الاله «رع»، بل دمج به وصار اسمه آمون ـ رع، ملك الالهة. وبنى له المصريون أعظم المعابد، معبد الاله آمون في الكرنك، واعتنوا به وزادوا عليه طوال العهد الامبراطوري وحتى في العصور المتأخرة؛ الأمر الذي منح كهنة آمون سلطة كبيرة منافسة لسلطة الملك.

كانت المرحلة السابقة (فترة الانتقال الأولى) قد تميزت بسقوط السلطة المركزية، وضعف النفوذ الملكي، واستقلال حكام الأقاليم، ونشأة النزعة الفردية والمطالبة بالعدل والحقوق الاجتماعية لجميع الناس... هذا التوجه العام بقي سائداً مدة من الزمن في بداية الدولة الوسطى، ثم أخذ يتحول تدريجاً عندما تمكن ملوك الأسرة الثانية عشرة من بسط نفوذهم وجمع السلطة كلها في أيديهم.

ففي بداية الدولة الوسطى، اتبع النبلاء الطريقة نفسها المتبعة من قبل في بناء قبور عظيمة الحجم، تعبّر مشاهدها التصويرية ونقوشها عن استقلال أصحابها الذين استخدموا ألقاباً وأوصافاً ملكية... ولكن بتقدم الأيام، فقد النبلاء الكثير من امتيازاتهم الخاصة، وأصبحت الكتابات عن أنفسهم أكثر تواضعاً، وقبورهم أصغر حجماً، في حين أن المقابر الملكية أصبحت افخم مظهراً وأكبر حجماً، بعد أن استعاد ملوك الأسرة الثانية عشرة صفتهم الالهية، وأصبحوا من جديد محور الحياة الاجتماعية.

وفي حين كانت بابل تسعى إلى وضع نظام عام يتعلق بحقوق أفراد المجتمع البابلي وحماية هذه الحقوق بقوة القانون، أخذت مصر تتبع أساليب أخرى مختلفة، تجلت في البحث عن العدل، إنما العدل (ماعت) الصادر عن الالهة والمتجسد في الملك؛ الحامل للصفة الالهية، بل

الاله نفسه. فازدادت سلطة الفرعون في المراحل الأخيرة من الأسرة الثانية عشرة، ولا سيما في عهد سنوسرت الثالث (1878 ـ 1840 ق.م)، بعد أن قضى على حكام الأقاليم وجردهم من امتيازاتهم الخاصة، كما خلع عنهم ألقابهم التقليدية وأعادهم من جديد مجرد موظفين عاديين.

أما على صعيد العلاقات الخارجية، فكان لمصر نشاطات ثقافية واقتصادية متعددة تربطها بالبلاد المجاورة، ولا سيما مدن الشاطىء الكنعاني. فاهتمت مصر بالتجارة الخارجية، بما تمثله من احتكار ملكي رئيسي، وحرص ملوكها على اقامة علاقات ودية مع جيرانهم في الطرف الغربي من آسيا، من دون أية محاولة من جانبهم لفرض سلطانهم أو انشاء امبراطورية سياسية خارجية. ومن شواهد العلاقات المصرية ـ الكنعانية، الهدايا التي كان يرسلها فراعنة الأسرة الثانية عشرة وافراد أسرهم إلى حكام وملوك بعض المدن السورية ـ الكنعانية. ففي أوغريت عثر حديثاً على تمثال للأميرة «خنوم نفر هدجت» زوجة الملك سنوسرت الثاني، كما عثر أيضاً على تمثال للملك امنمحات الثالث على شكل أبي الهول، قرب مدخل معبد الاله بعل.

ومن الوثائق المعبرة عن هذه العلاقات بين مصر وسوريا والشاطىء الكنعاني قطعة أدبية تشرح قصة سنوهى الذي ترك مصر لأسباب سياسية والتجأ إلى احدى القرى السورية حيث أقام مدة طويلة من الزمن إلى أن تمكن من العودة إلى مصر في أواخر حياته بعد أن رضي عنه الفرعون، ورغبة منه في أن يدفن حسب التقاليد المصرية التي تؤمن له الخلود.

لكن مصر لم تتبع السياسة نفسها في علاقاتها مع الجنوب بل اعتمدت القوة في فرض نفوذها وتدعيمه كي يشمل الأقاليم الجنوبية الممتدة حتى الشلال الثاني، حيث أقام المصريون سلسلة من الحصون، في النوبة، لصد تسلل الأفريقيين (النحسيو).

كان الشلال الثاني يشكل (بدلاً من الشلال الأول) الحدود الجنوبية لمصر، لكن القوافل المصرية وصلت إلى أبعد من ذلك، إلى ما وراء الشلال الثالث، حيث تتوافر الأراضي الزراعية الخصبة والمراعي الغنية. ووصل المصريون إلى حيث تقوم الآن مدينة كرما، المركز التجاري الرئيس الذي اعتمد ميناء للسفن وملتقى للقوافل، كما أقام المصريون فيها حصنا سمي «جدار امنمحات المبجل»، حفاظاً على مصالح مصر في هذه البقاع النائية... ولقد أبدى المصريون اهتماماً خاصاً بالحدود الشمالية، فأقاموا تحصينات جديدة عند السويس منها «حائط الحاكم الذي أقيم لصد الأسيويين وقهر المسافرين في الرمال».

# عصر الانتقال الثاني

## (من الأسرة الثالثة عشرة إلى السابعة عشرة)
## 1785 ـ 1580 ق.م

ما زلنا حتى الآن نجهل الأسباب الرئيسة لانهيار الأسرة الثانية عشرة كما أننا لا نعرف الكثير عن الملوك الذين حكموا في المراحل الأخيرة منها. ولكن يحتمل أن يكون الضعف قد دب في جسم الدولة الوسطى نتيجة عوامل داخلية، كالنزاع بين أفراد العائلة المالكة أنفسهم بدافع الوصول إلى العرش. وثمة عوامل خارجية ربما كان لها أثر مباشر في انهيار هذه الدولة. ففي الجنوب كانت تحركات الأفريقيين بطيئة وعديمة الأهمية، أما في غربي آسيا فقد حصلت اضطرابات كان من نتائجها تبدّل الحكم في كثير من بلاد الشرق الأدنى القديم.

يبدو أنه في الوقت الذي ظهر فيه الكاشيون في بلاد ما بين النهرين، كانت فئة أخرى من الغزاة قد انتشرت في أنحاء مختلفة من سوريا وفلسطين، ثم اتجهت نحو سيناء، ودخلت مصر، حيث استطاعت أن تقيم في منطقة الدلتا وتؤسس دولة جديدة فرضت نفوذها على قسم كبير من وادي النيل. ويحتمل أن تكون هذه القبائل، المعروفة بالهكسوس، قد أتت من الشمال والشمال الشرقي، وهي خليط من فئات مختلفة، سامية وهندو أوروبية، تحالفت فيما بينها، واشتركت في اقتحام الحدود المصرية في أواخر القرن الثامن عشر (حوالي 1730 ق.م).

كان هذا الغزو الأسيوي لمنطقة الدلتا بمثابة ضربة موجعة لمصر. إذ حكمتها، للمرة الأولى في تاريخها، شعوب من خارج البلاد، كانت «نجسة وهمجية» في نظر المصريين لأنها «حكمت بدون الاله رع»، ولم تهتم كثيراً بمظاهر الحضارة المصرية. وكان من جراء هذا الاحتلال أن خرجت مصر من عزلتها وفقد شعبها ثقتهم بملوكهم وتزعزع ايمانهم بتفوق

مصر ومناعتها ضد الأعداء وبالالهة المانحة، في رأيهم، مصر وشعبها الحياة السعيدة والخلود الأبدي. فالغزاة تغلبوا على المصريين لتفوقهم العسكري ولاستعمالهم أدوات قتالية جديدة، كالدروع والسيوف والخناجر المتينة الصنع والأقواس المركبة التي تقذف النبال إلى مسافات أبعد بكثير وبقوة أشد من الأقواس القديمة المعروفة في مصر. ويحتمل أن الهكسوس قد ادخلوا إلى مصر الحصان والعربة.

احتفظ الهكسوس طيلة اقامتهم في مصر بالطابع العسكري، ولم يظهروا أي ميل إلى تبني الحضارة المصرية أو نقل معالمها. فأهملوا معابد الالهة القديمة وأدخلوا إلى مصر عبادة أحد الهتهم الذي رأى فيه المصريون مظهراً من مظاهر الاله «ست» المصري. كما أهملوا الأقاليم غير الواقعة تحت نفوذهم المباشر، وولوا عليها حكاما محليين (في طيبة)، ونقلوا السلطة المركزية إلى أواريس (صان الحجر)، حيث أقاموا المعسكرات المحصنة، وانحصر همهم في تحصيل الضرائب من السكان.

أما آثارهم فأهمها آثار معسكرات محصنة عثر عليها في مصر وفي أماكن عديدة من سوريا وفلسطين حيث كانت تقيم فيها حاميات عسكرية. وكانت هذه الحصون كبيرة الحجم مستطيلة أو مربعة التصميم، بنيت من اللبن. ويبلغ طول ضلع حصن تل اليهودية جنوبي الدلتا، حوالي 325م. ويتراوح ارتفاع سوره بين 20 و 25م. أما الحصن الذي بُنى في قَطْنا، في شمالي سوريا، فيبلغ طول ضلعه حوالي 800م. ولقد عثر على آثار مشابهة في أماكن أخرى من سوريا وفلسطين، ويبدو أن مثل هذه الأعمال العسكرية قد وجدت في إيران والقوقاز. ومن آثارهم أيضاً الحلي والأسلحة والدروع ونوع خاص من الفخار.

ويتبين من هذه الآثار أن التجارة المصرية لم تتوقف كلياً، إذ عثر على أوانٍ تنسب إلى الهكسوس في عدة أماكن في الجنوب، عند الشلال الثالث، وكذلك في الشمال، في سوريا وفلسطين وحتى في قبرص، كما ظهر اسم أحد ملوكهم «خيان» على قطع أثرية وجدت في مصر وسوريا وفلسطين، منها أسد من الغرانيت في بغداد، وغطاء اناء من المرمر وجد في كنوسوس (الكريت). وقد نقشت هذه الأسماء باللغة الهيروغليفية المصرية.

دام حكم الهكسوس في مصر طوال قرن ونصف (1730 ـ 1580)، ولم يتمكن المصريون إلاّ في أواخر الأسرة السابعة عشرة (في عهدي سقننرع وكامس) وبداية الأسرة الثامنة عشرة، من تحرير البلاد وطرد الغزاة. ولقد بدأ كامس عمله الحربي باستمالة أمراء الأقاليم في

الجنوب والاجتماع بهم في طيبة، فعرض عليهم أوضاع البلاد وموقفه الحرج: «دعوني أعلم ما هي فائدة قوتي! ففي أواريس ملك، وهناك آخرون في أثيوبيا، وها أنا أحكم ويشاركني أسيوي وأفريقي... لا يمكن لأمرىءٍ أن يستقر وضرائب الأسيويين تنتهبه...».

بعد الإعداد للحرب، قام كامس بمهاجمة أحد حلفاء الهكسوس في مصر الوسطى، ثم اتجه شمالاً حتى وصل إلى منف، واضطر الأسيويين إلى التراجع إلى شرق الدلتا. وقد تابع أخوه احمس هذه الأعمال الحربية من بعده، وتتبع الهكسوس حتى فلسطين وتمكن من الانتصار عليهم.

# الدولة الحديثة

## 1580 ـ 1085 ق.م

### الأسرات من الثامنة عشرة إلى العشرين

تمثل الأسرة الثامنة عشرة مرحلة هي من أهم مراحل التاريخ المصري. فهي، من جهة، استمرار للتقاليد والمظاهر الحضارية التي عرفت من قبل في الدولة الوسطى، وهي في الوقت نفسه، نقطة تحول جوهرية في التفكير وفي السياسة التي اتبعها ملوك الدولة الحديثة. تبدأ هذه المرحلة الجديدة بطرد الهكسوس من مصر في أواخر الأسرة السابعة عشرة وبداية الثامنة عشرة، عندما قام المصريون بعمليات حربية واسعة النطاق، كان الغرض منها ليس فقط مطاردة الهكسوس وتتبعهم إلى مسافات بعيدة خارج الحدود المصرية، بل التوسع وفرض نفوذهم السياسي على عدد من البلاد المجاورة. لكن هذه المحاولة المصرية الجديدة لتأسيس امبراطورية في آسيا لم تحصل إلا بعد أعمال اصلاحية داخلية استغرقت حوالي خمسين عاماً.

الحملات الحربية الأولى قام بها عدد من فراعنة مصر أمثال أخمس الأول، وامنحوتب الأول، وتحوتمس الأول الذي وصل إلى حدود بلاد ما بين النهرين وأقام لوحة تذكارية على ضفة نهر الفرات. في البداية، لم يكن الغرض من هذه العمليات العسكرية الاحتلال والتوسع، بل الحفاظ على طرق القوافل التجارية، واخماد ثورات المتمردين. أما النشاط الحربي في الجنوب (النوبة والسودان) فكان، في عهد هؤلاء الملوك، أكثر فعالية ونجاحاً، لأن هذه البلاد الأفريقية كانت قد خضعت من قبل للسيادة المصرية في عصر الدولة الوسطى.

لذلك لم يصادف ملوك الأسرة الثامنة عشرة صعوبة في اخضاع تلك البلاد واعادة تنظيمها كي تنشط فيها التجارة من جديد ويتمكن المصريون من استغلال مناجمها الغنية. وشمل النفوذ المصري في الجنوب أقاليم بعيدة تمتد حتى الشلال الرابع. ويبدو أنه كانت هناك

امبراطورية افريقية قبل أن توضع أسس الامبراطورية الأسيوية في عهد تحوتمس الثالث.

كان من أبرز مشاكل هذا العصر النزاع الذي حصل بين أفراد الأسرة الحاكمة عقب موت تحوتمس الثاني. وقد ظهر هذا التنافس على الحكم بين تحوتمس الثالث، الوريث الشرعي، والملكة حتشبسوت Hatchepsout، عمته وزوجة أبيه، التي اغتصبت العرش واستأثرت بالسلطة مدة عشرين سنة تقريباً. لكن تحوتمس الثالث استطاع بعد ذلك أن يسترجع ما اغتصب منه ويعود مرة ثانية إلى الحكم. ويبدو أن كلا من الاثنين كان يمثل اتجاهاً سياسياً خاصاً، بل هناك ما يشير إلى وجود فئتين متعارضتين ومختلفتين في الآراء والأمور السياسية الخارجية. ففي حين كانت حتشبسوت قد أهملت الأعمال الحربية واقتصر نشاطها على القضايا الداخلية وربط مصر تجارياً بالبلاد المجاورة، وبخاصة الأقاليم الجنوبية، كان تحوتمس الثالث يطمح إلى كسب مزيد من الممتلكات في الخارج وإلى ترسيخ أسس الامبراطورية في آسيا.

هذا الاختلاف في الأغراض السياسية يشير، في واقع الأمر، إلى وجود صراع بين نهج قديم همه الأول المحافظة على التقاليد القديمة والعمل على ابقاء مصر في عزلة عن الأمم الأخرى، طالما أنها لا تشكل خطراً سياسياً وثقافياً على مصر، وبين توجه جديد معاكس يحاول الخروج بمصر من عزلتها، وينشد التوسع العسكري ونشر السيادة الفرعونية على بلدان الشرق الأدنى.

اهتمت حتشبسوت إذاً بالعمران والتجارة وشيدت في عهدها المباني الدينية في عدد من المدن المصرية، منها في مدينة هابو، وعند الشلال الثاني، كما اقتطعت المسلات الضخمة من مقالع أسوان وأقامتها في معبد أمون في الكرنك، وبنت الصرح الثامن في هذه المدينة. لكن أهم هذه الأعمال البنائية العظيمة، وقد فاقت أعمال من سبقها، كان المعبد الجميل الذي شيّد في الدير البحري، بالقرب من معبد منتوحتب الثاني (الأسرة الثانية عشرة) وعلى طرازه. والمعبدان يشكلان حالياً مجموعة بنائية رائعة الجمال في اطار جغرافي غريب ومؤثر، عند أسفل الجبل في جوار طيبة. لكن معبد حتشبسوت يمتاز عن الأول، رغم تشابه التصاميم العامة، بأبعاده وأحجامه الكبيرة وأناقته وانسجام عناصره. وهو يتألف من باحة خارجية ومدرجين (مصطبتين) متتاليتين، يجمع بينهما سلّمان على شكل منحدر. ويحتوي هذا البناء على عدة معابد صغيرة خصص منها معبد لعبادة الملكة حتشبسوت وأبيها تحوتمس الأول. أما المعبد الرئيسي، أو قدس الأقداس، فحفر في الصخر في اتجاه المنحدرات وعلى محور البناء العام. وقد تميز هذا العمل البنائي بمظهره العام المتناسق، المتكيف مع وسطه البيئي، وبجمال

أعمدته وأروقته، وزخارفه الجدارية.

على الصعيد التجاري، تتابعت الأعمال في مناجم الذهب في الجنوب وكذلك في سيناء. لكن أبرز النشاطات التجارية كانت الحملة التي أرسلت بطريق البحر إلى بلاد بونت Pount، أرض البخور، الواقعة على الشاطىء الأفريقي الشرقي (الصومال)، وربما تشمل الشواطىء العربية (اليمن). صورت مشاهد هذه الحملة على جدران معبد الدير البحري، حيث تظهر المراكب الخمسة متجهة إلى بلاد البونت محملة بالمصنوعات المصرية كالحلي والأسلحة وغيرها من الأدوات المحلية، ثم نراها عائدة إلى مصر وعليها الماشية والقردة وأشجار البخور والعاج والمر وغيرها من الأخشاب النادرة. وقد أعطيت أهمية كبرى لهذه الحملة التجارية، وإن لم تكن الأولى من نوعها، لأنها تشرح سياسة ذلك العصر، السياسة القائمة على تدعيم العلاقات بين مصر والأقاليم الجنوبية واهمال المناطق الأسيوية المعادية لمصر. ومما لا شك فيه أن هذا الاهتمام غير العادي بالأعمال التجارية والعمرانية كان بدافع ارضاء المعارضين، لا سيما كهنة أمون، والتعويض عن تقصير الملكة في المجالات الحربية التي تنحت عنها.

حكمت حتشبسوت مدة عشرين سنة تقريباً استأثرت فيها بالسلطة واتخذت لنفسها الألقاب والصفات الخاصة بالملك، وتخلت عن التعبير التقليدي الخاص بزوجات الملوك «الزوجة الملكية العظيمة»، كما أن التمثال الذي خصص لها إنما يصورها ملكاً ملتحياً وفق الصورة التقليدية لفراعنة مصر. لكن نهاية حتشبسوت كانت مفاجئة وغامضة، واستطاع تحوتمس الثالث أن يسترجع ما اغتصب منه في العام الثاني والعشرين من حكمه، وأن ينتقم من أعدائه في الداخل، وقام أنصاره بتحطيم تماثيل حتشبسوت وشوهوا رسومها في المعابد ورسوم مهندسها المقرب إليها «سننموت» الذي كان قد رسم نفسه، في معبد الدير البحري، خلف الأبواب كي لا يرى عندما تفتح، كما حطموا المعبد الجنائزي الذي بناه لنفسه تحت معبد حتشبسوت في الدير البحري.

بعد أن تسلم تحوتمس الثالث الحكم فعلياً قام مباشرة باعداد جيش قوي لتوطيد نفوذه في آسيا، ولم «يتأخر جلالته في التقدم نحو بلاد «زاهي» (فلسطين ـ الشاطىء الكنعاني) ليقتل الخائنين الذين فيها وليكافىء الموالين له». في هذا الوقت، ربما بعد سقوط حتشبسوت مباشرة، تحالف حاكم مدينة قادش مع عدد كبير من أمراء البلاد (330 أميراً) أتوا «ومع كل منهم جيشه الخاص» إلى مجدو في فلسطين، للوقوف في وجه الفرعون. إن كثرة عدد

المتحالفين يدل بوضوح على الحالة التي كانت تسود البلاد السورية ـ الفلسطينية المجزأة إلى دويلات صغيرة لا أهمية لها.

تقع مجدو عند ملتقى طرق القوافل الآتية من الجنوب، والطرق المتفرعة عنها نحو الشمال، الأول نحو الشاطىء الكنعاني والآخر نحو سوريا الوسطى. وكان لممر مجدو أهمية حربية كبرى، لكن الأمراء الأسيويين، رغم اختيارهم هذا الموقع، لم ينجحوا في صد المصريين، ربما لفقدان الوحدة العسكرية بينهم ولتفككهم حتى أنهم جاؤوا إلى المعركة بعرباتهم الأنيقة المصنوعة من «الذهب والفضة، والعربات الأخرى المصقولة»، أما الجيش المصري بقيادة تحوتمس الثالث، فقد أبدى نشاطاً كبيراً إذ قطع المسافة ما بين الحدود المصرية وغزة (حوالي 300 كلم) في عشرة أيام، في حين أن المسافة الباقية ما بين غزة ومجدو (حوالي 150 كلم) استغرقت اثني عشر يوماً، وربما كان هذا التأخير بقصد تنظيم المواصلات ووسائل التموين.

عندما وصل الجيش المصري إلى مقربة من مجدو عقد الفرعون مجلساً حربياً قرر على أثره اجتياز أصعب المسالك المؤدية مباشرة إلى مجدو ورفض نصيحة أعوانه بسلوك أحد الطريقين الجانبيين. وبانتهاء المعركة تفرق الأسيويون وولوا هاربين تاركين معسكراتهم بما فيها من كنوز ونفائس، وعربات فخمة (مالا يقل عن ألف عربة) استولى عليها المصريون. لكن المدينة لم تسقط إلا بعد حصار دام سبعة أشهر؛ ومع سقوطها تبدأ مرحلة جديدة في تاريخ مصر، كان على تحوتمس أن يقوم خلالها بعدة حملات على سوريا لجمع الجزية أو ضبط الأمن وتأديب المتمردين، وأن ينقل مسرح العمليات العسكرية إلى الشمال، حيث قام، في العام الواحد والثلاثين من حكمه، بحملته على سوريا واستولى على قادش، ثم عاد وهاجم المدينة مرة أخرى في العام الثاني والأربعين.

ومن أعماله العسكرية المشهورة الحملة الثامنة التي قام بها في العام الرابع والثلاثين من حكمه، واستهدفت «ذلك العدو الخاسىء في النهرين، ويقصد به ملك ميتاني. وكانت بلاد ميتاني الواقعة في الشمال، ما بين دجلة والفرات، دولة قوية تسعى إلى بسط نفوذها على سوريا، الأمر الذي أدى إلى مواجهة حتمية مع المصريين، كان تحوتمس قد أخذ يُعدّ العدة لها؛ فأمر ببناء السفن من خشب الأرز في جبل أرض الاله، على مقربة من ربة جبيل، ونقلها إلى ضفاف الفرات حيث عبر النهر وتمكن من الا نتصار على ملك ميتاني. وهكذا تم توطيد السيادة المصرية في غرب آسيا خلال حكم تحوتمس الثالث وخلفائه المباشرين امنحوتب الثاني

وتحوتمس الرابع اللذين اتبعا السياسة نفسها وقاما بعدة عمليات عسكرية انتهت بتقرب ميتاني من مصر في عهد تحوتمس الرابع الذي تزوج من ابنة ملك ميتاني. واهتم المصريون بتنظيم امبراطوريتهم الجديدة، واعتنوا بصورة خاصة بالقوة البحرية لتأمين المواصلات، كما اهتموا أيضاً بالموانىء الكنعانية واعدادها لاستقبال السفن المصرية كي تتمكن من نقل الأخشاب والبضائع إلى مصر.

اقام تحوتمس حكماً عسكرياً في سوريا وفلسطين، وعين مندوباً عنه يشرف على تطور الأحداث في المنطقة، ومفتشين في المدن الكبرى، جاعلاً من غزة مركزاً رئيساً لإدارة البلاد. يبدو أنه اختار هذه المدينة لأنها لم تكن بين المتحالفين، ولم يرد اسمها بين المدن التي أخضعت، ولأن موقعها الجغرافي، وسط الامبراطورية، جعل منها محطة أساسية لا بد أن يمر فيها الطريق الذي يربط مصر بممتلكاتها الجديدة في آسيا.

لقد ازدهرت التجارة في عهد الامبراطورية، وتدفقت الثروات على مصر، بيد أنه من الصعب معرفة تفاصيل هذا النشاط التجاري لأن النصوص المصرية تطلق كلمة «جزية» على وسائل الدخل كلها، سواء كان ذلك عن طريق الجزية الفعلية أو التجارة أوحتى الهدايا المرسلة من قبل ملوك البلاد الأجنبية.

إن «الجزية» التي كانت تأتي من أشور وبابل وبلاد الحثيين، يُقصد بها على الأرجح السلع التجارية التي كانت احتكاراً ملكياً أو مجرد هدايا يرسلها ملوك هذه البلاد إلى فرعون مصر... لكن ما جنته مصر من ثروات لم يستفد منه الجميع، بل اقتصر على فئات معينة، تمثلت بالطبقة الحاكمة والكهنة وبعض الموظفين من المدنيين أو العسكريين. وكان القسم الأكبر من هذه الثروات يعطى للكهنة ولا سيما كهنة الاله آمون في الكرنك، حيث نقشت على جدران معبده التقارير الحربية، ربما ارضاء لهذا الاله، وهو الذي أشرف على جميع العمليات الحربية وأمر بها.

ففي عهد تحوتمس الثالث تلقى معبد الكرنك، على ثلاث مراحل، ما لا يقل عن ألفي رطل من الذهب؛ المعابد الأخرى اغتنت بدورها وازداد حجمها وعظمت مظاهرها وأصبح لها ضياع وأملاك واسعة، كما أعفيت وموظفيها، من الضرائب المفروضة على الآخرين، فازدادت بفضل ذلك سلطة الكهنة وبات بوسعهم التدخل في شؤون البلاد السياسية، واتباع سياسة التوسع وسيلةً للمحافظة على المصالح المصرية في الخارج. لكن مصر واجهت صعوبات

كبيرة في بسط نفوذها السياسي، كما واجهت مشاكل داخلية جديدة نتجت عن تفاقم الوضع الاقتصادي بسبب التفاوت ما بين الطبقة الحاكمة وعامة الشعب.

أما الذين كانوا على رأس حركة التوسع بعد طرد الهكسوس فازدادت سلطتهم بازدياد ثرواتهم، وبمرور الأيام لم يعودوا يشعرون بضرورة أن يخرجوا مع الجيش، وفضلوا البقاء في البلاد للاشراف على أملاكهم، في حين أسندت بعض المهمات إلى وكلاء أو أجراء محترفين. فانخرط في الجيش المصري عدد كبير من المرتزقة الأسيويين، وهم في معظم الأحيان من أسرى الحرب الذين استخدموا في الجيش وفي بعض الوظائف المدنية، وكان منهم الأرقاء في القصر أو في ضياع المعابد وعند الاشراف، كما وصل البعض منهم إلى وظائف عالية في الدولة، سواء في القصر أو في السراي أو في الجيش. الأمر الذي أدى إلى تدني مستوى أبناء البلاد من الفلاحين المصريين وتدهور أحوالهم الاجتماعية والاقتصادية.

إلى ذلك، فقد ازداد عدد الأجانب الذين أتوا إلى مصر، فيما ازداد، بالمقابل، عدد المصريين المقيمين في الخارج، الأمر الذي سهل اختلاط المصريين بجيرانهم وما نتج عن ذلك من تفاعل حضاري كان من شأنه أن دخلت مصر مظاهر وأفكار جديدة تجلت فيما بعد في حركة تل العمارنة؛ وكان لمصر بدورها تأثير حضاري مباشر في جميع البلاد التي خضعت لنفوذها من الشلال الرابع في الجنوب إلى الفرات في الشمال.

ولقد عثر على آثار مصرية تحمل أسماء فراعنة من عهد الامبراطورية في مناطق عديدة من فلسطين وسوريا وعلى الشاطىء الكنعاني. وبلغ عدد هذه القطع الأثرية، المكتشفة في بلاد أسيوية ما يزيد على خمسمائة قطعة، في حين أنه لم يعثر فيها إلا على مائة وخمسين قطعة من عهد الدولة الوسطى، وعلى ما يقارب مئة قطعة فقط من العصور التاريخية التي تلت عهد الامبراطورية.

هكذا بدت الفترة ما بين تحوتمس الثالث وامنحوتب الثالث (أي المرحلة التي سبقت مباشرة ثورة العمارنة وهيأت لها) وكأنها نقطة تحول في تطور الحضارة المصرية، أسهمت في بلورة أفكار ومعتقدات دينية ومظاهر حضارية أخرى. فعلى الصعيد الديني، شهدت الامبراطورية الكثير من تبادل الالهة مع الشعوب الأخرى، بعد أن تبين لها أن آلهة مصرية تحمل الصفات نفسها التي تتميز بها بعض آلهة الشعوب الأسيوية.

واستعملت أسماء هذه الآلهة الأجنبية (مثل بعل وعشتار ورشبو..) في التعبير عن

بعض القوى المجردة، كما أدخلت في تركيب أسماء مصرية. وثمة آلهة كانت ذات نفوذ محلي سابقاً اكتسبت صفات عالمية عامة، وأصبحت آلهة كونية. وقد توضحت معالم هذا الاتجاه الديني الجديد واكتملت في الثورة الدينية المميزة لعصر تل العمارنة.

أما على الصعيد الفني، فثمة توجه جديد في النحت والتصوير الجداري، تميز بشيء من السلاسة والليونة في الخطوط والأشكال، والابتعاد عن الرصانة الملازمة لفنون العهود السابقة. ومن نماذج هذا التحول الفني في عصر الامبراطورية المشاهد التصويرية في مقابر النبلاء من عهد تحوتمس الثالث وبخاصة تلك التي تمثل جماعة من الكريتيين والايجيين يحملون الهدايا إلى مصر، بأسلوب يؤكد على الملامح الطبيعية للشكل ويراعي الليونة في رسم الخطوط.

وإذا ما قارنا بين فنون العصور القديمة وفنون الدولة الحديثة، نرى أن الأولى تميل إلى البساطة والدقة الكاملة في الأشكال والخطوط، معبرة بذلك عن شخصية الحضارة المصرية الخاصة، أمّا الثانية، أي الفنون الجديدة، فخرجت على التقاليد، وباتت تميل إلى محاكاة الطبيعة، محاكاة بلغت حد المغالاة في تل العمارنة، واعتماد الحركة بدلاً من المثالية الجامدة في فنون العصور السابقة.

هذا التجديد لم يقتصر فقط على القضايا الفكرية والتيارات الفنية بل شمل جميع مظاهر الحياة الاجتماعية، وأبرزها التقاليد الخاصة بتولي العرش. فمن قبل لم يكن يحق لابن من زوجة ثانوية أن يتولى الحكم، وإذا كان لا بد من ذلك فعليه، تدعيماً لشرعية وظيفته، الزواج من أميرة من الدم الملكي. وهذا ما اضطر تحوتمس الثالث، وهو ابن لزوجة ثانوية، إلى الزواج من ثلاث أميرات من النسل الملكي؛ لكن حفيده تحوتمس الرابع، وهو أيضاً ابن لزوجة ثانوية، لم يرَ ما يدعوه إلى الزواج من أميرة مصرية تدعيماً لحقه في العرش لأن التقاليد كانت قد تبدلت، فأتاحت له الزواج من ابنة ارتاتاما الميتاني التي أصبحت اما للملك امنحوتب الثالث. ولم يكترث هذا الأخير لنقاء دمه الملكي فتزوج من احدى بنات الشعب التي أصبحت «الزوجة الملكية العظيمة»، وهي الملكية تيي Tiyi، والدة امنحوتب الرابع (أخناتون)، التي كان لها دور مؤثر في سياسة الدولة. ولعل ما يلفت الانتباه في هذا العصر، ارتفاع شأن المرأة التي أصبح لها نفوذ كبير في الأسرة الثامنة عشرة. فإلى جانب حتشبسوت التي تسلمت السلطة وحكمت بوصفها ملكاً، وأعطت لنفسها ألقاب وكنى الرجال، فإن تيي ونفرتيتي منحتا مكانة بارزة في المجتمع المصري، وظهرتا في كثير من المشاهد التصويرية برفقة أزواجهن. فنفرتيتي، ومن

قبلها تيي، تظهر جالسة إلى جانب زوجها، بمقاييس متعادلة، في حين أن المشاهد التصويرية القديمة تظهر المرأة بأحجام صغيرة تحتضن بتواضع رِجْلَ زوجها. هذا وكان للمرأة في عصر الامبراطورية حق الملكية وحق البيع والشراء، وكذلك أداء الشهادة في المحاكم.

هكذا، وبعد مضي حوالي قرن على أعمال تحوتمس الثالث الحربية وانتصاراته المتتالية في غربي آسيا، لم تعد مصر تشعر بحاجة إلى القيام بحملات عسكرية جديدة إلا في حالات نادرة ولأغراض تأديبية، وأصبحت مصر محور العالم القديم، تتدفق عليها الخيرات من جهات مختلفة، وينعم ملوكها بالغنى والرفاهية. وكان لملوك مصر سلطة نافذة في جميع أنحاء الامبراطورية ولهم من الثروات ما لا حصر له؛ فأقاموا المباني والمعابد في أماكن عديدة من مصر والنوبة والسودان، وجاءت هذه الأبنية كبيرة الأحجام عظيمة المظهر تعبر عن غنى الدولة ومدى سلطانها.

هذا نص من عهد امنحوتب الثالث يبين عن مظاهر الغنى والرفاهية في عصر الامبراطورية: «أن مصانعه ملأى بالأرقاء من ذكور واناث، من أبناء أمراء جميع الأمم الذين أسرهم جلالته. وتملأ مخازنه الأشياء الحسنة التي لا يمكن حصرها. إنها محاطة بمنازل السوريين الذين يعيشون هناك مع أبناء الأمراء. ومواشيه مثل رمال الشاطىء، أنها ملايين».

لكن مصر التي أحرزت شهرة عظيمة ووسعت حدودها، انغمست من جديد، ولا سيما في عهد امنحوتب الثالث، في حياة الترف والرفاهية، وكان لهذه الحياة الجديدة بالغ الأثر في تطور الأحداث الاجتماعية والتاريخية السياسية.

### 1 ـ اخناتون وثورته الدينية

لقد عرفت مصر من قبل نوعا من الصراع الداخلي في عهد تحوتمس الثالث والملكة حتشبسوت، ولم يكن الخلاف لمجرد التنافس على السلطة، بل لوجود اتجاهين متناقضين في السياسة المصرية، الأول يسعى للابقاء على التقاليد القديمة ويدعو إلى عزلة مصر واكتفائها بذاتها، والآخر يميل إلى الانفتاح على البلدان المجاورة ويدعو إلى التوسع العسكري في الخارج. أما المشكلة الجديدة، وإن كان فيها شيء من هذا القبيل، فهي تختلف كلياً عن الأولى وتبدو أكثر تعقيداً.

فالنزاع بين كهنة آمون والفرعون أخناتون كان لأسباب متعددة أهمها: محاولة الملك

التجديد في الأفكار الدينية، وبالتالي رفض الآلهة القديمة، والتخلي عن الأعمال العسكرية في الخارج واهمال الامبراطورية مع أنها كانت من الأسباب المباشرة التي أدت إلى مثل هذا التحول في التفكير المصري. وشملت محاولة التجديد هذه تقاليد اجتماعية وأعمالاً فنية اعتمدت الواقعية ومحاكاة الطبيعة، وأعمالاً أدبية دخلتها كلمات عامية.

ظهر هذا النزاع على نطاق واسع، عندما وقفت فئة من الموظفين من العائلات القديمة، المتوارثة لملكية الأرض والممثلة للطبقة الأرستقراطية، إلى جانب الكهنة؛ الأمر الذي اضطر الفرعون إلى استمالة عدد من الموظفين الجدد من غير المحافظين، وأن يعمل على احتضان الجيش الذي لم يتردد في الوقوف إلى جانبه، ربما بدافع الولاء للملك، أو لأغراض خاصة تمكنه من التفوق على الموظفين المدنيين وعلى كهنة آمون بعد أن أصبح لهم من السلطة ما جعلهم يتدخلون في جميع الأمور ويشاركون الملك في الحكم.

ولئن كان اخناتون قد حمل في الأصل اسماً مثل ابيه، امنحوتب، إلا أنه يختلف عن ملوك الأسرة الثامنة عشرة السابقين، يختلف عنهم في تفكيره وفي نمط حياته لدرجة أنه يبدو في المشاهد النحتية والتصويرية الجدارية ضعيف البنية، ضيق الكتفين، متكور البطن، نحيف الوجه، غليظ الشفتين، محباً للتأمل. وطوال حكمه، ابتعد عن أعمال الشجاعة والفتوة، ولم يقم بأية حملة عسكرية مهملاً كلياً المصالح المصرية في الخارج لينصرف إلى تدعيم ثورته الدينية ونفوذه في الداخل.

عندما كان لا يزال شاباً، شارك أباه في الحكم، وأقام في طيبة حيث تزوج من الأميرة المصرية نفرتيتي التي أنجبت له ست بنات. وقد تناولت الأعمال الفنية مشاهد من حياته الخاصة، برفقة زوجته، وأحياناً بصحبة احدى بناته، يداعبها ويعطف عليها، ما يدل على أن أخناتون قد عدل عن أتباع التقاليد الملكية القديمة الصارمة التي عزلت المرأة عن الحياة العامة، وحاول أتباع سياسة رسمية جديدة تساوي بين حقوق الرجل والمرأة.

بعد تسلمه الحكم، على اثر موت أبيه (امنحوتب الثالث)، أقام امنحوتب الرابع في طيبة من دون أن يعلن الحرب رسمياً أو علنياً على كهنة آمون على الرغم من الخلاف بين الطرفين، مبدياً اهتمامه بتشييد عدد من المباني في الكرنك (هدمت جميعها فيما بعد). وقد عثر حديثاً على تماثيل ضخمة خلف معبد آمون مباشرة، تمثل الملك بأسلوب يحاكي الطبيعة بكثير من المغالاة، بل التشويه، ما يدل على أن الاتجاه الفني الخاص بتل العمارنة قد ظهر منذ بداية حكم امنحوتب

الرابع. وفي عامه السادس أعلن الملك ثورته وغير اسمه امنحوتب، «آمون راض» (عن هذا الشخص) إلى أخناتون أي «المفيد لآتون» (أو) «ليسعد آتون»، ثم نقل العاصمة من مدينة آمون (طيبة) إلى مكان آخر في مصر الوسطى، وهو المكان المعروف حالياً باسم تل العمارنة. وأصبحت المدينة الجديدة، اخت ـ اتون، أي «مشرق (أو بهاء) اتون»، عاصمة البلاد الجديدة. وهي مدينة مترامية الأطراف بنيت فيها القصور الملكية ومعابد آتون، وكذلك بيوت النبلاء والموظفين، وبيوت العمال في القرى المجاورة. وجاءت هذه البيوت التي شملت نطاقاً واسعاً من المدينة، حسنة الترتيب، جميلة المظهر، تزينها الجنائن وتتخللها الشوارع المنظمة.

أما المعابد فهي عبارة عن بناء مكشوف (غير مسقوف) يسمح للأشعة الشمسية بالدخول إلى جميع أقسامه. فهو يتألف فقط من سور خارجي، بمثابة حرم، ومن باحات تفصل بينها مداخل صرحية Pylône، وتحتوي كل باحة على رواق وسطي صفّت على جانبيه موائد نذور، أو مذابح. فهي تختلف، إذاً عن المعابد القديمة المغلقة، المظلمة، المحاطة بالغموض والأسرار.

ففي هذه الأخيرة، كان مركز عبادة الاله آمون (قدس الأقداس) في الطرف الأخير منها، وللوصول إليه لا بد من المرور بأقسامه المتتالية، بحيث ننتقل تدريجياً من النور الساطع عند البهو الكبير إلى الظلمة القاتمة في نهاية المعبد. إن دخول هذا القسم الأخير كان وقفا على الملك والكهنة.

أما أتون، فكان «قرص الشمس» نفسه، الواضح الجلي، ولا شيء يحجبه عن اي انسان، فيما آمون خفي لا يرى، ويُلَف تمثاله، ويُحجب عن الناس، عندما يُحمل على أكتاف الكهنة في الاحتفالات العامة.

كان لهذه الأحداث الداخلية أثر مباشر على تطور الفنون التشكيلية، فاقتربت من الحياة وابتعدت عن التقاليد الرسمية الجافة، وظهر بذلك اتجاه فني جديد يوفق بين الحقيقة الانسانية والأناقة، بل الدقة القصوى في رسم الأشكال العامة، كتمثال نفرتيتي المصنوع من الحجر الكلسي المطلى (حالياً في برلين) وتمثال آخر للملكة نفسها من الحجر الرملي (حالياً في متحف القاهرة). فهما من التماثيل التي بلغت الكمال الكلاسيكي.

إن مجموعة التماثيل الملكية الصرحية، المكتشفة في كل من تل العمارنة والكرنك، إنما تصوّر الفرعون أخناتون وفق أسلوب فني جديد لم تعرفه مصر من قبل. ففيها من المغالاة في

تأويل الجسم الانساني والتحوير ما بلغ حد الكاريكاتورية. لكن هذا التشويه في تماثيل أخناتون لم يُرد منه التحقير أو السخرية، بل جاء انعكاساً لتحرر الفنان في معالجة موضوعاته، وتعبيراً عن رغبة الفرعون في أن يحقق ثورة لا تقتصر على نقض الفكر الديني السائد، بل تشمل الفنون والتقاليد الاجتماعية.

على الصعيد الديني، تجلت هذه الثورة في رفض جميع الآلهة القديمة وتبنى فكرة الاله آتون المتمثل بالقرص الشمسي. وتميّز هذا الرفض للالهة الأخرى بالحقد والعنف، اللذين دفعا أنصار أخناتون، في أنحاء مختلفة من مصر وبعض الأقاليم التابعة لها (وبخاصة الأقاليم الجنوبية)، إلى تحطيم اسم آمون المنقوش على جدران المعابد، وتشويه حتى أسماء الأشخاص التي دخل اسمه في تركيبها، مثل اسم «امنحوتب». وفي النصوص التي ترجع إلى عهد العمارنة لم يذكر، ما عدا في حالات نادرة،.. اسم أي اله غير الاله آتون.

كان آتون، المتمثل بقرص الشمس، مصدر الحياة وعلة الوجود، «الاله الأوحد الذي لا مثيل له»، الاله الذي يشرف على جميع الناس في جميع البلاد، ولا يقتصر على المصريين.

لكن إلى جانب هذه المظاهر الوحدانية في الاله آتون، استمرت الديانة الجديدة بالاعتراف ببعض القوى الأخرى، فأعطت الماعت، أي «الحق»، أو «الحقيقة»، أهمية كبرى، واعتبرت أيضاً تجسيداً لقوة الهية. وكان الفرعون أخناتون يشار إليه بأنه «الاله الطيب»، وقيل عنه أيضاً أنه الاله «شابي» (اله القدر)؛ بل كان هو يعتبر نفسه ابن آتون «الذي خرج من جسده»، تماماً كما كان الملوك في السابق يُعتبرون أبناء للاله رع. ولم تكن صلوات الناس توجه إلى آتون مباشرة بل إلى أخناتون نفسه. فهذا «آيي»، أحد رجال بلاطه، الذي أصبح ملكاً في أواخر الأسرة الثامنة عشرة، يوجه صلاته إلى أخناتون قائلاً: «ليتك تهبني عمراً طويلاً سعيداً كأحد المحبوبين منك. ليتك تهبني جنازة حسنة... ليتني أسمع صوتك الجميل في المقدس عندما تؤدي ما يُسر له أبوك أتون الحي».

الديانة الجديدة اقتصرت على فئة قليلة من الناس، وربما كان هذا سبب انهيارها السريع بعد موت الملك. وجاء في نشيد أخناتون قوله أن آتون الهه الشخصي: «انك في قلبي، ولا يوجد من يعرفك غير ابنك الذي أرشدته إلى نواياك وإلى قوتك». ويبدو من النصوص التي ترجع إلى عهده أن هذه الديانة كانت خاصة بالاله الملك وعائلته الالهية. ولكن مع ذلك كانت ثورة العمارنة الدينية أقرب الديانات القديمة إلى التوحيد، لما تحمله من صفات عالمية

عامة ولما فيها من رفض للالهة الأخرى.

## 2 ـ الديانة الآتونية

عرفت عبادة الشمس في مصر منذ القدم، وبأشكال مختلفة. فكان للاله رع، اله مدينة هليوبوليس، شأن كبير في مجمع الالهة المصري، واتحد، لما له من أهمية وعظمة، مع عدد من الالهة الأخرى في صيغ مزدوجة: آمون ـ رع، رع ـ حرختى ـ سوبك ـ رع، خنوم ـ رع. لكن محاولة دمج الالهة لم تكن لأغراض توحيدية أو جمع مظاهرها الألوهية في كائن واحد، فاحتفظت تلك الكائنات الالهية بشخصياتها المستقلة وبصفاتها المميزة، وبقي آمون إلها للهواء ورع إلها للشمس، بيد أن هذا التقارب، وإن لم يؤد إلى التوحيد الصحيح، فقد ركز على إله واحد من دون أن يرفض من أجل ذلك الالهة الأخرى.

إن كلمة آتون، المعبرة عن مظهر من مظاهر الاله الشمس، في أواسط الأسرة الثامنة عشرة، تعني قرص الشمس، رمز الاله ومقره، وليس الاله نفسه. ويرجع تأليه آتون إلى عهد تحوتمس الرابع الذي قام بحملة عسكرية في «الخارج ليجعل الأجانب مثل المصريين، وليعبدوا آتون إلى الأبد». وفي لوحة نحتية، نرى امنحوتب الثالث وزوجته تيي يتنزهان في زورق يحمل اسم «اتون يضيء». ويعتقد أن امنحوتب الثالث قد شيد معبدا للاله آتون في الكرنك، داخل معبد آمون، أو على مقربة منه.

أما أهم مظاهر الاله آتون فهي الصفة الكونية، فبفضله تحيا الأسماك في البحار والوحوش في الغابات والزواحف في جحورها، والنباتات في الحقول. لم يكن آتون إذاً ذا نفوذ محلي محدود كما كانت عليه الالهة من قبل، لكن هذه الصفة الكونية عرفت قبل ثورة العمارنة وتمثلت بالاله آمون، الاله الخفي الذي لا يرى، ولا حدود لسلطانه. فهو «سيد المازاي وحاكم بونت... جميل الوجه، جاء من أرض الاله (في الشرق)... لك ابتهالات كل بلد أجنبي، حتى عنان السماء، وإلى آخر الأرض، وإلى أعماق البحر الأخضر الكبير... الواحد المنفرد، الذي لا كفء له... والذي يعيش على الحق كل يوم» (نص يرجع إلى الأسرة الثامنة عشرة وسابق لعصر العمارنة).

لكن صفة الشمول هذه لم تكن من خصائص الاله آمون وحده، كما أن التعبير «الواحد المنفرد» لا يعني رفض الالهة الأخرى، فالاتجاه إلى التوحيد لم يتحقق إلا في عهد أخناتون الذي لم يتعبد إلا لإله واحد هو آتون، ورفض ولاءه للآلهة الأخرى.

ثمة عنصر آخر في الديانة الأتونية يتمثل في الدعوة إلى «ماعت»، «الحق». فأتون وكذلك أخناتون «يعيشان على الحق». هذه الظاهرة التي عرفت أيضاً في العصور السابقة، اكتسبت أهمية كبرى في ديانة العمارنة للتأكيد على الوفاء لأتون، ولاعتمادها الصدق والصراحة في العلاقات. وقد تجلى هذا المفهوم، المتمثل بالماعت، في الفنون التي تحررت من قيود التقاليد السابقة وأظهرت الملك وزوجته وأولاده في مشاهد بعيدة عن الكلفة والتقليد، صريحة عاطفية، قريبة من الحياة.

أخيراً، لا بد من الاشارة إلى الشبه الكبير، سواء في التفكير أو التأليف، بين نشيد أخناتون والمزامير، وبخاصة المزمور رقم 103. لكنه من الصعب دراسة هذا الموضوع بالتفصيل، إذ نفتقر للبراهين والأدلة المادية، لأن زمنا طويلاً (من سبعة إلى تسعة قرون) يفصل بين عهد أخناتون وتاريخ كتابة المزامير. إلا أنه يحتمل أن يكون نشيد أخناتون قد نقل إلى فلسطين عن طريق الشعوب التي تركت مصر وأتت إلى هذه البلاد حيث احتفظ ببعض التقاليد الفكرية والأدبية حتى الوقت الذي وضعت فيه المزامير.

### 3 ـ مختارات من نشيد أخناتون والمزمور 103:

| نشيد أخناتون | المزمور 103 |
|---|---|
| أنت تبزغ ببهاء في أفق السماء، | 1)... أيها الرب إلاهي لقد عَظُمْتَ |
| أنت آتون الحي بداية الحياة! | جدا. جلالاً وبهاءً لبست. |
| عندما تشرق في الأفق الشرقي، | 2) أنت الملتحف بالنور كرداءٍ الباسطُ |
| تملأ الأرض كلها بجمالك. | السماءَ كسجفٍ. |
| أنت جميل وعظيم، متلألىء. وعال فوق كل بلد. | |
| تحيط أشعتك بالأراضي كلها التي صنعتها. | |
| أنت رع، تصل إلى نهايتها، | |
| تُخضعها لابنك المحبوب. | |
| * * * | 19) صنع القمرَ للأوقات والشمسُ عرفت |
| | غروبها. |
| وعندما تغرب في الأفق الغربي، | 20) تجعل ظلمةً فيكون ليلٌ، |

تظلم الأرض كالموت.
ينامون في حجرة، رؤوسهم مدثرة،

* * *

ويخرج كل أسد من عرينه،
وكل ما يزحف، أنها تلدغ،
الظلام مخيّم والأرض في سكون،
لأن الذي خلقهم يستريح في أفقه،
عند الفجر، عندما تشرق في الأفق،
وتشع كأتون في النهار،
تسوق الظلام بعيداً وتبعث أشعتك...
يستيقظ الناس ويقفون على أقدامهم...
وجميع من في الكون يعملون أعمالهم.
وتسعد الحيوانات بمراعيها،
وتزهر النباتات والأشجار
وترفرف الطيور فوق أعشاشها
ممتدة أجنحتها لتمدح روحك.
وتقف الحيوانات على أقدامها.
وكل ما يطير أو يحط...
السفن تسير نحو الجنوب ونحو الشمال...
أيها الخالق لبذرة الحياة في النساء،
أنت تحافظ على الطفل في رحم أمه،..
يوم ولادته،
تفتح فمه، وتوفر له الحياة...
ما أكثر أعمالك!...
إنها خافية على الناس.
أيها الاله الأوحد، الذي لا مثيل له!

20) فيه تدب جميع وحوش الغاب.
21) تزأر الأشبال للافتراس والتماسِ
طعامِها من الله.
22) تشرق الشمس فتجتمعُ وفي مآويها
تَرْبِض
14) أنت المنبتُ كلاً للبهائم وخَضراً
لخدمة البشر لإخراج خبز من الأرض
17) هناك تعشش العصافير وللقلق
بيتٌ في السرو.
24) ما أعظم أعمالكَ يا ربُ. لقد
صنعت جميعها بالحكمة فامتلأت
الأرض من مقتناك.

لقد خلقت العالم حسب مشيئتك!،
عندما كنت وحيداً،
جميع البشر، والماشية، والوحوش الضارية
وكل ما على الأرض يسعى على قدميه
وكل ما يرتفع، يطير بجناحيه
في سوريا والنوبة وأرض مصر،
أنت تضع كل شيء في مكانه...
سيد الجميع مرهقا نفسه من أجلهم
سيد كل أرض، مشرقا من أجلهم

آتون النهار، عظيم البهاء...
ما أعظم خططك يا رب الأبدية!
النيل في السماء من أجل الشعوب الأجنبية،
ومن أجل الحيوانات المفترسة التي تسير على الأقدام
النيل (الحقيقي) يأتي من العالم السفلي من أجل مصر...
أنت في قلبي،
وليس هناك من يعرفك،
غير ابنك «نفر ـ خبرو ـ رع ـ واع ـ ان ـ رع...
عندما تشرق يعيشون،
وعندما تغيب يموتون.
إنك أنت الحياة بعينها،
ويعيش الانسان إذا أردت...
تتوقف جميع الأعمال حين غروبك
وعندما تشرق ثانية
ينتعش (كل شيء) لأجل الملك...
لأنك أنت خلقت الأرض،

25) هذا البحر العظيم الواسع الأطراف
هناك دبابات لا عدد لها،
حيوانات صغار مع كبار...ـ
26) هناك تسير السفن..

27) الجميع يرجُونك لترزقَهم أكلَهُم
في أوانه.

28) ترزُقُهُم فيلتقطون، تَبْسُطُ يدك
فيشبعونَ خيرا.
29) تَحْجُبُ وجهك فيفزعونَ.
تَقْبِضُ أرواحَهم فيموتونَ وإلى ترابهم
يعودونَ.
30) ترسل روحك فيُخلقونَ وتجدد وجهَ
الأرض.

وخلقتهم من أجل ابنك،
الذي ولد من صلبك
ملك مصر العليا والسفلى،... أخناتون...
وزوجة الملك العظيمة... نفرتيتي،
حيا وشابا إلى ابد الأبدين.

وإذا ما رجعنا إلى تتبع الأحداث السياسية نرى أن الضعف قد دب في جسم الامبراطورية منذ عهد امنحوتب الثالث الذي كان عصره بداية الرخاء والانحلال واهمال ما كانت مصر قد كسبته سابقاً. ولقد حاول عدد من أمراء سوريا الشمالية الانفصال عن مصر كما استطاع عدد منهم انشاء دولة مستقلة (ربما بمساعدة الدولة الحثية) في شمالي سوريا.

وقبل موت أمنحوتب الثالث، كانت مصر قد فقدت سيطرتها على قسم كبير من هذه الأقاليم الشمالية، ثم تتالت الأحداث في عهد أخناتون الذي انشغل بالثورة الدينية وتخلى عن الأعمال العسكرية.

لقد أشرنا سابقاً إلى أن سوبيلوليوما قد جهز حملة على سوريا وأخضعها لسلطانه، وتهدمت مدينة قطنا، ورضخت دولة ميتاني للسيطرة الحثية، وسقطت المدن الكنعانية، وهي الموالية لمصر والمعتمدة عليها في الدفاع عن نفسها، كما عرفت فلسطين أحداثاً مشابهة تمثلت بما كانت تقوم به جماعة الخبيرو من أعمال تهدد أمن مدنها. فكتب أمير أورشليم إلى أخناتون يطلب منه ارسال قوة عسكرية من خمسين جندياً للدفاع عن مدينته، في حين أن الفرعون لم يلتفت إليه، كما لم يلتفت إلى أي من أمراء المدن الكنعانية الذين توجهوا إليه، هم أيضاً، بطلب النجدة. ويبدو أن الحاميات المصرية تراجعت، وقام المتمردون المحليون وبدو الصحراء بالاغارة على عدد من المدن السورية الفلسطينية، فخربوا أريحا، وتل بيت مرسيم، وغزة، أهم المراكز المصرية، كما نهبوا المعبد المصري في لاخيش (تل الدوير).

أما الأقاليم الجنوبية، فالمعلومات عنها غير متوافرة، لكن يبدو أنها تعرضت لأحداث مماثلة، وتوقفت مناجم الذهب فيها عن العمل. فكان لهذه الأحداث والثورات المتتالية في الخارج أثر كبير في حياة مصر الداخلية وفي اقتصادها، الأمر الذي أدى إلى اضطراب الأحوال ومضاعفة النقمة على الملك وسياسته، وإلى نشوء معارضة قوية، بعيداً عن العاصمة، تألفت من الكهنة والموظفين وربما من الصناع ومن ساءت حاله من الحرفيين نتيجة للتغيرات الاجتماعية.

وثمة خلاف آخر، داخل القصر، بين افراد الأسرة المالكة، خلاف كان من نتائجه إبعاد نفرتيتي إلى أقصى شمالي المدينة واحلال ابنتها الكبرى «مريت ـ أتون» محلها كسيدة القصر الأولى. وقد تزوجت هذه الأخيرة من سمنخكارع الذي أشركه الملك في الحكم ثم نقله إلى طيبة ليعيد الصلة بآمون، ربما ارضاء لكهنة هذا الاله، ولايجاد نوع من التسوية. ويعتقد أن هذه المحاولة في التوفيق بين الطرفين قد أدت إلى انقسام أفراد الأسرة المالكة، بعد أن رفضت نفرتيتي الاعتراف بأية قوة أخرى غير سلطة آتون.

كانت نهاية أخناتون غامضة، واختفى هو وأخوه سمنخكارع، وتسلم الحكم توت ـ عنخ ـ آمون، الأمير الشاب الذي تزوج من احدى بنات أخناتون، لكنه لم يستطع الاستمرار في تدعيم الثورة الدينية وأجبر على العودة إلى التقاليد القديمة، ثم غير اسمه واسم زوجته مستبدلاً بآتون آمون، ونقل العاصمة من جديد إلى طيبة، وقام بترميم المعابد التي أهملت في عهد سابقه ودفع لها تعويضاً عما نالها من ضرر، و «ضوعفت كل أملاك المعابد، بل واصبح لها ثلاثة وأربعة أمثال ما كان لها من الفضة والذهب واللازورد.

وفي عهد حورمحب، أول ملك شرعي بعد موت امنحوتب الثالث، انتهت الثورة وزال كل اثر لديانة آتون، وحُرّم ذكر الفراعنة الملحدين: أخناتون، وسمنخكارع، وتوت ـ عنخ ـ آمون، وآي.

## 4 ـ المراحل الأخيرة من الدولة الحديثة

يبدو أن حورمحب، آخر ملوك الأسرة الثامنة عشرة، قد عقد معاهدة صلح مع الحثيين، لقاء بعض التنازلات في سوريا، لينصرف إلى حل المشاكل الداخلية. ففي الثلاثين سنة التي حكم فيها (وهي المرحلة الأخيرة من الأسرة الثامنة عشرة)، اقتصر جهد الدولة على تنظيم البلاد، واصلاح الجهاز الإداري، واعادة الموظفين إلى مراكزهم في المعابد والسراي. فارتفع شأن الكهنة من جديد وأعفيت المعابد من الضرائب وأعيدت إليها أملاكها القديمة. واصدرت الدولة في عهد حورمحب مرسوماً يحتوي على مجموعة من القوانين بغية تصحيح الأوضاع الناشئة عن ضعف الحكم في عهدي أخناتون وتوت ـ عنخ ـ آمون.

تنص القوانين الجديدة على حماية الفقراء وممتلكاتهم بالحد من سلطة الجنود وجشع جامعي الضرائب. وكانت العقوبات التي تقرر اتخاذها في حالات السرقة والاعتداء على

ممتلكات الفقراء قاسية للغاية، لكن حماية الفقراء كانت مرتبطة بحماية الضرائب والحفاظ على مصادرها. فيعاقب الموظف «بقطع أنفه ونفيه إلى ثارو» إذا اعتدى على رجل من العامة، واستولى على القارب الذي يستخدمه هذا الرجل لدفع ما عليه من ضرائب، ويعاقب الجندي بقسوة إذا استولى على جلود الحيوانات التي يريد صاحبها أن يدفعها في الضرائب المتوجبة عليه: «فابتداء من اليوم، توقع عليه العقوبة بضربه مائة عصا، ويفتح في جسمه خمسة جروح، ويؤخذ منه الجلد الذي اغتصبه كما لو كان مسروقاً».

إن مثل هذه القوانين القاسية التي لم تعرف من قبل، كان الغرض منها المحافظة على مصالح الدولة وفرض نفوذها في الداخل. فالأحداث التاريخية السابقة (دخول الهكسوس إلى مصر، ثم اتساع الامبراطورية، وأخيراً بدعة العمارنة) كانت من الأسباب التي أدت إلى الاستئثار بالسلطة المطلقة أكثر من ذي قبل.

بعد موت حورمحب، انتقلت السلطة إلى أيدي عائلة جديدة تمثلت بالأسرة التاسعة عشرة، ولوحظ في أسماء ملوكها اتجاهاً جديداً أكثر اهتماماً بآلهة الشمال مثل رع، وست، وبتاح، التي تظهر في أسماء: رعمسيس، ستى، ومرنبتاح. وفي هذا العهد نقل مركز الإدارة الفعلية إلى تانيس (صان الحجر)، وهي على ما يبدو المدينة نفسها التي تأسست في عصر الهكسوس وعرفت باسم أواريس في منطقة الدلتا. لكن طيبة بقيت العاصمة الدينية الأولى، واحتفظ آمون بمركزه في إدارة شؤون الدولة، بل ازدادت ثروة معابده والكهنة القيمين عليها.

كانت هذه المرحلة الجديدة، في نظر المصريين بمثابة نهضة، يشير إليها التعبير الذي اعتمده ستي الأول في تأريخ سني حكمه: «السنة الثانية من عهد تكرار ولادة (ستى الأول)؛ «ويراد بهذا التعبير التدليل على ما قام به فن محاولات للرجوع إلى التراث والتقاليد القديمة واحيائها. ومنذ بداية عهده، اهتم ستي الأول بفكرة استعادة الامبراطورية في آسيا، وبنى، من أجل تحقيق هذا الغرض، القلاع، وحفر الآبار في أماكن من سيناء، ما بين السويس ورفح في فلسطين. ففي السنة الأولى من حكمه ذهب إلى فلسطين لمواجهة تحالف أمراء محليين، «فأرسل جلالته خير فرق آمون إلى مدينة حماه (وهي غير حماه السورية) وخير فرق رع إلى مدينة بيسان وخير فرق ست إلى مدينة ينعم، وفي مدى يوم خضع الثوار لمجد جلالته».

سجل هذا الانتصار في معبد الكرنك إلى جانب معارك أخرى في سيناء وفلسطين وسوريا. وهكذا خضعت الأقاليم الشمالية من جديد، لمصر استعادت حدودها القديمة في

الشمال. ويحتمل أنه عقد معاهدة مع خاتي لأن الحرب معها لم تكن حاسمة، لينصرف إلى توطيد الأمن في البلاد، واقامة المباني الضخمة، منها معبده في طيبة والمعبد الجميل في أبيدوس، ثم متابعة العمل في قاعة الأعمدة في الكرنك؛ وفي عهده ظهرت المشاهد التصويرية الحربية على جدران المعابد وفق تقليد لم يعرف إلا منذ عهد تحوتمس الرابع عندما زيّن عربته بمشاهد حربية، وأصبح نمطاً فنياً اتبع فيما بعد، ولا سيما في أيام رمسيس الثاني.

ولكن نجاح العمليات العسكرية سواء في الشمال أو الجنوب، لم يحل دون مواجهة مصر صعوبات جمة في تدعيم نفوذها حتى في عهد رعمسيس الثاني؛ فالمنطقة شهدت تحولات تاريخية كبرى على أثر مجيء شعوب جديدة في أنحاء مختلفة من حوض البحر الأبيض المتوسط.

كنا قد أشرنا سابقاً إلى أعمال رعمسيس الثاني الحربية وتكلمنا على موقعة قادش في حديثنا عن الحثيين، وأشرنا إلى أن المعركة لم تكن فاصلة ولم يحقق رعمسيس أهدافه السياسية والعسكرية، لكنه، مع ذلك، أعلن، لدى رجوعه إلى مصر، انتصاره على الحثيين. وجاء في النص الذي نقش على جدران معابد الكرنك وأبي سنبل أنه نجا بأعجوبة (بفضل آمون) من الكمين الذي نصبه له العدو، وهو يتألف من «الفين وخمسمائة عربة... وفي كل عربة ثلاثة رجال يعملون معاً". وبعد أن استجاب آمون لدعائه صرح قائلاً: «وجدت الألفين وخمسمائة عربة التي كنت في وسطها أصبحت أكواماً من جثث أمام خيلي». واستطاع أن يصد هجوماً من ألف عربة يقودها عدد من الأمراء المتحالفين «أمير ارزاوا، وأمير ميسيا، وأمير ارون، وأمير ليكيا، وأمير داردانيا... وأمير كركميش، وأمير كيليكيا، وأمير حلب وأخوه ملك خيتا مجتمعين معاً».

من الواضح أن النص المصري يبالغ في وصف شجاعة الملك وحكمته وقدرته، إذ لا بد من ذلك، طالما أن الملك يتمتع بصفات الهية، وبقدرة تفوق قدرة البشر. ومن الطريف أنه لا يكاد يوجد فرق بين النص الذي يصف انتصار تحوتمس الثالث الفعلي في مجدو والنص الذي يصف معركة قادش. ففي الحالين، عقد الفرعون مؤتمراً عسكرياً قبل خوض المعركة، وفي الحالين، كان الرأي للملك وكان النصر حليفه، لحكمته وشجاعته وقدرته الشخصية. ففيه تتجسد الألوهية، وتتمثل الدولة، وينسب إليه كل فعل وكل انتصار. مثل هذه المبالغة لا تقتصر على النصوص الكتابية بل تظهر بوضوح في المشاهد التصويرية التي تمثل أحداث المعركة في مساحات كبيرة على جدران معابد رئيسة في مصر.

لكن رعمسيس الذي أخفق في قادش، قام بحملات ناجحة في السنوات التالية محاولاً استعادة النفوذ المصري في آسيا، فاحتل عسقلان «عندما تمردت» وخرب عكا «حتى إذا رآها أمراء قادش وقع في قلوبهم الخوف منه». هذا الصراع الطويل بين الحثيين والمصريين انتهى بمعاهدة سلام، في سنة 1270 ق.م، نقشت بنودها على لوحين من الفضة. وهي تنص في الدرجة الأولى على ايقاف القتال وعدم الاعتداء، «أن أمير خيتا العظيم لن يعتدي إلى الأبد على أرض مصر... وأن حاكم مصر العظيم لن يعتدى إلى الأبد على أرض خيتا أو يأخذ شيئاً منها إلى الأبد». إن عدم الاعتداء اقتصر طبعاً على ممتلكات الدولتين في سوريا، بمعنى أنهما تقاسما مناطق النفوذ في هذه المنطقة من دون أن يوضحا الحدود الفاصلة بينهما.

لعل الملفت في ما أوردته هذه المعاهدة تعهد الطرفين تسليم اللاجئين السياسيين مهما كانت الطبقة الاجتماعية التي ينتمون إليها، «رجل عظيم، أو رجل أو رجلان من غير المعروفين». ويتم تسليم اللاجىء السياسي شرط ألا يعامل معاملة سيئة (قتله، تشويه جسده، أو نفيه) وأن «لا توجه إليه أي تهمة». إن هذه المادة، بالاضافة إلى مواد أخرى ورد ذكرها سابقاً، تشرح الصفة الدولية لهذه المعاهدة.

تدعيماً للسياسة الجديدة تزوج رعمسيس الثاني ـ بعد أن جاوز الخمسين ـ من ابنة الملك الحثي. وفي هذا الصدد يقول النص المصري أنه عندما أصاب خاتي القحط رأى حاتوسيل الثالث أنه لا بد من ارضاء الفرعون والاله ست: «وإلهنا ست غاضب علينا، ولا ترسل السماء ماءها علينا... فلنحرم أنفسنا من كل ما نملكه وفي مقدمة ذلك ابنتي الكبرى...» فأرسل الملك ابنته إلى الفرعون ومعها جزية فخمة من الذهب والفضة... والخيل التي لا حصر لها وعشرات الآلاف من الماشية... وما لا يمكن حصره من محاصيلهم...» وعندما وصلت الأميرة إلى مصر ـ يرافقها وفد من المبعوثين والجنود الحثيين ووفد من المصريين أرسلوا لاستقبالها ـ رأى الفرعون «أنها كانت جميلة الوجه كأنها الهة، حقا لقد كان ذلك شيئاً عظيماً لا مثيل له، فخما وموفقا، كان شيئاً لم يعرفه أحد، ولم يسمع به أو تناقله انسان، ولم يرد في كتابات الأقدمين... لقد وقع جمالها في قلب جلالته وأحبها أكثر من أي شيء آخر».

من الواضح أن المعاهدة التي انتهت بهذا الزواج الملكي قد شكلت بداية مرحلة جديدة بالنسبة إلى مصر يسودها الأمن والسلام، فأصبح بامكان «أي رجل أو امرأة يريد السفر في مهمة إلى زاهي (الشاطىء الكنعاني) أن يذهب إلى بلاد خاتي من دون أن يخالج قلبه خوف،

وذلك بفضل عظمة انتصارات جلالته».

عاش رعمسيس الثاني حياة طويلة وحكم حوالي 67 سنة (1304 ـ 1237 ق.م)، وكان له ذكرى طيبة في نفوس المصريين حتى بعد مضي قرن من وفاته، بل أصبح شخصاً شبه اسطوري، لانتصاراته الحربية ولأعماله العمرانية في مصر كلها، ولكثرة ما أنجبه من أولاد (يتجاوز عددهم 150 ولدا، ذكوراً واناثاً). وفي عهده أصبحت تانيس المدينة الأولى ومركز الإدارة الفعلي في البلاد، وسميت باسمه رعمسيس. فكانت هذه المدينة الجديدة، في شمال الدلتا (ربما في المكان المعروف باسم صان الحجر اي مكان مدينة الهكسوس اواريس)، ملتقى التيارات الثقافية المصرية والأجنبية، تتدفق عليها الخيرات من أنحاء عديدة في أفريقيا وغرب آسيا وحوض البحر المتوسط.

جاء في احدى القصائد الشعرية وصف جميل لبعض الاحتفالات في المدينة: «شيد جلالته لنفسه قلعة محصنة اسمها عظيم الانتصارات، تقع بين زاهي ومصر... تشرق الشمس في أفقها وتغرب فيها. تخرج سفنها ثم تعود لترسو، تتكدس فيها الأطعمة والمؤن، في كل يوم ينعم الانسان بالسكن فيها، ولا يرى فيها أحد نقصا... يبدل شبان عظيم الانتصارات ملابسهم كل يوم، وعلى رؤوسهم الزيوت العطرة... إن جعة عظيم الانتصارات حلوة المذاق، وتأتيها جعة كليكليا من الميناء، وكذلك نبيذ الكروم... إن المغنين الذين في عظيم الانتصارات يحلو الاستماع إليهم، فإنهم تعلموا في منف...».

شيّد رعمسيس العديد من المباني الضخمة في معظم المدن المصرية القديمة، منها المعابد العديدة في طيبة وأبيدوس، ومعبده الذي نحت في الصخر في أبو سنبل، وهو يتميز بواجهته الضخمة وتماثيله العالية (حوالي 20م). وفي عهده تم بناء قاعة الأعمدة في الكرنك التي تعتبر من أعظم الآثار المصرية. ولم يكتف رعمسيس بذلك، بل اغتصب عدداً من مباني أسلافه وتماثيلهم وكتب اسمه عليها محل أسمائهم، كما استخدم حجارة بعض المعابد القديمة في الأبنية التي شيدها.

لكن مصر التي عرفت عصرا من الازدهار والمجد والاطمئنان في أيام حكم رعمسيس الثاني، تعرضت في عهد خلفائه لمصاعب داخلية وخارجية ستقودها سريعاً إلى الانهيار. ففي عهد ابنه وخليفته مرنبتاح (عند وفاة رعسيس كان اثنا عشر من أولاده قد ماتوا، فخلفه ابنه الثالث عشر)، هاجم الليبيون مصر بعد أن تحالفوا مع فئات أتت من جهات البحر، منهم

الأكيون والليكيون والسرديون والصقليون. لكن الفرعون تمكن من صدهم في غربي الدلتا وأوقع فيهم عدداً كبيراً من القتلى وأسر حوالي تسعة آلاف رجل. فهدأت الأحوال فترة من الزمن ولم يعد هناك «أثر للخوف في قلوب الناس... وأصبحت الابار مباحة يردها كل مسافر، وأبراج الجدران هادئة تغمرها الشمس حتى يستيقظ حراسها... لأن رع أعاد نفسه ثانية إلى مصر».

في لوحة عثر عليها في معبد مرنبتاح الجنائزي اشارة إلى انتصاره في ليبيا وإلى حملة قام بها في آسيا (مع أنه ليس أكيداً أنه قام بمثل هذه الحملة)، ورد فيها اسم اسرائيل للمرة الأولى في نص مصري: «ونهبت كنعان وأصابها كل شر، و «ينعم» أصبحت كأنها لم تكن، واسرائيل أبيدت وزالت بذرتها، وأصبحت فلسطين أرملة لمصر». و«اسرائيل»، كما وردت في هذا النص، لا تعني دولة، بل جماعة غير مستقرة، متنقلة، ما زالت في طور البداوة، وان استقرت ففي الخيم وليس في بيوت ثابتة.

تعرضت مصر في أواخر الأسرة التاسعة عشرة وبداية الأسرة العشرين لمشاكل داخلية نجهل تفاصيلها. ففي أقل من عشرين سنة توالى على الحكم أربعة أو خمسة ملوك، كان آخرهم رجل يبدو أنه من أصل سوري، ساءت الأحوال وأهملت المعابد في عهده.

لكن رعمسيس الثالث، الملك الثاني في الأسرة العشرين، استطاع أن ينهض بمصر ثانية، فهزم الليبيين عندما هاجموا مصر في عام حكمه الخامس ثم في السنة الحاديةعشرة منه، وانتصر عليهم، بل تمكن من أسر ملكهم في المرة الثانية، كما أسر عدداً كبيراً منهم ليستخدمهم عمالاً وأرقاء في مصر. استطاع رعمسيس الثالث أن يوقف تقدم شعوب البحر بعد أن هاجموا عدداً من مدن الشاطىء الكنعاني، و استولوا على المدن الحثية الرئيسية، وتابعوا سيرهم باتجاه مصر. وفي عهده احتفظت مصر (حتى بعد مجيء شعوب البحر والانتصار عليهم) بنفوذها في آسيا، ولا سيما في فلسطين والمدن الكنعانية. ولقد عثر على تمثال لرعمسيس الثالث في بيسان وعلى قطع أثرية أخرى من عهده في مجدو.

لكن هذه الانتصارات الحربية والأعمال العسكرية في آسيا توقفت من بعده، وسرعان ما تقلص النفوذ المصري، فكان رعمسيس الثالث آخر من كان له نفوذ في غرب آسيا، ثم اتى من بعده عدد من الملوك عرفوا جميعهم باسم رعمسيس (من الرابع إلى الحادي عشر) ساءت في عهدهم الأحوال الاقتصادية والاجتماعية، وكان رعمسيس السادس آخر من أرسل حملة

لاستغلال مناجم الذهب في سيناء.

أصبح ملوك هذه المرحلة الأخيرة من الدولة الحديثة أُلعوبة في أيدي الكهنة وعرف عهدهم (عهد الرعامسة) بالانحلال والفوضى وتسلط الموظفين على حساب الطبقة الصغيرة. فأهملت شؤون البلاد، وأسند أمر إدارتها إلى وزيرين، الأول في منف والثاني في طيبة، لكن السلطة الفعلية بقيت في أيدي الكهنة.

غير أن بوادر الضعف كانت قد ظهرت منذ عهد رعمسيس الثالث الذي أغدق الأموال والهبات (من أرقاء وأراضٍ) على المعابد. فكان لمعبد آمون وحده ثروة طائلة تضاهي ما تملكه جميع المعابد الأخرى، وله من الممتلكات ما يساوي 10٪ تقريباً من مجموع أراضي البلاد الصالحة للزراعة، ومن الأرقاء حوالي 86،500، يعملون في أراضيه، ومن الماشية ما لا يقل عن 421000 رأس. يضاف إلى ذلك ما كان يملكه من حدائق في أماكن عديدة من البلاد، ومناجم الذهب في النوبة، وبعض القرى في غربي آسيا التي كانت تأتيه بالمحاصيل والضرائب في حينها. وبمرور الأيام ازداد نفوذ كهنة آمون وباتوا يتدخلون فعلياً في إدارة شؤون البلاد.

يبدو أن امنحوتب، أحد كبار كهنة آمون في عهد رعمسيس التاسع (الأسرة 20)، كان يشرف على خزانة الدولة، ويشغل وظيفة حامل ختم الملك، وكان له حق جباية الضرائب المتوجبة لأمون مباشرة بواسطة كتبة المعابد من دون الاستعانة بموظفي الدولة. وقد أدى اتباع مثل هذه الأنظمة الداخلية إلى استيلاء الكهنة على الحكم في بداية الأسرة الواحدة والعشرين.

ومن الأسباب الرئيسة التي أدت إلى تردي الأوضاع الداخلية، التحول الذي حصل في اقتصاد البلاد بعد اكتشاف معدن جديد هو الحديد الذي حل، منذ بداية القرن الثاني عشر، محل البرونز. ومن المعروف أنه كان لمصر (لا سيما في عهد الامبراطورية) السيطرة شبه الكاملة على مناجم الذهب والنحاس، سواء في سيناء أو في النوبة والسودان. وكان للنحاس أهميته لكونه يدخل في صناعة البرونز، المادة الأولية الرئيسة في اقتصاد البلاد. أما الحديد، فلم تكن مصر تملكه، بل كان عليها أن تشتريه من بلاد أخرى، في الشمال، في وقت لم يعد فيه من السهل المخاطرة في ارسال قوافل إلى بلاد شمالية لا تخضع لنفوذها.

هذا التحول في اقتصاد البلاد، اضافة إلى عوامل أخرى في الداخل، كاتساع سلطة رجال الدين وازدياد التفاوت الطبقي، أدى إلى تردي الأوضاع الداخلية. فمنذ أواخر عهد رعمسيس الثالث ارتفعت أسعار الغلال، وبخاصة القمح، ثم تضاعفت واستمرت في الارتفاع

في عهد خلفائه، ما زاد في اضطراب الأوضاع ونقمة العمال والطبقات الفقيرة من الشعب. فكثرت أعمال النهب والرشوة، وضعفت سلطة المحاكم، سيما وأن النظر في الدعاوي أو البت في أمرها كان يرجع إلى ما يحكم به الاله الذي يصدر الأحكام ثم ينقلها الكهنة إلى اصحاب العلاقة. وكان تعيين الموظفين ومحاكمة المدنيين من الأمور التي ترجع أيضاً إلى وحي الآلهة.

إن ضعف الدولة، وفساد النظام الإداري، وانخفاض الدخل، كانت كلها من أسباب الفوضى التي استغلها الموظفون للتصرف بأموال الدولة لحسابهم الخاص، وانتشار وباء سرقة المقابر في الأسرة العشرين. ان استمرار هذه السرقات مدة طويلة من الزمن يؤكد أن الموظفين كانوا على علم بهذه الأعمال وربما كان لهم نصيب وافر منها[1]. ولما كانت الدولة عاجزة عن مراقبة الجبانة وايقاف ما يحدث فيها من سرقات، اضطرت إلى نقل مومياء الملوك القدماء خفية

---

1 ـ هنالك وثيقة من العام السادس عشر من حكم الفرعون رعمسيس التاسع تروي قصة تحقيق في سرقة يُتهم فيها كل من النحاس «باي ـ خارو» و «الحجار» با ـ نفر، وقصة الخلاف بين موظفين مسؤولين أمام وزير طيبة الشرقية والغربية. يوجه باسر، حاكم طيبة الشرقية اتهاما ضد زميله «باورعا»، المسؤول عن الجبانة في الجهة الغربية... فتألفت لجنة للتحقيق في ادعاءات باسر، الرجل الوحيد الذي كان يطالب بتطبيق العدالة والأمانة في العمل. جاء في اتهاماته أن أربعة عشر قبرا من قبور الملوك والملكات سرقت. فيما تبين من الكشف أن قبرا واحدا سرق وأن اللصوص قد بدأوا بحفر ممر في الصخر للوصول إلى الغرفة المدفنية في قبر آخر. إلا أن مقابر النبلاء نهبت جميعها وبعثرت جثث أصحابها. لكن هذه الأخيرة لا أهمية لها. تبع ذلك مظاهرة ابتهاج لتبرئة رئيس طيبة الغربية، ثم ذهب أنصاره إلى طيبة الشرقية متحدين «باسر» الذي عُزل من منصبه في حين بقي منافسه «بارو» في وظيفته سبعة عشر عاما بعد ذلك التاريخ.

وبعد مضي 15 شهرا على تلك المحاكمة تبين أن اللصوص حطموا قبراً في وادي الملكات ولم يكن من بين المتهمين واحد من ذوي المراكز الرفيعة، فجميعهم من عامة الناس أو الحرفيين. وفيما يلي اعتراف أحدهم، ملقياً بعض الأضواء على الحالة في البلاد وجهازها الإداري. فيقول الحجار «أمون بانفر» أنه اشترك في سرقة قبر «سوبك أم سف» بعد أن حفر ممرا أدى إلى الغرفة المدفنية حيث وقع نظره على «الاله الراقد في آخر حجرة الدفن». وبعد أن انتهى اللصوص من عمليتهم أحرقوا التابوت الخشبي. ويضيف النص: «قسمنا الذهب الذي وجدناه مع هذين الالهين، من تمائم وحلى وتوابيت، إلى ثمانية أقسام. فكانت حصة كل واحد منا عشرون دبنا (حوالي كيلوغرامين)... وكان المجموع 160 دبنا من الذهب، ولم يقسم باقي الأثاث... ثم عبرنا النهر إلى طيبة، وبعد مرور بضعة ايام سمع شرطة طيبة بأننا كنا نسرق في الغرب، فاعتقلت وسجنت في قصر حاكم طيبة. فأخذت العشرين دبنا التي كانت من نصيبي وأعطيتها إلى «خاع أم اويت»، كاتب ميناء طيبة، فافرج عني وانضممت إلى زملائي، وعوضت عن نصيبي بنصيب آخر، وتابعت أنا واللصوص الآخرون الذين كانوا معي مزاولة سرقة مقابر النبلاء وأعيان البلاد المدفونين في غربي طيبة حتى اليوم، وهناك عدد كبير من السكان يشاركون أيضاً بسرقة المدافن».

إلى مكان آخر، حيث وضعت حوالي ثلاثين مومياء في حفرة واحدة بعد أن استغنوا عن أثاثاتها المدفنية. لذلك بقيت سالمة حتى يومنا ولم يعبث بها اللصوص، ربما لأنها لم تعد تهمهم.

ومن الأحداث التي حصلت في عصر الأسرة العشرين تلك المحاولات العمالية التي تمثلت في التوقف عن العمل عندما تأخرت الحكومة عن دفع أجورهم بسبب عجزها. فللمرة الأولى في التاريخ تتحدث النصوص المصرية عن اضراب عمال رفضوا متابعة العمل ما لم تدفع أجورهم في حينها. وهم العمال الذين يقومون بقطع الحجارة ونحتها وبناء المقابر وتزيينها بالنقوش والمشاهد التصويرية، غربي طيبة، وغيرهم من عمال وأجراء استخدموا في مشاريع مختلفة. كان لهؤلاء العمال أحياء خاصة بهم حيث كانوا يسكنون مع عائلاتهم في بيوت صغيرة بنيت قرب الجبانة في الجهة الغربية من طيبة. ولقد حصل الاضراب الأول في السنوات الأخيرة من حكم رعمسيس الثالث «العام 29، الشهر الثاني، من الفصل الثاني، اليوم العاشر. في هذا اليوم اخترق فريق العمال في الجبانة الأسوار الخمسة صائحين: «نحن جياع»... وجلسوا خلف المعبد. وقد جاء هذا الاضراب بعد مضي شهرين تقريباً من عجز الدولة عن صرف مخصصاتهم، لذلك كان لا بد من الاستمرار فيه.

في اليوم الثالث هجموا على معبد رعمسيس الثاني واحتجوا قائلين: «لقد جئنا إلى هذا المكان بسبب الجوع، وبسبب العطش، فنحن بدون ثياب وبدون زيت، وبدون سمك وبدون خضار، فاكتب إلى فرعون، سيدنا الطيب وأخبره بذلك، اكتب إلى الوزير الذي يشرف علينا، افعل ذلك لكي نعيش». لقد نالوا مطاليبهم في اليوم الثامن من اعلان الاضراب وعلمتهم هذه المحاولة الناجحة ألا يسكتوا عن اغتصاب الدولة لحقوقهم وأن يضربوا عن العمل في كل مرة تتأخر فيها عن صرف مخصصاتهم الشهرية. وبالفعل فقد تكررت هذه المحاولة للأسباب نفسها في عهد رعمسيس التاسع (أي بعد مضي أربعين سنة على الاضراب الأول) ثم في عهد رعمسيس العاشر (بعد 10 سنوات على الاضراب الثاني). وبعد ذلك حاولت مصر في عهد رعمسيس الحادي عشر (آخر الرعامسة) النهوض من جديد وتطهير جهاز الدولة، لذلك سمي هذا العهد بعصر النهضة أو تكرار الولادة. لكن هذه المحاولة لم تدم أكثر من تسع سنوات إذ تسلم العرش حريحور كبير كهنة آمون.

## الفن المصري

نينوى (قصر اشور بانيبال)، اللبوءة الجريحة،
من حجر المرمر (60 سم ارتفاع)، المتحق البريطاني

لا شك في أن الحضارة المصرية هي من أقدم الحضارات وأهمها في تاريخ البشرية، وتعادل في قدمها حضارة بلاد ما بين النهرين، كما يشكل نتاجها الفني (عمارةً ونحتاً وتصويراً وحرفاً..) أحد أبرز فصول تاريخ الفن الأولى. فالأبنية المعمارية العديدة والأعمال النحتية والتصويرية التي أغنت المتاحف العالمية بقيمها الجمالية المميزة قد حافظت على معالمها الأساسية على الرغم مما لحق بها من تلف أو تشويه أو اندثار أحياناً عبر آلاف السنين.

داخل هذا الإطار العام، نشأ الفن المصري، ملتزماً أسلوباً ومنهجاً لم يتبدلا كثيراً طوال ما يزيد على ثلاثين قرنا (من نهاية الألف الرابع حتى بداية العهد الروماني، في السنة 30 ق.م)؛ وقد بُنيا استناداً إلى معرفة تقنية وحرفية واسعة وملاحظة دقيقة وحس جمالي عميق. واستمرار هذه الوحدة الفنية، الموضوعية والأسلوبية، يشكل، بدوره، انعكاساً أميناً وصريحاً لنظم اجتماعية ومعتقدات أو مفاهيم دينية لم تتغير ولم تتعرض إلاّ نادراً لأحداث بارزة، كبدعة أخناتون، كان من شأنها، لو تكررت، أن تبدّل في طبيعة المسار العام للفن المصري القديم. إلى ذلك، فإن مصر، المتمسكة بتقاليدها، قد بقيت طويلاً في ما يشبه العزلة عن العالم الخارجي؛ وإن هي تعرضت مراراً لغزوات خارجية، أفريقية أو آسيوية (كغزوة الهكسوس، حوالي 1750 ق.م)، وقامت هي بدورها، عندما تمكنت من طرد الغزاة (مع بداية الدولة الحديثة، حوالي 1580 ق.م)، بتأسيس امبراطورية مترامية الأطراف وصلت حتى نهر الفرات في أعالي سوريا... إلا أنها لم تتخل عن تقاليدها، ولم تتبدل كثيراً معتقدات المجتمع المصري ومفاهيمه، كما لم تتبدل وسائل التعبير عنها فنياً. فالشعوب التي دخلت وادي النيل واستقرت فيه، تأقلمت مع المجتمع المصري، وذابت فيه، من دون أن تحدث تحولاً كبيراً لا في بناه الأساسية ولا في تقاليده.

## السمات الأساسية للفن المصري

قد يصح الاعتقاد السائد وهو أنه لم يتيسر لأي شعب من شعوب الأرض أن يحقق من الانجازات الضخمة باستخدام أبسط الوسائل التقنية ما تيسر لشعب مصر القديمة أن يحققه سواء في مجال العمارة أو في الأعمال النحتية والتصويرية. فالعمارة المصرية ـ المتمثلة بالمدافن (المصاطب والأهرام والقبور الصخرية) والمعابد ـ صرحية، عملاقة، تتسم بالرهبة والجلال والعظمة. فيها من دلائل المعرفة الهندسية والدقة والاتقان ما يثير الدهشة والاعجاب ويطرح

من التساؤلات ما لا يجد له جواباً شافياً في حالات كثيرة. فهرم خوفو (من الأسرة الرابعة)، المبني من الحجارة الضخمة، بلغ ارتفاعه 146،59م، وبلغ طول ضلع قاعدته المربعة 230م. أمّا قاعة الأعمدة في معبد الكرنك (الأسرة الثامنة عشرة) فتقرب مساحتها من 6500م2، ومع ذلك فهي لا تشكل إلا جزءاً من بناءٍ ضخم مكرس لعبادة الاله آمون. والتماثيل الصرحية القائمة أمام معبد أبو سنبل بأسوان لا يقل ارتفاعها عن 20م.

قد لا نفهم طبيعة هذه المنجزات المعمارية أو الفنية ما لم ندرك الغاية منها وعلاقتها بالمعتقدات الدينية الفرعونية. فالحياة في مصر القديمة تقيدت بنظم سياسية واجتماعية متجذرة أُخضعت لسلطة الملك المطلقة بصفته ممثلاً للإرادة الدينية، بل كائناً الهياً من سلالة اله الشمس «رع»، يتمتع بحماية آلهة أخرى: «حورس» (الصقر)، ابن اوزيرس وايزيس، و «نخبت» (انثى العقاب)، و«أودجت» (الحية). هكذا فإن من يحكم مصر ليس رجلاً من الشمال أو الجنوب، بل كائناً خارقاً تتجسد فيه القيم الجوهرية لكلا الأرضين.

الصفة الأساسية لهذه السلطة المطلقة هي، إذاً، صفة دينية منبثقة عن أفكار ميتافيزيقية (ما ورائية) وضعها الكهنة المصريون، وجعلوا منها محور معتقداتهم الدينية، بحيث أن كل ما يعبر عنها في العمارة أو الفنون النحتية والتصويرية يخضع لقوانين صارمة ومقاييس معينة لا يحيد عنها.

المنطلقات الأساسية لهذه المعتقدات الدينية تقوم على فكرة الخلود (المادي والروحي)، اي الحياة الثانية وكيفية الوصول إليها. فالانسان يتألف، استناداً إلى هذه المعتقدات، من عدة عناصر، كالجسد والروح والقرين، أو العلة الحياتية. ولضمان خلود النفس، في اعتقاد المصريين، لا بد من الحفاظ على الجسد الذي يشكل مقراً لها. من هنا كان اهتمامهم بتحنيط جثة الميت للحفاظ عليها وصيانتها، واهتمامهم بتمثيل الانسان في منحوتات تكون بمثابة بديل للجثة ـ المومياء في حال اندثارها. وكان من الطبيعي أن يهتم المصريون، التزاماً منهم بمعتقداتهم الدينية، بتشييد المباني المدفنية الضخمة (على شكل مصاطب أو أهرام) أو حفرها في الصخر، لاحتواء جثة الميت المحنطة وبدائلها من التماثيل، ثم اغلاقها بأحكام وتمويه مداخلها، وذلك في منطقة واسعة من وادي النيل تحولت إلى مقبرة مترامية الأطراف. هذه المعتقدات الدينية نفسها هي التي دفعت المصريين إلى تشييد المعابد في مختلف أنحاء البلاد، المعابد التي ما زالت إلى اليوم تشهد على عظمتها الآثار الباقية في العديد من المواقع الأثرية: كالأقصر، والكرنك،

والدير البحري، وتل العمارنة، وادفو..

هنا ندرك أسباب استمرارية الفن المصري، ومحافظته على سماته الأساسية، والتزامه مقاييس ومبادىء معينة لم تتبدل. إن وحدة هذا الفن، في البنية والمظهر، في الموضوع والأسلوب، هي، في حقيقة الأمر، انعكاس لهذا التمسك الشديد بالتقاليد والتقيد بالقوانين المنبثقة عن معتقدات دينية كان هاجسها تفسير الوجود الانساني والعالم والقوى المنظمة له. لكن هذه الوحدة الأسلوبية لا تعني بالضرورة رتابة التأليف وجموده. فالمدافن والمعابد المبنية على مدى التاريخ الفرعوني تنّم عن تنوع وتطور كبيرين سواء في التصميم أو الشكل أو طرق البناء. وحتى في مجال النحت والتصوير، الأكثر تقيداً بمعايير فرضتها الضرورة العملية للمعتقدات الدينية، فإنه على الرغم من تكرار المواقف والحركات والكيفيات وأنماط التأليف المعتمدة في الغالب، يبقى الفن المصري، المتوجه اصلاً إلى العالم الآخر، يبقى حياً، متألقاً، بل متنوعاً داخل الوحدة العامة، محافظاً على أصالته، يشدنا إليه، ويثير إعجابنا بما ينطوي عليه من أسرار وبما فيه من قيم تشكيلية انفرد بها.

## العمارة

أول ما يتبادر إلى الذهن، في الكلام على العمارة المصرية، هو تلك المنجزات الضخمة المتمثلة بالأبنية المدفنية (كالأهرام في سقارة، وميدوم، والجيزة) والأبنية الدينية (في الكرنك، والأقصر، والدير البحري..) التي تعتبر اليوم من الروائع العالمية. ولعل الميزة الأساسية لهذه الأعمال البنائية الصرحية تكمن في أنها تتآلف مع محيطها البيئي، وتقوم بوجه خاص، على الفعل المؤثر للأحجام وتدرجاتها عمودياً (في الهرم) وأفقياً (في المعبد). وفي الحالين، تشكل المساحات البنائية الغلاف الخارجي لكتلة أو فضاء غالباً ما يكون مغلقاً (بخاصة في المصطبة أو الهرم) ولا يقوم، خلافاً لما نراه في المعبد اليوناني، بدور أساسي في تحديد هيكلية البناء من الداخل. بيد أن جمالية الأبنية المصرية تكمن في أشكالها الهندسية المبسطة المعبرة (بخاصة في الهرم أو المصطبة أو المسلة) عن فضاء خارجي قد لا نجد ما يقابله إلاّ في العمارة الحديثة. وقد يكون هذا الفضاء أقل انغلاقاً في حالات نادرة، كما في المعبد الجنائزي الذي بنته الملكة حتشبسوت (1486 ـ 1468 ق.م) في الدير البحري، عند أسفل الصخور الشاهقة، قريباً من طيبة. فالمعبد يتألف من باحة خارجية ومصطبتين متتاليين أفقياً حيث يتقدم كل منهما صفان من الأعمدة (يشكلان أروقة

خارجية)، ويجمع بين عناصر البناء منحدران يقومان بدور السلم. وقد شيدت فوق المصطبة الثانية قاعة كبيرة تضم 144 عموداً، يتقدمها رواقان في الجهة الغربية، وتتصل بالهيكل أو قدس الأقداس المحفور في الصخر لجهة الشرق. إن استخدام الأعمدة في أروقة خارجية تتقدم المصطبتين وقاعة العمد يخفف من طبيعة البناء المنغلقة ويجعله على صلة بالفضاء الخارجي على الرغم من أن قاعاته الداخلية محفورة في الصخر، وأننا لا نراها من بعيد. فالمعبد، هنا، يكتسب جماليته لا من الكتلة الداخلية غير المنظورة، بل من الأشكال الخارجية المتمثلة بالأعمدة التي تتقدمه والمنحدرين المؤديين إليه، أي العناصر التي يتكون منها فضاء خارجي ينوب عن الفضاء الداخلي للمعبد نفسه.

## المعبد

ليس المعبد مكاناً لتأدية الصلاة أو التامل، يتيح للانسان المشاركة في العبادة. فهو مكان مغلق حيث أن شخصاً مميزاً، مختاراً (نظرياً، الملك وحده)، يقوم بالسهر على موضوع العبادة، ويسهم في الحفاظ على تلاحم العالم. وهو، لذلك، يختلف اختلافاً بيناً عن الأبنية الدينية المسيحية أو الإسلامية سواء في أغراضه وأهدافه وطقوسه. فالدخول إليه (إلى القسم الأخير منه) يقتصر على الكهنة الذين يقومون بالواجبات والطقوس الدينية من دون مشاركة الآخرين من أفراد الشعب. فهؤلاء يتوقفون عند البهو، الجزء الأول من المعبد، وبعضهم يتقدم نحو قاعة الأعمدة، لكن يحرم عليهم دخول الهيكل أو قدس الأقداس، المحمي بمجموعة من الغرف المتتالية ذات الأبواب الخفية، في ظلمة غير كاشفة. لذلك بنيت هذه المعابد وفق مخطط خاص يتلاءم وطبيعة المعتقدات الدينية، ويشمل مجموعة من الأبنية المتتالية تبعاً لمحور طولي: الطريق المؤدية إلى المعبد وسط صفين من تماثيل أبو الهول، المسلتان القائمتان أمام المدخل الصرحي، الواجهة المؤلفة من برجين يحيطان ببوابة عالية، البهو المحاط بأروقة جانبية، قاعة الأعمدة... وأخيراً قدس الأقداس. إن لهذه العناصر البنائية دلالاتها الرمزية والوظيفية: فكل منها يعبر عن مرحلة معينة من مراحل مسيرة الحفل الرتيبة نحو قدس الأقداس، أو السرّ النهائي. وإن كيفية بناء المعبد تشرح بوضوح طابعه السري: فالمصريون «يصعدون» إلى المعبد، لأن أرضه ترتفع تدريجياً كلما تقدمنا نحو الجزء الأخير منه، بينما ينخفض سقفه، تدريجياً أيضاً، وفي الاتجاه نفسه. يرافق هذا التحول المتدرج من طرف إلى آخر تبدّل في كثافة الضوء: ساطع

عند البهو الأمامي، خافت في الوسط، غائب في الغرفة الصغيرة الممثلة لقدس الأقداس، حيث يتم، بل يكتمل، الإنتقال من الدنيوي إلى المقدس، من النور إلى الظلمة، ويتمكن الكهنة من القيام بواجباتهم وممارسة طقوسهم السرية.

لعل أجمل هذه المعابد وأهمها هي تلك التي شيدت في طيبة، مصر العليا، المدينة التي كانت عاصمة للدولة الوسطى، وأصبحت، منذ بداية الأسرة الثامنة عشرة، عاصمة ومركزاً سياسياً وثقافياً ودينياً للامبراطورية التي أسسها ملوك هذه الأسرة في بداية الدولة الحديثة. وقد تركزت الحياة السياسية والدينية في الجزء الواقع على الضفة اليمنى لنهر النيل (المتمثل اليوم بالقصور الملكية، وبمعابد الأقصر والكرنك على وجه الخصوص)، بينما اقتصرت الضفة اليسرى على المدافن والأبنية الجنائزية المحفورة في الصخر عند سفح التلة الغربية، المعروف اصطلاحاً باسم وادي الملوك.

المدينة، كما تبدو اليوم، هي تجمع عظيم لمعابد شارك في تشييدها أجيال من الملوك الفراعنة، من الدولة الوسطى إلى العهد الروماني؛ الأمر الذي أدى إلى خليط غريب من الأعمال البنائية المتداخلة. ولكن، على الرغم مما لحق بها من دمار وتخريب، تحتفظ هذه الأعمال البنائية بعظمتها، إذ تتمثل فيها العناصر البنيوية الأساسية المتتالية حسب المخطط المشار إليه آنفاً.

داخل هذه المجموعة البنائية المعقدة، تتميز قاعة الأعمدة (في معبد الاله آمون) برحابتها ومظاهرها الصرحية وعناصرها الزخرفية. هذه القاعة، المخصصة لاستقبال كبار الشخصيات والموظفين المقربين إلى العائلة المالكة وأعضاء الكهنوت، شيدت في عهدي ستي الأول ورعمسيس الثاني (من الأسرة التاسعة عشرة). وقد بلغت مقاييسها 130م × 50م، وضمت 134 عموداً موزعة في ستة عشر صفاً، وصل ارتفاعها إلى 24م في الوسط و 13 م في الجهات الجانبية، كما بلغ قطر بعضها ثلاثة أمتار. أمّا السقف فمسطح بني من صفائح حجرية أسندت إلى عتبات حجرية قائمة على تيجان الأعمدة. الغاية من التباين في ارتفاع الأعمدة (في الوسط وفي الجهات الجانبية)، هو أن يتمكن البناؤن من تثبيت نوافذ حجرية تشكل المصدر الوحيد لإنارة هذه القاعة الضخمة بالضوء الطبيعي. وهي الطريقة البنائية نفسها التي اتبعت بعد ذلك في كنائس القرون الوسطى في أوروبا.

## المدفن

المصطبة هي النمط البنائي الأكثر قدماً في مجال العمارة المدفنية الفرعونية؛ أي الشكل الذي انبثق عن التلة البدائية، أو الكتلة الترابية التي كانت، في عصر ما قبل الأسر، تغطي الحفرة الحاضنة لرفاة الميت. وقد تكون هذه التلة على علاقة بالأكمة الأولية التي تجلى فوقها القرص الشمسي عند بداية الخلق، حسب ما يعتقد كهنة مدينة هليوبولس في مصر السفلى. لكن القبر تطور بعد ذلك ليأخذ، مع بداية العصور التاريخية، ملامح الصرح المبني من الحجر (منذ الأسرة الثالثة) بدل الطوب.

هذه المدافن، المعروفة اليوم باسم «مصطبة» نسبة إلى شكلها العام، كانت مخصصة لدفن الملوك والملكات والأمراء وكبار الموظفين. وهي تتألف من قسمين: البنية السفلى (التحتية)، المحفورة في الأرض، تضم غرفة رئيسية يوضع فيها تابوت الميت، وغرفاً ثانوية تكرس للاثاث المدفني... أما البنية العليا (الفوقية)، فأقيمت فوق سطح الأرض على شكل بناء ضخم تميل جدرانه قليلاً إلى الداخل، ويحتوي على عناصر أساسية مختلفة: كالبئر الذي يصل القسم الأعلى بالقسم الأسفل ويردم بعد الدفن، والمعبد الجنائزي، والسرداب، ومجموعة من الغرف... وقد زين بعضها بالمشاهد المصورة والمنحوتة، واحتوت (بخاصة السرداب) على عدد كبير من التماثيل المجسدة للميت، التي يعتقد المصريون أنها تقوم بدور القرين في حال اندثار المومياء.

النمط الثاني من البناء المدفني، والذي يشكل تطوراً معمارياً للمصطبة، هو الهرم. وأهمية هذا البناء تكمن في النسبة العالية جداً من التكامل والاتقان وبما توحي به أشكاله الهندسية، على بساطتها، من عظمة ورهبة ووقار. هذا الشكل الهرمي، المعتبر من أقدم الانجازات المعمارية وأهمها في العالم القديم، شهد مراحل عدة كانت قد تمثلت بالهرم المدرج في سقارة (الأسرة الثالثة)، ثم بأهرام الملك سنفرو في ميدوم ودهشور (بداية الأسرة الرابعة) لتصل إلى قمة تطورها وتكاملها في أهرام الجيزة (الأسرة الرابعة). ولعل ما يفسر هذه الحالة هو أن المبادىء والأسس العامة التي وضعت واتبعت في زمن الدولة القديمة (من الأسرة الثالثة إلى الأسرة السادسة، 2700 ـ 21500 ق.م) لم تتبدل كثيراً طوال قرون عدة. وحتى في ظل السيطرة الأجنبية على مصر، خلال العصور المتأخرة، حافظت الأبنية المصرية على طرازها الفرعوني التقليدي، لا بل اعتبرت الأبنية العائدة إلى الأسرة الثالثة أو الرابعة نماذج تحتذي لما فيها من تكامل واتقان.

تضم مجموعة سقارة البنائية هرم زوسر المدرج، والمعبد الجنائزي، وأبنية أخرى أحيطت كلها بسور خارجي. الهرم، وهو البناء الرئيسي في هذه المجموعة، يبدو وكأنه مؤلف من ست طبقات مدرجة ومتتالية، أي أن أبعادها تتقلص كلما ارتفعت، وتصل إلى علو 60م، في حين تبلغ أبعاد قاعدتها 121م × 109م. أمّا الغرفة المدفنية فحفرت في الأرض، تحت الهرم، كما في المصاطب المشار إليها سابقاً. وتشكل أهرام ميدوم ودهشور، جنوبي سقارة، مرحلة انتقالية تتوضح معها صيغة الهرم ذي الوجوه المسطحة، المبني على قاعدة مربعة، كما في «الهرم الشمالي» (في دهشور)، الذي تضاعف حجمه: 222م × 222م × 105م.

تبلغ قمة هذا التطور في أهرام الجيزة الثلاثة التي تنسب إلى الفراعنة خوفو وخفرع ومنكاورع (من الأسرة الرابعة)، وتعتبر من أشهر ما أنجزته مصر في مجال العمارة. أكبرها، بل أهمها، هرم خوفو، إذ يبلغ طول قاعدته المربعة 230م وارتفاعه 146،59م. وفي هذا الهرم المتميز بالاتقان الشديد، والدقة المتناهية في تحديد الزوايا وأفقية المداميك المبنية من الحجارة الكبيرة، وتوجيه سطوحه بحسب الجهات الأربع، لم تحفر الغرفة المدفنية في جوف الأرض، كما جرت العادة، بل شيدت داخل البناء بحيث يتم الوصول إليها بواسطة ممرات طويلة.

حالياً تبدو الأهرام وكأنها تلال منعزلة، بينما كانت قديماً جزءاً من مجموعة بنائية متنوعة تضم: 1) المعبد أو البوابة الصرحية على ضفة النهر، 2) السرداب الذي يصل بين هذا الأخير والمعبد الجنائزي الملاصق لإحدى جهات الهرم، 3) المعبد الجنائزي. وتمثال أبو الهول المحفور في الصخر على مقربة من البوابة الصرحية المؤدية إلى هرم خفرع ليس إلا جزءاً من هذه المنشاءات، وهو صورة لأسد رابض له راس إنسان، يعتقد أنه يمثل الفرعون نفسه (خفرع).

بنيت الأهرام تلبية لغرضين أساسيين: الخلود والبقاء. لذلك أعطيت هذه الأبنية الشكل الهرمي، أي الشكل الهندسي الأكثر مقاومة لعوامل الطبيعة. وللسبب عينه جاءت هذه الأعمال البنائية بسيطة الأشكال، خالية من العناصر المعمارية الزخرفية، صرحية في أحجامها ومظاهرها. هذا الشكل الهرمي، المتجه نحو العلاء، إنما يعبر أيضاً عن الفكرة الدينية المرتبطة بعبادة الشمس لدى المصريين القدماء، ويسمح، بالتالي، للميت بالصعود إلى السماء، لأن الهرم، في هذه الحالة، يتحول إلى سلم يُسهّل القيام بهذه الرحلة السماوية.

## النحت

إن المنحوتات المصرية إذ تقوم بدور القرين، فإنه من الطبيعي أن تأتي مشابهة لمن تمثله، فتجسده وتضمن له حياة أبدية في اعتقاد سكان وادي النيل. فالغاية العملية، الوظيفية، قد حددت الأطر العامة للفن المصري القديم، وقيدته بشروط المدرسة الواقعية ومبادئها القائمة على محاكاة العالم المرئي محاكاة دقية. لكن جدلية العلاقة بالواقع وامكان تحويله بما يتفق والمعطيات الأساسية لمفهوم الخلود، روحياً ومادياً، قد قادا الفن المصري، منذ الدولة القديمة، وبخاصة في الدولة الحديثة، إلى تباين في طرق تفسير الواقع ومحاكاته تبعاً لتباين الوظائف التي أُخضعت لها عملية تمثيل الأفراد. فثمة أعمال فنية عديدة هي، على ما فيها أحياناً من مسحة مثالية، بمثابة صور شخصية حقيقية، نذكر منها على سبيل المثال: التمثال الخشبي المعروف باسم «شيخ البلد»، وتمثال الفرعون سنفرو، من الأسرة الرابعة، وتمثال الكاتب من الأسرة الخامسة، ومجموعة كبرى من التماثيل والمنحوتات الناتئة التي تصور أشخاصاً حقيقيين من الدولة الحديثة.

لكن على الرغم من هذه الواقعية الشكلية، احتفظت الصورة الانسانية في النحت المصري بصفات مثالية تكاد تكون كلاسيكية في كثير من الحالات. فمحاكاة الواقع بقيت نسبية نظراً للصفة المثالية التي يفترض أن يتحلى بها الميت وأن يحافظ عليها في حياته الثانية، بعيداً عن الأحداث والعوارض الزمنية والأرضية. أي أن التجسيد المادي، في هيئة تمثال، كان يخضع لمقاييس مثالية قد تتعارض ونقل الملامح الفردية كما هي في الحقيقة، وكان لا بد من تأويلها واضفاء صفة الكمال عليها، من حيث عمر المتوفي، وقوته الجسدية، وجمال مظهره. اي الصفات التي تبقيه في ريعان الشباب ولا تعبر عن شيء إلا عن غاية واحدة: البقاء والخلود، الأبدية وعالم ما بعد الموت. هنا يتحول التمثال إلى صورة شخصية Portrait مثالية، اصطلاحية، لما بعد الموت.

صحيح أن معظم التماثيل المصرية كانت تصور آلهة وملوكاً وملكات، غير أن ذلك لا يعني أن النحت في مصر القديمة اقتصر على هذا النوع من التماثيل. فهنالك منحوتات مجسمة تمثل أشخاصاً عاديين وحيوانات مألوفة أو أسطورية. فتمثال الكاتب الجالس القرفصاء (حوالي 2400 ق.م)، والعاملة التي تعد العجين (من المرحلة التاريخية نفسها)، والثعلب أنوبيس الجاسم فوق صندوق المجوهرات... وما إلى ذلك من تماثيل مختلفة ومن عصور متباينة

تؤكد اهتمام النحات المصري بشتى الموضوعات، وقدرته على تصوير الواقع بأكثر ما يكون من الدقة بغية ابراز العوامل النفسية الكامنة وراء الشبه، أو محاكاة الحياة اليومية.

## الجداريات (تصوير ومنحوتات ناتئة)

هنا، أيضاً، أخضع الفن ـ كما في نحت التماثيل ـ لمقاييس ومبادىء لم يطرأ عليها أي تعديل أو تحول يذكر طوال التاريخ الفرعوني. فالتصوير والنحت الجداريين يستمدان موضوعاتهما من المعتقدات الدينية نفسها ومن التقاليد الراسخة التي لم ينلها التغيير إلا في عهد الفرعون امنحوتب الرابع عندما اتجه الفن، ولفترة وجيزة، إلى النواحي الحياتية الانسانية، مما شكل انحرافاً في نظر المحافظين.

الدوافع الرئيسية لهذه الفنون التشكيلية، على ما فيها من احساس عميق بالجمال، لم تكن الغاية الجمالية، بل تمثيل المرئيات وتسجيل أهم مظاهرها من حيث هي أشكال ذات قيم دلالية ورمزية. فالفنان لا يتقيد لا بنظريات علمية تسهم في نقل الأشياء وتمثيلها في المشهد الجداري (كعلم المنظور)، ولا بزاوية رؤية محددة تعيّن مواقع المرئيات وأوضاعها، معتمداً، في معظم الأحيان، على الذاكرة، وملتزماً قواعد اصطلاحية الغرض منها إظهار كل ما يجب إظهاره، بوضوح تام، وتمثيل الأشياء من الوجوه أو الزوايا الأكثر اكتمالاً. إلى ذلك، فهو لا يهتم بمسالة النور والظل، محولاً المشهد التصويري أو النحتي إلى مساحة مسطحة لا عمق فيها تبعاً لمقاييس اصطلاحية غير واقعية. أي أن الفن المصري، إذ يجهل مبادىء علم المنظور أو يتجاهله، يكتفي بالرؤية الاصطلاحية المعبرة عن مفاهيم دينية خاصة. فالاحساس بالمدى الفضائي قد يولد، هنا، من مجرد توزيع عناصر المشهد اصطلاحياً وتقابلها مع الخلفية المسطحة للمساحة المصورة، ومن تصوير الجسم الانساني تبعاً لمحاور متباينة تظهر عناصره في أوضاع مختلفة: ففي حين يُظهر الرسم استدارة الراس والشكل الجانبي منه، تبدو العين مواجهة، الكتفان مواجهان، بينما يحتفظ النصف الأسفل من الجسم بالوضع الجانبي. هكذا يبقى المشهد بكامله مسطحاً ذا بعدين، ويقتصر التعبير عن الفضاء على الحركة الاصطلاحية الساكنة الناتجة عن تبدل محاور الجسم.

# الفصل السابع

الدولة الآشورية

الدولة البابلية الحديثة

الدولة الفارسية

# الدولة الآشورية

كلمة أشور، هي الاسم المشترك لكل من الاقليم الجغرافي في شمالي بلاد ما بين النهرين والشعب الذي سكن فيه، وهي، في الوقت نفسه، اسم لإله هذه البلاد الرئيسي واسم لعاصمتها. وقد وردت هذه الكلمة في النصوص الآشورية، كما ورد فيها اسم «مات أشور» أي بلاد أشور، وعرفت أيضاً في النصوص الأرامية باسم «آثور».

تقع أشور في شمالي بلاد ما بين النهرين، ما بين الزاب الكبير والزاب الصغير اللذين يصبان في نهر دجلة، في منطقة جبلية تتخللها الهضاب والسهول، منها سهل أربيل وسهل كركوك. تحدها في الشمال والشرق جبال تفصلها عن البلاد المجاورة بينما تتصل في الجهة الجنوبية بوادي الرافدين الممتد حتى الخليج العربي، ولا يوجد أي فاصل طبيعي بينها وبين سوريا في الغرب.

لكن حدود أشور، كما أوضحناها، لم تبق على ما كانت عليه في المراحل التاريخية الأولى بل كانت تتسع أو تتقلص بحسب تطور الأحداث السياسية، وتبعاً لنجاح أو فشل الأعمال العسكرية التي كانت تقوم بها.

أما الشعب الآشوري فما زالت اصوله غامضة، ولكن يعتقد أنه من الساميين الذين أتوا من شبه الجزيرة العربية ثم استقروا، في النصف الأول من الألف الثالث، في هذا الاقليم الشمالي، وهو الاقليم نفسه تقريباً الذي عرف باسم «سوبارتو» وسكنه السوباريون قبل وصول الآشوريين. ويتكلم الآشوريون لغة تنتمي إلى أسرة اللغات السامية وتشبه اللغة البابلية.

اتبع الملوك الآشوريون نظام الحكم المطلق Autocratie، وتميزت دولتهم بالطابع العسكري الذي عبرت عنه أعمالهم الحربية وفنونهم النحتية والتصويرية، وأنماطهم المعمارية ومدنهم المحصنة. فأشور، وهي احدى عواصمهم الرئيسة، (تعرف حالياً باسم قلعة شرقاط)،

عبارة عن قلعة منيعة استعان الأشوريون في تحصينها بالتضاريس والهضاب المحيطة بها. بنيت، منذ أن تأسست، في الألف الثالث ق.م، فوق هضبة تشرف، من جهة الشمال والشرق، على نهر دجلة الذي يجري عند أسفل الصخور العالية، كما يحيط بها، في الجهتين المقابلتين (في الجنوب والغرب)، خندق عميق وأسوار عالية ومضاعفة.

كان للمدينة بابان من جهة البر، وباب واحد من جهة النهر، وشيدت، في القسم الشمالي منها، القصور الملكية والمعابد الخاصة بعدد من آلهة البلاد كأشور، (الذي حل محل كل من مردوك البابلي وانليل السومري، وأصبح الاله الرئيسي في البلاد الأشورية)، واداد، وسن، وأشتار، ونابو... جاءت هذه المعابد، من حيث الأسلوب البنائي، متأثرة بعناصر سومرية وبابلية وحورية، تدل على تفاعل الآشوريين حضارياً مع شعوب مختلفة سكنت بلاد ما بين النهرين وأعالي سوريا.

يقسم التاريخ الآشوري إلى ثلاث مراحل:

| | |
|---|---|
| 1 ـ الدولة القديمة | من 3000 إلى 1700 ق.م |
| 2 ـ الدولة الوسطى | من 1700 إلى 1100 ق.م |
| 3 ـ الدولة الحديثة أو عصر الامبراطورية | من 1100 إلى 630 ق.م |

المراحل الأولى من تطور التاريخ الآشوري ما زالت غامضة. لكن، يبدو أن الآشوريين وصلوا إلى شمالي بلاد ما بين النهرين منذ بداية الألف الثالث ق.م وبدأوا بتأسيس حضارتهم استناداً إلى الارث العراقي الذي سبقهم. كما دخلت آشور في نطاق النفوذ السومري في عصر أور الثالثة، ثم البابلي في المرحلة اللاحقة. ويصبح التاريخ الآشوري أكثر وضوحاً ابتداء من الألف الثاني ق.م، عندما ازدهرت الحياة في هذه البلاد الشمالية، وأصبحت من القوة والنفوذ ما دفعها إلى منافسة بابل، لا سيما في عهد الملك الآشوري شمشي اداد الذي عاصر، في المرحلة الأخيرة من حياته، حمورابي، وجعل من نينوى المركز الفعلي لإدارة شؤون البلاد. اتسعت أشور غرباً في اتجاه ماري وشمالي سوريا، كما وصلت القوافل الآشورية إلى كبادوقيه في أواسط آسيا الصغرى، وأسسوا في بداية الألف الثاني ق.م مستعمرة تجارية في كانش Kanesh. وفيها عثر حديثاً على نصوص كتبت باللهجة الآشورية القديمة وبالخط المسماري، تؤكد أهمية نشاطهم التجاري ودورهم في نقل معالم حضارة بلاد ما بين النهرين إلى هذه الأقاليم الشمالية، موطن الشعب الحثي. ويبدو، فيما لو صدقت النصوص الآشورية، أن شمشي اداد قام بحملة

عسكرية، الأولى من نوعها في تاريخ أشور، في شمالي سوريا ووصل حتى البحر المتوسط حيث اقام نصبا يحمل اسمه في لبنان. (لا ـ اب ـ آ ـ آن).

لكن أشور، لم تستطع الوقوف في وجه القوة البابلية بعد أن نجح حمورابي في توحيد البلاد واستولى على مدن الجنوب ثم اتجه في السنة الواحدة والثلاثين من حكمه نحو الشمال وتمكن من اخضاع المدن الآشورية التي شملها النفوذ البابلي لمدة طويلة من الزمن.

إن وجود الدولة الميتانية في الشمال قد حال دون نهضة آشور التي أخضعت لنفوذها في القرن الخامس عشر؛ وبمرور الأيام، تبدلت الأوضاع السياسية في الشرق الأدنى القديم عندما تبدّل ميزان القوى منذ بداية القرن الرابع عشر؛ فاستطاعت أشور، من جهة، وحاتى من جهة أخرى، مواجهة دولة ميتاني والسيطرة عليها، ثم اقتسام ممتلكاتها. وقد تم ذلك في عهد أشور أوبَلّط الملك الآشوري الذي عاصر كلاً من الفرعون أخناتون والملك الحثي شوبيليوليوما. استمرت أشور في نهضتها وبسط نفوذها واتساع رقعتها في الفترة ما بين 1365 ـ 1207 ق.م، عندما أتيحت لها الفرصة، بعد زوال ميتاني، أن تقوم هي أيضاً بأعمال حربية في الشمال[1].

نشطت في هذا العصر (القرن الثالث عشر) حركة العمران في عدد من المدن الآشورية، حيث بُني عدد من المعابد الخاصة بالآلهة الرئيسة، كأشور وشمش وسن وأشتار، إلا أنها تهدمت ولم يبق منها الآن غير آثار قليلة تشرح بعض معالم الحضارة الآشورية.

للمرة الأولى في العراق، استخدم الآشوريون الحجارة على نطاق واسع وحاولوا التجديد في بعض مظاهر العمارة، كبناء الزيقورات وفق تصميم مربع، واستعمال الفخار المطلي بالمينا Céramique émaillée، واللوحات الحجرية المنقوشة في تزيين الجدران، اللوحات التي أصبحت بعد ذلك من أهم مظاهر الفن الآشوري. تأسست في هذا العصر مدينتان جديدتان، الأولى عرفت باسم كالح (نمرود)، بنيت في عهد شلمنصر الأولى على الضفة الشرقية لنهر دجلة، جنوبي نينوى (أي جنوبي الموصل، ما بين نينوى وأشور)، وهي حالياً من أهم المدن الآشورية لما عثر فيها من آثار قيمة من مختلف مراحل التاريخ الآشوري، أما المدينة

---

1 ـ وصلت جيوش شلمنصر الأول إلى كركيميش (جرابلس) في أعالي سوريا، وهاجم ابنه توكلتي نينورتا (1245 ـ 1207 ق.م) بابل واستولى عليها، وجعل منها ولاية تابعة لأشور (راجع ص 250)، وشمل نشاطه العسكري عدداً من أقاليم الشمال، حيث وصلت جيوشه إلى كركيميش، وبحيرة فان في الشمال الشرقي.

الثانية فشيدها توكولتي نينورتا، وسُميت باسمه: كار توكولتي نينورتا – Kar – Tukulti Ninurta، وتقع أيضاً على الضفة الشرقية لنهر دجلة، في الجهة المقابلة لمدينة أشور.

لم تتمكن أشور من متابعة أعمالها الحربية، وبقيت أوضاعها متقلبة، تبسط نفوذها حينا وتتقلص حدودها حينا آخر، تبعاً لعوامل داخلية وخارجية. ففي نهاية القرن الثالث عشر، بعد موت توكولتي نينورتا، تراجعت الدولة الآشورية وضعف نفوذها في الخارج، فانطوت على نفسها طوال قرن تقريباً ربما بسبب النزاع على العرش والتفكك الداخلي والصراع الدائم مع بابل التي تمكنت من القيام بهجوم على أشور نفسها واسترجاع تمثال «مردوك»، اله بابل الرئيسي.

يبدو أن العناصر السامية التي عرفت في النصوص الآشورية بالاخلامو والسوتو والأراميين، كانت قد انتشرت من قبل في أنحاء عديدة من سوريا، وبخاصة ما بين كركيميش وتدمر ودمشق، وامتد نشاطها حتى الفرات. غير أن طموح هذه العناصر في الاستيلاء على الشمال الشرقي من سوريا قادها إلى صراع مع الآشوريين، صراع بقي قائماً بين الطرفين حتى عهد الدولة الآشورية الحديثة. ثم تابعت أشور (في الفترة ما بين 1112 ـ 1074 ق.م) أعمالها العسكرية في عهد ملكها تجلت بلاسر الأول الذي وصف نفسه بأنه الملك الحق، ملك العالم والجهات الأربع، وادعى أنه انتصر على ستين ملكاً وأخضع اثنين وأربعين شعباً، وشملت عملياته العسكرية أرض نايري (Nairi)، قرب بحيرة فان (Van)، وأرض أمورو، وعدداً من أقاليم سوريا الشمالية، كما هاجم بلاد خاتي، ووصل بجيوشه إلى جبال لبنان (شادي لبناني) وأجبر عدداً من المدن الفينيقية على دفع الجزية لأشور.

لم يكن الغرض من هذه الحملات العسكرية تأسيس دولة قوية وحسب، وإنما تأمين طرق القوافل التجارية، والحصول على أخشاب الأرز من جبال لبنان، والسيطرة على الموانىء الفينيقية. لكن آمال الدولة الآشورية لم تتحقق، إلا بعد مراحل طويلة من الصراع مع جيرانها، وبخاصة الشعوب الأرامية التي كانت هي بدورها تسعى (في القرنين الحادي عشر والعاشر ق.م) إلى إنشاء دولة قوية منافسة لأشور.

### 1 ـ الدولة الآشورية الحديثة

تبدأ هذه المرحلة الجديدة في أواخر القرن العاشر لتمتد ثلاثة قرون تنتهي مع سقوط نينوى في سنة 612 ق.م. وقد تخللتها فترتا ركود، الأولى من 824 إلى 809، والثانية من 782

إلى 745 ق.م. ويقسم هذا العهد إلى مرحلتين رئيسيتين:

المرحلة الأولى (909 ـ 745 ق.م).

| | |
|---|---|
| ـ أشور ناصر بال الثاني | 883 ـ 859 ق.م |
| ـ شلمنصر الثالث | 858 ـ 824 ق.م |
| ـ اداد نيراري الثالث | 809 ـ 782 ق.م |
| المرحلة الثانية | (745 ـ 626 ق.م) |
| ـ تجلت بلاسر الثالث | 745 ـ 727 ق.م |
| ـ سرجون الثاني | 721 ـ 705 ق.م |
| ـ سنحاريب | 704 ـ 681 ق.م |
| ـ اسرحدون | 680 ـ 669 ق.م |
| ـ أشور بانيبال | 668 ـ 626 ق.م |

يعتبر هذا العهد الجديد (من أواخر القرن العاشر وحتى منتصف القرن السابع ق.م) بمثابة نهضة شاملة سياسية وحضارية، إذ استطاعت أشور أن توسع حدودها من بلاد فارس شرقاً إلى البحر المتوسط غرباً، ومن الأناضول شمالاً إلى الخليج العربي وبلاد عيلام جنوباً، كما شمل النفوذ الآشوري مصر في عهدي اسر حدون وأشور بانيبال. وكان من الأسباب الرئيسة التي ساعدت الآشوريين على بسط نفوذهم على هذه الأقاليم المترامية الأطراف، ضعف الدول المجاورة كمصر وحاتي اللتين فقدتا (منذ أواخر الألف الثاني ق.م) السيطرة على بلاد الشرق الأدنى القديم، وتفكك الدويلات الشرقية الأخرى وعدم تمكنها من توحيد قواها للوقوف جدياً في وجه أطماع الآشوريين.

أما أشور، تلك الدولة الفتية ذات الرقعة الجغرافية الضيقة في أعالي دجلة، فعمدت إلى توحيد قواها في الداخل، كما اهتمت اهتماماً كبيراً بالأمور العسكرية وتنظيم جيش قوي دائم (لا سيما في عهد تجلات بلاسر الثالث وخلفائه) أصبح بمثابة القوة الضاربة في منطقة الشرق الأدنى.

عمد الآشوريون أيضاً إلى أتباع أساليب قتالية جديدة، فأعطيت الأهمية الكبرى، في المعارك الحربية، للخيالة السريعة، كما حسنوا الوسائل الحربية كالأسلحة الحديدية والمركبات العسكرية، وأدخلوا أدوات قتالية جديدة، كالدبابة، وهي عبارة عن آلة مدببة عند مقدمتها

تقوم على ست عجلات، وتُدفع بقوة من بعيد لدك الأسوار؛ ثم «المصفحة» التي استعملت أيضاً في حصار المدن، كي تسمح للجنود المتسترين خلفها من الاقتراب من الحصون وهم في مأمن من نبال الأعداء؛ وكذلك الأبراج المتنقلة التي تسمح للرماة بالارتفاع إلى مستوى الأسوار، وأخيراً الخراطيم التي تستعمل في اطفاء النيران.

الحملات الأشورية العسكرية استمرت دون انقطاع في عهد الدولة الحديثة، موجهة في أنحاء عديدة من الامبراطورية، لمحاربة البابليين والأراميين والكلدانيين في الجنوب، والعيلاميين في الجنوب الشرقي، والأورارتيين (سكان أورارتو، قرب بحيرة فان) والسيميريين والسكيتيين في الشمال، والميديين في الشمال الشرقي، ومختلف شعوب البلاد السورية ـ الفلسطينية في الغرب. ولقد سجل ملوك أشور أخبار أعمالهم الحربية في حوليات كتبت باللغة الأشورية والخط المسماري، كما صورت مشاهدها الحربية في منحوتات كانت تزين جدران القصور؛ وثمة أعمال نحتية أخرى جاءت على شكل أنصاب حجرية (منها مسلة شلمنصر الثالث) تروي كتابةً وتصويراً انتصارات هؤلاء الملوك. اتبعت أشور نظاماً خاصاً في حكم البلاد الخاضعة لنفوذها، فقسمتها إلى مقاطعات صغيرة تشرف عليها حاميات عسكرية، وولت عليها حكاماً وموظفين أشوريين أو ممن يقدمون الولاء والطاعة للملك من سكان البلاد الأصليين. وكان على هؤلاء الحكام تقديم التقارير المفصلة في حينها إلى العاصمة الامبراطورية.

اتبع الملوك الأشوريون أيضاً سياسة ترحيل أو تهجير السكان (السبي) ونقلهم من بلادهم الأصلية إلى أقاليم بعيدة في الامبراطورية، واستبدالهم بشعوب أتوا بها من مناطق أخرى خضعت بدورها للنفوذ الأشوري، كما تم ترحيل عدد كبير من هذه الشعوب إلى بلاد أشور نفسها، حيث تحول قسم منهم إلى عبيد ومسخرين يعملون في أملاك الدولة ولدى افراد الطبقة الحاكمة.

إن أتباع مثل هذه الاجراءات واستمرار العمليات الحربية يدلان بوضوح على أن هذه الأقاليم (في بابل والبلاد السورية ـ الفلسطينية والمدن الفينيقية..) لم تخضع خضوعاً تاماً للنفوذ الأشوري، بل كانت تثور وتتمرد كلما شعرت بقدرتها على مواجهة العدو، فحاولت توحيد قواها وتحالفت مراراً ووقفت في وجه هذه الدولة العسكرية، أشور. لكن هذه الشعوب المتحالفة، وإن فشلت في تحقيق رغباتها للتحرر من النير الأشوري، قد أضعفت الامبراطورية الأشورية وساعدت على انهيارها في أواخر القرن السابع ق.م.

إذا حاولنا تفسير هذه الظاهرة المميزة للدولة الآشورية، نجد أنها ترتبط بنشأة هذه الدولة وتطورها في بيئة جغرافية معينة، كانت محاطة من جميع الجهات بدول منافسة كانت تسعى، هي بدورها، إلى فرض سلطانها. إن موقع أشور، في شمالي بلاد ما بين النهرين، في المنطقة الجبلية المشار إليها، وضع سكان البلاد على اتصال بشعوب أخرى متعددة كالسوبرتيين والجوتيين والحوريين والكاشيين، والبابليين والأراميين... فكان على أشور، ذات الرقعة الجغرافية الضيقة في بادىء الأمر، أن تحافظ على كيانها ومصالحها، باعتماد الحملات الحربية وسيلةً للردع ومن ثم بسط النفوذ على جيرانها. وقد أصبحت العمليات العسكرية في الأقاليم المحتلة من أهم الموارد الاقتصادية، تؤمن لأشور، إضافة إلى الغنائم والأسلاب، العبيد والمسخرين للعمل في ممتلكاتها وفي بناء القصور والمعابد، وتؤمن لها أيضاً الجزية التي كانت تفرض على المقاطعات وتعتبر من أهم موارد الدولة. وقد انعكست هذه المظاهر العسكرية في بناء المدن المحصنة، والقلاع المنيعة، والقصور المحاطة، هي أيضاً، بأسوار اضافية داخل المدينة، كما انعكست في الفنون النحتية والتصويرية الجدارية، ذات المشاهد الحربية، قصصية المظهر.

## 2 ـ القوى التي دخلت الصراع مع الدولة الآشورية

لعل أهم القوى التي دخلت في صراع مع الدولة الآشورية، هي نفسها تلك التي خضعت لها حينا، وثارت وتمردت عليها حينا آخر، ففي الشمال، كان الشعب الذي سكن منطقة الأورارتو قد حلّ، ابتداء من الألف الأول ق.م، محل الحوريين والميتانيين في الصراع مع اشور. فتوحدت القبائل الأورارتية الهندو أوروبية، في عهد ساردور الأول، وأسست دولة جديدة كانت عاصمتها توشبا، على الساحل الجنوبي لبحيرة فان. وكانت هذه الشعوب الشمالية قد خضعت لتأثير أشور الحضاري، فاستعانت باللغة الآشورية، إلى جانب لغتها الخاصة، في تدوين نصوصها التاريخية؛ ولكن سرعان ما شعرت هذه الدولة الجديدة التي تأسست منذ نهاية القرن التاسع ق.م، بالخطر الآشوري وضرورة العمل من أجل تحقيق أهدافها السياسية، الأهداف نفسها التي عملت الدولة الميتانية على تحقيقها قبل خمسة قرون. فاستغل الأورارتيون بعض فترات ضعف الدولة الآشورية، لا سيما في الفترة ما بين اداد نيراري الثالث وتجلات بلاسر الثالث، للعمل على تعديل حدود دولتهم بعد أن شمل نفوذها في النصف الأول من القرن الثامن ق.م، قسماً كبيراً من شمالي سوريا وبلاد ما بين النهرين. لكن الآشوريين استطاعوا

تحطيم قوتهم في عهدي تجلات بلاسر الثالث وسرجون الثاني.

ومن مظاهر حضارة هذا الشعب، بناء المدن المحصنة وشق الأقنية لري الأراضي، واقامة المعابد المدعمة جدرانها بالركائز التي تقوم عليها الأسطح المنحدرة على الجانبين، حسب الطريقة المتبعة في البلاد الشمالية. لكن تهدمت هذه الأبنية ولم يبق منها سوى آثار نادرة، بيد أن المنحوتات الآشورية احتفظت بمشاهد نحتية تبين عن أهم مظاهرها، كمشهد حصار جيوش سرجون الثاني لاحدى مدنهم (موزازير). وكانت لديهم مهارة فائقة في مجال الصناعات المعدنية الحرفية، والزخارف والتماثيل التي تجمع بين تأثير الحضارة الآشورية وتأثيرات الشعوب الشمالية. لكننا لا نعرف شيئاً عن نظامهم الاجتماعي كما نجهل الكثير عن دياناتهم ولا نعرف منها سوى أسماء بعض آلهتها.

أما في الشمال الشرقي فظهرت شعوب أخرى: الميديون والسيمريون والسكيتيون الذين ارتبط تاريخهم، في مراحله الأولى، بتاريخ أشور. وهم، خلافاً للأورارتيين، لا يشكلون دولة موحدة. إلا أن خطرهم بالنسبة لأشور كان أشد وأصعب من خطر الدولة الأورارتية، لأنه كان عليها أن تواجه جماعات متنقلة، ما زالت متأخرة حضارياً، لكنها متفوقة على الآشوريين في كثافة شعوبها. فالميديون، أقدم هذه القبائل وأكثرهم تحضرا، استوطنوا منطقة همذان في البقاع الايرانية الشمالية، وتمكنوا من الصمود في وجه الحملات الآشورية ومن تأسيس دولة جديدة كان لها بعد ذلك دور بارز في بناء الحضارة الايرانية، كما أنها أسهمت أيضاً في اضعاف أشور وشاركت في القضاء عليها.

في الوقت الذي شهدت فيه منطقة الشرق الأدنى تحركات الهندو أوروبيين في الجهات الشمالية الشرقية، كانت شعوب سامية تنتقل من الصحراء العربية، لتستقر في كافة أنحاء بلاد الشام وأعالي الفرات وفي منطقة الخليج العربي. ومن بين هذه الشعوب، الأراميون (نسبة إلى أرض آرام في الشمال الشرقي لسوريا)، وهم الذين تكلمت عنهم النصوص الآشورية، وورد ذكرهم من قبل، في عهد نرام سين، ثم في رسالة بعث بها حاتوسيل الثالث إلى أحد ملوك الأسرة الكاشية في بابل (من القرن الثالث عشر ق.م).

لقد حاربهم تجلات بلاسر الأول (1112 ـ 1074 ق.م) وتتبعهم حتى كركيميش، وتدمر، وإلى مدينة عنات في أواسط الفرات، ورابيقو على حدود بابل. كما تجددت الحملات في

عهده ضد الآراميين دون أن يتمكن من القضاء عليهم. وفي القرن الحادي عشر ق.م، توصل أحدهم، حدد ابال ادينا، إلى عرش بابل وحكمها مدة اثنين وعشرين عاما، وزوج ابنته من معاصره ملك أشور. ومنذ ذلك الوقت بدأ الآراميون السيطرة سلميا على بابل واضفاء صفات آرامية عليها. وانتشر قسم منهم في الشمال الغربي حتى كركيميش، وفي عدد من الامارات التي نشأت منذ بداية القرن الثاني عشر ق.م، حيث استعملت للمرة الأولى اللغة الآرامية إلى جانب الحثية والفينيقية. وانتصرت الآرامية أيضاً في دمشق وحماه، كما تأسست دويلات اتحادية آرامية في الشمال الغربي لنهر الفرات، مثل بيت أديني.

شملت عمليات دولة أشور العسكرية الشاطىء الشرقي للبحر المتوسط بهدف الاستيلاء على موانئه، وذلك لأهميتها التجارية، ولموقعها الجغرافي، وللحصول على أخشاب الأرز. فكانت المدن الفينيقية ترضخ للنفوذ الأشوري حينا وتثور حينا آخر، وبقيت الحالة على هذا المنوال طوال العهد الآشوري.

الفينيقيون، وهم الذين عرفوا بهذه التسمية في النصوص اليونانية من الألف الأول ق.م، جماعات سامية غربية، كالأموريين والآراميين، استوطنوا الشاطىء الكنعاني وأسسوا مدنا عدة، كصور وصيدا وجبيل وأوغريت (رأس الشمرا) منذ بداية الألف الثالث ق.م، تشكلت فيها حكومات مستقلة، وكان لها دور بارز في مجالات التجارة والتبادل الحضاري بين دول الشرق الأدنى القديم، لكنها لم تتوصل إلى تأسيس دولة موحدة كما حصل في أكد وبابل واشور وبلاد الأناضول، ولم تنجح في توحيد نشاطاتها الثقافية والسياسية والتجارية. فبينما كانت جبيل أكثر ارتباطاً بمصر، كانت أوغريت على اتصال بجزر بحر ايجه وكريت، كما كانت في الوقت نفسه على اتصال ببلاد ما بين النهرين.

وقد ظهرت مجموعة من الامارات والممالك الصغيرة في أنحاء عديدة من سوريا وفلسطين، مثل الالاخ وحلب، وحماه، وقطنه... ودمشق وماري ومجدو، وارتبط تاريخها بأحداث الشرق الأدنى القديم. ولكن على الرغم من هذا التفكك السياسي تمكن بعضها من الصمود بكل صلابة في وجه الغزوات كما استطاعت المدن الفينيقية، وعلى راسها صور، أن تبسط نفوذها التجاري في البحر الأبيض المتوسط، في القرون الأولى من الألف الأول ق.م. وعندما تقلصت قوى الدول الكبرى اطمأنت آنذاك هذه المدن فانصرفت إلى تحقيق أهدافها.

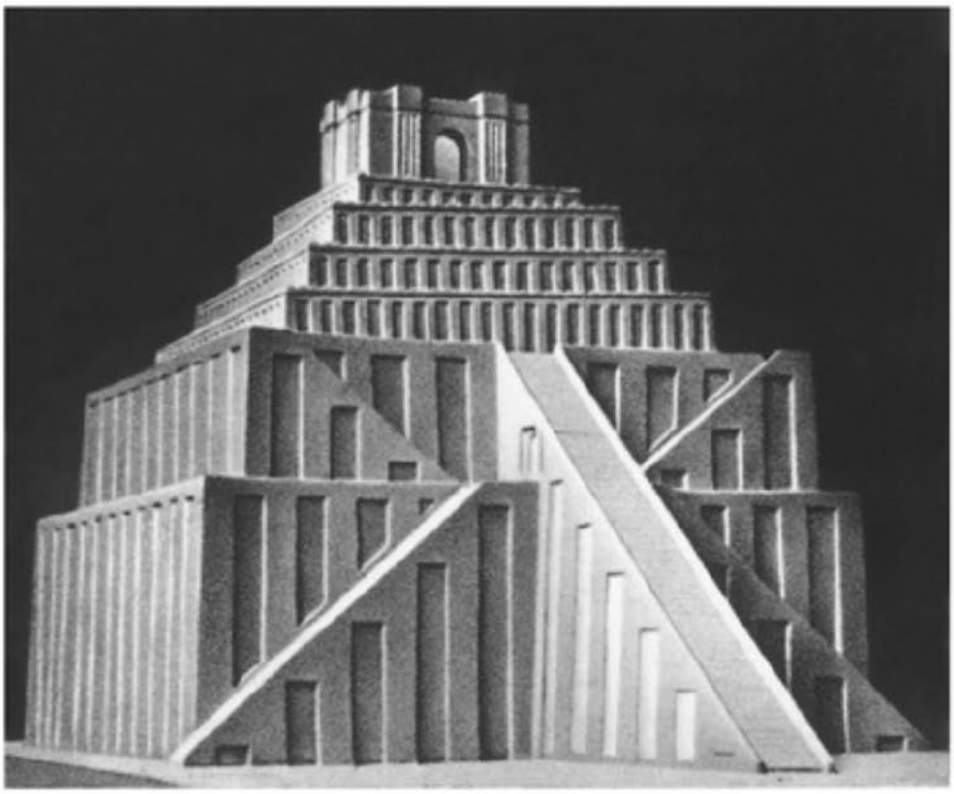

بابل ـ زقورة أ ـ تمن ـ آن ـ كي (برج بابل)،
القرن السادس ق. م (ماكيت)

## 3 ـ الامبراطورية في عهدها الأول (920 ـ 745) ق.م

عمل ملوك أشور، منذ أواخر القرن العاشر وبداية التاسع ق.م، على النهوض ببلادهم وتنظيم إدارتها وتحديد أهدافها الاقتصادية والعسكرية. لكن مهمة تحقيق أهداف الامبراطورية كانت على شيء كبير من الخطورة، فاتبعت من أجل ذلك أقسى الأساليب في صد تسلل الآراميين والشعوب الأخرى واخضاعها. وقد تعرضت أشور لمشاكل معقدة كان أخطرها المسألة البابلية ـ الآشورية التي تتطلبت الكثير من الحذر لكون بابل متقدمة حضارياً وتحظى باحترام كبير في نفوس الآشوريين. ولئن كانوا يدينون بآلهتها (كالاله مردوك) ويزورون معابدها القديمة. إلا أنهم حاولوا، في المرحلة الأولى من عهد الامبراطورية، رفع مكانة الاله آشور والتوفيق بينه وبين مظاهر الآلهة البابلية.

يبدو أن نقل العاصمة الملكية، في عهد اشور ناصر بال الثاني، من أشور (وهي مدينة الاله أشور، المتأثرة بالفكر البابلي منذ العهد الأكدي) إلى مدينة كالح في الشمال، كان بدافع الابتعاد عن تأثير الحضارة البابلية ومحاولة ايجاد شخصية خاصة بالدولة الآشورية. الأمر الذي انعكس في اعتماد اشكال بنائية جديدة تجمع بين تقاليد بابلية قديمة وتأثيرات شمالية يمكن ملاحظتها في تماثيل الحيوانات، كالثيران المجنحة التي كانت توضع عند الأبواب الرئيسة لحراسة المدينة. كما تميزت قصورهم بلوحات حجرية تحمل مشاهد حربية ودينية تعتبر من أجمل ما وصل إليه فن النحت في بلاد ما بين النهرين.

نجح أشور ناصر بال الثاني (883 ـ 859 ق.م) باخضاع بلاد ما بين النهرين والممالك الأرامية في أعالي الفرات، وتمكن من استعادة أمجاد الامبراطورية كما كانت عليه في عهد تجلات بلاسر الأول. نظم شؤون الامبراطورية الإدارية، بعد أن قسمها إلى أقاليم تخضع للسلطة المركزية، وولى عليها حكاماً وموظفين يدينون له ويقومون بجمع الجزية وارسال التقارير عما يحدث فيها إلى السلطة العليا في أشور. يبدو أن أشور ناصر بال قد وصل بجيوشه إلى جبال الأمانوس حيث تلقى الجزية من الحثيين، وإلى شواطىء البحر المتوسط، إذ يقول في حولياته الحربية: «في هذه المرحلة استوليت على جبال لبنان المترامية الأطراف كلها، ووصلت إلى البحر الكبير لبلاد أمورو وغسلت أسلحتي في البحر العميق... وكانت جزية شاطىء البحر من سكان صور وصيدا وجبيل... وأرواد، وهي جزيرة في البحر، تتألف من ذهب وفضة ونحاس، وملابس كتانية ذات أهداب مبرقشة... وعاج وأخشاب وابنوس، وتقبلت جزيتهم،

وقبلوا أقدامي»، واصطبغت حولياته بالقسوة والعنف، كنزع جلود الأسرى وهم احياء أو صلبهم على ابواب وجدران المدينة واعدام البعض منهم حرقاً أو على الخوازيق.

تتالت الأعمال الحربية في عهد ابنه شلمنصر الثالث (858 ـ 824 ق.م) من أجل تدعيم الامبراطورية في الأقاليم التي خضعت لها سابقاً. فغزا أعالي الفرات واستولى على تل برسيب Till - Barsip (تل أحمر)، عاصمة الدولة الأرامية، بيت أديني، ونقل سكانها إلى أشور وأحل أشوريين محلهم، كما غير اسم المدينة وسماها «كارشلمنصر»، جاعلاً منها نقطة انطلاق لأعماله الحربية في كيليكيا وبلاد الشام. وهاجم أيضاً بلاد حاتي، ووصل إلى منابع دجلة حيث غسل «سلاح أشور في مياهه»، وقام بحملة على أورارتو Urartu.

لكن حروبه في بلاد الشام لا تقل عنها أهمية، فحولياته تذكر عدداً من المدن السورية التي احتفظت بأسمائها القديمة حتى الآن، مثل خالمان (حلب)، واماه (حماه)، ودمشقي (دمشق)، وخاوراني (حوران)، واورانتو ـ اورنت ـ Orante (العاصي)، وقرقره (قرقر)، كما ورد فيها لأول مرة اسم العرب على شكل «عريبو»، واسم حنديبو أحد الأمراء العرب، وأخابو (اخاب) أحد ملوك اسرائيل. وكانت أهم تلك الامارات الأمورية الغربية، مملكة دمشق التي تحالف ملكها اداد ادرى مع عدد من الامارات المجاورة للوقوف في وجه الغزو الأشوري. ويدعي النص الأشوري أن شلمنصر هزم المتحالفين، وعددهم اثنا عشر أميرا، عند قرقر قرب حماه[1].

لقد حكم شلمنصر الثالث[1] مدة أربع وثلاثين سنة قام في أثنائها باثنتين وثلاثين حملة عسكرية. وفي عهد ابنه، شمشي اداد الخامس، اشتد التأثير البابلي عندما استعملت اللغة البابلية

---

1 ـ تابعت السير إلى قرقرة فدمرتها ومزقتها وحرقتها، واستنجد أميرها بـ 1200 مركبة حربية و 1200 من الفرسان، 20000 من مشاة اداد ادرى، إلا مريشو (الأموري)، و 600 مركبة و 700 خيال و 10000 من مشاة أرهوليني أمير خلمان (حلب)، وكذلك 200 مركبة وألف من مشاة أخابو في أرض اسرائيل (أخابو مات سيرى ـ لا ـ Akha - Abu mat siri - La - a - a

وألف جندي من موصري... اثنا عشر ملكاً أتوا لملاقاتي في معركة حاسمة، فحاربتهم بعون أشور وبقواه العظيمة التي أمدني بها... وأوقعت بهم الهزيمة بين مدينتي قرقره وجيلرزا، ذبحت 1400 من جنودهم بالسيف وانقضضت عليهم مثل اداد حين يبعث بسيوله، ونثرت جثثهم في كل مكان... وضاق السهل عن نزول أرواحهم إلى العالم السفلي... وجعلت من جثثهم جسراً لأعبر نهر الأرانتو (العاصي Orante).

ولكن على الرغم من هذا الادعاء والمبالغة، لم تكن المعركة في صالح أي من الطرفين لا سيما وأن الأراميين يدعون

مرة ثانية إلى جانب الآشورية، وانتشرت عبادة الآلهة البابلية في بلاد أشور.

كان هذا الملك قد تزوج من امرأة بابلية، سمو ـ رامات (Sammu – Ramat) قدر لها أن تسهم في إدارة شؤون البلاد لدعم التأثير البابلي فيها، وأن تحكم في نهاية الأمر مدة خمس سنوات باسم ولدها اداد نيرارى الثالث عندما كانت وصية عليه. وهي المرأة التي ذكرتها النصوص اليونانية باسم سميراميس (Sémiramis) التي أصبحت موضوعاً لاحدى أساطيرهم. إلا أن بابل بقيت في هذا العهد محافظة على استقلالها، يحكمها ولاة محليون يغضون الطرف عن تدخل ملوك أشور في أمورها الخاصة أحياناً.

أما أهم الأحداث التاريخية خارج المشكلة البابلية فتتمثل بمواجهة الميديين Médes الذين دخلوا المسرح التاريخي للمرة الأولى عندما اضطر شمشي ـ اداد لمحاربتهم في الشمال الشرقي، قرب بحيرة اورميا. أما في الشمال، فقد أصبحت دولة أورارتو Urartu على شيء من القوة والنفوذ، ما سنح لها بأن تحول دون تقدم أشور في الأقاليم الشمالية، بل مكنها من مهاجمة حدود أشور في الشمال حيث أقاموا نصبا يخلد انتصاراتهم الحربية.

ازدادت الأحوال سوءاً، في النصف الأول من القرن الثامن ق.م. (782 ـ 745

---

= أيضاً النصر فيها، كما أن شلمنصر الثالث اضطر لمهاجمتهم مرة ثانية بعد مضي خمس سنوات (سنة 848 ق.م). ثم توجه إلى مواجهة حلف مشابه سنة 845 دون أن يبلغ الهدف. ولم يحقق ملك آشور أغراضه العسكرية إلا بعد أن حل جزائيل محل اداد ادرى في دمشق، ويا هو الاسرائيلي محل أخاب في السامرة، فتقدم نحو دمشق وأحرق بساتينها بعد أن عجز عن اخضاعها ثم تابع سيره حتى وصل إلى البحر الأبيض المتوسط وفرض الجزية على المدن الفينيقية ونقش نصبا تذكاريا عند صخور نهر الكلب إلى جانب لوحة رعمسيس الثاني.

1 ـ سجل شلمنصر أخبار أعماله الحربية على عدد من الرقم الطينية وجدت في أشور وعلى بعض تماثيل الثيران المجنحة في أشور وكالح (نمرود). ولعل أهم هذه المصادر التاريخية هي المسلة التي عثر عليها في كالح، وتعرف باسم «المسلة السوداء» (حالياً في المتحف البريطاني)، وهي من حجر الالبستر الأسود (ارتفاعها حوالي مترين)، ذات أربعة سطوح، وينتهي القسم الأعلى منها على شكل زقورة. وتحمل المسلة، بالاضافة إلى النص باللغة الآشورية والخط المسماري، أربعا وعشرين لوحة تصور مشاهد من أعمال الملك الحربية تظهر فيها الأسلاب والغنائم وخضوع الأعداء. ويلاحظ في أحد هذه المشاهد «ياهو» ملك اسرائيل، ساجداً عند قدمي الملك، كما نرى في مشاهد أخرى جمالاً ذات سنامين من بكتريا وفيله، ربما من منطقة موصري في شمالي سيناء. ومن المصادر التاريخية التي ترجع إلى عهده، النصوص والمشاهد التصويرية التي نقشت على البوابات البرونزية لمدينة ايمجور ـ بل (بلاوات، جنوبي شرقي نينوى). (حاليا في المتحف البريطاني)، وتشرح حصار بعض المدن السورية ـ الفينيقية وسقوطها في أيدي الآشوريين. فنرى صور قائمة فوق جزيرة وسط المياه، تنطلق منها السفن المحملة بالهدايا إلى الشاطىء حيث يقف الملك الأشوري وجنوده لاستقبالها.

ق.م)، عندما توالى على الحكم ثلاثة ملوك عجزوا عن تصحيح الأوضاع الداخلية ودرء الأخطار الخارجية. وبقيت الأوضاع على ما هي عليه من ضعف وتفكك حتى سنة 745 عندما تمكنت البلاد من النهوض مرة ثانية لتبنى من جديد أسس الامبراطورية في عهد تجلات بلاسر الثالث.

## 4 ـ الامبراطورية الآشورية في عهدها الثاني (745 ـ 626 ق.م)

توصل تجلات بلاسر الثالث (745 ـ 727 ق.م) إلى الحكم أثر انقلاب عسكري، قام بعده بأعمال اصلاحية كان من شأنها اضعاف سلطة الكهنة المقيمين في أشور وحران، مجبراً هاتين المدينتين على دفع الضرائب بعد أن كانتا قد أعفيتا منها في السابق. لكن مفاعيل هذه الاجراءات الاصلاحية لم تدم طويلاً، بل أدت إلى ثورة معاكسة في عهد خلفائه أعادت لأشور وحران مكانتهما، فأعفيتا مجدداً من الضرائب المتوجبة على المدن الآشورية الأخرى.

أما على الصعيد الخارجي، فاهتم تجلات بلاسر الثالث باعادة بناء الامبراطورية انطلاقاً من فكرة جديدة ترمي إلى توحيد الأقاليم التي خضعت سابقاً للدولة الآشورية والجمع بينها سياسياً وثقافياً. فكان عليه، من أجل تحقيق هذه الأهداف، أن يعالج الأمور بدقة وحذر وأن يحل المشاكل نفسها التي كانت قد تعرضت لها الامبراطورية في السابق وهي: المشكلة البابلية ـ الآرامية والوقوف في وجه تقدم دولة أورارتو بعد أن أصبحت تشكل خطراً كبيراً على حدود أشور الشمالية، وأخيراً، استرجاع الأقاليم السورية ـ الفلسطينية وضمها إلى الدولة الآشورية.

أول عمل قام به ـ في السنة الأولى من حكمه ـ مواجهة الآراميين والكلدانيين في المناطق الجنوبية للبلاد البابلية من دون أن يتعرض لملك بابل الضعيف «نابو ـ نصر» الذي اقتصرت سلطته على العاصمة، كما أنه لم يتعرض للمدن البابلية المقدسة (بابل وبورسيبا Borsippa). وعندما استتب له الأمر لم يتبع الأساليب القديمة بضم بابل إلى أشور كولاية تابعة لها، بل نصّب نفسه ملكاً عليها، بعد أن قدم الطاعة لمردوك اله المدينة وقبل يديه. وبذلك أصبح ملكاً على أشور وبابل في آن رغبة منه في التوفيق بين البلدين ودمج المقاطعتين في دولة واحدة.

أما في الشمال فإنه لم يهاجم في بادىء الأمر بلاد أورارتو نفسها، إذ تمكن من محاربة جيوشها وحلفائها في أعالي بلاد الشام والانتصار على هذا التحالف سنة 743 ق.م، على الضفة

الغربية لنهر الفرات، ثم تتبع الأورارتيين حتى وصل إلى بلادهم وحاصرهم في عاصمتهم توشبا قرب بحيرة فان. وقد كرس جهوده بعد ذلك لمواجهة الأقاليم السورية والفلسطينية، فأخضع الامارات الشمالية وكلا من دمشق والسامرة التي أصبحت ولاية تابعة لأشور، وولى عليها حاكما من الاسرائيليين، كما تلقى الجزية من ملك يهودا الذي حضر إلى دمشق لتقديم الطاعة والولاء لملك اشور... وواجه من جهة أخرى عرب الصحراء، في شمالي شبه الجزيرة العربية، حيث وردت في نصوصه أسماء عربية منها: اسمان لملكتين أطلق عليهما لقب ملكة أريبي، وهما زبيبي (زبيبة) التي أدت الجزية واعترفت بسلطان أشور، و«سمسى» (شمس) التي تمردت، بل ساعدت الآراميين... فحاربها ملك أشور وأجبرها على الفرار، ثم عادت وخضعت للسلطة الآشورية.

أما الأساليب الجديدة التي اتبعها تجلات بلاسر في ربط هذه الأقاليم وتوحيد شعوبها، فتختصر بترحيل السكان بأعداد كبيرة من بلادها الأصلية إلى مناطق أخرى ليستبدل بهم آخرين من شعوب الامبراطورية.

ويبدو أنه رَحَّل في عامه الثالث مالا يقل عن 32000 من سكان شمالي وغربي سوريا إلى مناطق أخرى، وأسكن محلهم جماعات أتى بها من جبال زغروس ومنطقة نايرى Nairi قرب بحيرة «فان»، وأتى بعدد من الاسرائيليين إلى أشور، كما يدعي أنه هجر أكثر من مئة ألف من أخصامه في بابل.

الغاية من هذه الحملات تحطيم أواصر القوميات المحلية، ومحاولة دمج الشعوب فيما بينها كي يجعل من أفرادها مجرد مواطنين في هذه الدولة الكبيرة سيما وأن الشعب الآشوري قليل العدد يعجز عن استعمار كافة هذه الأقاليم ومراقبة ما يحدث فيها. ولقد حاول ايجاد روابط تجمع بين مختلف هذه الشعوب كنشر اللغة الأرامية، وتأسيس مدن جديدة تحمل تقاليد ومظاهر الحضارة الآشورية، ثم عمل على نشر عبادة الالهة الآشورية في عدد من المدن الخاضعة للامبراطورية.

مع انتقال السلطة إلى أحد قادة الجيش، سرجون الثاني (721 ـ 705 ق.م)، اتبعت سياسة جديدة في الداخل، فاستعادت اشور مكانتها وأعفيت مدينتي حران وأشور من الضرائب، ربما ارضاء للكهنة وتدعيما لشرعية استلامه الحكم.

على الرغم من هذه التحولات الداخلية فإن أغراض الدولة في الخارج لم تتغير، وهي

تتلخص بترسيخ أسس الامبراطورية ومواجهة المشاكل الناتجة عنها: المشكلة البابلية، وحركات التمرد والثورات في بلاد الشام وفلسطين والمدن الفينيقية، فضلاً عن أن الأوضاع العامة لم تعد كما كانت عليه من قبل، فإن قبائل جديدة ظهرت في أنحاء مختلفة في الشمال: الموشكيون في آسيا الصغرى، والسيماريون في الشمال الشرقي... والميديون في إيران.

إلى جانب الأعمال العسكرية، اهتم سرجون الثاني (وهو يعرف أيضاً باسم شاروكين أي الملك الصادق) بالنواحي العمرانية،فرمم المعابد في عدد من مدن بلاد ما بين النهرين، وبنى مدينة جديدة حملت اسمه، دور شاروكين (في المكان المعروف باسم خورسباد، شمالي نينوى)، أهملت من بعده. ولقد كشفت الحفريات في هذا المكان عن آثار القصر الملكي بما في ذلك آثار الزقورة ومجموعة المعابد الملحقة به والقلعة والأسوار الخارجية، كما عثر على عدد من تماثيل الثيران المجنحة التي كانت توضع عند أبواب المدينة لحراستها.

استمر الصراع بين الدولة الأشورية والأقاليم الخاضعة لها خلال حكم الملوك الثلاثة الذين توالو على العرش بعد سرجون الثاني، وهم سنحارب (704 ـ 681 ق.م)، وأسر حدون (680 ـ 669 ق.م)، وأشور بانيبال (668 ـ 626 ق.م).

في بداية هذا العهد تحالف عدد من المدن الفينيقية والفلسطينية بمساعدة مصر الخائفة على مصالحها من منافسة الأشوريين على الشاطىء وفي قبرص. لكن الثورة أخمدت عندما حاصرت جيوش سنحاريب مدينة صور وأجبرت لولي، ملكها، على الهرب، واستولت على بعض مدن الشاطىء، وفرضت عليها الجزية، وهزمت الجيش المصري في مكان قرب عقرون، ثم اكتسحت اليهودية وحاصرت القدس في عهد ملكها حزقيا. وتقول المصادر الأشورية أن سنحاريب قد انتصر في هذه المعركة، واستولى على 46 مدينة تابعة للقدس، واسر أكثر من 200،000 شخص... وعاد إلى نينوى محملاً بالغنائم والأسلاب... لكن أورشليم لم تستسلم، فالتوراة تشير إلى انهزام الآشوريين بعد أن حلّ فيهم «الموت الالهي». ويقول هيرودوت أن فرعون مصر أرسل جرذانا أطلقها جنوده في معسكرات الآشوريين، فقطعت أوتار أقواسهم وأتلفت جعاب سهامهم... ربما كان للجرذان دور ليس في قطع أوتار الأقواس بل في نشر وباء الطاعون بين جنود الآشوريين. وفي هذه السنة (701 ق.م) تمكن سنحارب من اخماد الثورات الأخرى في البلاد، فأحرق لاخيش ودمرها، وحاول الوصول إلى الحدود المصرية.

أما بابل فساءت فيها الأحوال من جديد وتوالى على حكمها عدد من الحكام لم يكن

فيهم واحد من أصل بابلي، وعندما عجز ملك أشور عن انهاء حالة الفوضى هذه عيّن ابنه (أشور ـ نادين ـ شومي، (700 ـ 693 ق.م) والياً عليها. لكنه اغتيل؛ فقرر سنحاريب القضاء نهائياً على بابل، فحاصرها، ودمرها، واستولى عليها ونقل تمثال الاله مردوك إلى أشور. لكن هذه الاجراءات لم تغير شيئاً من طبيعة الأوضاع في البلاد، سيما وأن ابنه اسرحدون (من أم بابلية وتزوج من بابلية) عاد وبنى المدينة من جديد، ورمم معابدها، بخاصة معبد أزاجيل وزقورة أي ـ تمن ـ آن ـ كي (E - Temen - An - Ki) (برج بابل).

قام أسرحدون بعدة حملات أصبحت تقليدية وقضى على تحالف تزعمته صيدا، فحاصرها ودك أسوارها وقتل ملكها عبدي ملكوتي في سنة 677 ق.م.

لعل أهم هذه الأحداث التاريخية الحملة التي قادها أسر حدون في سنة 670 ق.م. فبعد أن أنهى حصاره للقدس وأخمد الثورات الأخرى توجه إلى الحدود المصرية حيث كانت جيوش طهرقة (من أصل نوبي)، ملك مصر، قد تجمعت لمحاربته. لكن الجيوش الآشورية تمكنت، بفضل عددها الكبير واستعداداتها الحربية، من أن تحقق النصر وأن تلاحق المصريين بعد تراجعهم وتصل إلى منف، في حين أن طهرقة فرّ إلى الجنوب ليعود بعد ذلك لمحاربة الآشوريين من جديد.

هكذا أصبحت مصر ولاية خاضعة لأشور، عُيّن عليها حاكم مصري، نكاو، اتخذ من مدينة سايس، في الدلتا، مقراً له. حاول الآشوريون «تأشير» الحضارة المصرية عندما سعوا إلى احلال اللغة الآشورية المسمارية محل اللغة المصرية الهيروغليفية، واستبدال الالهة المصرية بآلهة أشورية، كما حاول الملك الآشوري التقرب من المصريين بحمل ألقاب مصرية كتبت بالخط الهيروغليفي. كما أنه غيّر أسماء بعض المدن المصرية وأمر بوضع تماثيله في المعابد. لكن هذه الاجراءات لم تنجح كليا حتى في بلاد ما بين النهرين وبلاد الشام ولم تقبل إلا لفترة قصيرة في مصر، وما كاد أسر حدون يترك مصر، في السنة التالية، بسبب تدهور الأوضاع على الحدود الشمالية، حتى عاد طهرقة واسترجع منطقة الدلتا، وخلع الأمراء الموالين للآشوريين، وطرد الحامية الآشورية إلى خارج حدود البلاد، ولم تتح الفرصة لأسر حدون بالعودة إلى مصر ثانية لمعاقبة المتمردين إذ توفي في الطريق أثناء الحملة الثانية على مصر.

لكن خليفته جهز حملة جديدة وتمكن من الانتصار على المصريين ووصلت جيوشه إلى طيبة. ففي سنة 660 ق.م، قام أشور بانيبال باخماد ثورة محلية، وخرب على أثرها مدينة طيبة

شوش ـ تاج عمود، القرن الخامس ق. م،
متحف اللوفر

وعامل السكان معاملة قاسية. لكن احتلال مصر كان يتطلب مواصلة الحملات العسكرية، وتحمل ما يترتب على ذلك من نفقات باهظة تفوق قدرة الامبراطورية، وسرعان ما انفصلت عنها مصر نهائياً في عهد بسامتيك Psammétique الذي تحالف مع كيكاز، ملك ليديا، وتمكن من تحرير مصر. فكانت بذلك بداية انهيار الامبراطورية الأشورية التي أنهكتها الحروب المتواصلة والنزاعات الداخلية.

لكن المسألة البابلية بقيت من الأمور المعقدة التي عمدت أشور إلى معالجتها وفق سياسة تأرجحت بين حلول سلمية حينا وحلول عسكرية حينا آخر، إلى أن أتى تجلات بلاسر الثالث وجعل من بابل جزءاً متمماً لأشور بعد ما نصّب نفسه ملكاً عليها، ودمج العرشين وجعلهما متمثلين في شخصه.

أما سنحاريب فقد عالج الأمور من وجهة النظر الآشورية، باعلاء شأن الاله أشور، واستيلائه على بابل بقوة السلاح، وتدمير المدينة. لكنه غيّر من سياسته في أواخر حياته عندما جعل من ابنه اسر حدون (وهو من أم بابلية) خليفته على العرش. فاتبع هذا الأخير السياسة السلمية بكثير من الحذر. لم يجرؤ، في بادىء الأمر، على الرغم من ميوله البابلية وإعادة بناء المدينة، على ارجاع تمثال الاله مردوك إلى بابل لأن التوفيق بين التيارين كان من الأمور الصعبة، فيما إعادة بناء بابل وترميم معابدها كانا اقراراً بسلطة المدينة ونفوذ الاله مردوك، وانتصاراً للثقافة البابلية.

انتهى الأمر بتوزيع السلطة بين ولدي اسر حدون: شمش ـ شوم ـ أوكين وُلي على بابل وحكم فيها باسم مردوك، وأشور بانيبال حكم في نينوى باسم الاله أشور. ومع ذلك نشبت الحرب مرة أخرى بين البلدين، بعد أن شارك فيها، سنة 652، عدد كبير من أقاليم الامبراطورية. فتحالفت بابل مع كافة الامارات الجنوبية باستثناء بعض المدن، مثل أوروك التي بقيت مخلصة للملك. ووقف إلى جانب هذا التحالف امراء الشام وفلسطين وعرب الصحراء، وكيكاز، ملك ليديا، الذي تحالف من قبل مع «بسامتيك».

في سنة 648 ق.م، انتصر الآشوريون مرة أخرى بعد أن استمرت الحروب أربع سنوات، وتم تدمير بابل للمرة الثانية بعد حصار دام سنتين. لكن أشور بانيبال نفسه، أعاد بناء المدينة ورمم معابدها، وتمكن من القضاء على جميع منافسيه في بابل والأقاليم الأخرى، كما قضى، في سنة 639 ق.م، على شوش، وصمتت منذ ذلك الوقت كافة المصادر العيلامية.

أما العرب فكانوا تارة في جانب أشور بانيبال، وطورا مع أخيه، وانتهى الأمر معهم بحملة عسكرية حملتهم على الخضوع والولاء لأشور.

إلى جانب صفاته العسكرية كان أشور بانيبال يتميز بثقافة علمية ودينية، ثقافة جمعت بين مظاهر حضارية أشورية وبابلية انعكست في مفهومه للملكية وفي السياسة التي اتبعها. كان شديد الحرص على تجنب المباني المقدسة في بابل، وحفظها من الدمار بإعادة بنائها أو ترميمها، تأكيداً على احترامه التراث البابلي ومدى تأثره بالأفكار الدينية البابلية.

كانت الملكية كما فهمها أشور بانيبال وطبقها، تجسيداً لفكرة الراعي الذي أسند إليه الاله قيادة البشر وإدارة شؤونهم، فمن واجبه الصراع من أجل اثبات حق الاله أشور في هذا العالم، ومحاربة قوى الشر والفوضى تماماً كما فعل مردوك في صراعه ضد قوى الشر (في أنشودة الخلق: عندما في العلى Enuma Elish).

على الرغم من تتابع العمليات الحربية، (كان قد أوكل أمر الاهتمام بها إلى قادة عسكريين الذين حققوا انتصارات باهرة باسمه)، انصرف أشور بانيبال، في الداخل، إلى الأمور العلمية، واهتم بالأدب والفن والعمران، حيث ترك لنا مجموعة كبرى من المشاهد النحتية الجدارية في قصره الخاص، أو في قصر جده سنحاريب في نينوى، منها مشاهد صيد الأسود، وصورة اللبوة المجروحة، التي تعتبر اليوم من أجمل القطع الفنية الآشورية. ولقد أمر بجمع المصادر والنصوص القديمة في مكتبة كبيرة في نينوى (تعرف حالياً باسمه) عثرت فيها الحفريات على عدد كبير من الرقم التي ألقت الأضواء على النتاج الفكري في الشرق الأدنى القديم.

وهذا أشور بانيبال يتحدث عن نفسه فيقول: «لقد أهداني مردوك، حكيم الالهة، أذناً صاغية، ونباهة متقدة لا حدود لها. وأهداني نابو، كاتب الكون، حكمته، بينما أضفى علي كل من نينورتا ونرجال شخصية الرجولة وقوة منقطعة النظير. لقد أحطت بتنبوءات أدابا الحكيم، وأطلعت على كنز فن الكتابة المحجوب في بيوت السماء والأرض، وأنني أحل أصعب العمليات الحسابية ضرباً وقسمة. لقد قرأت الرقم الطينية ذات الكتابة السومرية، وكذلك الأكدية المظلمة (اي المعقدة) التي يصعب فهمها. أنني افهم النصوص الكتابية على الأحجار التي تعود إلى ما قبل الطوفان...».

على الرغم من انتصار الآشوريين عسكرياً على بابل كان لهذه الأخيرة أثر بارز على

تطور الحضارة الآشورية، خاصة في المجالات الدينية والأدبية والعمرانية؛ وحصل ما يمكن أن نسميه وحدة ثقافية تكونت بفضل ارتباط الاقليمين بأحداث تاريخية مشتركة، بل ارتباطهما بتطور الفكر الديني والسياسي والاجتماعي في بلاد ما بين النهرين منذ العهد السومري.

فالاله أشور اله محلي، اكتسب، مع تطور الدولة الآشورية، صفات عالمية جديدة، واصبح بمنزلة مردوك البابلي، أو انليل السومري الأصل. وكان على ملوك أشور النضال من أجله ومن أجل اقامة الحق (كما يفهمه ملوك أشور)، والصراع ضد قوى الشر والفوضى. فالملك الآشوري لم يكن مجرد رسول سلام بل ممثل الاله ونائبه في هذا العالم. وهوما يتجلى بوضوح في النصوص الأدبية والأعمال النحتية التي بلغت أعلى درجات التطور الفني. أمّا المعارك الحربية فأمر بها الاله أشور، وخاضها ملوك الامبراطورية تنفيذاً لأوامره وتجسّيداً، في واقع الأمر، لما قام به هذا الاله من حرب ضد قوى الشر والفوضى في العالم السفلي.

لذلك، فالتقارير الحربية، بما تحمله أحياناً من تعابير أدبية جميلة، هي ذات ملامح دينية، بل يمكننا أن نعتبرها نصوصاً شبه دينية لما تجسّده من انتصار للاله، حققه الملوك الآشوريون باسمه. وفيما يلي نص يتحدث فيه أشور بانيبال عن نفسه.

«لقد نظرت الالهة الكبرى بابتهاج وسرور إلى منجزاتي الخيرة، وجلست حسب مشيئتها العظيمة، مصحوباً بالحظ السعيد، متربعاً على عرش الوالد الذي خلفني، ووسع الكبار، أي القادة، سلطتي وأَسَرّهم حملي لمقاليد الحكم. لقد فرحت وهللت جهات العالم الأربع عند تسميتي باسمي العظيم. وأرسل ملوك البحر الأعلى والأسفل العبيد الأذلاء عند والدي الذي خلقني وبعثوا إليّ رسل التهاني والأفراح بمناسبة استلامي مقاليد الحكم. لقد خرست أسلحة الأعداء المتمردين، وفك المتمنطقون (أحزمتهم)... وركنت رماحهم إلى الهدوء... وأصبح الأشرار ضعفاء، أولئك الذين خططوا لحرب وقتال من لا يستكين لهم. لم يعد في المدينة أو البيت أي إنسان يغتصب مُلك الآخر. ولم يسبب أي إنسان لآخر أذى في جميع البلاد. إن من طرق المسالك لوحده، قطع طولها سليما، لم يعد هناك أي لص يسفك الدماء... لقد سكن الناس مناطق أمينة هادئة، وجعلت جهات العالم الأربع صافية كالزيت النقي... وحسب رغبة مردوك لم يعد لي هناك من منافس أو عدو...».

## 5 ـ انهيار الامبراطورية الآشورية

إن الصرح الذي بناه الآشوريون بفضل الحملات العسكرية المتتالية انهار. فالمجتمع الآشوري الخاضع لنظام الحكم المطلق مجتمع ذي طابع اقطاعي تهيمن عليه فئة الاشراف والكهنة وكبار الموظفين والضباط العسكريين المتمتعين بامتيازات خاصة وجعلت منهم دعائم هذا المجتمع. وهنالك، في المقابل، أصحاب المهن الحرة وبعض التجار الصغار، ثم الفقراء المعدمين من عامة الشعب، ومنهم يتشكل الجيش ورجال الشرطة. تضاف إليهم أعداد كبيرة من الأرقاء والمسخّرين من أسرى الحرب.

إلى جانب هذا التفاوت الطبقي، هنالك تناقضات داخلية أسهمت في الصراع الداخلي بين الاتجاهات السياسية والتنافس على العرش بين ورثة الملك، الأمر الذي أدى إلى اغتيال سنحاريب على يد عدد من أبنائه، وإلى ثورات داخلية، كالثورة التي قام بها شمش ـ شوم ـ أوكين على أخيه أشور بانيبال. يضاف إلى ذلك حركات تمرد وعصيان في أقاليم خاضعة للامبراطورية، حركات استنزفت جميع القوى الآشورية وأدت بها إلى الهلاك.

بعد موت أشور بانيبال، ورث العرش أحد أبنائه (أشور ايتيل ـ ايلاني) الذي استطاع أن يصد هجوماً قام به الميديون على الحدود الآشورية الشرقية، بل الحق بهم الهزيمة وقتل قائدهم. وفي سنة 620 ق.م، تمكن قائد الجيش الآشوري من قلب الحكم، ثم نصب نفسه ملكاً على العرش، لكنه عزل بعد فترة قصيرة على يد ابن آخر لأشور بانيبال. وفي هذا الوقت توصل إلى الحكم، في بابل، نابو بولاصر، أحد قادة الجيش البابلي المتحالف مع الميديين، وتشكل، من جهة أخرى، حلف ثان جمع.. (ربما بدافع الخوف من الميديين) بين أشوريين وميتريين (احدى القبائل الايرانية الغربية) وسكيتيين كانوا بالأمس القريب من ألد أعداء الدولة الآشورية. أما مصر فوقفت هذه المرة إلى جانب اشور.

فشلت الخطة الأولى التي قام بها سياكزار (653 ـ 585 ق.م) (Cyaxare) في هجومه على أشور. فعاد وهيأ حملة جديدة وحارب السكيتيين، وقضى عليهم في سنة 616. في هذا الوقت، كان حليفه نابو بولاصر قد حقق أول انتصار على الآشوريين، في أواسط الفرات، لكنه تراجع عن حصار مدينة أشور ولم يتمكن من الصمود أمام تحالف حثي أشوري مصري. لكن اشور سقطت أخيراً، سنة 614 ق.م، ثم تبعتها نينوى، سنة 612 ق.م، على أثر هجمات

متتالية قام بها متحالفون ميديون وكلدانيون. وهكذا كانت نهاية أشور بعد أن دمرت معظم مدنها تدميراً كبيراً لدرجة أن الأجيال اللاحقة لم تعد تتذكر مواقعها.

# العصر البابلي الحديث

## الدولة الكلدانية
## (626 ـ 539 ق.م)

ظهر الآراميون، منذ أواسط الألف الثاني ق.م، بأعداد كبيرة في كافة أنحاء الشرق الأدنى، كما دخلت فئة منهم، عرفت بالكلدانيين (نسبة لاحدى قبائلهم كلدو)، إلى بابل، حيث كان لها، ابتداء من الألف الأول ق.م، دور بارز في إدارة شؤون البلاد السياسية والاقتصادية. أسس الآراميون في مناطق عديدة من بلاد الشام، إمارات خاصة بهم، احتفظ بعضها بشيء من الاستقلال الذاتي حتى في عهد الامبراطورية الآشورية، مثل: سمأل (زنجرلي)، وخوزانة (تل حلف)، في شمالي سوريا، وهي المنطقة التي امتزجت فيها التقاليد الحضارية الحورية والأمورية والحثية والكنعانية. وانتشر الآراميون في مناطق أخرى، ولا سيما في الجنوب، قرب الخليج العربي، حيث اشتهرت احدى إماراتهم التي عرفت باسم بيت ياكين. لكن هذه القبائل لم تكن تملك مظاهر حضارية خاصة بها كما لم تترك، على خلاف الأكديين والآشوريين، آثاراً قيمة في النحت أو التصوير الجداري، واعتمدت في بناء حضارتها على ما اقتبسته من أفكار سياسية ومعتقدات دينية عن شعوب متحضرة اختلطت بها واستوطنت بلادها، وتمكنت من ثم إدارة أمور السياسة فيها.

لعل أبرز نشاطاتهم التجارة؛ وبفضلها تمكنوا من الانتشار في أنحاء مختلفة، ودخول البعض منهم، عمالاً وخدماً وأرقاء، بيوت الأثرياء وضياعهم، وعملوا نشر لغتهم، سهلة التداول، في البلاد التي انتقلوا إليها، مستبدلين بالكتابة المسمارية على الرقم الطينية الكتابة الأبجدية الفينيقية وملفات البردى المصرية. وقد ظهرت بعض النصوص الأرامية القصيرة حتى على الأعمال النحتية لعدد من ملوك أشور (شلمنصر الثالث وسرجون الثاني وسنحاريب) في كالح ،ودور شاروكين، ونينوى. لكن أبرز ما حققه الآراميون كان تأسيس دولة كلدانية في

بابل، وجعلها محوراً لنهضة جديدة أعادت الاعتبار إلى التقاليد الدينية الخاصة بالاله مردوك وتعاليمه. وتأسيس هذه الدولة الجديدة يعني انتصار الأرامية، وانتصاراً للفكر السياسي والحضاري لهجرة الساميين الغربيين إلى بابل.

كان نابو بولاصر، في المرحلة الأخيرة من العهد الأشوري، حاكماً مستقلاً على الاقليم الجنوبي ويحتمل أن يكون أشور بانيبال قد عينه في هذا المنصب لقاء ما قدمه من خدمات للجيش الأشوري. اقتصرت سلطته في بادىء الأمر على مدينة بابل وضواحيها، ثم توصل بفضل الأحداث غير المرتقبة، إلى ما لم يحلم به، إذ حقق ما كان يسعى إليه من قبل عدد من أسلافه الكلدانيين. لكن تدهور الأوضاع في بلاد أشور، وانتفاضة قبائل الميديين في الشمال الشرقي هيأ للكلدانيين عملية الدخول بشكل فاعل إلى المسرح التاريخي. فتمكن نابو بولاصر، بعد اخفاقه، سنة 615 ق.م، في غزو مدينة أشور منفرداً، تمكن، بمساعدة الميديين، من احتلال نينوى، سنة 612 ق.م، وتدميرها، والقضاء من ثم على الحكم الآشوري في الشرق الأدنى.

يبدو أن الفضل الأكبر في القضاء التام على دولة أشور يرجع إلى الميديين؛ فالنصوص البابلية تنسب إليهم الأعمال التخريبية العنيفة، وكذلك انتهاك حرمة المعابد والأماكن الدينية المقدسة. وبسقوط نينوى، أصبح نابو بولاصر ملكاً على امبراطورية مترامية الأطراف شملت معظم أقاليم بلاد ما بين النهرين، في حين أن الميديين اكتفوا، على الرغم من اسهامهم فعلياً في الحرب، بالقطاع الشمالي الشرقي من بلاد أشور.

لكن نابو بولاصر لم يتمكن من القضاء على آخر معقل للأشوريين إلا في سنة 605 ق.م، عندما قضى على المقاومة الأشورية، المدعومة من مصر، في حران. في هذه السنة قامت بابل بتنفيذ مخططها الرامي إلى تدعيم الامبراطورية الجديدة وطرد القوة المصرية من بلاد الشام. لئن كان نيخاو Nékao، فرعون مصر، قد انتصر (وهو في طريقه إلى سوريا) على مملكة يهودا، وخلد ذكرى أعماله الحربية على صخور نهر الكلب، إلا أنه خاض معركة خاسرة في شمالي سوريا، عندما تصدى له، في كركيميس، نبوخذ نصر، وهو الذي أوكل إليه والده، نابو بولاصر، أمر هذه الحملة، وحقق النصر مؤكداً قوة بابل الجديدة.

عند رجوعه إلى بابل، تسلم العرش مباشرة (بعد موت والده سنة 605 ق.م) من دون أية مقاومة أو معارضة داخلية تمنعه من متابعة بناء الصرح الذي وضع أسسه والده من قبله. وقام، من أجل ذلك، بأعمال شتى سواء في الداخل أو في المجالين السياسي والعسكري في

الخارج. وخلال حكمه الطويل (= ما يقرب من 43 سنة 605 ـ 562 ق.م) لم يتوقف نبوخذ نصر، وهو أبرز ملوك الدولة البابلية الحديثة، عن العمل دعما لموقعه وملكه عن طريق احياء الطقوس الدينية الخاصة بالاله مردوك، وتشييد المعابد في كافة أنحاء البلاد، وترميم ما تهدم منها، تماماً كما فعل من قبله سلفه حمورابي. ويؤكد ذلك أن معظم الآثار المكتشفة في بابل ترجع إلى العهد البابلي الحديث وبخاصة فترة حكم نبوخذ نصر. فالنصوص المعاصرة له تتحدث عن المعابد والأبراج العديدة (الزقورات) التي شيّدها باسم الاله، كما تذكر بتفصيل الأشياء الثانوية، كالتبرعات والأضاحي، التي قدمها الملك للمعابد واكراما للالهة.

«لقد أمرت بان يُحْضر كل يوم على مائدة مردوك، والـ ساربانيتو، حيوانان، ثور كبير مليء الجوانب... أربع وعشرين نعجة سمينة، حيوانات نقية للتضحية، تكريماً لآلهة بابل، أربعة ديوك، عشر حمامات... ثلاثة رؤوس من الثوم... كمية كبيرة من الخضر... وتين أبيض، وعسل مصفى، وبيرة، وزيدة... وأنقى أنواع الزيوت...».

إن مثل هذه الأعمال تدل ليس فقط على احترام الملك وطاعته للالهة، بل على رغبته في ارضاء الكهنة لما كان لهم من نفوذ كبير في بابل. فاهتم نبوخذ نصر، بصورة خاصة، بمدينة بابل ومعابدها، كما أقام فيها القصور وجمّلها بالشوارع الواسعة، بخاصة طريق الاحتفالات (= ويمر به موكب احتفال راس السنة) الذي يصل باب عشتار بمجموعة المعابد والقصور الملكية. ولقد خصصت قطعة أرض،، بالقرب من هذه البوابة، داخل أسوار المدينة، لزراعة النباتات النادرة والورود الجميلة في مدرجات متتالية عرفت بـ «الجنائن المعلقة» التي اعتبرها اليونانيون من بين عجائب الدنيا السبع.

تقع بابل على ضفتي نهر الفرات، تحيط بها ثلاثة اسوار متتالية، تتخللها أبراج دفاعية. بنيت في داخلها ثلاثة قصور، عثر في احدها على آثار غرفة العرش (وتبلغ أبعادها 57م طولا و 17 عرضاً). أما الأبنية الدينية فأهمها: «ايزاجيل» بابل، أو معبد الاله مردوك المزينة جدرانه بالذهب واللازورد والرخام، المسقوف بخشب أرز لبنان. يقترن هذا المعبد، في الجهة الشمالية منه، بأكثر المباني شهرة في بلاد ما بين النهرين، ألا وهو برج بابل أو الزقورة المعروفة قديما باسم «أي ـ تمن ـ أن ـ كي» (E - Temen - An - Ki) (بيت دعائم السماء والأرض). يبلغ ارتفاعه 90م، أي ما يعادل طول ضلع قاعدته المربعة، وقد بني من اللبن المجفف وأحيط من الخارج بطبقة من اللبن المشوي. قديماً كان يتألف من ست طبقات (أو مصاطب) يليها المعبد.

إن اهتمام البابليين بتشييد المعابد والأبراج الدينية، رمز الحضارة البابلية، يبين عن تطور الفكر الديني وارتباطه المباشر بالحياة اليومية. وقد خضعت هذه الأبنية لمبادىء ونظم حسابية هندسية لا يمكن فصلها عن علم الفلك، والكون، لأن الوحدة القياسية (أو العدد الكامل) المعتمدة في بناء هذه المعابد تقوم بدورها على معرفة ظواهر الكواكب ومداراتها. اتبعت هذه الأعداد، بما لها من دلالات كونية، في ترتيب الالهة وتصنيفها، بحيث بات كل منها يحمل رقماً يتناسب والمركز أو الرتبة المعطاة له في هذا الكون. فالمعرفة الدقيقة ببعض ظواهر الطبيعة قادت الانسان إلى الاعتقاد بأن نظاما أو قوة ما تحكم العالم وتسيره كما تشاء؛ وأي أن مجموعة من العلوم الفلكية الكلدانية قد ازدهرت في هذا العهد، وكان لها أثر مباشر في حياة الانسان البابلي فخضع بدوره لنظام هذا العالم ولجأ إلى حسابات هندسية خاصة وإلى دراسة ظواهر الأنجم ومداراتها ليتعرف إلى مستقبله ويتكهن بمصيره.

من هنا، ولد «علم التنجيم»، وأخذ أهمية كبرى في بابل، ومن ثم انتشر في كافة أنحاء العالم. كان مردوك يمثل السلطة الروحية المتحكمة بالعالم، المتحكمة بمصير الانسانية، فهو يموت، ويبعث من جديد في عيد رأس السنة مجسداً بذلك عودة الطبيعة واستمرار الحياة، وانتصاره في الصراع من أجل هذا العالم.

اهتم البابليون أكثر من أي شعب آخر بالحياة الدينية المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بحياة الانسان ومصيره المقدر له. فشيدوا، من أجل ذلك، المعابد اكراماً للآلهة والأبراج التابعة لها، كبرج بابل الذي وجدت فيه الأجيال اللاحقة أصدق تعبير عن الحضارة البابلية.

أما على صعيد السياسة الخارجية، فإن النصوص البابلية، على خلاف الحوليات الحربية الآشورية، لم تتكلم إلا نادراً عن الأعمال العسكرية. ولكن لا بد وأن تكون البلاد قد شهدت، في الفترة الطويلة التي حكم فيها نبوخذ نصر، أحداثاً سياسية وعسكرية على شيء كبير من الأهمية في تاريخ الشرق الأدنى القديم. فالمصادر التاريخية التي وصلتنا من خارج بابل، تشير، بل تؤكد أهمية هذه الأحداث الناجمة عن مواجهات الدولة الكلدانية مع الأقاليم التي خضعت لها في فلسطين وبلاد الشام.

أما في الجهة الشرقية فقد حرص نبوخذ نصر على اقامة علاقات ودية مع الميديين حلفاء بابل، وقد وجد هذا التحالف تعبيره الرمزي في زواج نبوخذ نصر (عندما كان لا يزال ولياً للعرش) من الأميرة الميدية (أميتيس) ابنة سياكزار. ويبدو أن ملك بابل قد أمر ببناء

الجنائن المعلقة ارضاء لزوجته الفارسية الأصل، لكنه لم يغفل بسبب ذلك أمر تحصين الحدود مع جيرانه في إيران، فاقام الأسوار والحصون الضخمة على حدود بلاده الشرقية.

ولعل أهم هذه الأحداث هو ما حصل من حروب في الأقاليم الغربية أدت إلى اخضاع الدولة اليهودية. فقد وقفت هذه الإمارة مرتين، خلال فترة قصيرة، في وجه الامبراطورية الكلدانية، وخاضت ضدها معركة خاسرة، رغم تحذير ارميا وتنبوءاته بالدمار والاندثار لشعبه على يد بابل. لقد رفض يهوياقيم، حاكم يهودا، دفع الجزية واستطاع أن يصمد مدة من الزمن في وجه الجيش البابلي قبل أن تسقط أورشليم بعد موته، خلال الأشهر الأولى من حكم ولده يهوياكين، سنة 597 ق.م، الذي استسلم طالباً الصفح والعفو من الملك البابلي. لكنه اقتيد إلى بابل مع أفراد عائلته وعدد كبير من الأسرى اختلفت المصادر التاريخية في تقديره (يتراوح بين 10،000 و8000 و4500 أسير)، وأمضى قرابة 35 سنة في الأسر، ولم يرجع إلى بلاده إلا بعد موت نبوخذ نصر، عندما منحه خليفته الحرية وأرجعه إلى يهودا.

في اثناء وجوده في بابل، تسلم الحكم في أورشليم عمه، ميتانيا، المعروف باسم صدقيا، وأقسم يمين الولاء لبابل، لكنه عاد وأعلن العصيان، ربما بدافع التشجيع والتحريض على التمرد من قبل فرعون مصر الساعي إلى استمالة أمراء وحكام الدويلات الفلسطينية والفينيقية.

في سنة 587 ق.م، وصلت القوات البابلية إلى فلسطين وحاصرت القدس مدة طويلة من الزمن، تمكنت أثناءها من القضاء على الجيش المصري، عندما اتى لمساعدة «صدقيا»، بالقرب من أريحا، ثم سقطت المدينة سنة 586 ق.م بعد حصار دام ثمانية عشر شهراً. فأحرقت أورشليم ودمرت كما نهب الهيكل وقبض على صدقيا بعد أن حاول الهرب، ثم عصبت عيناه ونقل إلى بابل، وأسر عدد كبير من السكان (حوالي 40،000) ونقلوا إلى بابل حيث أسكنوا بالقرب من نيبور، كما تشرد قسم آخر والتجأ إلى مصر حيث استقر في عدد من مدنها مثل تانيس، ومنف... وهكذا زالت دولة يهودا وفقدت كيانها السياسي.

"وفي اليوم التاسع من الشهر الرابع، اشتد الجوع في المدينة، ولم يكن خبز لشعب الأرض، فثغروا المدينة وهرب جميع رجال الحرب ليلا من طريق الباب الذي بين السورين... فجرى جيش الكلدانيين على أثر الملك فأدركوه في صحراء أريحا، وقد تفرق عنه جميع جيشه، فأخذوا الملك وأصعدوه إلى ملك بابل في ربله (على العاصي) وتلوا عليه القضاء. وذبحوا بني صدقيا على عينيه، ثم فقأ عيني صدقيا وأوثقه بسلسلتين من نحاس وجاؤوا به إلى بابل». (سفر

الملوك الرابع، الفصل الخامس والعشرون).

وبعد أن تم القضاء على يهودا، واخضاع المدن المتحالفة معها، كان على نبوخذ نصر أن يواجه حركة تمرد أخرى ظهرت في مدينة صور، فحاصرها مدة طويلة من الزمن دامت حوالي ثلاث عشرة سنة (585 ـ 573 ق.م)، وفي عام 573 ق.م، استسلمت المدينة بعد أن سئمت طول الحصار، واعترفت بسيادة البابليين، ثم تحالفت معهم في حربهم ضد المصريين، إذ يحتمل أن يكون نبوخذ نصر قد غزا السواحل المصرية. ولكن ليس لدينا ما يشير إلى ذلك سوى ما كتبه المؤرخ اليهودي، يوسفيوس، مؤكداً أن مصر قد خضعت للنفوذ البابلي.

## نهاية الدولة الكلدانية في بابل

تعرضت الامبراطورية الكلدانية، بعد موت نبوخذ نصر لصعوبات ومشاكل معقدة تمثلت بتكريس سلطة الكهنة في الداخل، واستمرار أعمال التمرد والثورات في الأقاليم التابعة للامبراطورية البابلية، وتصاعد القوة الفارسية على الحدود الشرقية. لكن هذه الأخطار لم تظهر في حياة نبوخذ نصر، إذ استطاع بفضل قوة شخصيته ومساعيه الخاصة أن ينظم أمور الدولة وأن يحفظ التوازن السياسي والاجتماعي في الداخل والخارج. وقد تمكن، بفضل قوته الحربية وحملاته العسكرية الناجحة، وبفضل تحصين مراكز الضعف في بلاده، من بسط نفوذه في الشرق الأدنى، كما توصل لأن يكون وسيطاً في النزاع القائم بين الدولتين، الميدية والليدية.

لكن موت نبوخذ نصر في سنة 562 ق.م كان بداية لمرحلة جديدة انتهت بسقوط الامبراطورية في سنة 539 ق.م، ساءت خلالها الأحوال العامة، ربما بسبب ازدياد نفوذ الكهنة وتدخلهم في أمور الدولة السياسية ووقوفهم وراء الانقلاب الذي أطاح بالملك أويل مردوك، ابن نبوخذ نصر، بعد سنتين من تسلمه الحكم.

على أثر هذا الانقلاب، وصل إلى العرش (سنة 559 ق.م) أحد رجال البلاط نرجال ـ شار ـ أوصر، الموالي للكهنة، وهو الذي ازدادت الأحوال سوءاً في عهده وفي عهد ابنه وخليفته.

كان نابونيد Nabonide (556 ـ 539 ق.م)، آخر ملوك الدولة البابلية الحديثة، قد تميز بميوله الأدبية والدينية؛ فأمه كانت كاهنة للاله سن في حران، وربما كان هو أيضاً كاهناً وعلى صلة بكهنة سن وطقوسه الدينية. اهتم اهتماماً كبيراً بمعابد الاله سن (اله القمر) في

حران واور حيث قدم، في معبد هذه المدينة الأخيرة، ابنته زوجةً للاله سن وكاهنة تشرف على الطقوس الخاصة به.

وعلى الرغم من وفرة النصوص والوثائق التاريخية فإن تباينها قد ابقى على تفاصيل هذه المرحلة من تاريخ بابل غامضة. تأتي في الدرجة الأولى النصوص البابلية المسمارية من القرن السادس؛ وقد عثر على قسم منها في المعابد التي شيدها أو رممها نابونيد في حران وسيبار ولارسا وأور؛ تليها نصوص فارسية معاصرة، (ومنها اسطوانة كوروش التي تصف استيلاء هذا الملك الفارسي على بابل)، ثم نصوص التوراة؛ أمّا المصادر في اللغة اليونانية فهي تعود إلى ما بين القرنين الخامس قبل الميلاد إلى القرن الثالث ميلاديا.

إن مجيء نابونيد إلى الحكم واهتمامه بالاله سن، بدل الاله مردوك، يعكسان تناقضات داخلية ويكشفان عن نزاع بين اتجاهات سياسية ودينية مختلفة. ولا شك في أن اختياره ملكاً جاء تقديراً له ولاعتباره أفضل من يستطيع تحمل المسؤولية وتدبير أمور الدولة.

«أتوا بي إلى وسط القصر وألقوا بأنفسهم جميعاً على قدمي... وخضعوا لذاتي الملكية، وبناء لأوامر مردوك رفعت إلى مركز العاهل وهم يهللون أنه أب البلاد، أنه لا مثيل له».

يتبين من خلال النصوص البابلية أنه أهمل، في حقيقة الأمر، عبادة الآلهة البابلية ما عدا الاله سن، واهتم بالمعابد القديمة المتهدمة محاولاً ترميمها استناداً إلى وثائق بنائية تأسيسية. وقد أظهر ميلاً لجمع الوثائق التاريخية القديمة وحفظ القطع الأثرية القيمة. وفي نص كتب في عهد قورش (ربما على يد أحد مؤيديه من كهنة مردوك)، انتقاد للسياسة التي اتبعها نابونيد، واتهامه بتجاوز حرمة التقاليد المقدسة عندما تخلى عن الاله مردوك واستبدل به معبود آخر.

وتشير النصوص إلى أنه لم يقم بواجباته كحاكم، بل أهمل البلاد وانطوى على نفسه في تيماء (في الصحراء العربية)، بعد أن عهد بالعرش في بابل إلى ابنه «بلشازار». وقد ترك بالفعل بابل واقام في تيماء، لأسباب ما زالت غامضة، طوال ثمانية أعوام. وفي هذا الصدد يقول النص البابلي:

«لقد عهد بالحملة إلى ابنه البكر... وأرسل معه جيوش الأرض، وأطلق يده، وعهد إليه بالملك، ثم باشر هو بحملة بعيدة... واتجه إلى تيماء في وسط بلاد الغرب، وباشر مسيرة الحملة على طريق لم يعهد من قبل، ثم ذبح أمير تيماء بسيفه، كما ذبح أولئك المقيمين في مدينته في الاقليم، ثم استقر في تيماء. وجعل منها مدينة رائعة وفخمة، وشيد فيها ما يشبه قصور بابل...».

يبدو أن تخلي نابونيد عن العرش وذهابه إلى تيماء، ثم بقاءه هناك مدة طويلة من الزمن

بعيداً عن العاصمة، كان أما لأسباب داخلية نجهل تفاصيلها، وإما لأغراض سياسية، كجمع القبائل العربية والأرامية الغربية لمواجهة الايرانيين بعد أن بات خطرهم يهدد الشرق الأدنى كله.

ويحتمل أن يكون نابونيد قد عمل على ايجاد روابط دينية تجمع بين الأراميين الغربيين (الذين ينتمي إليهم) عن طريق توحيد المعتقدات الدينية والطقوس الخاصة بالاله سين، وجعل معبده في حران محوراً لهذه السياسة الجديدة التي اتبعها منذ بداية حكمه. وهذا ما قاده إلى اهمال التقاليد المحلية، ورفض طقوس مردوك الدينية، وإبطال، على ما يبدو، عيد رأس السنة الخاص بإله بابل لعدة سنوات. إلاأن هذه الاجراءات لم تبلغ من النضوج ما يمكن نابونيد من تحقيق أهدافه، كما عجز الأراميون (على الرغم من انتشار لغتهم وتسلم القيادة السياسية) عن معالجة المشاكل الداخلية ومواجهة خطر القبائل الايرانية وأطماعهم في الاستيلاء على الشرق الأدنى.

على الصعيد الخارجي، كان تصاعد القوة الفارسية في عهد الملك قورش الثاني (559 ـ 529 ق.م) من أهم الأحداث المرافقة لهذه المرحلة الأخيرة من تاريخ بابل، المرحلة الأخيرة من تاريخ الحضارات الشرقية القديمة في بلاد ما بين النهرين. بعد أن تمكن قورش من القضاء على استياكس Astyage ملك الميديين، حلفاء بابل، استطاع جمع القبائل الايرانية ووحد بينها، هاجم الجيش الليدي في كبادوقيه Capadoce، قرب موقع العاصمة الحثية، قديماً، واضطره إلى التراجع والتماس العون من مصر وبابل والمدن الفينيقية. وبعد انهيار الدولة الليدية وسقوط عاصمتها ساردیس (على الشاطىء الغربي لأسيا الصغرى) في ايدي الفرس (سنة 546 ق.م)، تمكن قورش من تحقيق انتصارات جديدة على حدود بلاده الشرقية بحيث لم يبق أمامه سوى مصر وبابل. وقد سقطت بابل سنة 539 ق.م، بعد معركة قصيرة انهزمت على أثرها جيوش بلشازار، ثم استسلمت المدن البابلية الأخرى من دون مقاومة.

في الشهر الثاني من هذه الانتصارات الفارسية دخل قورش العاصمة البابلية، فاستقبل استقبالاً حافلاً من قبل السكان وعلى رأسهم رجال الدين والنبلاء، واعتبروه محرراً لبلادهم ومنقذاً لتقاليدها وطقوسها الخاصة بالاله مردوك. وفي عهده، استعاد يهود المنفى حريتهم ورجعوا إلى ديارهم.

# الدولة الفارسية

تشكل بلاد فارس جسرا طبيعياً عظيماً يصل بين الطرفين الأدنى والأقصى للقارة الأسيوية، لوقوعها بين بحر قزوين في الشمال والخليج العربي وبحر عمان في الجنوب. وتتألف هذه البلاد من هضاب تحدها مجموعة من السلاسل الجبلية مثل البرز Elbourz في الشمال، وجبال خورسان في الشمال الشرقي، وجبال زغروس Zagros الفاصلة بين ايران ووادي دجلة والفرات. تتخلل هذه الجبال ثغور وممرات طبيعية سهل اجتيازها، تربط الهضبة الايرانية بالبلاد المجاورة على الحدود الشرقية والشمالية الغربية. وهي ممرات كانت تجتازها القبائل الهند أوروبية في هجراتها المتتالية إلى ايران، ومنها إلى الشرق أو الغرب.

إن طبيعة هذه البلاد الجغرافية قد عزلت شعوبها مدة طويلة من الزمن، عن البلاد المجاورة وحالت أحياناً دون التفاعل الحضاري معها. ففي الوقت الذي تطورت فيه الحضارة في كل من مصر وبلاد ما بين النهرين، بقيت البلاد الإيرانية (باستثناء عيلام المجاورة لوادي دجلة) محافظة على مظاهر العصر الحجري وتقاليده، ولم تتوصل شعوبها إلى ايجاد وحدة سياسية إلا بعد ظهور القبائل الميدية Médes والأخيمينية Achéménides في الألف الأول ق.م. وقد وفدت إلى هذه البقاع قبائل عديدة، منها الشعوب الايرانية القادمة من الشمال، إما من القوقاز وشواطىء بحر قزوين الغربية (وهي الطريق التي اتبعها السكيتيون والسيمريون)، وإما من المناطق الواقعة بين بحر آرال (Aral) وشواطىء قزوين (وهي الطريق التي اتبعها الأريون متجهين جنوباً ثم شرقاً)، وإما من الجهتين معاً.

وقد بينت الآثار المكتشفة حديثاً أن هجرة القبائل الايرانية (الآرية) إلى البقاع التي أعطتها اسمها قد حصلت في بداية الألف الأول؛ لكن ثمة شعوب أخرى كانت قد سبقت القبائل الايرانية، كما بينت الحفريات عن وجود آثار ترجع إلى الألفين الخامس والرابع ق.م، في سيلك وتبه جيان (Tépé Gayan) وغيرها من المراكز التي ازدهرت فيها حضارة العصر الحجري الحديث وما قبيل التاريخ.

وسيلك هي المركز الوحيد الذي عثر فيه على نصوص باشكال مسمارية ترجع إلى الألف الثالث؛ ثم بطل استعمالها كلياً في العصور اللاحقة، ولم تظهر من جديد إلا في الألف الأول ق.م.

في الألف الأول ق.م، ما بين القرنين العاشر والسابع ق.م، ازدهرت الحياة من جديد في سيلك Sialk وفي مراكز أخرى لم يكن لها أهمية كبرى من قبل، مثل حسنلو Hassanlu قرب بحيرة اورميا، وهورفان Hurvin، وأملش Amlach جنوبي بحر قزوين، ولورسطان Luristan في منطقة جبال زغروس Zagros. وقد عثر في هذه الأماكن على آثار قيمة ذات مظاهر حضارية مشتركة، تأثرت بمختلف الأساليب الفنية الأورارتية والسكيتية والسيمرية، فضلاً عن تأثير الحضارة الآشورية في شمالي بلاد ما بين النهرين. هذه المواقع هي الأولى التي استوطنتها شعوب هندوآرية أثناء هجراتها المتتالية باتجاه الجنوب، حاملة معها تقاليدها ومعتقداتها الدينية وكثيراً من عناصر البناء والفنون الشمالية التي انتقلت إلى الفرس.

تميزت هذه المرحلة، السابقة للحضارة الايرانية والممهدة لها Proto – Iranien، بنوع خاص من البناء استعملت فيه الحجارة إلى جانب اللبن، بخاصة في سيلك (حيث عثر على عدد من القبور ذات الحجارة الكبيرة والسقوف المنحدرة الجانبين، الشمالية الطابع)، كما تميزت بأنماط خزفية متنوعة وبأدوات معدنية (كالدبابيس والأسلحة، وقطم الخيل)، غنية بما يحمله بعضها من مشاهد تصويرية دينية تعكس تأثير الفنون الحرفية في البلاد المجاورة.

لكن نشاط هذه المراكز المميز (في مجال الصناعة المعدنية والخزفية) قد توقف، بعد أن دام حوالي ثلاثة قرون من الزمن، نتيجة لتطورات خارجية، كزوال عيلام في الجنوب، ونهاية الدولة الأورارتية في الشمال، وظهور الدولة الميدية التي انتقلت إليها معظم هذه التقاليد الحضارية في العمارة والفنون والمعتقدات الدينية، واحتفظت بها لتنقلها هي بدورها بعد ذلك إلى الفرس الأخيمنيين.

أما في الجنوب الغربي فقد عرفت البلاد العيلامية، منذ أواخر الألف الرابع وبداية الألف الثالث ق.م، نشاطاً حضارياً مميزاً، حيث كان لمدينة شوش، عاصمة البلاد، دور كبير في نشر المعالم الحضارية في عدد من المدن الرئيسة في البقاع الايرانية. وعيلام الوطيدة الصلة ببلاد ما بين النهرين، تبنت الكثير من منجزاتها، فاستخدمت الأختام والخزف الملون،

والرقم المسمارية، وجعلت من الأكدية لغة رسمية في كثير من المعاملات والوثائق التجارية، كما استعان بها عدد من ملوك عيلام في تسجيل أخبار أعمالهم الحربية على الأنصاب الحجرية أو الرقم الطينية. وكانت عيلام على صلة، طوال المراحل التاريخية القديمة، بأحداث الشرق الأدنى وتطوراتها، فتعرضت مراراً لحملات عسكرية قام بها عدد من ملوك أكد وبابل وأشور؛ وقامت هي بدورها، على فترات متقطعة، بأعمال حربية في الأقاليم المجاورة لها من بلاد ما بين النهرين، بل وصل أحد ملوكها، شوترك ناخونته، إلى بابل، حوالي 1170 ق.م، فقضى على الحكم الكاشي فيها، واستولى على البلاد لمدة قصيرة من الزمن. بعد ذلك استمرت الأوضاع على ما كانت عليه حتى قام أشور بانيبال بحملة عسكرية على عيلام وقضى عليها نهائياً سنة 639 ق.م.

أما الشعوب الايرانية الآتية من الشمال فانتشرت في مناطق عديدة من الهضبة الايرانية حيث سكن الماديون في الشمال الشرقي، في جوار همذان، في حين اتجهت القبائل الفارسية نحو الجنوب وسكنت في منطقة بارسوماش Parsumash ولكنها خضعت في هذا العهد للنفوذ المادي، سيما وأن ديوسيس Deiocès، أول ملوك الماديين، قد نجح في بداية القرن السابع ق.م، في تأسيس دولة جديدة في الشمال الشرقي، واتخذ من اكباتانا Ecbatane عاصمة له.

وبعد أن توحدت البلاد في عهد خليفته (فراؤرتيس)، المتحالف مع قبائل السكيتيين والسيمريين، أعلنت الثورة على اشور في سنة 673 ق.م. لكن المحاولة لم تنجح كلياً إذ تمكن أسر حدون من القضاء على هذا التحالف، وتمكن السيكيتيون، بعد ذلك، من الاستيلاء على ماد وحكموها قرابة ثلاثين سنة. لكن سياكزار (633 ـ 585 ق.م) استرجع البلاد من أيدي السكيتيين، وأعاد تنظيم الجيش وتدعيم الحكم، وقام هو بدوره بأعمال حربية ناجحة، فقضى نهائياً على السكيتيين، ثم حارب أشور بمساعدة حلفائه الكلدانيين واستولى على أشور ونينوى. واتجه الماديون نحو آسيا الصغرى، فحققوا انتصارات جديدة في أرمينيا وكبادوقية، ووصلوا حتى نهر حاليس حيث استمر الصراع مدة طويلة مع دولة ليديا، ولم ينته إلا في عهد استياج Astyage (584 ـ 550 ق.م). لكن الدولة المادية لم تدم طويلاً، كما لم يكن لها دور فعال في تطور الحضارة الايرانية، واقتصر نشاطها في الحفاظ على بعض المعالم الحضارية السابقة ونقلها إلى الفرس، وبخاصة في مجال المعتقدات الدينية والعمارة والفنون التشكيلية.

## 1 ـ الأخيمينيون

عرفت القبائل الفارسية باسم الأخيمنيين (هخامنشيان في اللغة الفارسية القديمة) نسبة إلى هخامنش Achéménés، أول أمراء بارسوماش في الجنوب الغربي. وقد انتشر الفرس الأخيمنيون في أماكن مختلفة من الهضبة الايرانية (بخاصة في الجهة الغربية منها)، حيث أسسوا في بادىء الأمر دويلات صغيرة كانت تابعة بالولاء إما للماديين وإما للأشوريين. لكن الأحداث التاريخية في الشرق دفعتهم إلى الوحدة وإلى تأسيس دولة جديدة حكمت ايران، وشمل نفوذها، في الفترة ما بين القرنين السابع والرابع ق.م، بلاد الشرق الأدنى القديم، بما في ذلك شمالي أفريقيا وقسماً كبيراً من اليونان.

في النصف الثاني من القرن السابع، كانت القبائل الفارسية قد اتجهت نحو الجنوب الغربي، واستولت على بارسوماش في عهد أحد أمرائها هخامنش، ثم وضعت يدها على المنطقة المجاورة، انزان، أو انشان Anzan, Anshan في عهد ابنه تشش ـ بش Teispès (675 ـ 640 ق.م) الذي أعتبر مؤسس الأسرة الأخيمنية، بعد أن أعلن استقلال بلاده (انزان) وأطلق على نفسه لقب ملك انزان، وقام بحملة عسكرية باتجاه الشرق ووصل إلى منطقة بارس (فارس) المجاورة. بعد وفاته، قسمت مملكته بين ولديه، فحكم أحدهم، قورش الأول (640 ـ 600 ق.م) Cyrus، انزان في الغرب، وحكم الآخر، اريارامنه (640 ـ 615) Ariaramne، بلاد بارس، إلى الشرق والشمال الشرقي من انزان. بيد أنه لم يكن لهاتين الدولتين من أهمية تذكر في هذه المرحلة الأولى؛ ذلك وأن سياكزار (Cyaxare) المادي قد انتصر، في سنة 625 ق.م، على السكيتيين، كما انتصر بعد فترة قصيرة على أشور نفسها وجعل من ماد دولة كبرى.

في هذا الوقت تقلص نفوذ الأخيمنيين السياسي، وتحطمت سلطة اريارامنه في بارس، كما أصبح ملوك انزان اتباعا للماديين. وقد حكم قمبيز (ابن قورش الأول) كلا من انزان وبارس وحاول التقرب من الماديين لكن العالم الشرقي القديم بقي حتى منتصف القرن السادس مقسماً بين الدولتين الكبيرتين، بابل وماد، ولم يكن من المنتظر أن ينتقل حكم العالم القديم إلى الأخيمنيين في عهد ملكهم قورش الثاني (ابن قمبيز الأول)، فهو لم يكن في بداية عهده سوى أحد أتباع ملك ماد (استياج). لكنه أعلن الحرب ضده (بعد مضي ست سنوات من توليه العرش)، وانتصر عليه قرب بازاركاد Pasargad، واحتل بلاد ماد، ووحد بذلك الدولتين المادية والفارسية، وجعل من باساركاد عاصمة له (أصبحت في عهد خلفائه مقر

تتويج ملوك فارس على الرغم من انتقالهم إلى عواصم أخرى).

انتقل قورش، بعد ذلك، إلى خارج الحدود الايرانية ليواجه الجيش الليدي، قرب البحر الأسود، ويستولي على العاصمة الليدية، سارد، سنة 546 ق.م، ويخضع يونانيي آسيا الصغرى لنفوذ الامبراطورية الفارسية. بعد هذه الانتصارات المتتالية ومحاربة القبائل الشرقية المتنقلة، دخل قورش، سنة 539 ق.م، بابل التي احتلها بسرعة بعد أن كان قد وجه هجوماً، من عيلام، على أوروك وهجوماً آخر، من وادي الديالة، على سيبار. فسقطت بذلك أقدم المدن الحضارية الشرقية وضُمت إلى الدولة الجديدة بعد أن اعترف قورش بآلهتها، وقبّل يدي مردوك ارضاء لكهنة بابل، كما أعاد تماثيل آلهة أخرى (كان نابونيد قد نقلها من قبل إلى بابل) إلى معابدها الأصلية، ثم نصب ابنه قمبيز ملكاً على بابل.

ومن الأحداث التاريخية التي حصلت في عهد قورش (559 ت 529 ق.م) إعادة اليهود إلى بلادهم وبناء هيكل سليمان من جديد. وقد أظهر قورش عطفاً على اليهود واحتراما لديانتهم مدعياً أنه بُعث إليهم من قبل إلههم، كما ادعى من قبل، عند دخوله بابل، أنه مرسل من قبل الاله مردوك. لكن الغرض من اتباع مثل هذه السياسة، سياسة التسامح الديني والاعتراف بجميع الآلهة الأجنبية، كان التقرب من الشعوب التي أخضعها للنفوذ الفارسي وكسب مودتها. هذا الاتجاه الجديد يتجلى في النص المدون على نصب حجري يعرف بـ عمود قورش، حيث ورد فيه:

«... أنا قوروش، ملك العالم، الملك العظيم، الملك الشرعي، ملك بابل، ملك سومر واكد، ملك الانحاء الأربع... دخلت سلما إلى بابل واقمت سلطتي في مقر الحاكم بالابتهاج والتهليل، وحببني مردوك، السيد العظيم، إلى قلوب البابليين الكبيرة وأقمت الصلاة يوما من أجله، وسار جنودي العديدون حول بابل في سلام ولم اسمح لأحد أن يثير الفزع في أي مكان. ولقد اطمأنت قلوب البابليين لأنني منعت أعمال السخرة وأنقذت بيوتهم المتهدمة... فسر مردوك بأعمالي وأرسل إليّ ببركات الصداقة... لي أنا قورش الملك الذي يعبده... وقدم لي الجزية سائر ملوك العالم الجالسون في قاعات عروشهم من البحر الاعلى إلى البحر الأسفل... جاؤوا جميعهم وقبلوا قدمي في بابل. وقد أعدت إلى هذه المدن المقدسة على الضفة الأخرى من دجلة التي كانت هياكلها قد تهدمت منذ زمن طويل، التماثيل الخاصة بها... كما جمعت الأهلين وأعدتهم إلى ديارهم...».

قام قورش، قبل افتتاح بابل وبعده، بحروب قاسية ومتواصلة مع القبائل المتنقلة في الجهات الشمالية الشرقية، ووسع مملكته في هذه المناطق ووصل حتى الحدود الهندية، وتجاوزت بذلك سلطته حدود الأقاليم التي كانت قد خضعت من قبل للدول الكبرى، مثل أكد، وبابل، وحاتي، وأشور. واتبع قورش في إدارة هذه المقاطعات المترامية الأطراف نظما جديدة لم تعرف من قبل، كمساعدة الشعوب الضعيفة ومعاملة جميع الشعوب الأخرى معاملة تميزت بالتسامح والعمل على تدعيم الامبراطورية وجمع شعوبها. وكان لهذه السياسة الجديدة أثر مباشر في تطور الحضارة الفارسية التي جمعت بين تقاليد جميع البلاد القديمة وتراثها وحاولت التوفيق بين الفكر الديني الشرقي والفلسفة اليونانية والمعتقدات الايرانية الخاصة باهورا مزدا، كما جمعت بين مختلف التيارات الفنية القديمة في العمارة والنحت والفنون الصغرى.

بعد موت قورش، ورث العرش ابنه قمبيز الثاني Cambyse (529 ـ 521 ق.م)، لكنه لم يكن كأبيه يتحلى بروح التسامح، بل جاء حكمه استبدادياً ظالماً، كاد يدفع بالامبراطورية الأخيمنية إلى الانهيار على الرغم من انتصاراته الحربية. ففي سنة 526 ق.م، قام بحملة على مصر وانتصر عل جيوش الفرعون بسامتيك الثالث في بلوزيوم، الواقعة عند مصب الفرع الشرقي من النيل. وبانتهاء هذه المعركة التي كلفت الطرفين خسائر كبيرة خضعت مصر لنفوذ الدولة الفارسية بعد أن أصبحت في هذا العهد أكبر امبراطوريات العالم القديم. وقد أظهر قمبيز احتراما للالهة المصرية وتعبد لها، كما منح الكهنة امتيازات خاصة، لكنه هدم عدداً من المعابد، واحتقر عبادة الحيوانات عند المصريين، وقتل ثور أبيس المقدس، الأمر الذي دفع السكان إلى العصيان والثورة.

لم يدم حكم قمبيز سوى ثمانية أعوام، إذ توفي في بلاد الشام، وهو في طريق عودته إلى فارس. في هذا الوقت كان أحد كهنة المجوس، كوماتا، قد انتحل شخصية باردا (الأخ الذي قتله قمبيز قبل حملته إلى مصر ليتخلص من منافسته له على العرش) واستمال إليه عدداً من القادة والأمراء والكهنة وحكم فترة قصيرة من الزمن. بعد اكشاف أمر «باردا المزيف» انتقل العرش إلى داريوس الأول (521 ـ 485 ق.م)، أحد أحفاد أريارمنه (أي أنه ينتمي إلى فرع ملوك بارس).

استطاع داريوس، في السنوات الأولى من حكمه، أن يقضي على حركة باردا المزيف، وعلى ما شهدته البلاد من ثورات كانت قد ظهرت منذ أواخر عهد قمبيز في عدد من الأقاليم،

مثل بابل، وماد، وأرمينيا، ومصر؛ وقد خلد داريوس (Darius) ذكرى هذه الأعمال الحربية في ثلاث لغات (الفارسية القديمة، والعيلامية، والأكدية) على صخرة جبل بيستون Bisutum العالية، على بعد 30 كلم شرقي كرمنشاه، على الطريق ما بين أكباتانا وبابل، (وهي الطريق العام التي تصل بغداد بطهران اليوم). وقد نقشت هذه النصوص الثلاثة بالكتابة المسمارية إلى جانب مشهد نحتي يمثل داريوس وقد وضع رجله اليسرى على كاوماتا (باردا المزيف)، ووقف أمامه الملوك الأسرى، فيما يعلو المشهد قرص الشمس ذو الوجه الانساني المجنح ممثلاً الاله أهورا مزدا.

بقي داريوس مدة طويلة في الحكم يعمل على تدعيم الامبراطورية في الداخل والخارج، وتنظيم أمور الدولة وبخاصة ما يتعلق بالقوانين والضرائب والخدمة في الجيش، والتجارة والبريد والمواصلات والكتابة واللغة... لذلك فهو يعتبر أعظم ملوك فارس بعد قورش الثاني، والمجدد أو المنظم الأخير للامبراطورية التي بناها قورش. ففي عهده، اتسعت حدود الامبراطورية لتمتد من نهر السند Indus في الشرق، إلى البحر الايجي وليبيا في الغرب، ومن البحر الأسود وبحر قزوين في الشمال، إلى المحيط الهندي في الجنوب.

حارب داريوس قبائل السكيت في الشمال والشمال الغربي وتتبعهم حتى نهر الدانوب. لكنه لم يتمكن من القضاء عليهم نهائياً لأنه لم يكن لهذه القبائل بلاد خاصة بها، بل كانت تتنقل في مناطق شاسعة وتشكل بذلك خطراً دائماً على البلاد المتحضرة. لكن داريوس هاجم البلاد اليونانية الشمالية واحتل مقدونيا وأصبح قسم كبير من اليونان تابعا للامبراطورية. وقد وجه حملة إلى الجنوب الشرقي لاحتلال السواحل الشرقية للجزيرة العربية، فوصلت، عبر المحيط الهندي، إلى مكران وبنجاب والسند. وتوجه داريوس، بعد ذلك، إلى مصر ليعاقب المتمردين، ويعيد بناء المعابد المتهدمة في الكرنك، والفيوم، ومنف، ويأمر ببناء معبد (على نفقة خزانته الخاصة) للاله آمون في طيبة.

لكن أبرز المسائل التي واجهت داريوس وخلفاءه من بعده كان النزاع الذي حصل للمرة الأولى في تاريخ الشرق القديم بين الامبراطورية الفارسية، وريثة الحضارات الشرقية القديمة، وبين دويلات المدن اليونانية، المجسدة لأهم معالم الفكر الغربي. فقد عمت الثورات، منذ أواخر عهد داريوس، المستعمرات الأيونية، تعبيراً عن رفضها للقوى الفارسية، وطلبت من أجل ذلك عون اليونانيين في نداءات متكررة ولكن من دون جدوى، إذ لم يقف إلى جانبها

سوى أثينا وأرتريا Erétrie في جزيرة أوبه Eubée، في حين بقيت المدن الأخرى خارج هذا النزاع. لكن الجيش الفارسي قضى، في سنة 498 ق.م، على المتمردين الذين حاصروا سارد في آسيا الصغرى، واستولى بعد ذلك على قبرص وكاري Carie وهلسبنطس Hellespont، وهزم الأسطول اليوناني في لاديه Ladé، قرب أفسوس في آسيا الصغرى، وانتصر، في سنة 494، على ميليه Milet.

بعد ذلك، قرر داريوس متابعة أعماله العسكرية في أوروبا، فبسط نفوذه، في سنة 492 ق.م، على تراقية ومكدونيا، كما أخضع، في سنة 490 ق.م، بعض جزر السيكلاد Cyclades؛لكنه فشل في ماراثون Marathon، ولم يعد باستطاعته القيام بحملة ثانية على اليونان، سيما وأن ثورة نشبت في مصر، سنة 486 ق.م، للتخلص من النفوذ الفارسي.

لكن احشويروش (خشيارشا Xerxès) (485 ـ 465 ق.م) أخمد الثورة في مصر وفي بابل، ثم جهز حملة كبيرة لينتقم من اليونانيين. فعبر الجيش الفارسي مضيق هلسبنطس (الدردانيل) واجتاز منطقتي تراقية ومقدونيا، ثم تقدم في سلسلة معارك حقق فيها النصر على اليونانيين، كان أهمها معركة ترموبيل Thermopyle، حيث قضى كلياً على المقاومة اليونانية، سنة 480 ق.م. لكن الجيش الفارسي، بعد أن اجتاح الآتيك Attique وأحرق أثينا، هزم في ثلاث معارك: الأولى في البحر، قرب سلامين (480 ق.م)، الثانية في البر، عند بلاتيه (Platées) (479 ق.م)، والثالثة أثناء حرب بحرية في ميكال على شواطىء آسيا الصغرى. ثم توالت النكبات حتى أفقدت الامبراطورية الفارسية الكثير من نفوذها.

كان فشل الفرس في سلامين بداية انحطاط الامبراطورية الأخيمينية؛ ذلك أن الأحداث المتلاحقة دفعتها إلى مواجهة حركات التمرد والثورات في جميع الأقاليم الخاضعة للنفوذ الفارسي. ففي عهد أرتحششتا الأول (Artaxerxés) 465 ـ 424 ق.م، أخمدت الثورة في بكتريا، وباتت الحرب سجالا مع اليونانيين إلى أن انتهت بمعاهدة صلح مع أثينا. لكن ذلك لم يوقف تدهور الدولة الفارسية الذي انعكس ترديا في الأوضاع العامة خارجياً واستمراراً للنزاع السياسي والمنافسة على العرش داخلياً، فاضطر داريوس الثاني (324 ـ 404 ق.م) إلى أن يقضي على اثنين من أخوته خوفا من منافستهما له على العرش. وفي عهده استعادت مصر استقلالها واحتفظت به لمدة ستين سنة، كما ظهرت حركات تمرد في كافة المناطق الأخرى (أهمها ثورة تيسافرن ـ Tessapherne) في ليديا، سنة 413 ق.م، واستؤنفت الحرب مع

اليونانيين في عهد خلفائه: أرتحششتا الثاني، وأرتحششتا الثالث (358 ـ 338 ق.م). كان هذا الأخير قد تخلص من جميع منافسيه على العرش، وتمكن بمساعدة المرتزقة اليونانيين من اخماد الثورات بعنف في آسيا الصغرى، وهو ما لفت انتباه فيليب المكدوني فأرسل قوة لمساعدة يوناني هذه المنطقة. وكان آخر ملوك الامبراطورية الفارسية، داريوس الثالث (336 ـ 330 ق.م)، قد هُزم في ايسوس وسقطت في عهده برسيبوليس.

## 2 ـ مظاهر الحضارة الفارسية

بلغت الامبراطورية الفارسية ابعد حدودها في عهد داريوس الأول، وشملت بلادا متعددة وشعوبا لم يسبق لها أن خضعت في وقت واحد لسلطة واحدة. ففي النصوص المنقوشة على صخور بيستون، فوق قبر داريوس، ورد ان تسعة وعشرين شعبا بربريا في الأقاليم الشرقية قد خضعت للنفوذ الفارسي، اضافة إلى شعوب أخرى متحضرة. وقد حاول قورش وداريوس، من بعده، ايجاد روابط تجمع بين مختلف هذه الشعوب، تجلت في عبادة اهورا مزدا Ahura Mazda اله الآريين، وفي اتباع سياسة التسامح واحترام معتقدات الآخرين.

لكن خلفاء داريوس فشلوا في المحافظة على تماسك الامبراطورية ووحدتها، كما أن الاجراءات والأساليب المتبعة زادت من تدهور الأوضاع عندما جعلوا من أنفسهم أسياداً مطلقي السلطة، ترتبط بهم وحدة الامبراطورية وكافة السلطات، وفقدوا في الوقت نفسه، كل اتصال مع أتباعهم، بعد أن عزلتهم التقاليد الملكية في قصورهم حتى بات من الصعب مشاهدتهم خارج الاحتفالات العامة التي كانوا يظهرون فيها لتقبل خضوع الشعوب.

تنص الكتابات الرسمية، في تحديدها لسلطة الملك المطلقة، على أن يكون الملك من أصل فارسي ـ آري، وينتمي إلى سلالة الأخيمنيين ذات الحق الشرعي في الملك. وهي الأسرة الأولى بين الأسر الفارسية السبع التي كان لزعمائها مكانة خاصة في القصر حيث كانوا يشكلون مجلساً استشارياً يعمل الملك بنصائحه. وفي عهد قورش، أصبحت بازركاد Psargade مركز الإدارة الامبراطورية، وتحولت بذلك هذه المدينة الصغيرة من قلعة أميرية إلى عاصمة امبراطورية شيدت فيها القصور الفخمة، ثم نقلت العاصمة، في عهده، إلى شوش التي أصبحت المركز الرئيسي لإدارة شؤون الامبراطورية، بينما لم تهمل بازركاد بل ظلت العاصمة الدينية حتى سقوط الامبراطورية.

أقدم داريوس على بناء عاصمة محلية، أطلق عليها اليونانيون اسم برسيلوس Persepolis (حالياً تخت جمشيد)، شُيد فيها، في عهد داريوس وخلفائه، مجموعة من القصور الملكية. ولئن احتفظت هذه المدينة حتى الآن بأجمل وأغنى آثار فن العمارة الأخيمني إلا أنها لم تكن مطلقاً العاصمة الرئيسة، كما لم تحصل أبداً على الأهمية السياسية والإدارية والتجارية التي حصلت عليها شوش، العاصمة الفعلية لهذه الامبراطورية، حيث كان القصر الملكي فيها المقر الرئيسي لإدارة شؤون الدولة. عاش الملوك الفرس في هذا القصر تحت حماية الألف الخالدين، الذين يشكلون الحرس الملكي الخاص. وكان إلى جانب الملك مجلس السبعة، ويشرف عليه الرئيس الأعلى للحرس الخاص، وموظفو القصر، ولا سيما كبير السقاة ورئيس سواس الخيل ورئيس الخزينة وسائق العربة.

أما أبرز موظفي القصر فهو مفتش الامبراطورية، وقد أطلق عليه اليونانيون لقب «عين الملك»، إذ كان عليه أن يطلع الملك على كل ما يجري في مختلف أنحاء الامبراطورية، وأن يراقب كل ما يتعلق بالزراعة وجباية الضرائب، وأن يشرف على سير أمور الولايات وحكامها، حيث كان يقوم برحلات استطلاعية يرافقه فيها عدد من الجنود.

قسمت الامبراطورية ابتداء من عهد داريوس إلى عشرين ولاية، ولكل منها حاكم، مرزبان Satrape، يُدير شؤونها ويُجبي الضرائب ثم ينقلها إلى العاصمة الامبراطورية. هؤلاء الحكام ينتسبون إلى عائلات فارسية وميدية ويتمتعون (إدارياً وعسكرياً) بشيء من الاستقلال الذاتي، إذ كان لكل منهم جيش خاص، معظم أفراده من المرتزقة، وقصر بني وفق نمط القصور الملكية في العاصمة، إنما بأحجام مصغرة.

لكن ازدياد نفوذ حكام الأقاليم واتساع اقطاعاتهم دفعاهم إلى استغلال هذه المقاطات لصالحهم الخاص واللجوء إلى الثورة والعنف رغبة في التحرر، كما حصل مراراً في عدد من الولايات، بخاصة في ليديا وكاري وبابل ومصر، الأمر الذي أدى إلى تفكك الامبراطورية وانهيارها في أواخر القرن الرابع ق.م.

كان الفرس الايرانيون يشكلون الطبقة الحاكمة صاحبة النفوذ في البلاد الخاضعة لسيطرتهم، مع أنهم كانوا قلة بالنسبة إلى شعوب امبراطورية لم تختلف في نظمها العامة عن الامبراطورية الآشورية التي اعتمدت هي أيضاً سياسة مارس بموجبها شعب قليل العدد الحكم وإدارة شؤون البلاد على يد ولاة عينوا من قبل الملك.

لكن الامبراطورية الفارسية اتبعت، في مراحلها الأولى، مبادىء اجتماعية انسانية ومثالية جديدة، إذ تبنت تعاليم أهورامزدا، أعظم الالهة الايرانية وأقدمها. ثم اعتمدت بعد موت داريوس وابتداء من عهد احشويروش (485 ـ 465 ق.م)، مبدأ القسوة والعنف في معالجة الأمور ومعاقبة الشعوب الثائرة، في مصر وبابل وليديا وغيرها من البلاد الخاضعة للامبراطورية، وتخلت عن سياسة التسامح المتميزة. وقد أظهر تاريخ الفرس، منذ الحرب الميدية وحتى سقوط امبراطوريتهم، عن ضعف نظامهم العسكري، فانهزم جيشهم، على وفرة عدد أفراده، أكثر من مرة أمام اليونانيين، ما بين 490 و 469 ق.م، وأبيدت قواتهم في كوناكسا Cunaxa، سنة 401 ق.م، على يد 10000 جندي يوناني، في حين رجع هؤلاء إلى ديارهم من دون أن يتكبدوا خسائر كبيرة. واستطاع الاسكندر مواجهة الجيش الفارسي الكبير والتغلب عليه بعدد قليل نسبياً، اي بما لا يزيد على 40000 رجل و 160 مركباً.

في بداية القرن الخامس، كانت نواة الجيش الفارسي المعتمد عليها تتألف من المرتزقة اليونانيين، كما كان أسطولهم يتألف في معظمه من المراكب الفينيقية، ولم يعد ملوك الفرس، ابتداء من عهد احشويروش، يفخرون بأعمالهم الحربية في كتاباتهم المدفنية، وباتوا يفضلون المباحثات الدبلوماسية على الأعمال الحربية واتباع سياسة التفرقة وتغذية النزاع القائم بين المدن والدويلات الصغيرة بدعم الواحدة منها ضد الأخرى خدمة لمآربهم ومصالحهم السياسية.

أما على الصعيد الحضاري والثقافي، فلم تبد الأسرة الأخيمنية نشاطاً كبيراً لايجاد وحدة فكرية، كما أنها لم تحاول تغيير مظاهر الحضارات القديمة أو أن تحل الفكر الفارسي محلها، بيد أنه قد حصل نوع من الوحدة في المجالين السياسي والإداري بفضل الاجراءات الخاصة ومجموعة من القوانين (فقد معظمها)، ونظام الجيش وتحسين طرق المواصلات، والمراسلات الحكومية، واستخدام العملة بدل المقايضة بالسلع في التبادل التجاري (أخذ الفرس طريقة سك العملة عن الليديين)، وبفضل اللغة الآرامية التي أصبحت اللغة الرسمية في دواوين الامبراطورية، في حين لم تستعمل الفارسية القديمة والعيلامية والبابلية إلا في كتابة النصوص التاريخية على المباني والتماثيل. ونتيجة لذلك انتصرت الكتابة الآرامية الأبجدية. وقد أخذ الأخيمينيون الكثير عن حضارات بلاد ما بين النهرين العريقة كما تأثروا بالحضارة اليونانية. وقد ظهر هذا التاثير في العمارة والنحت والصناعات الحرفية، كما ظهر في مختلف المجالات الفكرية والعملية. لكن الفرس توصلوا إلى نمط جديد في فن العمارة تشهد باصالته وجماله آثار

بازركاد وشوش وبرسيبوليس ونقشي رستم.

على الرغم من الوحدة السياسية والإدارية، فإن الدولة الفارسية لم تحاول تثبيت أو دعم الروابط الثقافية بين ايران والهند من جهة وايران وبابل ومصر واليونان من جهة أخرى. فإن ما نشهده في هذا المجال لم يتحقق إلا بفضل جهود فئات من الكهنة في المجال الثقافي والديني، وبفضل حرفيين... ومرتزقة أتوا من مختلف البلاد، من بابل، ومصر، واليونان، وأقام البعض منهم مدة طويلة في فارس، ناقلين إليها الكثير من مظاهر حضاراتهم، كما نقلوا إلى بلادهم الأصلية بعض معالم الحضارة الفارسية.

أما الديانة الفارسية فإنها تعتبر من أرقى الديانات القديمة، بل من أهم ما أنتجه الفكر الفارسي، فقد حافظت على طابعها الخاص، على الرغم مما تعرضت له من تأثيرات خارجية تظهر بوضوح في مجالات حضارية أخرى أشرنا إليها. لكن ما لدينا من مصادر تاريخية، لا يكفي لمعرفة جميع معالم هذه الديانة التي أشرف على طقوسها اكهنة ميديون أسهموا في تطور الفكر الفارسي في العصر الأخيمني، كما أننا نجهل معالم تلك الأبنية المقدسة التي تقول نصوص بيستون أن داريوس قد رممها بعد أن خربها الملك الدجال، الساحر كاوماتا (Goumata)، وهنا تجدر الإشارة إلى أن الديانة الايرانية القديمة تجنبت تجسيد آلهتها في صور وتماثيل مادية، واكتفيت بتقديم الأضاحي تقدم فوق مذابح خاصة في العراء، لأنه لم يكن للفرس على ما يعتقد بيوت للعبادة واقامة الطقوس الدينية.

إن أحد مؤسسي الديانة الفارسية، زاراتوسترا، أو زاراداشت، Zarathousthra، رجل الجمال القديمة، نسبة إلى حياة الرعاة التي عاشها، الحياة نفسها التي عرفها من قبله والده بوروزبسا Pourosapsa، رجل الخيول الشهباء. يعتقد بعض العلماء أن تعاليم زاراتوسترا تشكل الأساس لديانة اعتنقها الفرس في عهد الأسرة الأخيمنية وأن تسجيلها الخطي في الـ أفيستا Avesta يرجع إلى عهد لاحق. لكن الكثير من مظاهر هذه الديانة (وبخاصة الثنائية، والصراع بين الخير والشر، والنور والظلمة، وفكرة اهورامزدا السيد الحكيم) تعود إلى ما قبل الأسرة الأخيمنية. ويحتمل أن يكون زاراتوسترا قد عاش في أواسط القرن السابع ق.م، إذ تبين للذين تناولا هذا الموضوع حديثاً، أن لغة الـ «غاثا» (أي الأناشيد السبعة عشر التي تنسبها الـ أفيستا إلى زاراتوسترا) بدائية الشكل والبنية وهي، بالتالي قديمة، كما أن التقاليد الفارسية تقول أن زاراتوسترا قد عاش قبل 300 سنة من الاسكندر، أي في أواسط القرن السابع ق. م.

لم تلق مواعظ زاراتوسترا الأولى أي نجاح بسبب معارضة كهنة الديانات القديمة المدعومين من الدولة التي لم تتقبل تعاليمه، ولأنه لم يكن له من اتباع في بادىء الأمر سوى ابنه وعمه. ويتبين من اللهجة التي كتبت فيها الـ «غاثا» أنه اتى من الجهات الشمالية الشرقية، في حين يرى البعض أنه من الجهات الشمالية الغربية، كما أن التقاليد تشير إلى أنه ولد في بلاد ماد (في رامي Ramy بالقرب من طهران)، حيث وجد أتباعاً له من بين المجوس (ربما كانت هذه الكلمة في الأصل اسما لاحدى القبائل الايرانية، كما هي الحال بالنسبة لقبيلة «لاوي» عند العبرانيين، أو أنها اسم لطبقة معينة من جماعة الكهنة).

لقد أوجد زاراتوسترا مبدأ دينيا، فلسفيا وأخلاقيا، هدفه قيادة الانسان والعالم نحو السلام. وتجسدت هذه الفكرة الدينية الجديدة في عبادة اله واحد، أهورا ـ مزدا Ahura Mazda –، السيد العارف؛ إله قديم كان، في عهد تعدد الآلهة، الإله الرئيس الذي يحكم السماوات، ولكن أعطي في الديانة الجديدة دور منقذ العالم الوحيد، وفيه تتجسد قوة الخير كما تنبثق عنه قوى (كيانات) ست مجردة، هي: الحقيقة (التفكير السليم) والإدارة الطيبة والتقوى المقدسة، السيادة المطلقة المختارة، الخشوع، الكمال، الخلود. فهي تقاوم، إلى جانب أهور ـ مزدا، ضد روح الشر، أهريمان Ahriman المدعوم من آلهة قديمة دايفا Deava، أصبحت في مصاف الشياطين، وتتمثل بالتفكير السيء والكذب، والحكومة السيئة، والعصيان، والضعف، والموت.

إن العالم كله يقوم على هذا الصراع بين روح الخير وروح الشر، كما أن القتال الحاصل بين مزارعين مسالمين ولصوص يعيثون فساداً في حقولهم، هو مظهر من مظاهر هذه المشكلة العالمية. لذا كان لا بد من اتخاذ اجراءات متعددة لمواجهة كل عمل من شأنه أن يقود روح الشر إلى النصر. ويحث زارتوسترا الناس على عمل الخير، ومحاربة قوى الشر وحلفائها، كالسرقة والحيوانات المفترسة والنباتات السامة. ومع نهاية هذا الصراع ينتصر الخير على الشر فيكافأ الرجال الأبرار وتعاقب الكائنات الشريرة.

أما الطقوس الدينية فتقلصت أهميتها في الديانة الجديدة بعد أن تخلت عن تقاليد كانت قد عرفت من قبل عند الهندو آريين، كما تخلت عن الشراب المثير (هاوما ـ Haoma)، والأضاحي، وبقيت متمسكةً بالطقوس الخاصة بالتطهير بواسطة النار المقدسة، وقد أوكل الكهنة إلى الحراس أمر العناية بها وحمايتها كي تستمر أبديا في «غرفة النار»، ولا يلحق بها أي أذى أو دنس.

أما كتاب الفرس المقدس فهو الـ افيستا Avesta التي وضعها المجوس في عهد الأسرة الأخيمنية. وهي تمثل مرحلة جديدة من تطور الديانة الزاراتوسترية بعد أن تحولت إلى المزدية (Mazdeïsme) عندما تبناها داريوس وخلفاؤه. ونتيجة لهذا التحول لم تعد الثنائية الميزة الوحيدة أو الرئيسة للديانة الفارسية، إذ أدخلت إليها (إلى جانب أهورا ـ مزدا)، في القرنين الخامس والرابع ق.م، عناصر جديدة أخذت من المعتقدات القديمة، كاله الشمس ميترا Mithraوربة الخصب أناهيتا Anahita (الشبيهة بالربة عشتار)، والأجسام السماوية كالشمس والقمر...، وعناصر الطبيعة كالماء والهواء... والأرواح حارسة القدماء (فرافازي ـ Fravasi)، وكذلك الأرواح الشريرة (دايفا ـ Daeva)، مثل اندرا Indra، وسورفا Saurva، ونان هايتيا Nan haithya.

المزدية حركة معاكسة للديانة الجديدة، يعتقد أنها جاءت لتعبّر عن معتقدات شعبية قديمة ربما استمرت، على الرغم من ظهور الزاراتوسترية، نتيجة للتسامح الديني الذي اتبعه ملوك فارس الأخيمنيون، التسامح الذي دفع المجوس إلى الثورة بقيادة كاوماتا. وقد عثرعلى وثيقة ترجع إلى عهد داريوس الأول ورد فيها اسم الاله أهورا ـ مزدا إلى جانب آلهة أخرى (مثل ميثرا وأناهيتا) ولم يذكر فيها اسم زاراتوسترا. ولكنها تتحدث عن انقسام العالم إلى فئتين: فئة الكلاب والبقر والنبات والمعادن المنتمية إلى عالم الخير، وفئة الذئاب والحيات... المنتمية إلى عالم الشر. أما الانسان فيقف بين الفئتين، وعليه أن يختار بين الخير والشر حسب ما تمليه المبادىء الالهية.

أما النظريات الخاصة بمصير الانسان في الديانة المزدية فإنها تنطلق من تقاليد المشاركة في الأسرار (Initiation aux mystères) المترية. ففي اليوم الثالث بعد موت الانسان، تنطلق روح الرجل المؤمن بالديانة لتتقدم إلى جسر سنيفا (الفاصل)، أمام المحكمة المؤلفة من ميترا وسراوزا (Sraosa) ورسنو (Rasnu)، حيث تجتاز النفوس الخيرة الجسر بسلام وتدخل في سماء أهورا مزدا (الجنة)، في حين يتضاءل الجسر حتى يصبح كالخيط الرفيع أمام النفوس الشريرة فتسقط في الهوة السحيقة (الجحيم). لكن هذه الحالة ليست أبدية، إذْ أن النهاية الحقيقية تكون في المطهر العام حيث تشعل النيران رمزاً لبدء حياة جديدة، ويبعث الانسان ليحيا حياة خالدة.

لكن الطقوس الدينية، تعددت وتعقدت، فأعيدت التقاليد الخاصة بالشراب الباعث

على النشوة (هاوما Haoma) والأضاحي الدموية المقدمة للشمس والقمر والأرض والنار والهواء، وهي تقاليد كانت الزاراتوسترية قد منعتها من قبل. لذلك ازداد عدد الوظائف الكهنوتية (أصبحت في هذا العهد وراثية) للقيام بهذه الطقوس الدينية المختلفة. ولكي لا تدنس النار أو الأرض حُرّم حرق الموتى أو دفنهم في الأرض، أو رميهم في المياه. فكانت الأجساد تعرض في العراء، في أماكن عالية، أو فوق الصمت، حتى لا يبقى منها إلا العظام التي كانت تجمع وتوضع في أماكن خاصة بها.

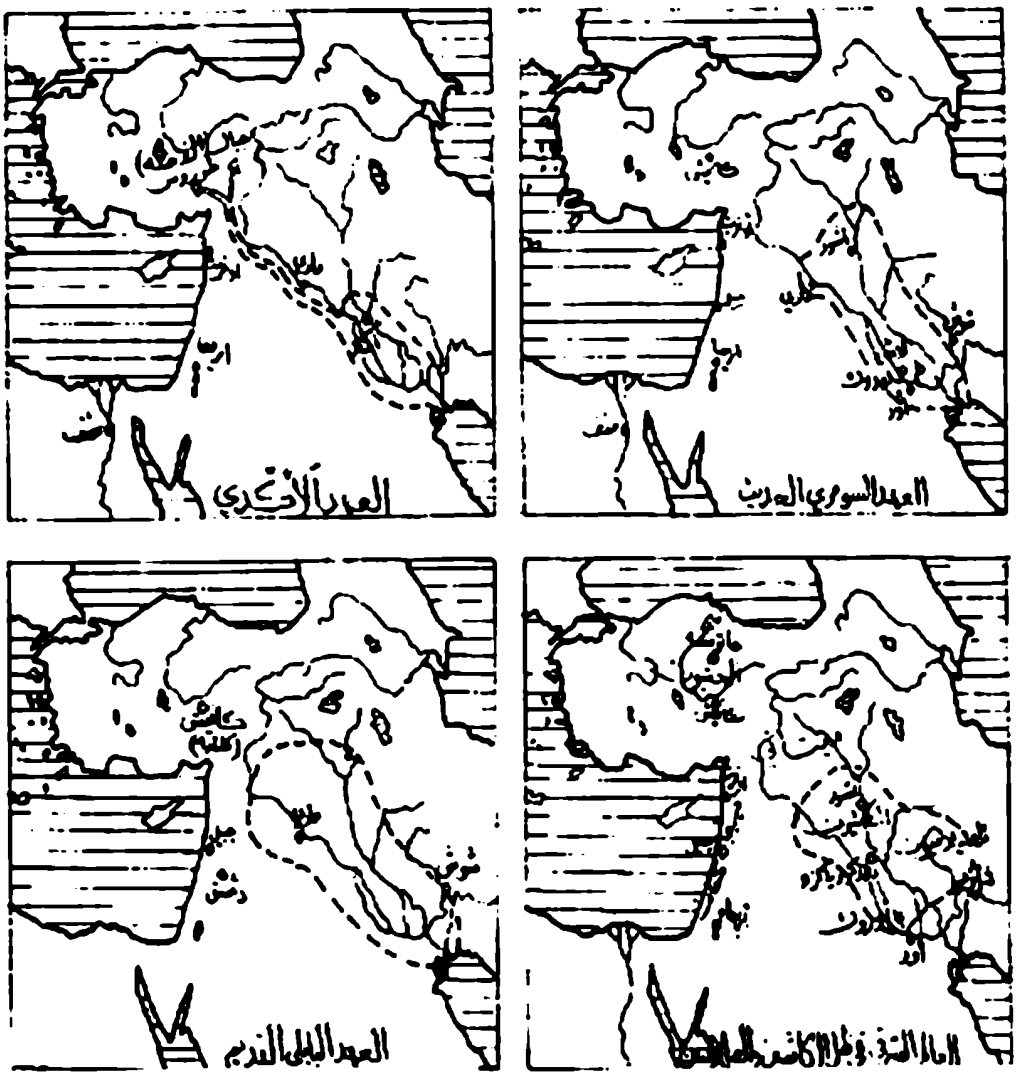

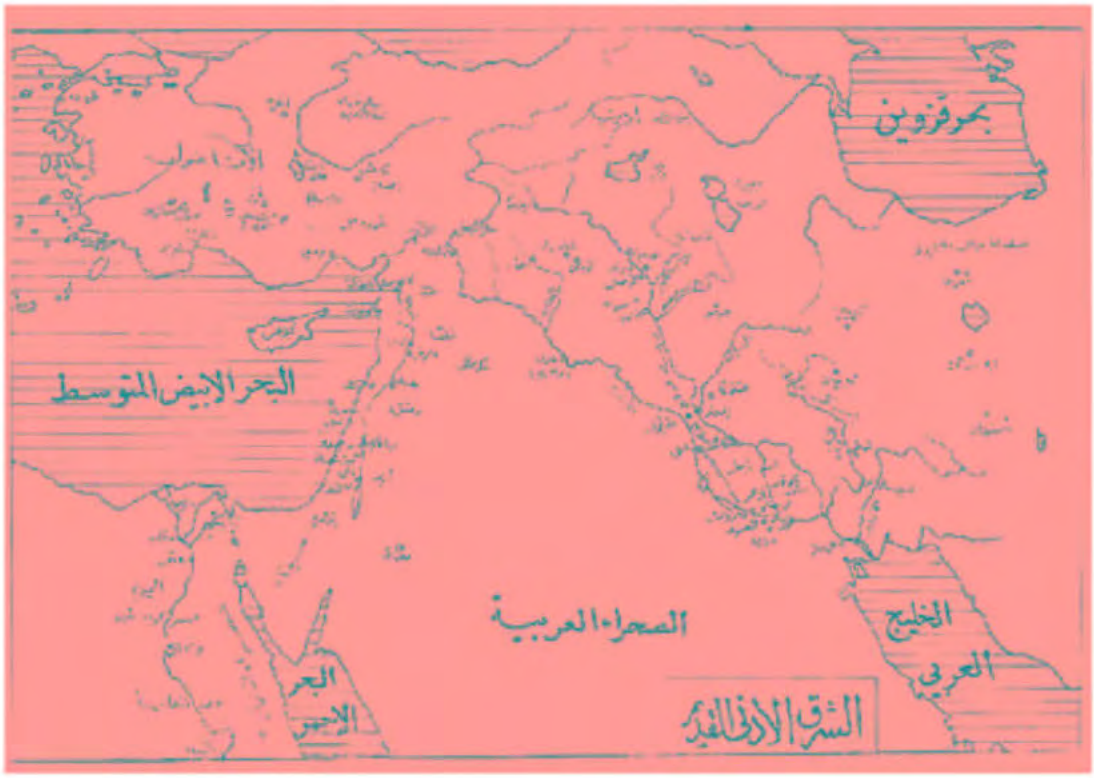
بحر قزوين
البحر الابيض المتوسط
الصحراء العربية
الخليج العربي
البحر الاحمر
الشرق الادنى القديم

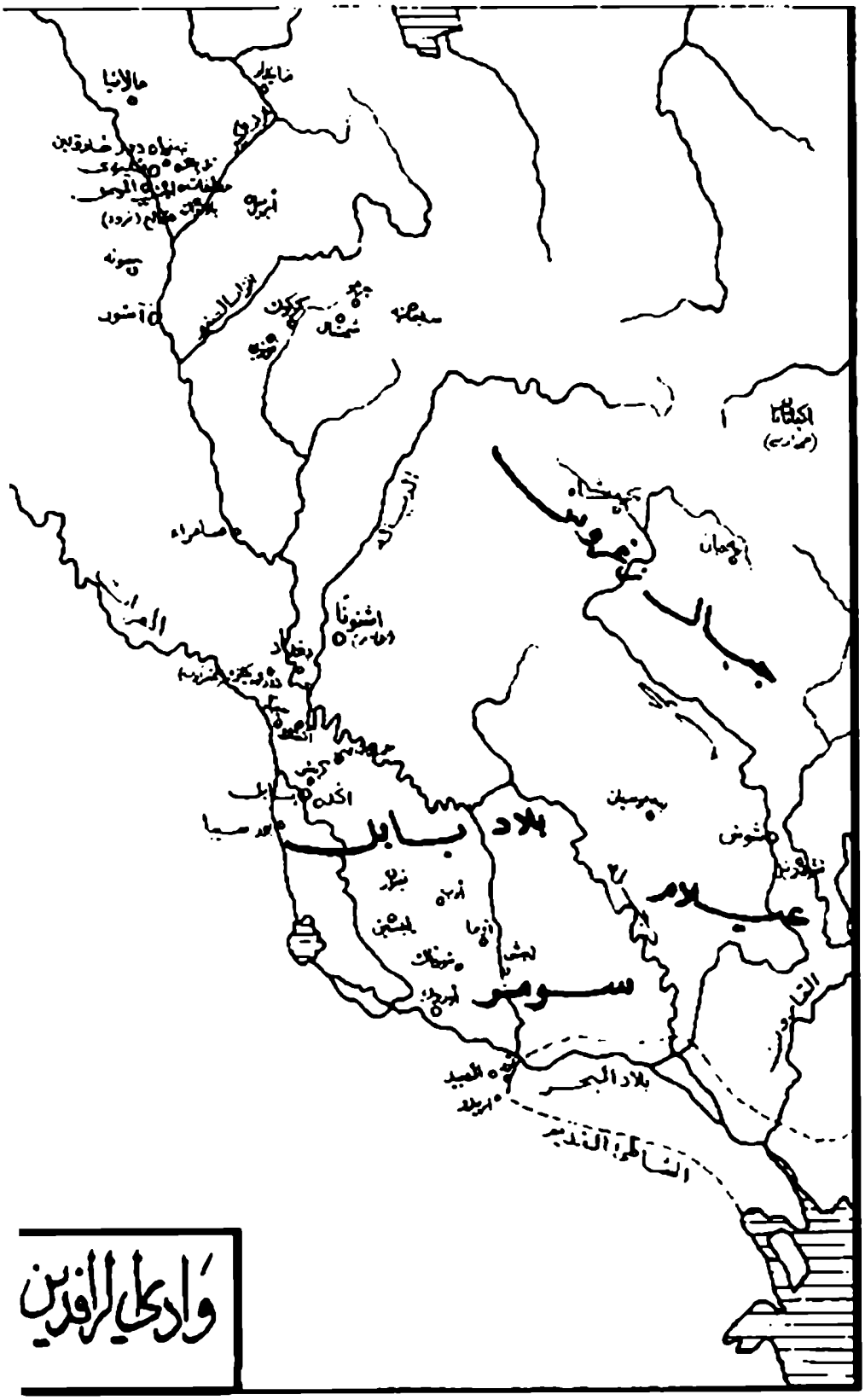
وادي الرافدين
بلاد بابل
سومر
عيلام
بلاد البحر
الخليج الفارسي

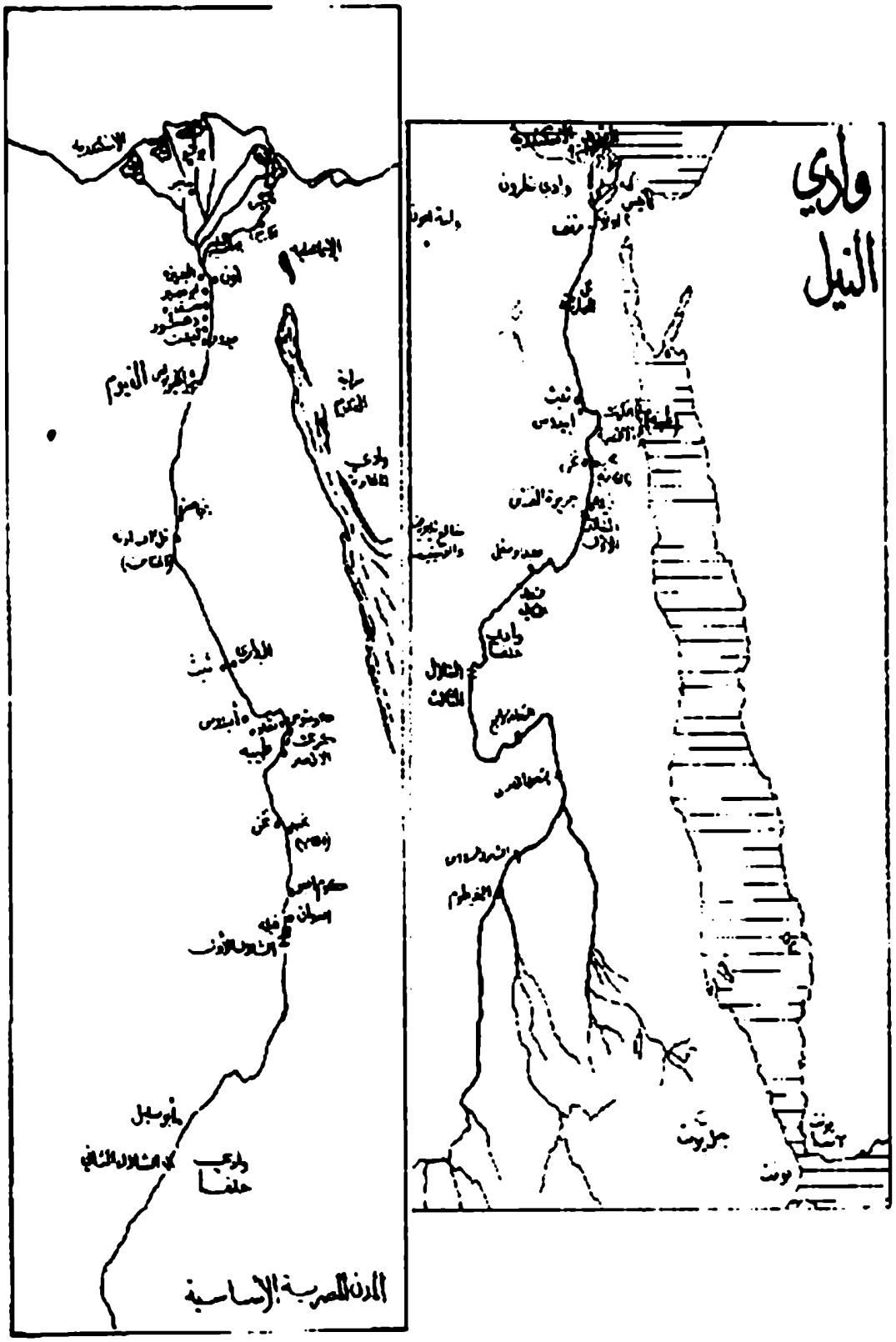
وادي
النيل
المدن المصرية الإساسية

# المراجع

## I بلاد ما بين النهرين


1988 ـ أبو عساف علي، الآراميون، دار أماني، دمشق،

1984 ـ الأحمد سامي سعيد، ملحمة كلكامش، دار الجيل ـ دار التربية، بيروت ـ بغداد.

1979 ـ بارو اندريه، ماري، (ترجمة عن الفرنسية: رباح نفاح)، وزارة الثقافة، دمشق.

1971 ـ دولابورت، بلاد ما بين النهرين، حضارة بابل وأشور (تعريب مارون خوري) دار الرائع الجديدة، بيروت.

1973 ـ باقر طه، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، مطبعة الحوادث، بغداد.

1975 ـ == ملحمة كلكامش، منشورات وزارة الأعلام، بغداد.

1979 ـ رشيد فوزي، الشرائع العراقية القديمة، دار الرشيد، بغداد.

2003 ـ سودن فون، مدخل إلى حضارات الشرق القديم (ترجمة فاروق اسماعيل)، دار المدى، بيروت.

1976 ـ العراق القديم، تأليف جماعة من العلماء السوفييت (ترجمة سليم طه التكريتي)، منشورات وزارة الاعلام، بغداد.

1965 ـ فرانكفورت هنري، فجر الحضارة في الشرق الأدنى (ترجمة ميخائيل خوري)، مكتبة الحياة، بيروت.

ـ كرايمر صمويل، من ألواح سومر (ترجمة عن الانكليزية: طه باقر وأحمد فخري). مكتبة المثنى، بغداد، مؤسسة الخانجي، القاهرة.

1967 ـ مورتكات انطوان، تاريخ الشرق الأدنى القديم (ترجمة علي أبو عساف وقاسم طوير)، مطبعة الانشاء، دمشق.

1989 ـ المساهمة الفرنسية في دراسة الآثار السورية 1969 ـ 1989، المعهد الفرنسي لآثار الشرق الأدنى، دمشق.

1971 ـ الهاشمي رضا جواد، نظام العائلة في العهد البابلي، مكتبة الأندلس، بغداد.

1968 - ALKIM B., Anatolie I, des origines à la fin du le millénaire av. J. C., (archaeologia Mundi), Nagel, Genève, Paris, Munich.

1977 - AMIET P., L'Art antique du Proche - Orient, Mazenod, Paris.

1983 - Au pays de Baal et d'Astarté, 10000 ans d'art en Syrie Musée du Petit Palais, Paris.

1970 - BITTEL K., Hattusha, The Capital of the Hittites, University Press, New York & Oxford.

1960 - BRAIDWOOD R. - J & HOWE B., Prehistoric Investigations In Iraqi Kurdistan, The University of Chicago Press, Chicago.

1987 - Cassin Eléna, Le Semblable et le différent, Symbolisme du Pouvoir dans le Proche - Orient ancien, Découverte, Paris.

1989 - Contribution Française à l'archéologie Syrienne, 1969 - 1989, IFAPO, DAMAS.

1965 - FRANKFORT H. Cylinder Seals, The Grgg Press, London.

1970 - == The Art and Architecture of the Ancient Orient, Pinguin Books, London.

1969 - GARELLI P., Le Proche- Orient asiatique, Nouvelle Clio, Paris.

1963 - GHIRSHMAN R., Perse, Proto - iraniens, Mèdes et Aché-Ménides, Univers des Formes, Gallimard, Pari.

1965 - KENYON K., Archaeology in the Holy Land, Ernest Benn, 2e ed., London.

1956 - KRAMER S., From the Tablets of Sumer, Indian Hills, London.

1969 - MELLAART J., Earliest Civilization of the Near East, London.

1967 - == Catal Huyuk, a Neolithic Town in Anatolia, London.

1968 - OLMSTEAD A.T., History of Assyria, University of Chicago Press, Chicago & London.

1964 - OPPENHEIM L., Ancient Mesopotamia. Portrait of a Dead Civilization, The University of Chicago Press.

1967 - == Letters From Mesopotamia, University of Chicago Press, Chicago - London.

1960 - PARROT A., Sumer, (Univers des Formes), Gallimard, Paris.

1961 - == Assur, (L'Univers des Formes), Gallimard, Paris.

1974 - == Mari, Capital fabuleuse, Payot, Paris.

1968 - PERKINS A.L., The Comparative Archaeology of early Mesopotamia, The University of Chicago Press, Chicago.

1969 - PRITCHARD J.B., Ancient Near eastern Texts relating to the Old Testament, University Press, Princeton.

1964 - SCHMOKEL H., Sumer et la civilisation sumerinne, Payot, Paris.

# II مصر


1967 ـ إمري والتر ب.، مصر في العصر العتيق (ترجمة راشد نوير ومحمد كمال الدين)، دار نهضة مصر، القاهرة.

1970 ـ == مصر وبلاد النوبة (ترجمة تحفة حندوسة)، الهيئة المصرية العامة، القاهرة.

1984 ـ ايبلا ـ عبلا، الصخرة البيضاء، مجموعة من علماء الآثار (ترجمة قاسم طوير)، مطبعة سورية، دمشق.

1988 ـ بدج السير والس، كتاب الموتى الفرعوني (ترجمة فيليب عطيه)، مكتبة مدبولي، القاهرة.

ـ برستد جيمس، فجر الضمير (الألف كتاب 108)، دار مصر للطباعة، القاهرة.

1967 ـ بيكي جيمس، الآثار المصرية (ترجمة لبيب حبشي وشفيق فريد)، مؤسسة سجل العرب ) القاهرة.

1972 ـ تشريع حورمحب (ترجمة وتعليق باهور لبيب وصوفى أبو طالب)، الهيئة المصرية العامة، القاهرة.

1974 ـ جبر سامي، في رحاب المعبود توت، رسول العلم والمعرفة، (ترجمة عبد العاطي جلال)، الهيئة المصرية العامة، القاهرة.

1993 ـ جيار ي. و ريترل.، الطب والتحنيط في عهد الفراعنة (تعريب أنطون زكري)، مكتبة مدبولي، القاهرة.

1966 ـ ديروش نوبلكور كريستيان، الفن المصري القديم (ترجمة محمود النحاس وأحمد رضا)، مؤسسة سجل العرب، القاهرة.

1970 ـ شكري محمد أنور، العمارة في مصر القديمة، الهيئة المصرية العامة، القاهرة.

1965 ـ == الفن المصري القديم، منذ أقدم عصوره حتى نهاية الدولة القديمة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة.

1967 ـ صالح عبد العزيز، الشرق الأدنى القديم، مصر والعراق، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة.

1960 ـ فخري أحمد، مصر الفرعونية، دار ممفيس للطباعة، القاهرة.

ـ ولسون جون، الحضارة المصرية (ترجمة أحمد فخري)، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

1965 ـ مونتيه بيير، الحياة اليومية في مصر في عهد الرعامسة (ترجمة عزيز مرقص)، المؤسسة المصرية العامة...، القاهرة.

1966 ، هيرودوت يتحدث عن مصر (ترجمة محمد خفاجه، شرح أحمد بدوي)، دار القلم.

1972 - ALDRED C, Akhenaten Pharaoh of Egypt, ABACUS, London.

1979 - BARGUET P. et collab., «Empire des conquérants, Univers des formes, Gallimard, Paris.

1960 - BAUMGARTEL E.J., The Culture of Prehistotic Egypt, Oxford University Press, London, New York, Toronto.

1980 - DAUMAS F et coll., L'Egypte du crépuscule, Univers des Formes, Gallimard, Paris.

1962 - DEROCHE - NOBLECOURT C., L'Art égyptien, PUF, Paris.

1969 - DRIOTON E., L'Egypte pharaonique, 22 éd. Paris.

1962 - DRIOTON E., VANDIER J., L'Egypte, PUE, Paris.

1961 - GARDINER S.A., Egypt of the Pharaohs. Oxford.

1981 - LALOUETTE C1., La littérature égyptienne, coll. Que-sais - je, Paris.

1984 - == Textes sacrés et textes profanes de l'ancienne Egypte, t.I, Des pharaons et des hommes, t. II Mythe, contes et poésies, Gallimard, Paris.

1981 - == L'Art égyptien, coll. Que - sais - je, PUF, Paris.

1969 - LECLANT J. Dans les pas des pharaons, Hachette, 22 éd, Paris.

1978 - LECLANT J. et collab., L'Empire des pyramides, Gallimard, coll. Univers des formes, Paris.

1970 - MONTET, L'Egypte éternelle, Fayard, Paris.

1962 - 3 - PIRENNE J., Histoire de la civilisation de l'Egypte Ancienne, t. 1, 2, 3, Neufchatel - Paris.

1970 - POSENER G., Dictionnaire de la civilisation égyptienne, Hazen, Paris

1952 - 78 Vandier J., Manuel d'archéologie égyptienne, t. I, Les époques de formation. II, Les grandes époques.

L'architectures. III, La statuaire. IV & V, Bas - reliefs et Peintures. Scènes de la vie quotidienne. VI, Bas-reliefs et Peintures. Scènes de la vie agricole, Picard, Paris.

1968 - YOYOTTE J., Les Trésors des pharaons, Skira, Genève.

# المحتويات

مقدمة..... 5

## الفصل الأول
## عصر ما قبل التاريخ

مدخل إلى تاريخ الشرق الأدنى..... 13
1 ـ الأطر الجغرافية..... 13
2 ـ المواد الطبيعية..... 15
3 ـ السكان ولغاتهم..... 17
عملية الاستقرار وظهور القرى الأولى..... 31
العصر الحجري الحديث..... 31
I ـ فلسطين وسوريا..... 37
II ـ أعالي الرافدين ..... 45
1 ـ جَرْمو..... 47
2 ـ حسونة..... 49
3 ـ سامراء ..... 51
4 ـ تل حَلَف..... 52
III ـ الهضبة الايرانية..... 54
IV ـ هضبة الأناضول..... 57
V ـ وادي النيل..... 62

## الفصل الثاني

## عصر ما قبل التاريخ ـ نشوء المدن


جنوبي بلاد ما بين النهرين..... 70

1 ـ اريدو والعبيد..... 71

2 ـ أوروك وجمدة نصر..... 74

3 ـ المجتمع البدائي..... 76

سوريا والبلاد الكنعانية..... 79

سوزيانا والهضبة الايرانية..... 88

مصر في عصر الحجر والنحاس..... 92

الحالة السياسية في عصر ما قبل الأسر الأخير..... 96


## الفصل الثالث

## بلاد ما بين النهرين في الألف الثالث ق.م


عصر الاسر الباكر..... 105

1 ـ أسرة أور الأولى/ الصراع بين لجش وأوما..... 114

2 ـ المجتمع السومري..... 119

الدولة الأكدية..... 126

1 ـ المجتمع الأكدي..... 132

2 ـ نهاية دولة أكد والغزو الجوتي..... 138

العصر السومري الحديث..... 141

1 ـ أسرة لجاش..... 141

2 ـ أسرة أور الثالثة..... 142

3 ـ المجتمع السومري الحديث..... 144


## الفصل الرابع

## مصر في الألف الثالث ق.م

مدخل إلى التاريخ المصري القديم


1 ـ العوامل الجغرافية..... 151

2 ـ اللغة المصرية والكتابة الهيروغليفية.....153
3 ـ المصادر ومسألة التدوين.....157
4 ـ مراحل التاريخ المصري.....161
عصر الأسرتين الأولى والثانية.....162
الدولة القديمة (من الأسرة الثالثة إلى السادسة).....165
1 ـ مظاهر الحضارة المصرية.....168
أ ـ ألوهية الملك وفكرة الخلود.....168
ب ـ المجتمع المصري.....171
ج ـ الإدارة المركزية.....172
د ـ الإدارة الاقليمية.....173
2 ـ الأسرة السادسة ونهاية الدولة القديمة.....174
عصر الانتقال الأول.....181

## الفصل الخامس

## بلاد ما بين النهرين في الألف الثاني ق.م

عصر أسرتي اسن ولرسا.....189
أسين ولرسا.....190
الدولة البابلية القديمة.....195
1 ـ تشريعات حمورابي.....198
2 ـ المجتمع البابلي القديم.....201
3 ـ الإدارة في العهد البابلي.....205
الأسرة الكاشية في بابل.....207
الدولة الحثية في الأناضول وشمال سوريا.....212

## الفصل السادس

## مصر في الألف الثاني ق.م

الدولة الوسطى.....223
عصر الانتقال الثاني.....226

الدولة الحديثة.....229
1 ـ أخناتون وثورته الدينية.....236
2 ـ أصل الديانة الأتونية.....240
3 ـ نشيد أخناتون.....241
4 ـ المراحل الأخيرة من الدولة الحديثة.....245
5 ـ الفن المصري.....255

## الفصل السابع

## الدولة الآشورية ـ الدولة البابلية الحديثة

## الدولة الفارسية

الدولة الآشورية
1 ـ الدولة الآشورية الحديثة.....270
2 ـ القوى التي دخلت الصراع مع الدولة الآشورية.....273
3 ـ الامبراطورية الآشورية في عهدها الأول.....277
4 ـ الامبراطورية الآشورية في عهدها الثاني.....280
5 ـ انهيار الامبراطورية الآشورية.....288
العصر البابلي الحديث.....290
نهاية الدولة الكلدانية في بابل.....295
الدولة الفارسية.....298
الأخيمينيون.....301
مظاهر الحضارة الفارسية.....306
المراجع.....317
المحتويات.....323

منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET

https://www.facebook.com/books4all.net

منتدى سور الأزبكية
www.books4all.net

ISBN 614-402-034-0
9 786144 020340